المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

تجار اللحم البشرى

تأليف
إفيوما شنوبا

ترجمة وتقديم
صبرى محمد حسن

1220

الإبداع
القصصى

تجار اللحم البشرى

(رواية)

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٢٢٠
- تجار اللحم البشرى (رواية)
- إفيوما شنويا
- صبرى محمد حسن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة رواية :

Merchants of Flesh

by : Ifeoma Chinwube

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

تجّار اللحم البشرى

(روايـة)

تـألـيــف : إفيــوما شنــويـا

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شنوبا ، إفيوما
تجّار اللحم البشرى (رواية)/ تأليف : إفيوما شنوبا ؛
ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن
القاهرة: المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٥٢٨ص ؛ ٢٠ سم
(١) الرواية النيجيرية
(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٥١٧٢
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 977 - 437 - 551 - 3)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

اسمها بالكامل إفيوما أكابوجو شنوبا، وهي من مواليد بلدة ننوى في شرقي نيجيريا في العام ١٩٦٠ الميلادي، أي أنها تبلغ من العمر حاليًا حوالي ثمانية وأربعين عامًا، وجاء مولدها مصادفًا لحصول نيجيريا على استقلالها عن بريطانيا. كان والدها ناظرًا شهيرًا من نظار واحدة من المدارس التي يطلق عليها اسم "كلية الصبيان" ؛ في حين كانت أمها قابلة مدربة، آثرت البقاء في المنزل لتقوم بتربية تسعة أطفال. هذا يعني أن إفيوما نشأت في أسرة مكونة من تسعة أبناء علاوة على الأب والأم. لكن الحرب الأهلية، وإن شئت فقل حرب بيافرا التي دارت في الفترة من العام ١٩٦٦ إلى العام ١٩٧٠، أدت إلى بعثرة أفراد هذه الأسرة . في سن السادسة أو السابعة ، وفي عنفوان الحرب ، توقف التعليم وسعت إفيوما إلى اللجوء إلى ليبرفيل، وجرى نقلها عن طريق البحر إلى أيرلنده. هناك تولت أسرة الدكتور سين Seen أو سو ليفان رعاية كل من إفيوما وأختها التي تصغرها.

عادت في العام ١٩٧٠ أسرة إفيوما من جديد إلى نيجيريا المتحدة، الأمر الذي مكن إفيوما من إكمال تعليمها الابتدائي، كما أتمت أيضًا

المرحلة الثانوية ، مما أدى إلى التحاقها بجامعة "بنين" فى العام ١٩٧٦ لدراسة اللغة الفرنسية. وبعد ذلك بأربع سنوات ، أى فى العام ١٩٨٠، حصلت إفيوما على منحة دراسية من الحكومة الفرنسية، للدراسة فى جامعة جرينبل Grenoble. تخرجت إفيوما فى تلك الجامعة فى العام ١٩٨١ ، وكان عنوان الأطروحة التى تقدمت بها للجامعة عن قيمة الفشل في الرواية التى كتبها أحمد كوروما بعنوان شموس الاستقلال Les Soliels des independancesso.

التحقت إفيوما بجامعة ليجوس حيث حصلت على دراسات عليا فى العلوم السياسية. وهناك قامت ببعض الأبحاث الخاصة بدور الصناعة الاستخراجية فى إطالة أمد واستمرار الفصل العنصرى .

التحقت إفيوما بعد ذلك بوزارة الخارجية النيجيرية فى العام ١٩٨٣ ، وعملت فى السفارات النيجيرية فى كل من أكرا، فى دولة غانا، وفى باريس فى فرنسا، وفى روما فى إيطاليا، وهى تشغل حاليًا منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية فى المفوضية النيجيرية العليا فى أوتاوا فى كندا .

استطاعت إفيوما شنوبا توظيف وقت فراغها فى كتابة ثلاث روايات أولاها "تجار اللحم البشرى" وهى من منشورات دار سبكترم فى أيبادان فى العام ٢٠٠٣ ، ثم نشرت لها دار نشر بوك Book جيلد فى سسكس فى بريطانيا رواية أخرى فى العام ٢٠٠٤ بعنوان «بلا خوف» Fearless ، وللمؤلفة رواية ثالثة بعنوان "فى انتظار ماريا" .

إفيوما شنوبا لديها مجموعة ضخمة من القصائد التى كتبتها باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ولديها أيضًا عدد كبير من القصص القصيرة. وقد عرفت منها شخصيا أن لديها بعض الروايات التى لاتزال في مرحلة الاكتمال. وهى ترى أن رواياتها تصور روح النصر فى نيجيريا فى مرحلة بعينها، هذا يعنى أن هذه الروايات إنما ترسم صورة لطابع العصر الذهنى والأخلاقى والثقافى فى مرحلة محددة .

تجار اللحم البشرى :

رواية تقع فى ثلاثمائة وست صفحات مقسمة إلى ستة وعشرين فصلاً . وهى عمل فنى يتناول موضوع الاتجار فى البشر وبخاصة النساء والأطفال النيجيريين. والرواية تتناول التصرفات الشاذة التى يأتيها تجار البشر، مثل عصابات التهريب المحلية والدولية التى تشارك فى هذه الجريمة، وذلك يتجلى من خلال المشاهد التى جرت أحداثها فى نيجيريا من ناحية واستكمال تلك المشاهد عندما تصل تلك الفرائس إلى صياديها فى إيطاليا. الأحداث كلها فى الرواية نيجيرية المذاق والشكل والتكوين، وحتى عندما تصل الفرائس إلى إيطاليا يظل الجو العام نيجيريا خالصًا، فالعمات (المعلمات) كن فى بداية الأمر مومسات، والقوادين أيضًا من النيجيريين الذين يعاشرون هؤلاء المعلمات، وعقاب الشاردات من الفرائس يكون عن طريق "على" ذلك الصبى النيجيرى

المصاب بمرض الإيدز ، والذى يستخدم فى معاشرة الشاردات من الفرائس .

إغواء النساء والفتيات يجرى أيضًا بطرق نيجيرية بحتة ... لكن ما الذى جعل إفيوما شنوبا تتناول هذا الموضوع الشائك؟ معروف أن الحرب الأهلية تسببت فى نشر الجوع والفقر بين النيجيريين ، الأمر الذى اضطر النساء إلى الهجرة والفرار طلبًا للنجاة وهنا راح الصيادون يقتنصون فرائسهم ، فى زمن تلك الحرب الأهلية التى تتدنى فيها الأخلاق وتغفل القيم .

هذا يوحى بأن مؤلفة الرواية استشعرت الفساد وهو ينخر فى عظام المجتمع النيجيرى فثارت ثائرتها وراحت تنفس عن مشاعرها من خلال هذه الرواية .... ويجب ألا يغيب عنا هنا أن المؤلفة فى بعض مشاهد العرى كانت تستخدم لغتها استخدامًا شاعريًا لتوصيل وتأصيل ذلك الذى تود قوله، سعيًا من وراء ذلك إلى أثارة التقزز والاشمئزاز فى نفس قارئ الرواية من أولئك الذين انغمسوا فى الرذيلة، وهؤلاء النساء والبنات اللاتى غُلبن على أمرهن وأُجبرن على السير فى ذلك الطريق المظلم الطويل .

الصورة التى ترسمها الرواية حية ومفصلة ، " وتتناول التصرفات الشاذة التى يأتيها تجار البشر، كما ترسم صورة لتعرض ضحايا هذه التجارة للهجوم عليهن" . والرواية تدور حول طالبة جامعية بسيطة

اضطرت إلى ترك الجامعة بعد وفاة والدها الذى كان يتولى الإنفاق عليها .

ويجرى جذب هذه الفتاة واسمها إيمان موسى إلى أحياء ومناطق الدعارة والأضواء الحمراء فى إيطاليا . لكن إيمان لم تكن بنتا عادية من بنات "بنين" إذ أوصلت هذه الفكرة ورسختها فى ذهن عمتها (معلمتها) ليزى التى انتهت حياتها وأخريات من أمثالها نهاية دراماتكية إعمالاً لمبدأ العدالة السماوية .

بعض النقاد يقولون: إن الرواية هى صندوق من صناديق بندورا انفتح فى نيجيريا . والنقاد عندما يقولون ذلك : يشيرون إلى تلك المرأة التى ورد ذكرها فى الميثولوجيا الإغريقية، والتى أرسلها زيوس، كبير آلهة اليونان عقابا للجنس البشرى، بعد سرقة بروميثوس للنار وأعطاها زيوس علبة ما إن فتحتها بدافع الفضول، حتى انطلقت منها جميع الشرور والرزايا فعمت البشر ولم يبق فيها غير الأمل.

" ومع ذلك تظل الرواية حدوتة من حواديت الفساد، كما أن الشحنة العاطفية والانفعالية وكذلك التبصر الذى تقوم عليه هذه الرواية جدير بالتقدير " .

إهداء المؤلف

أهدى هذه الرواية إلى :

ذكرى والدى الحبيب ،

الدكتور جورج شكونكى أكابوجو ، أون ؛

وإلى الأخ ، شيك جورج ،

وإلى الأخت ، ماريا أسوميتا

حيث إن العيش فى قلوب الأحياء يعنى الخلود

تصدير

أوضحت الأبحاث التى قام بها الباحثون والسلطات المعنية حول مسألة الاتجار فى البشر عن طريق التهريب أن ظاهرة الاتجار فى البشر عن طريق العصابات الإجرامية المنظمة، تتزايد يوماً بعد يوم.

هذا الاتجار فى البشر، وبخاصة النساء والأطفال ليس أمراً جديداً. والجديد بحق هو الطابع الدولى لهذه الجريمة وسوء السمعة الذى بدأ يلتصق بها. هذه الظاهرة هى فى واقع الأمر، واحدة من بقايا تجارة الرقيق فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. والذى تنفطر له القلوب هو أن الاتجار فى البشر ينال من شرفنا ومن كرامتنا، ويُحقِّر من أنوثتنا ويلوث صورتنا فى أذهان الناس على المستوى الدولى. هذا الاتجار يتعارض أيضاً مع الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى العام ١٩٤٨، كما يتعارض أيضاً مع الميثاق الأفريقى لحقوق الإنسان الصادر فى العام ١٩٨١ الميلادى، كما يتعارض أيضاً مع الفصل الرابع، الفقرات ٣٠-٣٩ من دستور جمهورية نيجيريا الاتحادية الصادر فى العام ١٩٩٩ الميلادى.

وهذا يفسر اهتمام مؤسستى - مؤسسة استئصال عمالة الأطفال والاتجار فى النساء - نتيجة دوافع واهتمامات حقيقية، بالأضرار التى

تقع على أطفالنا ونسائنا، ومواجهه هذه التحديات التى يتسم بها عصرنا وزماننا. ومع ذلك هناك اعتقاد مفاده أن هذه المعركة تتطلب جهداً جماعيًا من كل المهتمين بهذا الأمر حتى يمكن لنا وضع حد لهذا الموقف. ويجب أن تنصب الجهود المبذولة على المجالات، التشريع، والتوصيات، والاستشارات، والوعى، والدعاية، والمحاورات، وهذا مجرد غيض من فيض.

وهذا هو السبب وراء إشراك هذه المؤسسة فى هذه الرواية : تجار اللحم البشرى لمؤلفتها إفيوما شنوبا. هذه الرواية التى تقع فى ثلاثمائة وست صفحات ترسم صورة حية، ومفصلة، ومرسومة رسمًا بديعًا للتصرفات الشاذة التى يأتيها تجار البشر، كما ترسم صورة أيضًا لتعرض ضحايا تلك التجارة للهجوم عليهن. والرواية تعد متنفسًا آمنًا ضد الاتجار فى البشر. وأنا لا يسعنى إلا أن أثنى على المؤلفة وامتدحها للجهد الذى بذلته فى هذه الرواية وطابعها التحليلى العميق.

هذه الرواية التى تضم ستة وعشرين فصلاً تعد إضافة من الإضافات المشجعة إلى قائمة المطبوعات الطويلة الصادرة عن مختلف السلطات المعنية بالاتجار فى البشر. وأنا أوصى الطلاب والباحثين فى التاريخ، كما أوصى أيضًا الباحثين الاجتماعيين والباحثين النفسيين بقراءة هذه الرواية. والكتاب أيضًا من بين الكتب التى يتحتم على الضالعين فى تجارة البشر أن يقرءوه، كما أوصى أطفالنا ونساءنا وهم الجماعات الأكثر تعرضًا، بقراءة هذه الرواية، كما أزكى هذه الرواية

أيضًا عند العائلات التى تقدر شرف الأنوثة وكرامتها ؛ ولا يسعنى أيضًا إلا أن أزكى الكتاب لدى المؤسسات التى تلى المرحلة الابتدائية فى كل من نيجيريا وما حولها.

أخيرًا أجدنى أحيى وأمتدح مرونة المؤلفة عندما أجدها تلقى المزيد من الضوء على هذه التجارة الدنيئة والخسيسة. هذه الرواية تعد نفخة جديدة فى نفير قوى تدعو الجميع إلى وضع أيديهم فى أيادى بعضهم البعض لبناء مجتمع إنسانى حر : مجتمع لا يشعر فيه أى إنسان بالقمع أو الضغوط، مجتمع تسود فيه حسب الفقرة الأخيرة من نشيدنا الوطنى "... السلام والعدل ".

التوقيع

صاحبة السيادة

الرئيس (السيدة) أمينة تيتي عتيقو أبو بكر

حرم نائب رئيس جمهورية نيجيريا الاتحادية ،

مؤسِّسة : مؤسسة استئصال عمالة الأطفال

والاتجار في النساء.

ديسمبر ٢٠٠٢

مقدمة المؤلفة

جرى العثور على الجثة الخالية من الحياة بعد أيام قلائل، بواسطة ذلك السّامري(*) الأسطوري الطيب. وقد ساعدت برودة الشتاء على المحافظة على الجثة، كما لو كانت موضوعة في مشرحة طبيعية ؛ هذا هو الجزء العلوي من الجثة. أما الجزء السفلي، أو بالأحرى النصف السفلي من ذلك الجسم الذي ليس له رأس أو أطراف - فقد كانت منطقة البطن مهشمة. كانت الساقان سليمتين ؛ على الرغم من أنهما كانتا تشكلان زاوية حرجة. وكانتا داخل لباس تحتي كثير الطيات على شكل شبكة. كان القدمان يلبسان حذاء عالي الكعب له رقبة طويلة، ترجع موضته إلى سبعينيات القرن العشرين، ويقال له : موديل جيمس بوند، والذي كان يسميه الناس " الدقدقة على الخشب ". كان ذلك الموديل قد عاد إلى الذيوع مرة أخرى في عالم الأزياء. ومع ذلك لم تكن موضة هذا الحذاء قد انتهت عند بنات الليل.

كان وجه القتيلة ملطخًا بمكياج ثقيل. كانت آثار قلم العيون وظل العيون واضحة حول العينين السوداوين. وهذا حلق طويل يتدلى نازلاً من

(*) السامري : هو من يتطوع لمساعدة وإغاثة الناس حسبما ورد في الإنجيل. (المترجم)

الأذن. أما الشفتان الأفريقيتان الغليظتان فكانتا محددتين بظل من اللون الأحمر الغامق. كان الشعر قصيراً شبيهًا بشعر الولد. لكن عند قناة العنق كانت هناك طاقية شعر مستعار (باروكة) منزوعة عن الرأس وملقاة فى الأوساخ.

كان العرى شبه الكامل يشكل ملمحًا بارزًا من ملامح هذه الجثة، على الرغم من برودة الشتاء. كان هناك أيضًا معطف ملطخ بالدم ملفوفٌ حول الجسم بواسطة حزام. ومن تحت المعطف كان يظهر الصدر عاريًا. لم يكن ذلك أمراً محيراً لضابط الشرطة الذى وصل إلى مكان الحادث. تشكك ضابط الشرطة، قبل كل شىء، فى أن تكون جين **Jane** دو **Doe** واحدة من عاملات الطريق، كما يحلو للمومسات أن يسمين أنفسهن.

أسفر تفتيش المنطقة المحيطة بالجثة عن العثور على كيس بلاستيك من أكياس الأسواق المركزية. كانت هناك بعض الأشياء الشخصية : مُعَرِّق، وبنطال، من النوع الذى يسمى حاضنًا للجسم. وبعض أشياء التجميل، والسجائر وبعض الأوراق.

بدا الحادث، فى بداية الأمر، وكأنه واحد من الحوادث التى يسمونها اضرب واهرب. مع التسليم بأن الحادث لا يعد قتلاً. وإنما هو حادث مدبر ومبيت.

عندما عاد الضابط إلى مركز الشرطة دون ما يلى فى دفتر الأحوال : جثة جرى العثور عليها عند ناصية التقاء شارع كورسو

رجينا مارجريتا Corso Regina Margherita، وفيا دلكورسو Via Del Corso، والجثة لأنثى سوداء فى أواخر العام التاسع عشر من عمرها وبداية العشرينات. وكانت البيانات الشخصية على النحو التالى : شهادة جنسية نيجيرية صادرة من القنصلية النيجيرية : اسمها المحتمل : لوفيت جون Lovett Jon، وتاريخ ميلادها هو : ٢٧ / ٨ / ١٩٨١، ومحل الميلاد مدينة بنين، فى نيجيريا. سبب الوفاة المحتمل : إصابات فى الجسم بسبب حادث من حوادث اضرب واهرب. وجرى إيداع الجسم مشرحة مستشفى سان جابوفانى San Giovanni .

وأبلغ الضابط رئيسه طالباً منه : " اتصلوا ببعثة بلدها الدبلوماسية ليبلغوا أقرب أقاربها فى بلدها ويسألوه عن دفن الجثة أو ترحيلها إلى بلدها. وأنه إذا لم يرد أقرب الأقارب على الشرطة خلال يومين فسيجرى التخلص من الجثة بالطرق المعتادة".

الفصل الأول

عندما يدق جرس تليفون (المعلمة) Mmadam تايو Tayo فإنه يعزف لحنًا من ألحان عيد الميلاد. نظرت (المعلمة) تايو إلى شاشة التليفون وتناولته في يدها من فوق الطاولة (الكومودينو) الموضوعة إلى جوار سريرها، وتسائل نفسها عن الطالب. فقد خرجت بنات (المعلمة) كلهن للعمل. كانت (المعلمة) مسترخية مع صديقيها ولم تكن تود من أحد أن يقتحم عليها ذلك الاسترخاء.

ردت (المعلمة) باللغة الإيطالية : " من المتكلم " وكانت تتظاهر بالنعاس. كان ذلك الرد الإيطالى Pronto معادلاً للرد الإنجليزى " مرحباً " Hello.

رد صوت هامس يقول : " سيكون هناك اجتماع للمعلمات عند الساعة الثانية مساء الغد فى هيلين Helen".

تساءلت تايو فى شيء من الشك، بعد أن تعرفت صوت ليزى Lizzy : "حول ماذا سيكون ذلك الاجتماع ؟ "

" إضراب للمومسات. غداً. عند الساعة الرابعة مساء، فى هيلين ".

وينقطع الاتصال. وتعيد (المعلمة) تايو التليفون إلى الطاولة من جديد. كان الشابان الصغيران نائمين إلى جوارها في السرير. وتهمس تايو قائلة : آه من هذين السكيرين الكسولين. لا نفع منهما. إنني أعطيهما الكثير من النقود. وآه من الطعام الذي يبتلعانه. وكل ما يفعلانه هو النوم ليس إلا. وهزت تايو الشابين لتوقظهما وراحت تلومهما على كسلهما. صحا الشابان والنوم يغالبهما، ورفعا رأسيهما كما لو كانا سحليتين، وراحا يتمطعان ويتثاءبان، كأسدين يفتحان فاهيهما، وراحا يمارسان الشغل مع تايو.

قالت تايو فيما بينها وبين نفسها : " إضراب للمومسات "، ويدها تمتد لتناول زجاجة الجن Gguinness المُسْكر، الموضوعة بجوار السرير". لن تنتهي الأعاجيب مطلقًا".

* * *

احتارت موظفة القنصلية التي تلقت الفاكس. كانت تلك سابع حالة وفاة غامضة ومفاجئة بين المومسات في الأيام الأخيرة، من هذه المنطقة دون سائر أنحاء نيجيريا كلها. ترى ما السبب في ذلك ؟ ما الذي يحدث ؟ كل ذلك والشرطة لم تتحر الأمر قط ؛ ولم تصل قط إلى المذنب أو فاعل الجريمة، ناهيك عن تأمين الضحايا هن أو أسرهن. ودخلت موظفة القنصلية إلى رئيسها وفي يدها الفاكس.

كان الريّس يتوقع مجيئها.

" أرى أنك مندهشة أيضاً".

" سيدى، هذه هى سابع حالة وفاة هذا الأسبوع. يبدو أن هناك أمراً ما فى مكان ما".

" أنا أتفق معك. قد تكون هناك حالة أو اثنتان، أما سبع فلا. هذا أمر لا يطاق".

" إذن، ما رأيك ؟ هذا قاتل عتيد يغتال المومسات ؟ "

" الحوادث كثيرة على نحو يصعب معه تحديد ذلك القاتل. لقد انصرف تفكيرى إلى المافيا أو عصابة من عصابات الجريمة المنظمة. الشئ المحير أن الشرطة لا تتابع مطلقاً الحوادث التى من هذا القبيل. لا تحاول الشرطة، الإمساك بالمذنبين. يبدو أن الضحايا ليست لهن قيمة".

" أنت تعلم أنهن أموات، ومومسات، وسوداوات. إنها مصيبة ثلاثية".

" إذن، كيف نتصرف ؟ "

" ثلاثة أمور يا سيدى. أولاً، الاتصال بالجالية النيجيرية فى إقليمها، لنتبين ما يمكن عمله للوصول إلى أقرب الأقارب فى إيطاليا. سجلاتنا توضح أن عنوان هذه القتيلة هو مدينة بنين، وبالذات طريق لاوسن Lawson. ولا يوجد لها رقم تليفون أو فاكس، أو بريد أليكترونى. أو أى شئ آخر".

" أنا مندهش من أنهن لا يعين ذلك. وعادة ما تلفت الجالية أنظارنا لمثل هذه الوفيات".

" أنا أرى أن ظروف وفاة هذه المرأة تفسر ذلك. الواضح أنها ماتت فى مكان بعيد عن محل إقامتها. وربما يكون رفاقها يبحثن عنها حالياً. وإذا لم تكن تلك المرأة قد هربت مع رجل أبيض، فسوف أستدعى أوساتو Osato، رئيس الشرطة. وسوف أرسل بعد ذلك فاكساً لوزارة الخارجية، ثم أرسل بعد ذلك مذكرة إلى الشئون الخارجية حول مسألة زيادة معدل قتل المواطنات النيجيريات على الطرق الإيطالية".

" أوافق على ذلك وأرجو أن تطلبى صورة من التحريات الشرطية حول هذا الموضوع، هذا لو سلمنا أن هناك تحقيقات وتحريات حول هذا الموضوع. ومع هذا، أنا أشك فى ذلك"

عندما همت موظفة القنصلية بالانصراف استوقفها السيد يوفوت Ufot.

"أنت تقولين إن هناك احتمالين : قاتل محترف أو جريمة منظمة من قبيل جرائم المافيا. وأنا أرى أن ذلك من عمل عصابة من عصابات الجريمة المنظمة وليس المافيا. خذى هذا الملف. تصفحيه وسوف نناقشه يوم الاثنين".

" هل زيارتنا لقنصليتنا فى توسكانى Tuscany فى الأسبوع القادم لا تزال قائمة ؟ "

" أنا لا أرى مانعًا من القيام بتلك الزيارة، اللهم إلا إذا جدت أمور تمنعنا من ذلك. لا تنس الندوة التي ستعقدها غداً هيئة الجريمة الإقليمية التابعة للأمم المتحدة".

" أعتقد أن هذه الندوة ستكون عن الاتجار في البشر. لن أنسى ذلك".

UNCRI هو الاسم المختصر لهيئة الجريمة الإقليمية ومعهد أبحاث العدالة التابعين للأمم المتحدة.

" سوف تجرى مناقشة تفصيلية لمسألة الاتجار في البشر : كما ستجرى أيضًا مناقشة الشئون الداخلية، والشئون الخارجية، والمسائل الشُرطية، ومؤسسة استئصال عمالة الأطفال والاتجار في النساء.. "

استطردت موظفة القنصلية في كلامها قائلة : " ستجرى أيضًا مناقشة مؤسسة البابا جيوفاني Giovanni الثالث والعشرين، كما ستناقش أيضًا قضية مارثا Martha ومارى Maary"... وبعد برهة أردفت موظفة القنصلية قائلة :

" ربما استطعت التقاط معلومة مفيدة عن هؤلاء القتيلات أو هذه الوفيات".

" يا فتاتي العزيزة لا تنسى أنك دبلوماسية، ولست ملاكًا من ملائكة شارلي Charlie".

"مع احترامى الشديد لسيادتك، لقد قالوا لنا فى أكاديميات التعليم : إن الدبلوماسىّ موظف... "

وأردف القنصل، قائلاً : "... موظف، يوفد إلى الخارج للكذب نيابة عن بلده".

" هذا صحيح يا سيدى، والدبلوماسى يحمى مصالح بلده. وأنا أرى يا سيدى، أن مصالح بلدى بحاجة حاليًا إلى الحماية".

" رحلوا هؤلاء البنات. رحولهن بمعدل أسرع من مجيئهن، ومن هنا ستسدون لبلدكم أجل الخدمات". كان يوفوت Ufot يكرر دومًا جزءًا من جملة على سبيل التوكيد. وراح الرجل يدير قلمه الأبيض حول شفتيه.

قالت الدبلوماسية : " الترحيل وحده، يا سيدى، قد لا ينهى هذه المشكلة. من منطلق أن آثار الترحيل غير محسوسة. كيف يحس الناس بآثار الترحيل وهؤلاء البنات يأتين من كل حدب وصوب، يأتين من كل ركن من الأركان، يأتين قادمات من مختلف الموانئ البحرية ؟ أنت ترحلين أربعين كل أسبوع فى حين تصل عشر كل يوم. آثار الترحيل غير محسوسة."

قال يوفوت مقتبسًا : " الأقوياء هم الذين يسقطون فى ميدان القتال. فكرنا كلنا مشغول بأن دور بلادنا أصبح مقتصرًا على توريد المومسات إلى أوروبا. أهذا هو فهم أهلنا وشعبنا لمفهوم تنويع سوق الصادرات ؟ تصدير البشر ؟ هذا الذى يدور عبارة عن عبودية. وأنا أحس بالاشمئزاز والامتعاض إذا ما قلت غير ذلك".

" هذا فعلاً يثير الامتعاض، ومشين أيضًا. نعم شئ مخزٍ ومشين. وهذا هو السبب وراء عدم احترام السوداوات فى إيطاليا. إنهم ينظرون إلينا جميعًا على أننا عاهرات، حتى عندما نكُنَّ ذاهبات إلى أعمالنا الشريفة. إنهم يعزلوننا فى كل مكان، وفى كل ركن من الأركان. هم يعزلوننا فى مواقف الحافلات، وفى محطات القطارات. وأنا أقول لك هنا، إن هذا شئ غير طيب".

" حكت لى زوجتى منذ أيام قلائل كيف أنها دخلت أحد المحلات، وراح واحد من الرجال يتعقبها ويطلب منها ممارسة الجنس معه، عن طريق الإشارات والرموز، وعن طريق الإشارة إلى عضوه، وعن طريق إشارات الاستدعاء، ثم راح بعد ذلك يريها الليرات التى كانت فى حافظة نقوده. هذا شئ محرج، فى أضعف الأحوال".

" ما الذى يمكن عمله على طريقة كارل ماركس ؟ "

" صحيح، ما الذى يمكن عمله ؟ هذا شىء يقلقنى. أنا أرى تشكيل لجنة صغيرة من ثلاثة أو أربعة أعضاء. على أن تجتمع تلك اللجنة مرة، فى تاريخ محدد. نوع من تدبر الحال. وقدح زناد العقول. الحصول على أفكار جديدة. المبادأة بعمل ما أو شىء من هذا القبيل. والله يعلم أنى حائر فيما يمكن عمله".

" هذا يسبب لى صداعًا كبيراً. وإذا لم يكن هناك غير ذلك الذى نفعله، يا سيدى، فأرجو أن تأذن بتنفيذ ذلك الذى وصيت به".

" أعتقد أن هذا هو كل ما يمكن عمله حالياً، طاب مساؤك وأتمنى لك عطلة نهاية أسبوع سعيدة".

" وأنا، أتمنى لك ذلك أيضاً، يا سيدى".

عندما همت الآنسة أوسوند Osunde بالانصراف، خطر ببال يوفوت Ufot أن بعضاً من مرؤسيه من الإناث، هن من أنشط النساء، ويمكن الاعتماد عليهن على الرغم من التزاماتهن العائلية. ودار بخلد الرجل أنه لو كان نصف هيئة العاملين بنفس الهمة والنشاط الذى عليه الآنسة أوسوند، لحققت البعثة نجاحاً كبيراً. لكن جهد الإنسان له حدود أيضاً. وهو كالعادة مضطر لأن يعمل خلال عطلة هذا الأسبوع.

هذا يعنى أن مسألة التمتع بعطلة نهاية الأسبوع أصبحت مسألة صعبة فى ظل كل هذه التقارير والأعمال التى تصرخ طلباً لإنهائها. وقد جرى على امتداد الأسابيع الفائتة عقد اجتماعات متعددة. قام وزيران من مجلس الوزراء بزيارة البعثة وكانت محاضر الاجتماعات التى عقدها هذان الوزيران، كانت لا تزال بحاجة إلى الكثير من العمل. هذا يعنى أن الناس لن يخلدوا إلى النوم أثناء الليل، وقد يمتد ذلك إلى منتصف الليل. فى بعض الأحيان قد يكون العمل الفردى هو المفضل. ويصبح الزوج أو الزوجة مشكلة مع مثل هذا الحال.

يوفوت Ufot لم يكن عزباً. بل إنه كان على حد قول زملائه عزباً متزوجاً. كانت زوجته ميرسى Mercy (رحمة) البالغة من العمر خمسة

عشر عاماً دائمة الحركة والتنقلات. فقد كانت مشغولة بالإشراف على بناء المنزل الذى كان يوفوت يبنيه فى محل إقامته فى بلده. لم يكن يوفوت يثق بأقاربه في وطنه، حتى يوكل إليهم القيام بهذا العمل. مسألة الحصول على قطعة الأرض التى يبنى عليها المنزل حاليًا، استغرقت سنوات عدة، ونُسِجَتْ من حولها قصص كثيرة، الأمر الذى أودى بل أتى تمامًا على كل ما جمعه الرجل من القسم الأول من رحلته الوظيفية. هذا يعنى أن كل ما جمعه الرجل من المرحلة الأولى من حياته الوظيفية قد دخل في أفواه أناس آخرين. وهذا الحال لا يزال قائمًا. إنهم جميعًا نصابون.

لكن، ما الذى يمكن عمله ؟ هل يمكن أن يجر الإنسان أقاربه إلى ساحات المحاكم ؟ لو حدث ذلك، فإنه سيكون بمثابة دق أجراس وفاة سلالتنا النسبية، وهذا هو ما حذره منه أخوه. المنازعات على الأراضى تنطوى على كثير من سفك الدماء. لكن يوفوت كان أكثر تعقلاً فى هذه المرة. فقد كلف الرجل زوجته هذه المرة بمسألة مشروع البناء هذا. والذى لا شك فيه، أن تكليف زوجته بهذا العمل أربك حياته العائلية، هذا يعنى أن زوجته كانت نصف وقتها لعملها والنصف الثانى فى الوطن الإتمام المبنى. ومن حسن الحظ أنه كانت هناك خادمة مقيمة ترعى كلا من جينيور Junior وإلسى Elsie.

كان من عادة جريج Greg يوفوت Ufot أن يقول مازحًا : إنه محظوظ بمثل هذه الزوجة الجيدة. كانت مرسى Mercy طبيبة مؤهلة

وقعت فى حب هذا الرجل. كان جريج يوفوت دبلوماسيًا شابًا متهورًا عندما يكون فى إجازة فى بلده. كان أصدقاء وصديقات مرسىMercy قد حذروها من المصاعب التى تكتنف حياة من تتزوج من دبلوماسى : تلك الحياة غير المستقرة. وهذا هو ما حدث بالفعل ؛ فقد أمضى الرجل ثلاث سنوات فى كنتونو Contonou، وثلاث سنوات فى المقر الرئيسى لوزارة الخارجية، ثم بعد ذلك ثلاث سنوات ونصف السنة فى مدينة لاهاى، ثم بعد ذلك فى مدينة ميلانو. كل ذلك بخلاف العامين اللذين أمضاهما فى الملحقية فى لندن. وهذه كلها تنقلات. لكل العاملين فى هذا المجال.

لم يكن ذلك فى صالح زوجات الدبلوماسيين لأنهن لم يكن مسموحًا لهن بالاشتغال بالوظائف الرسمية. قالت الحكومة : إن ذلك يتعارض مع المصلحة واستندت فى ذلك إلى اتفاقيات فينا الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية والقنصلية. هذه الاتفاقيات تتناول الممارسات الدبلوماسية من ألفها إلى يائها. وتأسيسًا على ذلك، فإن زوجات الدبلوماسيين، المتخصصات فى مجالات بعينها، لا يستفاد بهن، الأمر الذى يحظر عليهن مستقبلهن العملى، طالما كان أزواجهن يعملون فى السلك الدبلوماسى. من هنا تجيئ تضحية ميرسى Mercy تضحية كبيرة من أجل الحب أو العائلة إن شئت. جريج Greg يوفوت يعرف أن هذه المسألة كانت سببًا فى القضاء على كثير من زيجات زملائه. بعض هذه الزيجات انتهت إلى غير رجعة. بعض آخر من الزملاء، كان متزوجًا للمرة الثانية، أو الثالثة أو الرابعة. بعض ثالث من الزملاء أحجم عن الزواج بعد المرة الثالثة وآثر البقاء بلا أى ارتباط.

كانت هناك ترتيبات كثيرة، يلجأ إليها الدبلوماسيون للمحافظة على عمل الزوجات أثناء اضطلاعهم بالعمل الدبلوماسى. هذا يعنى أن الدبلوماسى إذا ما عينّ فى بلد قريب من بلده، فذلك يكون من حسن حظه وفى صالحه هذا يعنى أن امرأتك، وعادة ما تكون الزوجة (إذ لم يكن هناك عدد كبير من الإناث فى وزارة الخارجية) يمكن أن تنتقل بصورة منتظمة من الوطن إلى مكان العمل، وبخاصة فى المهام الرسمية الكبيرة. بعض زملاء جريج Greg يوفوت كانوا يسعون من أجل أن يجىء تعيينهم فى تلك البلاد القريبة مثل : كونتونو، ولوم Lome، وأكرا Accra، وأبدجان، وياوندى، وبويا Buea، بل إن داكار لم تكن تعد أيضًا من البلاد البعيدة. فى مثل هذه البعثات الدبلوماسية يستطيع المرء أن يضرب عصفورين بحجر واحد. أولاً، أن الدبلوماسى يحصل على بدل اغتراب، كما تستطيع زوجته أن تحافظ على عملها إن كان فى القطاع الخاص، كما تستطيع أيضًا الاستمرار فى حياتها العملية. والمعروف أن كثيراً من زوجات الدبلوماسيين يعملن فى البنوك، وفى التأمين وفى مجال البترول أيضًا.

فيما يختص بالزوجات اللاتى يعملن فى مجال الخدمة المدنية تستطيع الواحدة منهن الحصول على إجازة طويلة، من عملها، لكنها بعد الحصول على مثل هذه الإجازة، قد تبدأ ممارسة عمل تجارى بشكل أو بآخر، وعادة ما يكون ذلك العمل فى مجال شراء وبيع الهدايا، والأحذية والملابس إلى آخر ذلك. هذا العمل لم يكن مسموحًا به فى

وزارة الخارجية. ومن يمارسن هذه التجارة يفعلن ذلك فى السر والكتمان. ورئيسك فى العمل قد يعلم ذلك، ولكنه قد يتعامى عن ذلك لأن زوجته تمارسه أو لأن ذلك العمل لا ضرر منه. وطالما أنت حريصة على عدم الإفراط فى هذا العمل أو الاتجار فى الممنوعات، أو جذب الأنظار إليك....

هذه واحدة من الطرق التى تسعد الزوجات وتجعلهن يحققن ذواتهن. هذا يعنى أنهن يجمعن مالاً من ذلك العمل. وهذه، التى كانت تعتمد على راتبها فى أرض الوطن، لم تعد بحاجة إلى الاعتماد عليك فى مصروف جيبها. وهذا يسعدها أيضًا. بل إن مثل هذه التجارة تجعلها مشغولة دومًا. وهذا بدوره يجعلك أنت تركز فى عملك وتهتم به.

ويظل هذا العمل، على الرغم من ذلك، شاقًا على الزوجات. وها نحن نجد أن زوجات كثيرات ممن وافقن على اصطحاب أزواجهن فى المرحلة الأولى من عملهم يرفضن مرافقة الأزواج فى المرات التالية، لأن ذلك يضايقهن. ذلك أنهن يكن غير مشغولات من الصباح إلى الليل، ولا يفعلن شيئًا سوى مشاهدة التليفزيون، والتسوق، والطبخ، والأكل وبالتالى زيادة أوزانهن. وفى بعض الأحيان قد تصلهن دعوات لحضور احتفال من الاحتفالات الوطنية. وقد يكون ذلك الحفل بمناسبة سبوع طفل من الأطفال فى عائلة من العائلات. أو قد تكون مثل هذه الدعوة لحضور سوق خيرى من الأسواق التى تقيمها الكنيسة، أو دعوة بمناسبة يوم الشكر. أو قد ينظم نادى النساء الدولى رحلة للزوجات. هذه

كلها خيارات أمامك أنت، يا من كنت مديرة للائتمان من قبل فى بنك من بنوك التمويل، أو كبيرة للمحاسبين فى مكان من الأماكن المهمة.

العمل فى وزارة الخارجية، فى البعثات الخارجية، سلاح ذو حدين. فهو يساعد على الثراء، لكنه قد يكلف صاحبه حياته العائلية وسعادته. وفى الحالين نجد كثيراً من الرجال يرفضون هذا العمل. بعض الزوجات قد يتخلين عن أزواجهن، بعد انتهاء العمل فى الخارج، وتختفين فى الهواء تاركات أزواجهن يعودون وحدهم إلى الوطن. مما يعنى انتهاء عقد الزواج.

فى هذه الأيام، يبدو أن هناك حلاً وسطاً. إذ يقوم كثيرون من الدبلوماسيين بتوطين عوائلهم فى الخارج، وعادة ما يكون ذلك فى أمريكا، ولكن ذلك لا يجرى إلا بعد انتهاء رحلة العمل. ثم يعودون بعد ذلك إلى عائلاتهم ليقضوا معها عامين قبل السفرية التالية. وهم يفعلون ذلك من باب تسهيل تعليم أطفالهم، لكن ذلك ينطوى على انفصال الأسر عن بعضها البعض...

ها هو جريج Greg يوفوت يشكر الله أن وفقه مع زوجته ميرسى Mercy. كانت ميرسى صادقة ويُعْتَمَدُ عليها، وبفضلها استطاع جريج، وهو فى الخدمة، أن يبنى لنفسه بيتًا فى وطنه، مستخدمًا فى ذلك مدخراته من راتبه الذى يتقاضاه. يزاد على ذلك أن ميرسى نفسها شاركت أيضًا فى ذلك بالأرباح التى كانت تجنيها من تجارتها. كانت ميرسى قد اعتادت السفر إلى بابلى وفيسنزا Vicenza، لشراء بعض الأغراض والعودة بها إلى نيجيريا لبيعها هناك.

لم يكن جريج يوفوت يشتكى بأى حال من الأحوال. لقد رضى الله عنه. كان الرجل مرفوع الرأس بين أصدقائه ورفاق الدراسة. لقد أبلى الرجل بلاء حسنًا. يزاد على ذلك أن حياة الدبلوماسى هى حياة الصفوة. ألم يصف أحد الناس الدبلوماسية بأنها مكسب وغذاء ؟ أجر هذه الوظيفة جيد، فضلاً عن أن من يعمل بها تتهيأ له فرصة السفر إلى سائر أنحاء الدنيا والتعامل مع صفوة المجتمع.

ومع ذلك، ربما كان إلحاق الدبلوماسى على واحدة من البعثات الهادئة أفضل من البعثات الصاخبة، ذلك أن الدبلوماسى فى البعثات الهادئة يمضى أيامه فى هدوء نسبى. ويخطر على البال هنا أى ركن من أركان البحر الكاريبى، مثل كنجستون **Kingston** أو ميناء **Port** أسبانيا **Of Spain**. كانت أفريقيا من مناطق البعثات الدبلوماسية الهادئة، لكنها الآن فيها الكثير من القلاقل وعدم الاستقرار. انظروا إلى الكنغو على سبيل المثال. انظروا إلى رواندا أيضًا. وهذا هو ساحل العاج الذى كان ينعم من قبل بالهدوء والسلام، وقد تحول إلى أرض للانقلابات والحروب. الحروب الكثيرة، هى وتهديدات السلم، هى التى أتلفت أفريقيا وعكرت صفوها. بغير هذه الحروب والتهديدات، كان الكثيرون يتكالبون على ساحل العاج، طلبًا لفقرها وهذا من باب السخرية والتهكم. فى ساحل العاج، وفى ظل انخفاض تكاليف مستوى المعيشة، وفى ظل وجود سوق سوداء للنقد الأجنبى يستطيع الدبلوماسى، أن يعيش بمبلغ ثلاثمائة دولار، عيشة هنية فى أى شهر من الشهور، عيشة تشبه عيشة الملوك.

ومن يتقاضى راتبه بالنقد الأجنبى، فى بلد فيه سعرين للصرف، يستطيع مضاعفة مشترياته إلى ثلاثة أضعاف.

تستطيع شراء كل ما يخطر لك على بال من مجوهرات، وأزياء، ومصنوعات جلدية، وأليكترونيات... ونساء أيضاً. وتلك هى حقيقة الأمر. النساء تتوفر حيثما وعندما يتوفر الماء والنقود. وهنا مرة أخرى، نجد أن الدبلوماسى لا يشكو من ذلك. خطرت ببال الرجل، تلك العشيقة من عشيقاته التى سألته عن عدد النساء اللاتى ضاجعهن. وعلى الرغم من الإجابة أو الرد المتواضع الذى قدمه الرجل إلا أن الرجل كان يعرف أنه حتى لو حاول تذكر عدد هؤلاء النساء، فلن يستطيع معرفة عددهن. كان عدد أولئك النساء كبير ولا يحصى أو يعد.

معروف أن الرجل كان عزباً عندما تولى عمله فى الخارج للمرة الأولى. هذا يعنى أن حياة الرجل كانت عبارة عن فترة طويلة من التردد على النوادى الليلية، والحفلات، التى كان يتخللها شىء من العمل. لقد أُوفد الرجل إلى لندن ضمن برنامج إلحاقى استمر عامين، كان طوال هذين العامين غراً، مبتدئاً، أو مجرد صبى صغير، لم يكن يسند إليه أحد كثيراً من العمل، ولم يكن أحد يتوقع الحصول منه على عمل كثير. عاش الرجل طوال هذين العامين حياة حافلة وخالية من الهموم أو الارتباطات العائلية التى تشده إلى الوطن أو تبطئ من معدل سرعته. كان المجتمع اللندنى متعدد الأعراق. لقد التقى بكثير من النساء التقاءات غرامية، وفعل الشىء نفسه مع كثير من البنات، والسيدات : سوداوات، وآسيويات،

وبيضاوات، وكاريبينيات، من مختلف الأشكال والأحجام، ومن جنسيات مختلفة، وأعراق مختلفة، وملل مختلفة، ومهن متباينة، بل ربما وصل الأمر إلى حد اثنين أو ثلاثة أو أربعة فى المرة الواحدة. كان ذلك عملاً من أعمال الشعوذة والحواة.

نعم، المؤسف فى يومنا هذا، أن مسألة مضاجعة المرأة أصبحت لا تكلف الكثير أو تستغرق الكثير من الوقت. يكفى فى كثير من الأماكن حاليًا أن يلقى الرجل " السلام والتحية " على المرأة، أو يعزمها على قارورة من مشروب الجن، أو يطعمها بعضًا من قطع الدجاج. تعجب جريج كيف أنه نجى من الأمراض الجنسية المميتة التى تنتشر فى هذه الأيام. الحمد والشكر لله على رحماته.

نعم، صحيح أن الخدمة فى وزارة الخارجية شئ طيب، سواء أكانت فى إفريقيا أو فى أى مكان آخر. وكقاعدة عامة، فإن الخدمة فى وزارة الخارجية تكون أفضل حالاً عن غيرها من حيث الراتب الشهرى. ومع ذلك، تظل هناك فرص تسمح للدبلوماسى بزيادة دخله إذا ما أراد ذلك.

من ذلك على سبيل المثال، إمكانية أو احتمال تهريب بعض السلع النادرة، على الرغم من أن ذلك يكون بصورة سرية تمامًا. هذا يعنى أن يمينك يجب ألا تدرى ذلك الذى تأتيه شمالك. ويتضح فى هذا الصدد، أن كوتونو Cotonu لم يكن لها مثيل بين سائر البعثات الدبلوماسية التى عمل فيها الرجل. كان الرجل، فى عطلة نهاية الأسبوع، ينقل عن طريق القوارب جوالات كثيرة من الأرز، والمشروبات الساخنة، والتبغ، والدجاج

المجمد، والسلع الاستهلاكية الأخرى، وبعض السلع المعفاة من الضرائب، والسلع التى كانت تعفى بحكم أنها مخصصة لاستهلاك البعثة الدبلوماسية. ويبدو أن العناية الإلهية هى التى حالت بينه وبين إمساك السلطات به أو إلقاء القبض عليه. لقد قام الرجل بمخاطرات عجيبة ومغامرات خطيرة تكفى لتهديد مستقبله العملى الذى لا يزال فى مبتدئه.

صحيح أن مسئولى جمارك الحدود كانوا يسمحون بالمرور لسيارته المرسيدس التى تحمل اللوحات الدبلوماسية. لكن لا أحد يستطيع القطع بما يمكن أن يحدث فى ظل الحكومات العسكرية. إذ من الممكن أن تدخل بسيارتك وتلتقى شخصًا جاهلاً يرتدى الزى الكاكى (زى العسكر) ولا يعرف معنى اللوحات التى تقول " هيئة سياسية CD". لم يحدث أن رأى هذا الشخص ذلك الشئ من قبل. ولا يكون فى ذهن مثل هذا الإنسان ما يجعله يحسن التصرف فى مثل هذا الظرف. لكن النقود لها كلام آخر، النقود تتكلم. هذا يعنى أن الدولار القوى يمكن أن يحل مثل هذا اللغز.

تلك كانت الأيام الخوالى أثناء الخدمة فى السلك الدبلوماسى. تلك الأيام التى كان الإنسان يجلس فيها مسترخيًا فى منزله، وتصله مكالمة هاتفية تطلب منه التوجه إلى المكان الفلانى أو العلاّنى، الأمر الذى يجعلك ترجو وتتوسل من أجل إطالة مدتك فى المكان الذى أنت فيه. الزمن الذى كانت النيرة تساوى ٦٢.١ دولار ! من الذى يحتاج الدولارات ؟ أما الآن، فنجد الدبلوماسى ينتظر سنوات طوال، ويسعى هنا وهناك وفى الوسط مستهدفًا بذلك السعى كله " تهيئة الفرصة له للخدمة "، على

حد قول الناس على سبيل التهكم. إتاحة الفرصة للرجل كي يخدم ! كان الأولاد يطمحون إلى الثراء، كانوا يتطلعون إلى كسب النقد الأجنبي، الدولار القوي، لكي يمتعوا أجسادهم وأرواحهم. وبخاصة في أيامنا هذه، إذ إن هذا الدولار الصغير يساوي أكثر من مائة نيرة. إنه اقتناص للفرصة في واقع الأمر !

المدهش أن الأمور تغيرت تغيراً كبيراً خلال زمن قصير. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ما حدث، بقيت الخدمة في وزارة الخارجية بمثابة المكان الرئيسي في الخدمة العامة. وإذا ما استطاع أحد الحصول على وظيفة سفير، أو لها علاقة بالسفراء والسفارة، فلماذا لا تكون مثل هذه الوظيفة بمثابة زخرفة للكعكة. هذه المسألة أصبحت جد صعبة في الوقت الحالي، وسبب ذلك أن الحزب الحاكم كافأ أعضاءه بمناصب السفراء، متخطياً بذلك مستقبل موظفي الوزارة العملي. لكن لا يأس مع الأمل..

أطال جريج يوفوت النظر إلى الساعة المعلقة على الجدار. الساعة السابعة والنصف ! راوده حلم اليقظة من جديد. تحاور مع نفسه حول مسألة الذهاب أو عدم الذهاب مباشرة إلى المنزل. لم تكن مسألة الذهاب إلى المنزل شيقة أو مسلية، الذهاب إلى المنزل يعني مشاهدة التلفاز، والعشاء، ثم شرب كأس أو اثنتين من النبيذ، ثم تصفح بعض المجلات قبل الدخول إلى الفراش. لم يكن هذا البرنامج جذاباً أو مسلياً. كان لدى الرجل حاسب آلي في سكنه، وهذا يعني أنه سوف يتصفح أيضاً بريده الإليكتروني، وينهي تقريره أيضاً قبل أن ينام.

قرر الرجل الاتصال بزوجته تليفونيًا فى نيجيريا. الأفضل أن يتم الاتصال من السفارة وذلك من باب التوفير فى فاتورة الهاتف المنزلى.

دق جرس التليفون برهة من الوقت قبل أن يتناول الرجل سماعة الهاتف. كانت المتحدثة شقيقة زوجته. كانت ميرسى Mercy تقيم مع عائلتها عندما تعود إلى نيجيريا. لم يكن المنزل الجديد قد اكتمل بعد. قال صوت المتحدثة إن ميرسى Mercy ذهبت إلى مدينة بنين Benin. تعجب جريج من السبب الذى جعل زوجته تذهب إلى بنين.

هاتف جريج رئيسه كى يوقع بالانصراف. لم يرد الرئيس إلا بعد دق جرس التليفون للمرة الثالثة، عندما أوشك جريج Greg أن يعيد السماعة إلى مكانها ظنًا منه أن الرئيس قد انصرف.

" أنا أطلب سيادتك كى أستأذن فى الانصراف يا سيدى".

" يا قنصلى المحترم، تعال لتشرب معى، قبل الانصراف".

الفصل الثانى

لا يعرف كثير من الناس أن هناك جمهوريتين مستقلتين تمامًا تحيط بهما إيطاليا. الفاتيكان هى إحدى هاتين الجمهوريتين. والفاتيكان عبارة عن مدينة. أما الجمهورية الثانية فهى سان San مارينو Marino. كان السفير جودسون Godsonn الممثل الرئيسى لبلاده لدى جمهورية سان مارينو. لم يكن جودسون رجلاً من الرجال الذين اتخذوا من العمل الدبلوماسى مستقبلاً عمليًا لهم. كان جَودْسُون، واحدًا من أولئك الذين يجرى وصفهم، فى الأوساط الدبلوماسية، باسم المعينين السياسيين. واقع الأمر أن جودسون هذا كان مقاولاً تحول إلى سياسى ؛ كان الرجل واحدًا من أولئك الذين رسبوا فى أو خسروا معركة الحكم فى دولته. هذا الجودسون يرجع خسارته الانتخابية إلى الرشوة والتلاعب فى بلده.

" الفقير ينبغى ألا يغامر بالدخول فى الانتخابات فى هذا البلد، مهما كانت أفكاره وبياناته المصطنعة. السبب فى ذلك أن النقود وحدها هى التى تعطى الأصوات. بوسعك التحدث من طلوع النهار إلى دخول الليل، وبوسعك القيام بحملات من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، لكنك إذا لم تكن تملك النقود، تعين عليك دخول كوخ أمك وتناول

شئ من الحساء. لن يُصَوِّت لك النيجيريون دون النقود ". هذا هو ما كان يقوله جودسون مرارًا وتكرارًا ". اسمح لى أن أقول لك : إن العسكريين ليسوا هم وحدهم الذين يدبرون الانقلابات فى هذا البلد. حزبك السياسى يستطيع الإطاحة بك، قبل بداية السباق الرئيسى، أى فى البدايات. وهم يطلقون على هذا النوع من الانقلابات اسم انقلاب القصر ".

لقد عوضه الحزب عن ذلك بوظيفة أو منصب سفير، فى ظل بمقتضى تحالف سائب وغير محدد.

المؤسف. أن الرجل ليس عليمًا بشئون الدبلوماسية.

يحكى مساعده الشخصى كيف أنه صاحب سيادته إلى حضور مؤتمر نسائى دولى عن العنف الداخلى فى مدينة جنوة. كان المقر الرئيسى قد طلب من هذا السفير أن يكون ممثلاً لوزير المرأة فى ذلك المؤتمر. تحدث المندوبون فى ذلك المؤتمر عن ضرب الزوجات، وعن العنف ضد المرأة. كان واضحًا أن السفير كان مهمومًا ويشعر بالضجر. بعد أن استمع السفير بعض الشئ رفع يده طلبًا للقيام بمداخلة. أحس مساعد الرئيس بالدهشة والقلق، وراح يحاول معرفة ذلك الذى يود أن يقوله السفير، لكن رئيس المؤتمر كان قد رأى اليد المرفوعة وأعطى للمبعوث الإذن فعلاً بالكلام. كان الجميع يعرفون دور بلده القيادى على مستوى العالم. وهنا بدأ السفير جودسون التحدث إلى المؤتمر ليروى للحاضرين قصة أحد جيرانه فى وطنه، ذلك الرجل النحيف الذى تزوج

امـرأة تزن ثلاثة أضـعـاف وزنه. فى كل ليلة كـانت تلك المرأة تطـحن ذلك المسكين وتضربه على نحو يجعله يصيح طالبًا من أهل القرية إنقاذه من تلك المرأة. وينهي السفير كلامه ناصحًا النساء بالزواج من رجال صغار الحجم، باعتبار تلك وسيلة من وسائل الهرب من العنف المنزلى. ورجا السفير المؤتمر أن يرجئ مسألة ضرب الزوجات لأزواجهن إلى تاريخ لاحق. وقد أطلق الرجل على هذه العملية اسم ضرب الأزواج. وشكل ذلك حرجًا للحاضرين كلهم.

فى مناسبة أخرى، قام السفير نفسه بمداخلة فى واحد من المؤتمرات الدولية، والتمس، من خلال هذه المداخلة، من المندوبين والوفود عدم التدخين فى الأروقة والممرات لأن التدخين يؤدى إلى اضطراب أنفاسه...

كانت هيئة العاملين مع هذا السفير، وبخاصة الكبار منهم الذين بدءوا سلم مستقبلهم العملى من بدايته يسندون ويدعمون ذلك الرجل، وبذلك كانوا يسترون عيوبه ونقائصه. هؤلاء العاملون هم الذين كانوا يكتبون لذلك السفير برقياته ويعدون له تقاريره، وكانوا هم أيضًا الذين يقدمون له النصح فى مسائل البروتوكول. واقع الأمر، أنه كان هناك عدد كبير من المعينين السياسيين الذين كان لديهم الكثير الذى يمكن أن يقدموه لذلك العمل. لكن جودسون لم يكن واحداً من هؤلاء.

لم يكن السفير جودسون يعرف كلمة واحدة من اللغة المحلية. حدث، ذات مرة، أن استقبل ذلك السفير بعض رجال الأعمال فى مكتبه،

وكانت ترتسم على وجهه ابتسامة كبيرة، وهو يقول لهم Arriverderci. ظن هذا السفير أن هذه الكلمة معناها " مرحباً " Welcome نظراً لأنها تحتوى على كلمة " Arrive". واقع الأمر أن كلمة Arriverderci تعنى " إلى اللقاء ". كان الرجل يعتمد على سكرتيره الاجتماعى اعتماداً كبيراً فى حل ألغاز البريد الوارد. وإذا ما عجز عن ذلك كان يرسل فى طلب واحد من هيئة العاملين معه ليقوم بالرد المناسب على ذلك البريد. لم يكن ذلك السفير يفعل شيئًا سوى وضع توقيعه على المكاتبات.

كان ذلك السفير يعزو كل الأقوال التى لا يعرفها أو يعرف مصدرها، إلى شكسبير". يقول شكسبير : دوام الحال من المحال. يقول شكسبير : اهرش لى ظهرى أهرش لك ظهرك، إلخ ".

كان الرجل يقول للمهتمين إنه مجرد طائر عابر. وإنه جاء إلى هنا لتعويض النقود التى خسرها فى الانتخابات. ويجمع شيئًا من المال استعداداً للانتخابات القادمة. وها هو شخصياً، يمنح بعض العقود، متخطياً بذلك مجلس العقود. وها هو يتفاوض مع المقاولين بشأن عمولته وخصوماته، ولم يثق بمرؤسيه فى القيام بذلك.

" الشئ الوحيد الذى لا أفهمه هو اللغة المحلية. لكنى أتكلم لغة النقود بشكل جيد تماماً، شكراً لك، " هذا هو ما يقوله الرجل فى بعض الأحيان.

يقول الناس إن الرجل بحاجة إلى كل النقود التى يضع يده عليها، نظراً لأنه يعول ثمانية أطفال، من زوجتين، إضافة إلى شلةٌ أخرى من

عـائلة ممددة من الأنســاب الذين يقـول الرجل عنـهم " غـرباء " من باب النكتة والاستظراف.

وصل الرجل إلى هذا المنصب ومـعـه هذه العـصـبـة من الأقـارب، ويعلن أن مهمته الأولى تتمثل فى العثور على أعمال لهؤلاء الأقارب، وذلك من باب القضـاء على تطفلهم عليـه. كـان الرجل يتـحين الفـرص إذ كـان الرجل يقوم وعلى الفور باستبدال واحد من أقاربه بمن يرتكب أى خطأ من الأخطاء الصغيرة من بين هيئة العاملين فى السفارة.

كانت الزوجتان من ناحيتين مـختلفتين من البلاد ؛ إذ كانت الزوجة الأولى من غرب البلاد، أما الثانية فكانت من شرق البلاد. وكان السفير نفسه من أقلية من أقليات الشمال. كان الرجل عاجزاً عن السيطرة على زوجتيه، وبخاصـة الزوجة الثـانية التى كانت تتملكها نـوبات العنف. فى بعض الأحـيـان، كـانت تلك الزوجة تحـبس السـفـيـر فى غـرفـة من غـرف المنزل، وتهدده ببتر رجولته، إذا لم يف بوعده. ولا يستطيع أحد تحديد مـاهيـة ذلك الوعـد. فى مـثل هذه الظروف كـان الرجل المسكين يتـصـل بالسـفـارة طلبًـا للدعم والمسـاندة وهو يقـول : " الحكومـة على وشك السقوط، يا هو ! أرسلوا القوات لتخليص وإنقاذ هذه الرهينة المهمة ".

كـانت هيـئـة العـاملين مع السـفـيـر، تندفع فـى أثر ذلك إلى منزله، وتروح تتوسل إلى المدام كى تطلق سراح سيادته، لحضور اجتماع مهم، لا وجود له، مع جماعة من المسئولين الحكوميين. وهنا كان هذا الزميل المسكين، يرجو الموظفين ألا يغادروا المنزل عائدين إلى السفارة، إلا إذا

كان هو بصحبتهم، لاحتمال أن تغير الزوجة رأيها وتلقى القبض عليه مرة أخرى.

هذه السيدة نفسها يمكن أن تحضر اجتماع نادى النساء الدولى – جنباً إلى جنب مع الزوجة الأولى ؛ مع أن النادى سبق أن طلب كتابة ألا تحضر الاجتماع سوى زوجة واحدة من كل سفارة من السفارات. ويتعين على رؤساء البعثات المتزوجين من أكثر من واحدة إرسال اسم سيادة الزوجة حتى يمكن استقبالها والتعرف إليها. لم يلق ذلك أذناً صاغية نظراً لأن الزوجة رقم اثنان تقول : إن الأمور فى البيت المتعدد الزوجات، تسير حسب الدور. وإذا كانت الزوجات تنمن مع الزوج حسب الدور، فالأحرى أن تحصلن على مزايا وظيفته بالدور أيضاً. وقف تام.

لم تتدخل الزوجة الأولى بين زوجته الثانية وبينه. إنما كانت تقول للسفير : " أنت الذى جئت بالغائط كريه الرائحة، ويتعين عليك، يا صاحب السيادة، إزالته من قدمى ".

كان من عادة السفير جودسون أن يسخر من إدارته لشئون منزله عندما يقول : " أنت تعرفين، أن فعل الخير ليس أمراً طيباً. لقد تزوجت هذه المرأة النجوزية Ngozi، حتى لا تُتْرك على الرف. وأنت ترين بعينيك، الجزاء الذى ينالنى منها حالياً فها هى تحبسنى يوماً، وتطلقنى يوماً آخر. لقد قلت لها : إنها إن أرادت أن تكون هى الرجل فى هذا المنزل، فما عليها إلا أن تحمل بناطيلى كلها وتبدأ فى ارتدائها. وكل ما أريده هو أن تتركنى مرتاح البال ".

يقـول العـاملون مع الرجل: إنه صـاحب قلب طيب. وإنه يحب الزجاجة (الشراب). إذ كان من عادته دعوة العاملين معه إلى شرب كأس معه بعد انتهاء العمل. ثم يتكلمون بعد ذلك عن الأمور العامة. كان جودسون يفيض بشراً وسعادة، عندما ينسى همومه المنزلية هنيهات قصار. كان الرجل يداعب لحيته الصغيرة ويطلق نكتة أو اثنتين. وكانت أشهر نكات ذلك السفير تلك النكتة المتعلقة باثنين من سلالة التيف Tiv. كان السفير يطلق هذه النكتة في وجود الملحق المالي الذي ينحدر هو الآخر من قبيلة التيف Tiv:

كان من عادة ذلك السفير أن يقول : " سافر اثنان من قبيلة التيف إلى مدينة لندن. كان ذلك في ساعة متأخرة من ساعات المساء، وأرادا أن يستبدلا شيكاتهما السياحية بجنيهات استرلينية. اقترب الرجلان من أحد ضباط الشرطة وقالا له : ' نحن اثنان من التيف Tivs(*) من نيجيريا ونبحث عن بنك من البنوك ' ".

كان مقر السفير جودسون Godsonn في العاصمة. هذا يعني أن ذلك هو مكان السفارة. ومع ذلك، كان من عادة الرجل السفر إلى ميلانو لمتابعة الأمور، وذلك على حد قول الرجل. واقع الأمر، أن الجميع كانوا يعرفون أن الرجل كان يهرب من زوجتيه المتعبتين. هذا بالإضافة إلى أن

(*) الكاتبة هنا تتلاعب بالكلمة Tivs، هذه الكلمة في العامية المنطوقة تعني " لصوص Thieves، في حين أن المقصود هو " اثنان من قبيلة التيف ". (المترجم)

ميلانو كانت تتمتع بحيوية أكثر من سان San مارينو Morino فى أكثر من جانب. هذا يعنى أن سيادته سيزور ميلانو مرة كل ثلاثة أشهر، وبرفقته الموظف المسئول عن البروتوكول فى السفارة. لكن الرجل فى الفترة الأخيرة أصبح يزور ميلانو مرة كل شهر. لكنه فى هذه الأيام، يظهر فى ميلانو مرة كل أسبوعين، على انفراد وبدونما إعلان عن الزيارة.

هيئة العاملين بالقنصلية لم يكونوا يعرفون كيف يتصرفون. وهنا كان القنصل يأمر مرؤسيه أن يكونوا على أهبة الاستعداد، نظراً لأنهم لم يكونوا يعرفون موعد وصول الَّريس المفاجئ. كان القنصل يقول مداعباً مرؤسيه : " سوف يصل السفير إلينا فى الليل مثل اللصوص ". لقد عمل القنصل مع رؤساء عديدين، وهو يعرف أن لكل واحد منهم أسلوبه وطريقته الخاصة. ومع ذلك، حاول القنصل مثل سائر الموظفين الجيدين، مرة أو مرتين إبراز المضامين الأمنية لهذه السفريات غير المعلنة.

لقد نحَّاهم سيادته جانبًا.

" صديقى العزيز، أنا لا أعرف أن هناك تهديدات تخيفنا. وإذا ما أردت استبداء تهديد من هذه التهديدات فما عليك إلا أن تبلغنا. هل أنت أمريكة ؟ من هو الذى يهتم باختطاف سفير إفريقى ؟ إذا لم يكن لديك ما تبلغ عنه، فما عليك إلا أن تعود إلى منزلك وتأكل الجارى Garri. لا تزعج الزملاء. أم أن السيد الرئيس هو الذى يود الوصول إلىّ ؟ هو يعرف رقم تليفونى المحمول. لقد حل الرجل الأبيض مشاكلنا كلها عندما اخترع الهاتف المحمول. هذا يعنى أن أى أحد يمكنه الاتصال بى فى أى وقت يشاء، وفى أى مكان، حتى عندما أكون أضاجع واحدة من النساء ".

هذا هو مكتب جانبى جرى تجهيزه كى يستعمله سيادته عندما يكون فى ميلانو، هذا المكتب كامل التجهيز وفيه جهاز تليفزيون، وطبق أقمار اصطناعية، وكذلك جهاز حاسب آلى متصل بالإنترنت. فى المكتب أيضاً بار مجهز بالمشروبات. كان السفير متكئاً على الطاولة عندما دخل السيد يوفوت Ufot.

" اجلس. استرح. البار فيه شراب. صب لنفسك. أنت تعرف ما فى البار ".

" تناول القنصل كأساً وصب لنفسه شيئاً من الكامبرى. لم يكن القنصل سكيراً، لكنه لم يرد رفض دعوة رئيسه له إلى الشراب. إذا ما شرب القنصل شراب الكامبرى، سيصبح بوسعه المحافظة على رفقة السفير، وسيظل على حرصه ويقظته التى هو عليها. بحكم العادة، كان القنصل يقاوم دعوته إلى الشراب مع رؤسائه. قد يذهب المرء إلى ما هو أبعد من ذلك ".

كان الإرهاق يبدو على سيادته. كان يمسك بالكأس فى يده، ويرجح أنه يشرب ريمى مارتن. معروف أن الريمى مارتن هو شراب السفير المفضل. كانت عيناه مركزتين على جهاز التليفزيون، الذى كان يعرض مباراة فى التنس بين آجاسى Agassi وأرنود Arnaud كلمنت Clement. كانت تلك المباراة النهائية فى البطولة الأُسترالية المفتوحة. شاهدا المباراة برهة قصيرة. وعندما أوشك أجاسى أن ينهى المباراة تنخم السفير.

" كيف حال الأمور هنا ؟ إن تقاريرك لم تعد منتظمة مثلما كانت من قبل ".

" أنا آسف لذلك، يا سيدى. أنت تعلم، أننا مؤخراً كنا مشغولين بعدد كبير من الزائرين. ومع ذلك، سنكون بحلول يوم الاثنين، قادرين على إنهاء التقارير الرئيسية ".

" هذا يعنى أن كل شئ على ما يرام ؟ "

" نعم "، يا سيدى، هذا على وجه التقريب. التقرير الوحيد الذى يضايقنى خاص بوفاة واحدة من مواطنينا. ويبدو أن الحادث واحد من الأحداث التى يقولون لها : اضرب واهرب.

" هذا صحيح، أنا أتذكر الآن أنى اطلعت على فاكس بخصوص هذا الموضوع. أعتقد أن القتيلة كانت تدعى لافيت Lovett جون Jon أو شيئًا من هذا القبيل. الواضح أنها واحدة من المومسات. ما الذى يجب عمله فى رأيك ؟ "

" كنا نفكر فى الاحتجاج لدى وزارة الخارجية، ثم نقوم بعد ذلك بإبلاغ أيوجا كى تحاول تحديد مكان أقرب أقارب هذه البغى. لدينا عنوان فى سجلاتنا ".

" بوسعك إرسال مذكرة إلى وزارة الخارجية، لكن الاتصال بأقرب الأقارب أمر غير ممكن ؟ يا صديقى لا تشغل بالك. لن يظهر أحد من أقرب أقارب هذه البغى. من أين لهم بالمبلغ المطلوب للتذاكر أو لنقل الجثة ؟ "

" هذا هو المتبع. يا سيدى ".

" أنتم، يا من تعملون فى الخدمة المدنية تعرفون كيف تضيعون الوقت. فى القطاع الخاص هل تعرف ماذا نفعل ؟ نحن هنا نسمح للشرطة بالتخلص من الجثة. أنا أقصد، ما هذا الذى نتكلم عنه ؟ إنها مومس أصغ إلىّ. قيل لى منذ أيام قلائل، إن كل بنت من هؤلاء البنات يتعين عليها أن تدفع لمعلمتها مبلغًا يتراوح بين ثمانية وتسعين مليون ليرة فى غضون عامين. هذا المبلغ يعادل حوالى خمسة وأربعين ألف دولار أمريكى. وبحسبة صغيرة وجدت أن البنت التى من هذه النوعية يتعين عليها إن أرادت سداد هذا المبلغ فى غضون عامين، يتعين عليها أن تنام مع عدد يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف رجل. خبرنى، هل يتبقى من امرأة شئ بعد أن تنام مع ثلاثة أو أربعة آلاف رجل فى غضون عامين ؟ هل تظن بعد ذلك امرأة، هل تبقى مخلوقًا بشريًا ؟ أقول لك، إنك يجب ألا تفكر فى تقرير مركز الرئاسة. لا تبدد أوراق الحكومة ". أليس شكسبير هو الذى قال : " دع الموتى يدفنون موتاهم ؟ "

كان صعبًا علىَّ الموافقة على ما يقوله السفير. صحيح، أن الجدل قد يعنى انطباعًا بأنى لست من مرؤسى السفير. ولذلك قام يوفوت بمحاولة أخيرة..

" يا صاحب السعادة، ومع احترامى لسيادتكم، هؤلاء البنات ضحايا، هن ضحايا للمعلمات. إنهن ما يزلن مخلوقات بشرية، آدميين. من هنا فأنا أرى أن واجبنا، باعتبارنا عيون الحكومة وآذانها، تتمثل فى أن نكون بمثابة صمام الأمان، إذا ما أزهقت روح نيجيرية ".

الواقع أنها إنسانة بريئة ! هل يمكن أن تكون المومس بريئة ؟ " عفواً سيدى ".

" سيدى، منصبك منصب شخصى. وأنا أرى أن نتقدم باحتجاج إلى مضيفينا، ونبلغ وزارتنا بما فعلناه ".

" حسن، إذا كنت مصراً على ذلك، فهذا مستقبلك العملى أولاً وآخراً. إنه عملك. أنا موجود هنا لفترة قصيرة. أما أنت فسوف تبقى فى الخدمة. وعليه، تصرف مثلما تقول الأوامر الحكومية... "

هذه الأوامر الحكومية تشتمل على قواعد الخدمة العامة. ومرفق بهذه الأوامر أيضًا قوانين الخدمة فى وزارة الخارجية. ومعروف أن كل موظف عام لديه نسخة رسمية من هذه الأوامر والقوانين.

هناك شئ آخر يا سيدى. نحن ذاهبون فى أجازة غداً إلى فلورنسا. هناك عملية ترحيل ستتم فى نهاية الأسبوع، ونحن يتعين علينا تعرف رعايانا من بين المرحَّلين.

" نعم، أنا أؤيد ذلك قلبًا وقالبًا ؛ " ويعترف جودسون Godsonn قائلاً : "رحلوهن، فالسواد الأعظم منهن لا يحمل إقامة نظامية بأى حال من الأحوال ".

" لا، يا سيدى. ومع ذلك، فنحن لا نرحل هؤلاء اللاتى يحملن إقامة ".

" أنا أرى أنكم يتحتم عليكم ترحيلهن جميعًا. كيف يمكن لإنسان يحمل إقامة نظامية ويروح يتسكع فى الشوارع، أليس بوسعهن

استعمال تصريح الإقامة فى الحصول على عمل أفضل ؟ عمل فى أحد المصانع أو حتى عمل من الأعمال الوضيعة ؟ "

هذا الحوار سبق أن دار بين كل من جودسون Godsonne ويوفوت Ufot قبل ذلك. سبق ليوفوت أن أبلغ جودسون أن البغاء بحد ذاته لا يعد جريمة فى إيطاليا. ولا يعد البغاء جريمة أيضًا فى نيجيريا. والسبب الرئيسى وراء ترحيل هذه البنات هو تصريح الإقامة Permes-so Di Soggiorno على حد قول الإيطاليين. لم يكن هناك سبب يدعو إلى ترحيل البنات اللاتى يحملن إقامة رسمية. تعلل يوفوت أن الرَّيس كان سكرانًا إلى حد ما ويود أن يستأذن فى مغادرة المكان. هذا يعنى أن الجدل مع السفير لا طائل من ورائه حاليًا. ولذلك نهض الرجل واقفًا.

" شكرًا لسيادتك على هذا الشراب، وبعد إذن سيادتك، أنا أود أن أنصرف الآن ".

" آه، أنت على حق. هناك عطلة نهاية الأسبوع العامرة بالعمل تنتظرك. لكن قبل أن تنصرف أنا بحاجة إلى مبلغ من المال. أنا لم أستطع الحصول على بدل السفر قبل مجيئى. وعليه بلغ المحاسب أن يصرف أجر مبيت ثلاث ليالى ".

" لا مشكلة فى ذلك يا سيدى. سوف أسوى هذه المسألة حالاً. طاب مساؤك، يا سيدى ".

" هناك شئ آخر. هل عادت زوجتك ؟ مبلغ علمى أنها فى نيجيريا ".

" سيدى، أنا أتوقع مجيئها خلال الأيام القلائل القادمة ".

" كيف الحال ؟ أنا أعرف أن لك عشيقة Manny، لكن الشقة الثانية، وبخاصة فى هذا الجو شديد البرودة ".

" آه، لقد تعودت على ذلك، يا سيدى ".

شاب مثلك ؟ أنا لا يمكن أن أتعود على ذلك يا أخى. وهذا هو السبب وراء زواجى من اثنتين، كما تعرف. عندما تكون إحداهما غير قادرة، تصبح الأخرى قادرة. على أى حال، وفيما يتعلق بترحيلهن، تأكد من عدم تحصيل ضرائب عليهن. ركوب الطائرة... هذا عمل خطير.

" القول بأقل من هذا يعد عملية انتحارية.."

" إنها مجرد طرفة، يا عزيزى، طرفة لا أكثر ولا أقل. شكراً لك. طاب مساؤك ".

" طاب مساؤك، يا صاحب السعادة ".

* * *

جلس الريِّس جودسون طلباً للاسترخاء. وراح يفكر فى كأس وفى العرض التليفزيونى الخاص بهذا الموضوع. ثم تحول الرجل إلى القناة الإخبارية CNN، قبل أن ينتقل إلى قناة الرسوم المتحركة. كانت قناة الرسوم المتحركة هى قناته المفضلة. لم يكن الرجل يجرؤ على مشاهدة

هذه القناة فى العلن، لكنه حاليًا على انفراد، ويستطيع أن ينغمس فى مشاهدة هذه القناة. انضم الرئيس جودسون إلى توم Tom فى مطاردته لجيرى Jerry سائر أنحاء الشاشة، وعبر السقف إلى أن أمسك به وحبسه فى الفرن.

أحس جودسون بالضجر والملل. لقد جاء الرجل إلى ميلانو هربًا من الأوجاع المنزلية. لكنه هنا لا يعرف أحداً، ولا يعرف أيضًا أين يذهب. استدعى صديقه تليفونيًا، صديقه فرانكو Franco. لكن زوجته أبلغته أنه سافر إلى أمريكا الجنوبية ولن يعود قبل نهاية الشهر.

كان الرجل بحاجة إلى امرأة.

عندما علم أنه سيحضر إلى أوروبا، كان أصدقاؤه قد قالوا له أن يجرب المرأة البيضاء. لكنه، إلى الآن لم يفعل ذلك. فى حفلات الكوكتيل المتعددة، كان الرجل يقف وحيداً فى معظم الأحيان. انتهز الرجل الفرصة وراح يراقب الضيوف الإناث، محاولاً تعرف من منهن التى يسهل الوصول إليها أو الاقتراب منها. لكن، لم يصل الرجل إلى شئ لحد الآن. كلهن كان يبدو عليهن القلق ويرتدين ملابس زرية. كانت البنات صغيرات السن بصحبة الرجال. وكن جميعًا نحيفات. ربما كن مصابات بالإيدز. كان الرجل قد قرأ فى مكان ما أن المصابات بمرض الإيدز عادة ما يكن شديدات النحافة. والرجل يحب النساء الممتلئات. هذه المرأة الممتلئة عندما ينطفئ الأنوار، لن يمد الرجل يده ليبحث عنها فى ذلك السرير الكبير. ها ! ها ! ها !.. هنا فى إيطاليا يبدو أن النساء

النحيفات العليلات هن المطلوبات. صاح الرجل بصوت عال " استثنيني من ذلك... آتني بامرأة متينة، ممتلئة في أي يوم من الأيام ".

فكر الرجل في اختيار واحدة من هيئة العاملين وجعلها عشيقة له. اختمرت الفكرة في ذهنه على الفور. وإذا ما اكتشفت نجوزي Ngozi هذا الأمر، فذلك يمكن أن يعني انتهاء عمله في الخارجية. وسوف تقوم نجوزي بقتل هذه السيدة. والزوجة رقم اثنين كانت هي الأخرى تخشى أن تجيء عليها زوجة ثالثة.

لم يكن الرجل يستلطف مضاجعة زوجاته. كانت الزوجة الأولى، أوات Awat، قد بدأت تهمل نفسها بعد مجيئ الزوجة الثانية. كانت ترقد في السرير كما لو كانت كيساً من لباب الدقيق، وتقول له : خَلّص بسرعة واتركني أفعل بنفسي شيئًا أفضل مما أنا فيه. هو يعلم أن الذي يربطها ويمنعها من الفكاك من الزواج هم الأطفال. صعب على المرأة أن تكون لها ضرة. وجود ضرة يقتل الروح. كانت تقضي اليوم كله في الغناء وترديد الترانيم الدينية. كانت تعيش لكنها، لم تكن تصلح للقيام بأي شئ منطقي أو محسوس.

نجوزي Ngozi ، الزوجة الثانية، كانت رائعة قبل أن يحضرها إلى المنزل. لكنها لم تكن أفضل من الزوجة الأولى. وعندما كانت تقاسم الرجل الفراش، كانت تشكو من البداية إلى النهاية وتقول : زوجتك الأولى فعلت هذا، وأنت اشتريت لها كذا، واشتريت لأبنائها هذا أو ذاك. كان الرجل يراجع نفسه ويتمنى لو أنه لم يتزوجها. لكنه أنفق الكثير

عليها عندما كانت عشيقة له ؛ صحبها في رحلات متعددة إلى الخارج، اشترى لها سيارة مستعملة، وأعطاها مبالغ نقدية كبيرة. لقد اشترى لها أيضًا قطعة أرض في العاصمة. لم يكن يطيق أن يراها بصحبة أو عشيقة رجل آخر، حتى لا يرث الاستثمارات التي حققها هو لها. هي الآن، تود دراسة الأمور كلها : تود أن تدرس التغذية، والأزياء، والحاسب الآلي، وتود أيضًا دراسة المال والأعمال، تود أن تفعل كل شئ ولا تود البقاء في المنزل. لقد ذهبت إلى مقر البعثة لتسأل عن مخصصات وبدلات زوجة السفير. ومن حسن الحظ أن هيئة العاملين في السفارة لم تعطها شيئًا حول هذا الموضوع. ولو حدث ذلك لأخذت كل مليم واحد. أهكذا تدار المنازل متعددة الزوجات ؟ رجال آخرون متزوجون من أكثر من واحدة يعيشون في أمن وسلام.

كان السفير يعرف ماذا يمكن أن يفعل إذا ما اشتكت ثانية فسوف يوسعها ضربًا ويعطيها علقة ساخنة. ليس هناك ما يسمى بالعلقة الساخنة التي يمكن أن تسكت زوجة عدوانية متعبة، دار ذلك بخلد الرجل. بوسعه القيام بذلك إذا لم تمتد يدها إلى شئ خطير في البداية. كان ذلك هو الذي يخيف الرجل. يذكر أنها في مرة من المرات أمسكت مقصًا وهددت ببتر عضوه الثمين. يا الله، لماذا عقّد الرجل حياته بالزواج من تلك الأمازونية(*). خطر ببال الرجل مؤتمر المرأة عن العنف الداخلي

(*) الأمازونية : امرأة من عرق خرافي من المحاربات زعمت الأساطير الإغريقية أنهن كن يقمن قرب البحر الأسود. (المترجم)

وضرب النساء الذى انعقد فى مدينة جنوة. كان الرجل محقًا فيما قاله عن نك Nick العجوز. كثـــير من الرجال كانوا يعانون على أيدى النساء (الزوجات)، والأمم المتحدة كانت ساكتة على ذلك. الشئ الوحيد القائم، هو أن نك Nick العجوز باق كما هو لم يتغير.

واقع الأمر أنى أريد امرأة إنسانة بسيطة، واضحة، ومحبة أيضًا. امرأة تحبنى لذاتى، لا لذلك الذى يمكن أن أعطيه لها ولأسرتها. امرأة تكون آمالى، تهتم بى، امرأة تحبنى. كان بحاجة إلى امرأة فى مكان ما، فى ملاذ مكان يمكن أن يذهب إليه لينال شيئًا من الراحة، وبلا إزعاج، مكان يحس فيه بذاته. لقد تحول المسكن إلى غوغاء، أمم متحدة مصغرة، على حد قول الرجل. كان الرجل ينفق نصف وقته فى تسوية الخلافات بين الزوجات وأطفالهن. لم يكن الرجل يعرف الراحة. كان الجميع يعيشون حيوات عامرة بالتوتر الشديد، الجميع كانوا يتشككون فى بعضهم البعض. وحتى مسألة تناول الطعام المناسب فى منزله، أصبحت مشكلة ذلك أن كل زوجة من الزوجتين كانت تدعى قائلة : " لقد أطعمته بالأمس. والدور عليك اليوم. ماذا تفعلين بكل النقود التى يعطيك إياها ؟ " وعندها كانت الزوجة التى عليها الدور، تتجه إلى المطبخ وتروح تعد شيئًا. عند الساعة الرابعة، يكون الرجل قد سوى المشكلة بأن طلب تليفونيًا واحدة من أقاربه غير المباشرات ليقول لها : " أرجوك، أن تتأكدى أنى سوف أجد غداء عندما أعود من العمل، حتى وإن أدى الأمر إلى الذهاب إلى المحطة، حيث توجد المطاعم النيجيرية، وتشترى لى شيئًا من الطعام النيجيرى ".

فيما يتعلق باستقبال الضيوف فى المنزل، حدث ولا حرج. فقد هم الرجل واقفًا عندما سمع الزوجتان تتشاكلان فى المطبخ. الضيوف موجودون فى غرفة الطعام ! وسرعان ما استأذن منهم الرجل واندفع داخلاً إلى المطبخ. كانت الزوجتان تتضاربان، وكل واحدة منهما ممسكة بسكين فى يدها، وسط الأوانى الساخنة. هددهما الرجل بأنه سيستدعى الشرطة لتحبسهما، إ ذا سمعهما تنطقان ولو ببنت شفة بعد ذلك. يبدو أن نظرة الغل والغضب التى كانت على وجه الرجل، أقنعتهما بصدق ما يقول. واعتباراً من تلك اللحظة بدأ الرجل يحتفل بضيوفه ويستقبلهم فى مطاعم المدينة. والحكومة هى التى ستدفع فى البداية أو النهاية. وهو بدوره سيحظى بوقت سعيد.

كان الرجل يتساءل كيف يكون الرجل متزوجًا من اثنتين ولا يعرف الحب، كان هذا السؤال يلح على ذهن الرجل مرات ومرات. واقع الأمر أن الرجل عندما يتزوج عشيقته، ينتج عن ذلك فرا غ من نوع ما.

" صحيح أن الرجل وجد علاجًا جيداً فى ميلانو. فى كل مرة، كان يحس خلالها بالمتاعب المنزلية كان يقوم " بزيارة قنصلية ". كانت مسألة فتح هذه القنصلية أمراً طيبًا من جانب الحكومة. لقد أصبحت العاصمة غير قادرة على الوفاء باحتياجات النيجيريين المهاجرين كلها ؛ والسواد الأعظم من هؤلاء النيجيريين يعملون فى المصانع، وفى المشروعات التجارية التى توجد بأعداد كبيرة فى شمال إيطاليا. كانت المسألة خيار بين ميلانو، وتورينو، وجنوة. ولكن الحكومة اختارت ميلانو. جاء ذلك

الخيار مركزياً إلى حد ما مع أن تورنتو كان يمكن أن تفى بهذا الغرض على نحو أفضل. تورينو، ميلانو، أى مكان يمكن الهرب إليه بدلاً من البقاء فى المنزل ".

أطفأ الرجل الأنوار، وأغلق الأبواب. ونزل بالمصعد إلى الدور الأرضى حيث الفناء. وهنا قفز السائق المناوب واقفاً.

" مسَّاك (الله) بالخير يا صاحب السيادة ".

" أعطنى مفاتيح السيارة. فسوف أسوق السيارة أنا بنفسى ".

أعطى هليل Halil المفاتيح للسفير. لم يكن أمامه خيار آخر. لكنه سوف يبلغ رئيس الخدمات تحسباً لحدوث أى شئ. بدا صاحب السيادة مهموماً بعض الشئ.

" سيدى، إذا ما واصلت السير مباشرة، فسوف تصل إلى فيال Viale مانزونى. المعروف أن هذا هو وسط المدينة. كورسو Corso فرانسيا Francia تقع على بعد مسافة كبيرة من هذا المكان، فى الناحية اليسرى. فندق جولى Jilly موجود على هذا الطريق ". الجميع كانوا يعرفون أن السفير كان ينزل فى فندق جولى فى أغلب الأحيان..

أردف السائق قائلاً : " احترس من فضلك يا سيدى. معروف أن الإيطاليين متهورون فى السياقة ".

تساءل جودسون Godsonn، وهو غير عابئ بالتحذير : " قل لى، أين أجد أخواتنا ؟ "

تساءل هايل متظاهراً بعدم الفهم : " تقول أخواتنا يا صاحب السيادة ؟ "

" أنت تعرف أخواتك الألبانيات وأخواتى النيجيريات ".

استوعب السائق الألبانى ذلك الذى يقوله صاحب السيادة. ولذلك قام بوصف الطريق إلى المبعوث.

جلس جودسون أمام عجلة القيادة، وعدّل الكرسى، كما عدل أيضاً مرآة الرؤية الخلفية. لم يسق السيارة منذ ستة أشهر، لكن لا مانع من ذلك. لقد ساق سيارات كثيرة من قبل. هذه السيارة موديل ٤٠٦ بمثابة لعبة عنده. دخل الرجل السيارة ببطء وحرص. كان يعلم أن اللوحات الدبلوماسية لها أخطارها. قال الرجل فى نفسه : " يجب أن أطلب مستقبلاً سيارة لا تحمل لوحات دبلوماسية ". تمنى لو أنه كان ليس ثملاً أو مخموراً . لم يكن عنده ما يكفيه من الشراب. لكن مع هذا البرد الشديد، ومع دوران المكيف فإن كأساً واحدة من الشراب كافية بأن تحدث المزيد من المتاعب. متاعب مضاعفة. دارت بخلد الرجل العناوين الرئيسية التى من قبيل : " دبلوماسى مخمور يتسبب فى حادث قتل ! " قال الرجل بصوت عال : " لا قدر الله ". قالها وهو يتلاعب بإبهامه مع إصبعه الوسطى. وأردف قائلاً : " سأقوم برحلتى دون أخطاء وأعود إلى المنزل فى هدوء، حيث عملى وسياستى ".

لم تخطر زوجتاه بذهنه مطلقًا، وهو ينطلق بالسيارة إلى حيث الأضواء الحمراء.

الفصل الثالث

نيبا NEPA، في نيجيريا هي الأحرف الأولى من المصطلح : الهيئة الوطنية National للطاقة الكهربية Electrick Power Aulhority. هذا المصطلح نفسه عند رجل الشارع العادى يعنى " لا تتوقع Expect مطلقًا Never الطاقة بصورة دائمة Always" . هذا يعنى بحق " عدم توقع وصول الطاقة مرة ثانية " عند السيدة فيث Faith موسى Moses أوجيام Ugiame.

كان ذلك القسم من المدينة الذى تعيش فيه هذه السيدة فى ظلام مطبق لليوم الثالث على التوالى. لقد انفجر واحد من المحولات فى مكان ما، على حد قول واحد من البشر. لقد اصطدمت إحدى المقطورات بذلك المحول. كان العاملون فى الهيئة الوطنية للطاقة الكهربية يبحثون عن مالك تلك المقطورة، لكى يدفع ثمن الإصلاحات المطلوبة. هذا يعنى أن ذلك الظلام سوف يستمر أسابيع وربما أشهراً.

كان الأطفال خائفين من تلك المواقيت المظلمة. هذا يعنى أن مسألة ترك الأطفال فى الظلام تعد عملية صعبة. هذا يعنى أيضًا أنهم قد يحدثون جلبة كبيرة. نادت فيث Faith على أوساس Osas، وهى فتاة تبلغ من العمر اثنى عشر عامًا، وهى أكبر الأطفال.

"أوساس، يتعين عليك أن تديرى بالك على شقيقاتك الليلة أيضاً. أنا عندى وردية ليل، وسوف أعطيك شيئًا فيما بعد. هل سمعت ما أقول ؟ "

وافقت البنت لأنها لم يكن لديها خيار آخر. كانت أمهم قد قالت : إنها تعمل فى واحدة من المستشفيات. كانت البنت تصدق ما تقوله الأم. كل ما فى الأمر أن الأطفال كانوا يحسون بالأسى لغياب أمهم. كانوا يحسون بالوحشة عند غيابها. كانوا كلهم يندفعون ناحيتها. ويداعبون جسمها الطرى، على الرغم من رائحة المطهرات الخفيفة التى كانت تنبعث منها. لكن الابنة الكبرى كانت تعرف أن أمها يتعين عليها الخروج والذهاب إلى العمل. إنهم بحاجة إلى النقود. كانت الأخت الصغرى تخرج لبيع الخبز بعد أن تجئ من المدرسة، فى حين كانت أوساس تذهب لجلب الماء وتحرس السكن المكون من غرفة واحدة. يبدو أن ذلك لم يكن كافياً. إذ كانت الأم دائمة الشكوى من نقص النقود والحاجة إليها. لم تكن أوساس تشغل بالها بمسألة المهمة المكلفة بها. كان أخواتها الصغار لا يضايقونها. واقع الأمر، أن هؤلاء الأطفال كانوا يروحون فى النوم قبل أن تصل أمهم إلى مقر عملها.

تساءلت أوساس قائلة : " هل لك أن تحكى لنا حكاية (حدوتة) قبل الذهاب إلى عملك ؟ "

" حاضر، اذهبوا جميعًا، وتبولوا ثم عودوا وارقدوا على السرير". وعلى الرغم من هذا الاحتراز كان البعض منهم يبلل السرير قبل طلوع الفجر.

لم يكن هناك سوى سرير واحد مزدوج صنعه أحد النجارين لفيث Faith. جعلت أوساس أختيها الصغيرتين تنامان على السرير. أما هى فقد نامت على حرف السرير. وبهذه الطريقة تحول أوساس بينهما وبين الوقوع من فوق السرير. وأحضرت أوساس ملاءة سرير قديمة تفوح منها رائحة البول وغطت بها أختيها. فى حين جاءت الأم وجلست على الأرض المفروشة بمشمع من اللانولين Lanoline، وكانت ركبتاها مقرفصتان أمام صدرها. كانت فيث تلف إزارًا حول جسمها يتدلى من الصدر نحو الأسفل. كان الجو حارًا. وكانت قد فتحت النافذة لتسمح بدخول شئ من النسيم. لكن ذلك النسيم كان يحمل معه رائحة كريهة. هذه الرائحة الكريهة كانت أفضل من تلك الحرارة الخانقة. وكان هناك شعاع خافت من ضوء القمر يتسلل داخلاً إلى الغرفة. وراحت فيث تدعو الله أن يسقط المطر رحمة بأطفالها. كان الناس ينامون نومًا عميقًا عندما يسقط المطر : سقوط المطر يعنى انحسار الحرارة وهرب البعوض. وهنا يكون بوسع الناس أن يحلموا أحلامًا سعيدة، متناسين الحاضر بواقعه المرير.

صاحت فيث Faith فى الظلام قائلة : " حدُّوتة ! حدوتة ! "

دوى صوت الأطفال وهم يقولون : " حدُّوتة ". كان الأطفال ينتظرون هذه الإشارة. هذه الإشارة تعنى التزام الصمت، تعنى الانتباه، وأن الحدوتة على وشك أن تبدأ. جلس الأطفال فى أوضاع مريحة، وهم يدنون من بعضهم البعض طلبًا للدفء، وقد اعتادوا على تشمم رائحة بعضهم البعض منذ زمن بعيد نظرًا لتقاسمهم العيشة نفسها.

تثاءبت فيث **Faith** من جديد وقالت : " في يوم من الأيام ! "

صرخ الأطفال وهم يقولون : " من الأيام ! من الأيام ! "

فكرت فيث في الحدوتة التي يمكن أن تقولها لهم هذه المرة. كانت قد حكت لهم مؤخراً حدوتة زوجة الأب الشريرة واليتامى. كانت قد أمتعتهم بحدوتة الجوع في أرض الحيوانات، وحدوتة الزوجة الغيورة. ولم يخطر ببالها أية حدوتة جديدة. وبدا لها أنها استمعت إلى هذه الحواديت نفسها من أناس كبار في أسرتها هي. وقد اضطرت إلى تذكر تلك الحواديت في وجود هذا الظلام، الذي تسبب في حرمان الأطفال من التمتع بالتليفزيون. هذا لا يعني أنهم كان عندهم تليفزيون. كان من عادة الأطفال الذهاب إلى منزل الجار لمشاهدة التليفزيون عندما تكون الكهرباء متوفرة.

" كانت هناك أميرة بديعة الحسن، كانت جميلة إلى حد أن الجميع كانوا يودون الزواج منها، ملوك، ورؤساء وأمراء، ورجال أعمال، جاءوا كلهم من سائر أنحاء الأرض بغية الزواج منها".

تساءلت يوئي **Uyi** الصغيرة وهي تتثاءب، " هل وافقت، يا أمي ؟ "

" اصبري يا عزيزتي، ستعرفين في النهاية ".

" ما اسمها، يا أمي ؟ "

" اسمها أونوم **Onome**، الأميرة أونوم " جاء رد فيث مباشر ومرتجل.

" هل كانت تعيش فى بنين Benin؟ "

عند هذه المرحلة، كـان الأطفـال الأكبـر سنًا مـتـشـوقـين، وراحـوا يحثون يوئى Uyi على التزام الصمت والإصغاء للحدوتة.

" لا، لم تكن تـعـيش فى بنين. " جـاء رد فـيث فـوريًا، ثم واصلت كلامها، " كانت تعيش فى مكان بعيد. ويتحتم على من يود الذهاب إلى بلدها أن يعبر سبـعـة أبحـر وسـبـعـة جـبـال. كان بلدها جميلاً وعـامراً بالطعام والشراب. "

تساءلت يوئى بحذر والفضول يتملكها، " وهل تُوصِّل الهيئة الوطنية للكهرباء النور إلى هناك ؟ "

" لا، يا عـزيزتى. لم تكن هناك هيـئـة وطنيـة للكهـرباء، ناهيك عن الكلام عن النور. كان النور الكهربى موجوداً هـناك طول الوقت وفى أى وقت. كان هناك مـاء أيضًـا. لا يتعين على الناس الوقوف صـفـوفًـا طلبًـا للحصـول على الماء. كانت فى المنازل صنابير يحصل الناس منهـا على الماء. ما عليك سوى أن تفتحى الصنبور وعندها يندفع الماء. "

حَلُمت أوسـاس Osas، " أنا لا أمـانع فى العـيش فى ذلك المكان. بهذه الطريقة سوف لا يتعين على حمل أوعية الماء الثقيلة. "

" وهنا ألقت فيث نظرة خاطفة على ساعتها. سوف تتأخر عن موعد عملها. وكان لابد من إنهاء الحدوتة ومغادرة المنزل إلى العمل ".

" إذن، كـان الناس يجـيـئـون من سـائر أنحـاء الدنيـا للزواج من الأميـرة أونوم . Onomeلكنها لم ترض بأى أحد منهم، إما لأن هذا كان متينًا جداً أو لأن ذلك كان نحيفًا تماماً. كان منهم الطويل جداً ؛ والقصير جداً أيضاً. كان لأحدهم كرش كبير فى حين كان الآخر طويل العنق ".

تدخلت أوفى Ovie الصـغـيـرة قـائلة : " ألم تـعـرف أنه ليس هـناك إنسان كامل".

" هذا شـئ جـمـيل منك يا أوفى Ovie . لم تكن تعـرف ذلك. وهكذا راح الوقت يمر وينقضى، بسرعة. وبقيت الأميرة الجميلة بلا زواج. وبدأ والداها يشعران بالقلق. كانت أمـها مشتـاقة إلى تربيـة الأحـفـاد، ولذلك رجتها أن تقبل واحداً من الخطُّاب... "

" ما هو الخطيب، يا أماه ؟ "

" الخطيب، شـخص يود الزواج منك. كان من عادة أم الأمـيرة أن تغنى لها أغنية، ترجو الأميرة الصغيرة فيها أن تتزوج وتستقر. "

هنا راحت فيث تغنى بنغمة حزينة :

أيها الأميرة، يا أميرة، الطفلة التى أُحبها،

هل لك أن تتزوجى هذا ؟ آه تزوجى هذا الرجل.

عندئذ، وفى ضوء الخطأ الذى يتبدى فى الخطيب، يجىء رد الأميرة على النحو التالى :

يا أماه، أُماه، أيتها المرأة التى أحبها،

أنا لا أستطيع الزواج من هذا الإنسان،

كرشه كبير، كبير، كبير

أنا لا أستطيع الزواج من هذا الرجل.

راحت فيث هى والأطفال يرددون هذه الأغنية مرات عدة، وهم يغيرون أجزاء الجسم فى كل مرة. كانت فيث تقوم بدور الملكة، فى حين كان الأطفال يقومون بدور الأميرة.

كان الأطفال يحبون الحواديت التى تحتوى على أغانى. كانت فيث تستلطف حكى تلك الحواديت لأبنائها لأنها كانت تجلب لهم النوم. واصلت فيث حديثها بعد ذلك قائلة :

" عندئذ، سمع السحلف Tortoise عن هذه البنت الجميلة وقرر أن يجعلها توافق عندما يطلب يدها للزواج. سخر منه أصدقاؤه. قالوا له : " انظر إلى نفسك. ألم تر عدد أولئك الذين صدتهم هذه الأميرة، كلهم أحسن منك مائة مرة ومرة ؟ إنها لن تنظر إليك مرتين. " نصح البعض السُّحْلف بألا يبدد وقته ودخله الهزيل فى قطع هذه المسافة الطويلة. " " إذا كنت تحب نفسك خبئ نفسك، ولا تعرضها وتعرض أهلك للسخرية والاستهزاء. سبب ذلك أن الخفاش يعرف أن شكله قبيح، ولذلك فهو يطير أثناء الليل. "

" كان السحلف مقدوداً من الصخر ". ورد على منتقديه : " يفوز باللذات كل مغامر. " " أضيفوا إلى ذلك، إذا كان أولئك الخطاب الذين سبقونا، أفضل مني، فلماذا رفضت أونوم الجميلة عروضهم ؟ "

" اتجه السحلف صوب القصر، لكنه زار فى بداية الأمر، أقاربه وأصدقاءه، مقترضاً منهم شيئًا من هنا وشيئًا من هناك. وبهذ الطريقة، وعندما وصل إلى القصر الذى تقيم فيه الفتاة الجميلة، لم يستطع أحد التعرف عليه. فقد كان يلبس قبعته معوجة فى الاتجاه الفلانى، ويمسك رباط عنقه المقترض بإصبعين من أصابع يده، ويمسك بنظارته المؤقتة فى اليد الأخرى. كان حذاؤه اللامع يتلألأ فى ضوء الشمس، فى حين كانت بدلته النظيفة تحفحف هنا وهناك. كان واضحًا أن أنيقًا وصل إلى المدينة... "

توقفت فيث Faith برهة. كان تنفس الأطفال قد بدأ ينتظم. وراح أحدهم فى سبات عميق، عرفت فيث أن الأطفال راحوا فى النوم ؛ بل إن أصوات الشخير كانت تنبعث من واحدة منهن. كانت تستطيع التأكد من ذلك عندما تتوقف عن الحكى فى منتصف الحدوتة. وطالما أن أحداً منهم لن يشتكى فسوف تنهض واقفة فى هدوء.

ارتدت ملابسها فى هدوء فى الظلام. وبحكم العادة كانت تعرف مكان كل جزء من ثيابها. كان الجو شديد الظلمة مما جعلها تتبين الأشياء بصعوبة بالغة. لم تكن ظروفها تسمح لها بشراء شمعة. يضاف إلى ذلك أن من الخطورة بمكان ترك الشمعة لأيدى الصغار غير

المدربين. أخذت معها قلم الشفاة وقلم الحواجب، ووضعت حذاءها فى كيس من البلاستيك، وخرجت وهى تمشى على أطراف أصابعها. عندما فتحت الباب، استيقظت أوساس Osas وراحت تسأل أمها عما حدث للسحلف.

" سأقول لك ذلك فى مرة قادمة. ديرى بالك على أخوتك الصغار، أرجوك. أنا متأخرة على العمل. يجب أن أذهب على الفور، هل تسمعين ؟ "

" تصبحين على خير يا أماه Owian Ohie,ma" . قالتها بلهجة بنين.

" تصبحين على خير يا حبيبتى. " قالتها هى الأخرى بلهجة بنين.

خرجت فيث برفق من الباب، ثم أضاءت كشافها فضى اللون، المصنوع فى الصين، وهو من ماركة التنين. وراحت تشق طريقها بعناية بين الأشياء الموجودة فى الممر، أشياء منزلية خاصة بشركائها فى السكن : سلال فارغة من سلال الخضراوات، وحطب، وتشكيلة من الأحذية، ودراجة، وفسبا Vespa، ومقشات، وجرادل... وبينما كانت تشق طريقها خارجة من المنزل، كانت تتناهى إلى مسامعها نتف صغيرة من حوارات السكان. هذه المربعات السكنية ليس فيها شئ من الخصوصية دار ذلك بخلدها وهى تتهامس مع نفسها. هذا يعنى أن الإنسان إذا ما سعل فإن جاره يسمع ذلك السعال تمامًا وواضحًا، ناهيك عما إذا كان الإنسان يأتى أشياء من أشياء الحياة الحميمة. وهذا مذياع يعمل بالبطارية تنبعث منه موسيقى باهتة، لكى يسمعها الجميع، كل من يود سماعها.

كان الممر طويلاً ؛ إذ كانت هناك أحدى عشرة غرفة على كل جانب من جانبى هــذا الممـر، على الطـريقة التـى يطـلق النــاس عليها اسم " واجهنى وأنا أواجهك ". كانت الغرف مجرد غرف منفردة، غرف منفردة ليس إلا. هذه الغرف كانت تأوى ستين من البشر أو ما يزيد على ذلك. كان المرحـاضـان والحمامان عند نهاية البناية على الناحية اليمنى. لم تكن هذه المرافق تكفى لهذا العدد الكبير من البشر. يتعين على المرء أن يصحو مبكرًا، حتى يتمكن من استعمال هذه المرافق، وإلا تعين عليه الوقـوف فى صف طويل. كـان هناك صـفـان : أحـدهمـا لاسـتـعـمـال المرحاض والآخر لاستعمال الحمام. لم يكن الأطفال بحاجة إلى هذه الخصوصية، إذ كانوا يتغوطون فى الخلاء.

كانت الغرفة العامة المخصصة للطبخ على الجانب الأيسر. كان كل مسـتـأجـر يضع مـوقد الكيروسين الخـاص به فوق دولاب فى المكان المخصص له. إذا لم تكن قادرًا على شراء كيروسين أو موقد كيروسين، يمكنك استعمال الحطب فى الخارج، أى خارج غرفة الطبخ، على أن يكون ذلك بجوار جدران غرفة الطبخ من الخارج. ونتيجة لذلك أسودت جدران غرفة الطبخ من الخارج بسبب الدخان. يزاد على ذلك أن الدخان كان ينتقل ويغزو المركب السكنى بكامله. وبذلك كانت رائحة الدخان تختلط برائحة البول ورائحة الغائط مكونة بذلك خليطًا دائمًا خاليًا من الهواء ويهدد بخنق سكان المنزل. كانت رائحة الفقر، والعوز والحاجة، وكذلك رائحة الخزان غير المعقم، كل ذلك كان يعكس أن ساكنى هذا المكان بلغوا من الفقر حدًا لا يستطيعون معه فصل هذا عن ذلك.

هذه الروائح تتـعلق بالهـواء. ولا يمكن لمعطرات الجـو أو البـخـور التخلص من هذه الروائح بأى حال من الأحوال ؛ تلك الروائح عبارة عن خليط من الضـوضـاء والفـوضـى التى تصـاحب السِّفلة من القـوم فى وجودهم الخاطئ فيما يسمى الحياة.

خطر ببال فيث ذلك الذى قرأته عن فندق فى العاصمة يحمل شعار " الحـيـاة للأحـيـاء ". لم يخـطر ببـال أصـحـاب هذا الشـعـار أن الحـيـاة للأموات أيضًا. الأحياء الذين لا يعرفون أى شئ عن المستقبل أو الغد.

هذا الهواء كريه الرائحة، ومتعطش إلى الأكسوجين. تعوَّد الناس عليه بحكم معيشتـهم هنا. لكن إذا ما خرج الإنسـان من هذا المكان، وإذا ما بدأ النسيم العليل يتـخلل فتحتى أنفه، تعين عليـه الانتظار بعض الشئ، أو بالأحرى، يتعين عليك أن تمسك على نفسك أنفاسها.

سـارت فيث Faith فى الطُّرِّق الموحل إلى الطريق السـريع الموجود فى نهـاية هذا الطُّرِّق. هذا الطريق السـريـع يسـمـونه طريق ليـجـوس الجـديد. هذا هو آخـر وأسـرع الطرق السـريعـة التى مـهدتهـا الحكومـة الفـيـدراليـة، والذى يربط بقـيـة الغـرب، والغـرب الأوسط، وكذلك الشـرق بالعـاصـمـة. كـان هناك مـحطة حـافـلات عند تقـاطع الطرق ؛ وكـان المسافرون يتوقفون فى تلك المحطة طلبًا لتناول الطعام، والشراب وقضاء الحاجة، التى تشمل فى بعض الأحيان مضاجعة المومسات. كانت فى تلك المحطة فنادق تستأجر لمدة ساعة واحدة. لكن يقال إن البعض كانوا يفعلونها فى سيارات النقل الصغيرة وفى اللوريات أيضًا. هناك شائعات

مفادها أن المخدرات موجودة فى هذا المكان أيضًا. كانت الشرطة قد داهمت ذلك المكان فى مرة من المرات، لكن لابد أن ذلك حدث منذ زمن بعيد. وسبب ذلك أن الشرطة، فى الوقت الحالى، لا تستطيع الاقتراب أو التجول حول هذه المنطقة، أو حتى الاختلاط بالناس. فى هذا المكان يسمع المسافر أصوات المولدات التى تزود المطاعم المتعددة بالنور والكهرباء ؛ هذه المطاعم كلها تخاطب أمعاء المسافرين. هذه الأصوات المنبعثة عن المولدات كانت تهدد بطمس نداءات سائقى دانفو Danfo. والكلمة " دانفو Danfo " جرت العادة أن يطلقها الناس هنا، فى هذا المكان، على المسافرين بالحافلات. واصلت فيث سيرها إلى محطة الحافلات، متناسية الهسهسات، والبسبسات التى كانت تنبعث من الذكور.

كانت فيث شابة، عمرها يناهز الخامسة والعشرين. كانت رشيقة، طويلة الساقين، شقراء المحيا. كان شعرها مصففًا بطريقة سنابل القمح الشعبية، مما كشف عن وجهها المستدير الشبيه بوجه الطفلة ؛ كما كشفت هذه التسريحة أيضًا عن عينين واسعتين، وشفتين أفريقيتين غليظتين. كان أنفها الصغير أكثر أفرقة من شفتيها من حيث الشكل. كان فى وجهها علامتان قبليتان رأسيتان واحدة على كل صدغ من صدغيها ؛ وكان هذان الشلَخان يضفيان عليها مسحة من البراءة. كانت فيث Faith بنتًا عادية من بنات بنين، اللاتى نصادفهن كل يوم، أثناء ذهابهن إلى أعمالهن.

كانت فيث تنوى ركوب الحافلة المتجهة إلى سوق بنين الجديدة، على أن تنزل من الحافلة فى محطة ملتقى طرق الإرسالية **Mission**. ومن هذا المكان يتعين عليها السير على أقدامها بضع خطوات. يتحتم عليها الوصول إلى مكان العمل فى الوقت المحدد لذلك، إذا ما تمكنت من ركوب الحافلة فى التو. القسم الأكبر من الحافلات كان واقفًا فى محطة المحروقات طلبًا للوقود.

كالعادة، هناك نقص فى الوقود. وقد أدت الطوابير إلى سد الطرق، الأمر الذى جعل انسياب حركة مرور المركبات أمرًا مستحيلاً. واصلت فيث سيرها منتبهة إلى الحفر التى فى الطريق. كانت فيث ترتدى زيها الأخضر. هذا الزى ينبغى ألا تصيبه الأوساخ التى تتطاير ناحيتها بفعل عمل أولئك السائقين المتهورين. كانت تمسك بكيسها البلاستيكى بالقرب من جسمها. لم يكن داخل ذلك الكيس سوى أشياء قليلة : حافظة النقود ؛ مستحضرات التجميل، حذاء العمل، وكيس بلاستيك مطوى. سوف تشترى فى هذا الكيس شيئًا من الخبز فى الصباح. صحيح، أن الكيس البلاستيك لا يحتوى على الشئ الكثير، وإنما يتعين عليها المحافظة على ما لديها. مضغت أفكارها وهى تقول، حتى الفقر، ذلك الفقر المدقع ينبغى المحافظة عليه.

" أنا فقيرة، فقيرة، فقيرة جدًا. ما الذى يمكن أن أكونه وأنا مجرد عاملة نظافة عادية فى عنبر من عنابر عيادة متواضعة ؟ أنا لدى ثلاثة أفواه لابد أن أطعمهم، وليس لى زوج يعيننى. أنا أيضًا لست متعلمة

وبالتالى لا يمكن لى الحصول على عمل أفضل مما أنا فيه. أنا تتوفر فىّ خصـائص الفقر كلها، الفقـر الذى لا يعرف الحدود، ومـا لم أتزوج من رجل ثرى، أو أكسب يانصيب الولاية، أو أقوم بعمل جوهرى مبهر، فلن أهرب من هذه الحياة، حياة الفقر والعوز الدائم، وعدم الكفاية. "

نعم، صحيح إنها تعمل فى مستشفى فاين Fine إيرا Era، قسم الولادة. بدأت عملها كعاملة عنبر تعمل فى تنظيف وإخلاء العنابر أثناء الليل. يتركز عملها فى ترتيب الأشياء التى يخلفها أو يحدثها المرضى، أو عندما يلوثون أنفسهم، أو فرش السرير، أو عندما يتقيئون، أو يتغوطون، أو عندما تخرج منهم سوائل بشرية، إذا ما حدث شئ من هذا يستدعونها للتنظيف. كان عملها يتمثل أيضاً فى تغيير الملاءات التى تلطخ بالدم، وتفريغ سلات المهملات، والتخلص من الإبر والمحاقن التى جرى استعمالها مرات متعددة. كان عملاً بائساً مقززاً لكنه كان يجلب لها الطعام الذى تضعه فى أطباقها. وهى تعد نفسها محظوظة لحصولها على عمل. لو كان أحد قد قال لها : إنها ستؤول إلى هذا المصير فى نهاية الأمر، لما صدقت ذلك.

كانت فيث Faith فى عامها الثانى فى قسم التاريخ واللغات الحديثة فى الجامعة عندما بدأت مأساتها.

والدها موسى، الذى كان سائقًا لشاحنة من شاحنات المسافات الليلية الطويلة لقى حتفه فى حادث أليم وقع لشاحنته. وقد أتت الصحف على وصف ذلك الحادث. كان كابح (فرامل) السيارة قد فشل أثناء

نزول ذلك المسكين منْزَل دوكـو Duku شـديد الانحـدار. مما ترتب عليـه اندفاع الشاحنة إلى النهر الموجود فى الأسفل، وانقلبت الشاحنة لتتبعثر البضـاعة هنا وهناك. يقول الشـهود إن الرجل كان بالإمكان إنقاذه، لكن هؤلاء الذين تجمعوا فى مكان الحادث كانوا مشغولين بسرقة محتويات الشحنة، ولم يلقوا بالاً لتأوهات الرجل وأنينه وهو محشور بين عجلات الشاحنة. يضاف إلى ذلك أن الناس الآخرين كانوا يستحمون بالقرب من ضفة النهر، وكان بعض آخر منهم يغسلون سياراتهم أو ملابسهم.

اشتـهـر تل دوكـو Duku هو ومنحدره بتكرار الحوادث فى سائر أنحائه. كان أطفال الشوارع يتسكعون فى هذه المنطقة انتظارًا للقيام بالسلب والنهب وكانوا يدعون (الله) أن يقع حادث من الحوادث. هؤلاء الصبية لم يكن يستهويهم مجىء السيارات الخاصة مندفعة إلى هذا المنحدر. هذه النوعية من السيارات ليس فيها سوى الملابس القديمة والأشياء الخاصة بالأطفال. هذا بالإضافة إلى بعض العملات المعدنية القليلة، على حد قول هؤلاء الصبية. كان هؤلاء الصبية يغضبون، عندما يقع حادث من هذا القبيل، بل إنهم كانوا يوبخون رب العائلة لأنه اختار هذا المكان ليقع فيه الحادث. هؤلاء الصبية لم يكونوا يقدمون يد العون لأى أحد من الناس. كانوا يقفون فى مكان الحادث، وقوفًا لا مباليًا، وهم يتفرجون على الضحايا وهم يقاومون طلبًا للحياة، ولا يلقون بالاً للصرخات والعويل. أما هؤلاء الذين يمارسون الطب من بين هؤلاء الصبية، أو أولئك الذين يعملون لحساب السحرة والمشعوذين، كل أولئك

تراهم يحملون قواريرهم وأشياءهم. وتحسبهم جاءوا إلى دوكو لجلب الماء. لا. هذه الأوعية، كانوا يستعملونها فى جمع أكبر كمية ممكنة من دماء المصابين. بعض الأدوية كانت تتطلب شيئًا من دم البشر. كانوا يحصلون على الدم مجانًا من الحوادث التى من هذا القبيل. لم يكونوا بحاجة إلى إغراء أحد أو تتبعه، ثم قتله بعد ذلك من أجل زبائنهم الأثرياء. من الحوادث التى من هذا القبيل يستطيع المرء الحصول على كمية الدم التى يريدها مجانًا. بوسعك الحصول على كمية من الدم تكفى ثلاثة أو أربعة من العملاء الذين يكونون قد دفعوا مبالغ كبيرة، اعتقادًا منهم أن ذلك يجلب الناس إلى سحرهم وشعوذتهم. كان منحدر دوكو يقدم الدم الإنسانى طازجًا، وساخنًا وبلا ثمن.

إذا كنت ترغب فى الحصول على أعضاء بشرية يمكنك الحصول عليها أيضًا من منطقة منحدر دوكو. لكن هذه الأعضاء لم تكن لها أهمية. أنت لا تحتاج سوى إلى يد أو ثدى، وربما عين، أو رأس أو حتى عضو الرجل لكى تثبت للعميل أن الدم هو دم بشرى وليس مأخوذًا من الماعز أو الأغنام. لكى يثبت أنه قدم المقابل الحقيقى للنقود. وأن الدواء الذى أعددته له قوى بحكم استعمال الدم البشرى فى تركيبه.

لا، لم يكن هناك مثيل لمنحدر دوكو فى توفير الدم والأعضاء البشرية. تستطيع الحصول على ما تريد. ثم تنصرف إلى حال سبيلك. لم تكن هناك شرطة حتى يخافها الناس ويخشونها أو حتى يرشونها. ومع ذلك، كانت تلك الحوادث العائلية لها فائدتها أيضًا ؛ فى حال إذا ما

كانت هـناك مجـوهرات ذهبية يمكن خلعها من أصابع السيدة التى تلقى حتفها.

كانت الغنيمة الكبرى تحدث عندما يقع حادث لشاحنة محملة بحمل ثقيل أو عندما تنقلب مقطورة من المقطورات. آه ! عندئذ تستطيع أن ترى السعادة على وجوه هؤلاء المتسكعين أبناء الشوارع. فى مثل هذا الوقت يكون صبرهم وانتظارهم الطويل قد آتى أكله. البعض منهم قد يمتدحون السائق ويثنون عليه لأنه أفرغ حمولته عند أقدامهم. بل إنهم ربما يندفعون إلى السيارة الشاحنة قبل أن تتوقف تماماً. هذا يعنى أن هؤلاء الصبية يفهمون الصوت الصادر عن الإطارات عندما يلم بها حادث من الحوادث، أو عندما يفتقر السائق إلى السيطرة على عجلة القيادة ؛ كما يفهمون أيضاً الصوت الصادر عن المعادن والصلب نتيجة التصادم. فى بعض الأحيان. فى بعض الأحيان قد تبقى المقطورة بفعل الجاذبية فترة من الوقت فوق أحد الجسور، قبل أن تنقلب إلى النهر، وهنا يكون اللصوص قد أتوا على نصف الحمولة الخلفية. وتنتقل الغنيمة المسروقة على الفور إلى طاولات السوق والمحلات. وبهذه الطريقة استطاع بعض التجار أن يملئوا مخازنهم بأكياس الأرز، والجارى، والفول، والبازلاء، وأنواع أخرى من الأغذية. وإلى حد بعيد، كان أولئك الأشقياء واللصوص يركزون على الشاحنات المحملة بأكياس الأسمنت، والألواح المستخدمة فى عمل الأسقف، وعلب الكرتون، المليئة بالألوان والأصباغ، خلاصة القول، الشاحنات المحملة بمواد البناء غالية الثمن.

تلك كانت المواد التى كان موسى أوجيام Ugiame، والد فيث، ينقلها فى شاحنته، عندما لقى حتفه.

رفضت الشركة التى يعمل فيها موسى دفع أية تعويضات أو بدلات. كانت الشركة لا تزال مشغولة بإحصاء خسارتها. لقد خسرت الشركة ما قيمته ثلاثة ملايين نيرة من البضاعة فى ذلك الحادث والسلب والنهب الذى ترتب على ذلك الحادث. يبدو الأمر وكأن الشركة تقول : إن والد فيث كان على اتفاق مع السلابين النهابين. وإلا فلماذا اختار دوكو لتكون مكانًا للحادث ؟

حادث التصادم هذا تسبب فى عدم إكمال فيث تعليمها، وتسبب فى غروب شمسها فى وسط النهار. أما أمها، التى كانت بائعة بسيطة فى ذلك الوقت، فى السوق، فلم تستطع تحمل نفقات التعليم. يزاد على ذلك، أن أعمامها البعيدين وعماتها وأقاربها الآخرين، لم يقدموا يد العون أو يساعدوها. من ذا الذى يمكن أن يساعد ابن إنسان آخر فى استكمال تعليمه فى الوقت الذى يلهو فيه أطفاله أصحاب العقول الثخينة يلهون هنا وهناك ؟

مرحبًا، فيث، مرحبًا بك فى نادى المتسربات من التعليم.

طردوها من سكن الجامعة لأنها لم تدفع الرسوم. لكنها استمرت فى حضور المحاضرات من خارج أسوار الحرم الجامعى. لم يمنعها أحد من ذلك. كانت فيث متعطشة للعلم. كانت مشتاقة إلى قراءة كل

الروايات والمسرحيات التى كتبها الغرباء ؛ أو بالأحرى التى كتبها أشخاص غير معروفين لها، بعضهم توفى منذ قرون. ومع ذلك كانت موضوعات تلك الروايات قائمة إلى يومنا هذا بشكل أو بآخر. كانت فيث متيمة بالمحاضرات التى تدور عن شخصيات فيها أشياء غريبة بصورة أو بأخرى. كان هناك الأستاذة أوبارو **Ubaru** التى كانت تحاضرهم عن مسرحية روميو وجوليت. وعندما كانت مدام أوبارو تقرأ على الطلاب دور جوليت، كانت تمثل فتاة غارقة فى الحب. " ما الذى فى الاسم ؟ يا روميو (وهنا كانت مدام أوبارو تتلاعب بعينيها، وتغير صوتها إلى صوت حسى غرائزى له مذاق الغناء) هذا الذى نسميه وردة سيبقى زكى الرائحة مهما سميناه بأسماء أخرى. " وهنا يلتزم الفصل كله بالصمت ويبقى كل واحد ثابتًا فى مكانه. وهنا ترى كثيراً من الطلبة يتيهون فى الحب مع مدام أوبارو. لكنك إن تأخرت على محاضرتها، تجد تعبيرات وجهها تتغير. " ابعد عنى، واغرب عن وجهى "، وهنا تراها تبدأ فى الصياح والصراخ كما لو كانت ماكبث **Macbeth** بعد أن أصابه الرعب والهلع. كان طلبة مدام أوبارو فى مثل هذا الحال يقولون ما يقوله هارى **Harry** فى مسرحية أجينكورت **Agincourt** أو كلام مارك أنطونيو فى جنازة قيصر.

فى محاضرات التاريخ، كانت فيث تستعيد دراسة تاريخ " الثورة الصناعية " و "إلغاء الرق " و " الحركات المضادة للتمييز العنصرى ". بدت لها هذه الأشياء وكأنها بعيدة جداً.

يا لسقوط الأقوياء فى ميدان القتال ! كانت تنتحب انتحابًا مؤلمًا. فيث موسى أوجيام، أهذا هو أنت ؟ هذه الفتاه التعسة التى تعمل عاملة نظافة فى أحد عنابر العيادات فى مستشفى من المستشفيات، أهذا هو أنت ؟ هل أنت بحق الطالبة سابقًا فى الجامعة ؟

لو أخبرها أحد بأنها سوف تنتهى إلى عاملة نظافة فى أحد العنابر، فى عيادة من عيادات مستشفى من الدرجة الثالثة، لما صدقت ذلك. لكن هذه هى البطاقة التى أعطتها لها الحياة. لقد بحثت، وبحثت كثيراً، وعلى امتداد أشهر متعددة، متوسلة، وراجية، وملتمسة الحصول على عمل. كانت تقول لنفسها : أى شئ يكفى، مجرد كاتبة فى الأعمال الكتابية، أو ساعية، أو عاملة نظافة. أخيراً وبواسطة ممرضة صديقة، استطاعت الحصول على هذا العمل المتمثل فى نظافة العنابر. كانت تقول لنفسها : هذا مجرد عمل مؤقت. سوف تقوم بهذا العمل إلى أن يظهر لها عمل آخر أفضل. بقيت فى ذلك العمل فى المستشفى، وهى تعلم أنه سيكون واحداً من تلك الأشياء التى ستكون مؤقتة بصفة دائمة.

أخذت فيث تتعلم فن التمريض شيئًا فشيئًا من خلال مراقبتها للممرضات الأخريات وهن يؤدين عملهن. كانت قد تعلمت أيضًا المصطلحات الطبية الخاصة بتشريح الجسم البشرى والخاصة بالأمراض وكذلك المصطلحات الطبية الخاصة بمختلف العدد والآلات والمعدات المختلفة التى يستعملها الأطباء. كما حفظت عن ظهر قلب المصطلحات الصيدلانية وأسماء الأدوية والعقاقير والجرعات المختلفة.

كان بوسعها أيضًا الحقن فى الوريد والحقن فى العضل مرات عديدة. وفيما يتعلق بتضميد الجروح، وقياس درجة حرارة المرضى، وقياس ضغط الدم، وأخذ عينة الدم فقد أصبحت كلها أعمال روتينية عندها. وهى الآن، تستطيع إذا ما كانت إحدى الممرضات الليليات مشغولة اجتماعياً، القيام بعملها عن جدارة واستحقاق، إلى أن تجئ الممـرضة، أو فى حال عدم وجودها أصلاً.

أما الآن، فياليتها تتعلم القيام بعملية الإجهاض بسلام وأمان.. فتلك عملية جذابة ومربحة.

لقد ساعدت المدير الطبى مرات متعددة وهو يقوم بعمليات الإجهاض. إذ كانت توكل إليها مهمة تحضير المريضة للعملية. كانت فيث تطلب من المريضات خلع ملابسهن وترتدين ملابس المستشفى خضراء اللون. وكن يذهبن ويتبولن قبل إجراء العملية. ثم تقتاد المريضة بعد ذلك إلى الغرفة وتجلسها على طاولة العمليات. كانت ترفع رجلى المريضة إلى أقصى حد ممكن وتفتحهما إلى أبعد حد ممكن أيضاً.

كانت بعض النساء يشعرن بالقلق فى هذه المرحلة، ويرحن يهززن أوراكهن وهن خائفات وجلات. لكنهن لم يكن أمامهن مخرج للاختباء أو الفرار. كانت فيث تكشف عن وجهها الغليظ حتى تتمكن من المريضة.

" اهدئى، أنا سوف أحلق لك الآن مكان العملية، حاولى ألا تهزى أو تتحركى حتى لا تصابين بجرح أو أذى." ثم تبدأ بعد ذلك فيث فى حلق شعر العانة ومكان العملية.

هذا العمل عرّض فيث للاطلاع ورؤية الكثير الكثير من الأجزاء الخاصة فى أجسام النساء من بنات جنسها. وهنا خطر ببالها عنوان الكتاب أو الأوبرا التى تقول : إن النساء كلهن متماثلات. لا. هذا القول ليس صحيحاً. النساء لسن متماثلات. ربما يكن متشابهات ولكنهن لسن متماثلات. وهى عندما تقف بجوار طاولة العمليات، أمام النساء المجردات من ملابسهن، كانت تتاح لها فرصة ملاحظة السمات المختلفة فى بنات حواء. بعضهن لهن أوراك كبيرة ومتينة، فيها ثنيات مستديرة ومنتفخة، وهذه الثنيات تخفى الأعضاء التناسلية. هذا النوع من النساء تكون له بعض العلامات المرنة، علامات مرنة غير واضحة، وكتل من الشحم. بعض آخر من النساء لم يكن بدينات مثل هذا الصنف من النساء، بعض ثالث يكن رشيقات ومتماسكات الأجسام. بعض النسوة كن " صفراوات " المحيا. بعض آخر كن بنيات، وبعضهن كن سوداوات. فى بعض الأحيان، يمكن أن يَكون هناك خليط من الألوان. بعض السيدات تقمن بتقشير جلودهن. كن يستعملن نوعاً معيناً من الصابون ونوعاً معيناً من الكريمات التى تضفى عليهن الشقرة : مثل الكريمات المصنوعة من الليمون والمواد الأخرى. كانت وجوههن تبدو صفراء، أما بقية الجسم بدءاً من العنق إلى ما هو تحت العنق، فكانت داكنة اللون. وجه برتقالى وجسم داكن.

المحزن، أن بعض الزبائن كن مختتنات، أو إن شئت فقل مستأصلات، على حد الاسم الذى يطلقونه على البنات المختتنات. هذا

الختان ليس سوى تشويه للأعضاء. في الطفولة أو في سن البلوغ كان الهدف هو الحيلولة دون الاتصال الجنسي غير الشرعي في النساء عن طريق حرمانهن من المتعة الجنسية. يقول المجتمع الذكوري : " أنت لا تفقد ذلك الذي لا تعرفه، ذلك الذي لم تتذوقه ". كانت فيث **Faith** تعرف أن هذا الجدل لا أساس له من الصحة. لأن نساء كثيرات مختتنات وغير مختتنات كن منحلات، وكذلك المتزوجات، والعزباوات، والصغيرات، والكبيرات. الختان لا علاقة له بالمتعة الجنسية غير الشرعية. ربما كان الفقر سببًا. لكن هل يمكن أن يكون الاستئصال سببًا ؟ هؤلاء الذين يصرون على القيام بهذه العملية يفعلون ذلك من منطلق العادات والتقاليد، أو من منطلق الثقافة والحماقة، ومن منطلق الشر بغية وضع المرأة في مستوى أدنى.

خطر ببال فيث الشكل أو الحال التي يمكن أن تكون عليها هؤلاء البنات اللاتي جرى تختينهن في سن البلوغ، في ليلة الزفاف. تراهن ينكمشن خوفًا لرؤيتهن شفرة الحلاقة في يدها. كن معذورات فيما ذهبن إليه، فقد مررن بهذه العملية المؤلمة دون بنج، وهذا بحد ذاته ألم دفين. ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة والعجب إذ كانت هناك أعضاء أنثوية تناسلية مشوهة، ومكاحل مشوهة أيضًا. وبخاصة أولئك اللاتي لم تثبتن أثناء عملية الختان، أو اللاتي تحركن في اللحظة الحرجة، الأمر الذي جعل يد السيدة التي تقوم بالختان، تتحرك في الاتجاه غير الصحيح.

خطر ببال فيث أنها قرأت عن فتاة في فرنسا، سحبت والديها إلى ساحة القضاء لأنهما قاما بتختينها. وادعت عليهما أنهما حرماها من

حقها الإنسانى فى المتعة الجنسية. ووقفت المحكمة إلى جانب الفتاة لأنها حكمت على الأم وعلى المرأة التى قامت بعملية الختان بالسجن سبع سنوات...

استغرقت فيث فى التفكير، لأن ذلك لا يمكن أن يحدث فى هذا الجزء من الدنيا. أن ترفع قضية على الوالدين لأى سبب كان، هذا شئ لا يصح مطلقًا. هذا شئ لم يسبق أن سمعنا عنه.

هؤلاء هم أولياء الأمور يضطرون بناتهم كل يوم إلى قبول الزواج بناء على رغبتهما هما كأب وأم. هنا نجد الآباء والأمهات يجبرن بناتهن وهن فى التاسعة أو العاشرة من العمر على الزواج من رجال فى سن أجدادهن. وها هى النتائج المترتبة على ذلك يحصدها الجميع. هذه بنات صغيرات تجاوزن مرحلة الطفولة بفترات قصيرة جداً، يتزوجن، يحملن، وتعانين من الحمل. المراهقات الصغيرات لا يعين بعد كيف تسيطرن على بولهن وبرازهن. ناهيك عن الأمراض التناسلية على حد قول الأطباء. هؤلاء الأطفال مضطرات إلى لبس الحفاظات والفوط شأنهن فى ذلك شأن الأطفال الذين يحملون على أيديهن. ومع ذلك لم تسحب إحداهن والدها أو والدتها إلى ساحة القضاء.

نسمع بين الحين والآخر، عن رجل فى الثمانين من عمره يبتر أطراف زوجة مراهقة عقابًا لها على هروبها من بيت الزوجية التعيس متعدد الزوجات. ويقف الناس مكتوفى الأيدى لا يفعلون شيئًا. لا أحد يشتكى أحداً أمام القضاء.

لا. هذا لا يمكن أن يحدث هنا، قالت هذه العبارة وكلها قناعة. نحن لم نصل بعد إلى هذا المستوى الحضارى. وعليه فنحن نعانى من الظلم ومن المصائب التى يأتيها البشر فى صمت. هذا رجل يموت وهو يؤدى عمله، لمصلحة شركته ولا يحصل على تعويض لأسرته. لا أحد يحتكم إلى القضاء. المحاكم بحاجة إلى نقود. الحصول على حكم جيد، يحتم " رؤية " See القضاة. وتستبد الظنون بفيث وتقول : " الإعلان العالمى لحقوق الإنسان لم يصل بعد إلى هذه الأجزاء."

واصلت فيث سيرها فى اتجاه الطريق السريع، وذهنها سارح فى هذه الأفكار كلها. صحيح أن هناك ظلما فى الأرض، لكن السنوات التى أمضتها فى الجامعة غيرتها، وفتحت عينيها. لو قدر لى أن أُظلم مرة أخرى، فأنا لن أقول ماذا سأفعل. الأرجح أنى سوف أقاتل من أجل حقى مثلما تعلمنا فى الجامعة، فى تلك الأيام التى كانت عامرة بحركة اتحادات الطلاب، والمظاهرات والاضطرابات.

الآن أنا أعرف الأسباب التى تجعل بعض الناس يغازلون ويعددون. الآن، أنا أعرف الأسباب التى تجعل الناس يقولون إنهم لا يمكن أن يأكلوا حساء " البامية " كل يوم. هذا يعنى أنهم ينبغى أن يأكلوا حساءً آخر، ويتذوقوا نساءً أخريات. النساء يأتين فى أشكال وألوان مختلفة.

السواد الأعظم من الأعضاء التناسلية الأنثوية التى شاهدتها فيث على طاولة العمليات كانت تفوح منها رائحة نفاذة، تتراوح بين رائحة العرق ورائحة البيض المتعفن الفاسد. كانت هناك دومًا بقعة مخاطية

يميل لونها إلى الابيضاض بين ثنيات الشفرتين الكبيرين. هذه عدوى مهبلية، على حد قول الطبيب. إنها نوع من أنواع التخمر كريه الرائحة. يضاف إلى ذلك أن المضاد الحيوى الذى يستخدم مع الإجهاض يشفى من هذه العدوى أيضًا. والطبيب ينصح هنا من يعاشر امرأة مصابة بهذه العدوى أن يعالج نفسه منها بعد توقيع الكشف عليه.

لكن الذكور لا يأتون إلى العيادة طلبًا للعلاج. كانت فيث تسأل دومًا عن سبب ذلك، وكانت تطرح هذا السؤال على المرضات. قالت المرضات ربما كان ذلك ناتجًا عن كثرة عدد من يعاشرون البنات جنسيًا، وبالتالى لا يعرفن من الذى نقل العدوى إليهن. بعضهن ربما تخشين مفاتحة أزواجهن أو عشاقهن فى مسألة الذهاب إلى الطبيب طلبًا للعلاج. بعض آخر من المرضات يقلن إنَّ الرجال ربما بدافع من الخجل يؤثرون الذهاب إلى الصيدليّ أو إلى باعة الأدوية فى الأسواق ويطلبون منهم جرعات من المضاد الحيوى. الدواء يباع فى كل مكان، فى الحافلات، فى الشوارع، وحتى عن طريق النساء الأميات فى الأسواق.

يا أسفاه. كانت فيث تود بكل كيانها أن ترى الرجال وهم راقدون على طاولة العمليات، عارين تمامًا، حتى يمكن لها أن تدرسهم أيضًا. من المهم أيضًا، أن ترى فيث أيضًا كيف يعرض أو يقدم الرجال أنفسهم. إذا كانت النساء تصنفن، فالرجال لن يقلوا عنهن. قيل لها إن بعض الرجال أعضاؤهم تبلغ من الكبر حدًا لا يجدون له مقياسًا يناسبهم عند النساء، على الرغم من استعمال الكريمات والشحوم

الأخرى. وقيل لها أيضًا إن هناك بعض الأعضاء التى تبلغ من الصغر حداً لا يكون لها أثر معه سوى وخز صغير فقط. وهى تعرف أن الباقين لابد أن تكون أعضاؤهم بين هذا المقياس وذاك. ومع ذلك، كانت فيث نادمة لأنها لم تر ذلك.

كانت هناك شائعة تقول : إن الطبيب كان يجبى " إتاوة " من المرضى قبل أن يقوم بعملية الإجهاض. وكانت المعاملة الخاصة للسيدات صغيرات السن اللاتى لا يقوين على دفع تكاليف عملية الإجهاض. فى بعض الأحيان، قد يجبى الطبيب هذه الإتاوة من سيدات المجتمع وطالبات الجامعة أيضًا. كانت المرضات ينكتن، بأن ذلك جزء من المزايا التى يحصل عليها الطبيب. هذا يعنى أن الطبيب بوسعه أن يدخل أصابعه فى مكحلتك تحت ستار إنه يفحصك. آه من الرجال. إنهم لا يملون ذلك. آه من طبيب الإجهاض ! قد يظن المرء أنه ربما يمل بفعل كثرة الأعضاء التناسلية الأنثوية التى شاهدها.

لم تر فيث سوى الأجزاء الخارجية من أعضاء النساء التناسلية. ذلك هو مجال عمل الطبيب. فيما بعد هذه الأجزاء الخارجية يوجد الرحم والكيس النُّخطى، الذى يجرى شرخه لإخراج الجنين غير المرغوب فيه. لم تكن فيث تعرف الطريقة التى يتم بها ذلك. صحيح أنها شاهدت وشهدت على قلة قليلة من هذه العمليات، لكنها لا تستطيع أن تعرف ما يجرى بصورة دقيقة.

ذات مرة وبعد انقطاع التيار الكهربى، ونظراً أيضًا لنفاد وقود الديزل من العيادة طلبوا إلى فيث الحضور لتمسك بالشعلة. وكان عليها أن تسلط ضوء الشعلة على السيدة الممددة ومفرشخة على السرير فى حين كان الطبيب يقوم بعملية الإجهاض. كانت فيث، فى بداية الأمر تشعر بالقلق والغثيان، بل إنها كادت أن تتقيأ. ما هذا الدم كله ! وما هذا الدفع والشد فى الداخل. من يمن الطالع أن المريضة جرى تخديرها فى البداية.

فى مرة أخرى وعندما كانت المريضة المنابة مريضة، طُلب من فيث أن تحمل صينية الآلات الطبية للطبيب. كانت فيث قد تعلمت استعمال آلة أو اثنتين من هذه الآلات. في ذلك اليوم أجرى الطبيب إحدى عشرة عملية إجهاض، أمسكت فيث طوالها بصينية الأدوات.

نعم، الإجهاض عملية مربحة. لأن هناك دومًا نساء لديهن حمل غير مرغوب فيه. طالما يطارد الرجال النساء طلبًا فى تلك الفتحة الصغيرة التى بين أرجلهن لن تكون هناك نهاية للحمل. فى كل يوم من الأيام، وفى هذا المستشفى، وهو واحد من مستشفيات أخرى كثيرة من هذا النوع فى هذه المدينة، نجد أن متوسط عمليات الإجهاض يصل إلى حوالى عشر حالات يوميًا أو قد يصل العدد إلى إحدى عشرة حالة، فى حين تجرى خارج المستشفى حوالى اثنتى عشرة عملية إجهاض أخرى. الإجهاض عملية مربحة، وفى يوم من الأيام قد يكون لديها عيادة من هذه العيادات.

فى بعض الأحيان، كانت فيث تعجب لهؤلاء النساء العاقرات اللاتى يبحثن عن الخِلْفة وسط هذا الكم الكبير من عمليات الإجهاض.

قال الطبيب إنّ بعض هذه النساء العاقرات ليس لهن أرحام. وأنهن فى شبابهن ذهبن إلى طبيب مدعٍ ليقوم لهن بعملية الإجهاض. وربما يكون هذا الطبيب الجاهل قد أزال كلا من الجنين والرحم. المرأة التى تكون من هذا القبيل يستحيل أن تحمل بأى حال من الأحوال. واقع الأمر، أنهن يكن محظوظات لبقائهن أحياء. ومع ذلك الطبيب " يعالجهن "، ويعطيهن أقراصًا، وحقنًا ويكلفهن أتعابًا كبيرة. ومع ذلك، يطلب إليهن مراجعته عندما يرين الدورة الشهرية مرة ثانية، وهن بدورهن يطعن كلام الطبيب. كانت عملية جيدة، تساعد على بقاء الطبيب مشغولاً طول الوقت، على حد إدراك فيث لهذه العملية وفهمها لها.

انتهت وردية الليل عند الساعة السادسة صباحًا. كانت فيث تعمل الليل بطوله فى التنظيف، وتهدئة المرضى القلقين، وفى إعطاء الدواء. لم تغمض عيناها لحظة واحدة، وكانت تتشوق إلى طلوع الفجر كيما تقصد الدكان الذى تشترى منه الخبز. هذا الخبز سوف يأكله الأطفال قبل الذهاب إلى المدرسة. أما الجزء المتبقى فسوف يأكلونه فى محطة الحافلة. لم يكن ذلك الجزء كبيراً، لكنه إذا ما أضيف إلى راتب عاملة النظافة المتواضع، فإنه يشكل وسيلة من وسائل العيش والحياة. هذا الراتب البسيط كان يفى بإيجار المسكن، ومصاريف التعليم، وثمن صنادل الأولاد، مع أنه لم يكن يفى بثمن الكتب أو الزى المطلوب للأبناء. كما كان الراتب يفى أيضًا بشراء الدواء المطلوب للوالدة.

كانت فيث غارقة فى أفكارها إلى حد أنها لم تلاحظ السيدة المهندمة التى كانت تراقبها.

قالت تلك السيدة مخاطبة فيث : " عفواً، يا أختى. "

فى هذا الجزء من البلاد، ينادى الغرباء، من المرحلة السنية الواحدة، بعضهن البعض بكلمة " أختى " فى حين يخاطب الصغار الأكبر منهم سناً بكلمة " عمتى ".

" من أين أركب وسيلة نقل إلى نيو New تاون Town ؟ "

" تقولين نيو تاون ؟ هذا الجزء هو نيو تاون. أنا ذاهبة إلى هناك. وعليه يمكن أن تتبعيني. هناك محطة للحافلات قريبة من هنا. "

" شكراً لك. هل سيارات الأجرة تقف هنا أيضاً ؟ أنا أبحث عن سيارة أجرة كى أستقلها. "

" هنا سيارة أجرة أيضاً. هذه السيارات تحصل على أجرة أكبر كثيراً من الأجرة المعتادة ؛ وعليه لن أستطيع الركوب معك. قفى هنا وشاورى لواحدة من سيارات الأجرة. "

" إذا كنت ذاهبة فى الاتجاه نفسه فأنا ليس عندى مانع من آخذك معى. ولن تدفعى شيئاً. "

نظرت فيث إلى السيدة المهندمة مرة ثانية، بمزيد من المراقبة. مسألة البحث عن سيارة أجرة فى الوقت الذى يتجه فيه السواد الأعظم

إلى ركوب الحافلات، تعنى أن هذه شخصية مختلفة. واسترقت فيث نظرة إلى السيدة التى سمحت للناس بالنظر إليها. ما رأته فيث كان عبارة عن امرأة من مرحلتها السنية، لكنها من طبقة اجتماعية أعلى من طبقتها، وهذا من منطلق حكم فيث على هذه السيدة من مظهر ملابسها. من قمة رأسها إلى قدمها، كانت تلك السيدة تبدو " عصرية ". وفى ضوء النور الذى كان منبعثًا من المطاعم المجاورة، استطاعت فيث تبين ملامح هذه السيدة التى كانت تلبس جونلة من الحرير، وتحمل فى يدها حقيبة من الجلد حمراء اللون وحذاء أحمر اللون أيضًا ؛ وكان يتدلى من أذنيها حلق من الذهب ؛ وشعرها مصفف على طريقة بوب **Bob** مارلى **Marley**، كما كان وجهها يحمل مكياجًا جيد الصنع ؛ وتفوح منها رائحة عطر غالى الثمن.

كان وجه تلك السيدة ليس غريبًا تمامًا على فيث. كانت على يقين من أنها سبق لها رؤية ذلك الوجه فى مكان ما، لكن ذاكرتها لم تسعفها بمعرفة ذلك المكان. لم تستطع تحديد ذلك المكان.

" أنا آسفة لنظرى إليك بهذه الطريقة الوقحة. لكن وجهك ليس غريبًا علىّ. ربما أكون قد رأيتك فى العيادة ؟ " أعداد كبيرة من النساء والبنات يفدن إلى العيادة طلبًا لإجراء عملية الإجهاض.

" أم أنك كنت فى مدرسة إجرومى **Ijeeromi** فى مطلع التسعينيات ؟ تساءلت فيث ".

" نعم، هذا صحيح، على الرغم من أنى لم أنه دراستى. لقد توفى والدى عندما كنت فى الصف الثالث. وعليه كان لابد من ترك المدرسة. هل التحقتِ أنت أيضًا بتلك المدرسة ؟ يا لصغر هذا العالم ! "

" نعم، لقد التحقت فعلاً بهذه المدرسة. وتخرجت من تلك المدرسة فى العام ١٩٩١ والتحقت يونبست UNIBEST. وأنا بدورى أيضًا اضطررت إلى ترك الجامعة بعد وفاة والدى ولم يستطع أحد أن يكفلنى بعد ذلك ".

" حسن، إنها لفرصة طيبة أن ألتقيك ".

" أنا فيث، فيث أوجيام "

تصافحتا، وكانت فيث تشعر بالحرج من صلابة يدها وخشونة راحة يدها مقارنة بطراوة راحة يد تلك السيدة الغريبة. لقد عملت المطهرات هى وسوائل الغسيل عملها فى أيدى فيث.

" أنا اسمى ليزى Lizzy. ليزى جونسون Johnson. هل أنت فى عجلة من أمرك ؟ لماذا لا نجلس سويًا فى حانة من هذه الحانات ونشرب سويًا شيئًا من البيرة. "

" واقع الأمر أنى تأخرت كثيرًا. فأنا أمضى وقتًا طويلاً فى التنقل بالحافلات التى تقف فى كثير من المحطات. "

" سوف أوصلك بعد ذلك بالتاكسى. وبذلك لن تضيعى وقتًا فى الحافلة. "

تبعت فيث ليزى Lizzy إلى أقرب مطعم / بار والذى يطلقون عليه اسم " لا عليك من زوجتك ". راحتا تتعرفان بعضهما بعضاً عن قرب. راحتا تتذكران الأيام الخوالى، ومعارفهما ومدرسيهما.

" هل تذكرين كيف كنا نتسلل خارجين من المدرسة ؟ وكيف كان البواب الجاهل يصر على تدوين أسمائنا فى الدفتر، الذى يقوم بعد ذلك بتسليمه إلى ناظرة المدرسة ؟ وكان من عادة البنات أن يكتبن أسماءهن التى من قبيل الأيدروجين، على أن يكون اللقب أكسوجين. بعضهن كن يوقعن أسماءهن على أنها كلوريد الصوديوم، وأخريات سلفات المنجنيز. هل تتذكرين ذلك كله ؟ " كانت ليزى تطرح هذه الأسئلة كلها، وهى تضحك بصوت عال.

" فعلاً. كم كان ذلك شيئًا طريفًا. كان البواب المسكين يمضى متفاخراً صوب مكتب ناظرة المدرسة، ومعه القائمة المدونة فيها أسماؤنا. وأنا مازلت أذكر تعليق ناظرة المدرسة فى طابور الصباح عندما تقول : يا بنات، يا بنات، إذا ما وصل الأمر إلى الكيمياء فأنتن لا تعرفن شيئًا، لكنكن عندما تتسربن خارجات من المدرسة، تتذكرن جيداً أسماءكن الكيمياوية. آه ! أين منا تلك الأيام. "

والذى لابد منه، هو أن هذا الكلام مستمر إلى يومنا هذا. كان واضحًا أن الاثنتين تنتميان إلى عالمين مختلفين، وإلى طبقتين مختلفتين من طبقات المجتمع. عاشت فيث حياة صعبة فى حين عاشت ليزى حياة صنعها لها غيرها. المدرسة واحدة، والتسرب من الدراسة واحد أيضًا، ومع ذلك كانت الحياة فى بعض مراحلها حانية على ليزى Lizzy.

لم تكن فيث حاسدة أو حاقدة. كل ما فى الأمر أنها كانت تتوق إلى معرفة الطريقة التى يمكن أن تخرجها من هذا البؤس والشقاء، كانت تود أن تعرف الطريق إلى الحياة الطيبة، وإلى شراء الملابس، والطعام، دون أن تلقى بالاً لما يتبقى من مال فى حافظة نقودها. كانت فيث تحلم بافتتاح عيادة صغيرة فى ركن من أركان البلدة التى تعيش فيها، وتدير هذه العيادة لخدمة الأمومة. تود الانتقال من خادمة تقوم بتنظيف العنابر إلى رئيسة ! ألم يكن ذلك سببًا فى مراقبتها اللصيقة بالممرضات، حتى تتمكن من تعلم هذا العمل ؟ لم تكن قادرة على الالتحاق بمدرسة من مدارس التمريض، لعجزها عن توفير المصروفات المدرسية. وعليه، كان عليها أن تراقب هيئة العاملين مراقبه لصيقة قدر المستطاع، حتى تتعلم منهم. لقد تعلمت الكثير بالفعل. كل ما تبقى لها لا يعدو أن يكون معرفة طريقة الإجهاض نفسها. هذه الطريقة هى التى تروج العمل فى مثل هذه العيادات. وأنت كطبيب إن عولت على الملاريا، وعلى البارسيتامول، والنيفاكوين فى دفع إيجار العيادة، فالأفضل لك أن تعود إلى المدرسة من جديد. لا إلى مدرسة الطب، وإنما إلى مدرسة التجارة.

يمكنها بعد ذلك الحصول على شهادة مزورة من واحدة من مدارس الحاسب الآلى المحيطة بها. فقد قالوا لها إنَّ الحاسب الآلى يستطيع طباعة أى شئ. وستقوم بعد ذلك بتكبير الشهادة وتعليقها فى مكان واضح فى مدخل العيادة. عيادة فيث. ذلك هو الاسم الذى قررت أن تطلقه على العيادة. ستطلق عليها بالفعل اسم " عيادة فيث أودا. "

عيادة صغيرة من هذا المستوى يمكن أن تفتح فى بلدة صغيرة مثل بلدة أودا Oda. وربما استطاعت ليزى أن تفشى لها بعض الأسرار، وتعطيها فكرة أو اثنتين عن تمويل هذا المشروع الصغير.

كانت ليزى تقول لفيث : " أنا مثلك، واحدة من بنات بنين. وقد تربيت فى هذه البلدة في حي مندي Mende. وكما قلت لك : فقد التحقت بمدرسة أجرومى Ijeeromi . وقد غادرت بنين قبل ثلاث سنوات لمحاولة تحسين حالى. وبفضل الله، أنت تشاهدين ما أنا عليه. وقد وعدت الله أن أساعد الناس الأقل حظًا، مثلما ساعدتنى عمتى. إذا كنت تودين عملاً، بأجر أفضل، فابلغينى بذلك. هذه هى بطاقتى ؛ مدون عليها رقم تليفونى. إذا كان لديك أخت أو صديقة تود العمل بجد، العمل بجد لمدة عامين أو ثلاثة أعوام، ويتحقق لها بعدها ما تريد، أخبريها بأن تتصل بى. وأنا سوف أعود إلى أوروبا مع نهاية الأسبوع القادم وسوف أسافر أيضًا إلى أمريكا. لكنى سوف أعود إلى البلاد فى وقت من الأوقات. إذا لم تجدينى، حاولى الاتصال أكثر من مرة، أو اتركى لى رسالة. هذا مكتب شقيقى. "

تناولت فيث بطاقة تلك السيدة المهندمة. وألقت عليها نظرة. كانت البطاقة تحمل عنوانًا فى إيطاليا. وفى الجزء الخلفى من البطاقة كان يوجد عنوان ورقم تليفون فى مدينة بنين، مدون بالقلم.

سألت فيث، " ما نوعية العمل الذى تقصدينه ؟ "

قاطعتها ليزى قائلة : " ما نوعية العمل الذى تقومين به حاليًا ؟ "

قالت : " مساعدة ممرضة فى عيادة من العيادات. "

" فهمت. وكم تتقاضين كل شهر ؟ "

" واحد وخمسة. "

" تقصدين أنك تحصلين على ألف وخمسمائة نيرة. أى ما يعادل خمسة عشر دولارًا، هذا كلام فارغ. وكيف تدفعين أجرة مسكنك ؟ "

" أحاول تدبير ذلك. وأنا لا أسكن فى شقة وإنما مجرد غرفة. أنت تعرفين... "

" هل أنت متزوجة ؟ "

" لا. لقد ولدت لكى أكون. "

" فى بنين،

فى بنين يستخدم الناس اللغة الإنجليزية ولغة أخرى خلاسية. والناس فى بنين يستعملون اللغة الخلاسية أكثر من الإنجليزية، لكن المتعلمين يستعملون اللغتين وينتقلون من هذه إلى تلك.

" كم طفلاً لديك ؟ "

" ثلاثة. ليسوا كلهم أبنائى لكنهم يعيشون معى. "

" حسن، يا فيث، أعدك بحياة أفضل من الحياة التى تعيشينها حاليًا. وكما ترين فى بطاقتى، أنا أعيش حاليًا فى إيطاليا. بوسعى أن أحصل لك على عمل هناك. هل سبق لك السفر إلى الخارج ؟ "

" لا. مطلقًا ! أقصى مكان سافرت إليه هو ليجوس وكان ذلك منذ زمن بعيد. "

" لا داعى للقلق. سوف تعدلين ما أنت فيه. إيطاليا تكاد تكون شبيهه بنيجيريا فيما عدا فصل الشتاء، الذى يشبه رياح السموم عندنا. بوسعى أن أحصل لك على عمل فى إحدى المستشفيات لتقومى بما تقومين به الآن. وإلا بوسعك أن تقومين بغسل الأطباق فى أحد المطاعم. بالطبع ليس مطعمًا فقير الحال مثل المطعم الذى نحن فيه حاليًا. أنا أتحدث عن مطعم من المطاعم التنفيذية الكبيرة. البقشيش وحده الذى تحصلين عليه من الزبائن يزيد على راتبك الذى تتقاضينه هنا. الناس فى إيطاليا أيضًا قد يعملون فى جنى الطماطم والفواكه فى المزارع. هناك إمكانات كثيرة. المهم فى الأمر هو الراتب الجيد. الرجل الأبيض يحصل على ما يسمونه الحد الأدنى للأجر، أى أصغر أجر يمكن أن يتقاضاه العامل الأبيض. هذا الأجر حاليًا... دعينى أحسبه لك... "

وهنا أخرجت ليزى من جيبها آلة حاسبة، وضربت عليها بعض الأرقام. كانت فيث تسمع كلمة مليون بين الحين والآخر.

" واحد مليون وأربعة من عشرة من المليون ليرة، أى ما يقرب من سبعمائة دولار في الشهر. وهذا يعادل حوالى سبعين ألف نيرة. فى الشهر، انتبهى. "

تعجبت فيث قائلة : "يا الله ! سبعين ألف فى الشهر ! لمجرد غسيل الأطباق، أو جنى الطماطم ! يا أختى، احكى لى قصة أخرى، أرجوك. صحيح أنى لم أسافر إلى الخارج لكنى لست عبيطة أو غبية. "

" صعب أن يصدق الإنسان هذا الكلام فى بداية الأمر، لكن هذه هى الحقيقة. لقد اعتاد أهلنا على المعاناة إلى حد أنهم لا يتخيلون وجود حياة أفضل فى أماكن أخرى. انتقلى فقط إلى أيكوى Ikoyi وإلى جزيرة فيكتوريا فى ليجوس وسوف ترين الفرق بين الناس فيهما والناس الذين يعيشون فى إجيجونل Ajegunle وماروكو. وهنا أيضًا فى بنين، تجدين أن الأثرياء يحيون حياة طيبة فى كل من منطقة جرا Gra وطريق Road ريزرفيشن Reservation، فى حين يعيش أناس آخرون مع النفايات والمخلفات فى مناطق أوجيدان Ogidan، وفى منطقة أوليها Oliha. الفجوة بين البيض وبين أهل جزيرة فيكتوريا شبيهة بذلك. " وهنا فتحت ليزى راحتى يديها فتحة واسعة. ما الذى، فى رأيك، يجعل الرجل الأبيض، أو الأوييو Oyibo. كما نسميهم نحن، يُصَعِّب على مواطنينا السفر إلى بلده ؟ سبب ذلك أن مواطنينا إن ذهبوا إلى هناك فلن يعودوا مطلقًا. وما هو السبب وراء عدم العودة هذه ؟ السبب أن الحياة هناك أفضل من الحياة هنا. وقف تام. صنابيرهم فيها ماء، طوال أربع

وعشرين ساعة. ماعليك إلا أن تفتحى صنبورك ليندفع الماء خارجًا منه. هذا موجود أيضًا فى القرى ! هناك أيضًا مضخات عامة فى الشوارع، يشرب منها العطشى، أو أولئك الذين يودون غسل أيديهم أو أى شئ من هذا القبيل. ليست هناك طوابير، لا أحد يتشاجر مع الآخرين من أجل دلو من الماء. أنت تذهب إلى المرحاض وتستخدم السيفون فى إزالة المخلفات. الأمر على العكس من هنا حيث يتغوط عشرة أفراد دون إزالة المخلفات، نظرًا لعدم وجود الماء. لا توجد خزانات للماء (أسمتها منظومة للماء). الناس هنا لا يزالون يستعملون الدلاء. أنت تذهب إلى المرحاض لتستنشق دوسنتاريا الآخرين". وهنا راحت ليزى تتفل.

قاطعتها فيث قائلة : " يا أختى ! أنت تتكلمين عن استعمال السيفون فى تنظيف المرحاض. وما بالك فى ماء الشرب هنا ؟ إذا لم يسقط المطر هنا فسوف يعجز البعض منا عن الحصول على ماء الشرب. هذا يحدث فى مدينة كبيرة مثل بنين. تخيلى الحال الذى ستكون عليها القرى. نصف البلاء الذى يودى بحياة السكان يكمن فى ماء الشرب غير النقى، عدم توفر الماء اللازم للشرب، أو ذلك الذى يطلق عليه البيض مياه الشرب. " لقد استرقت فيث السمع على الأطباء وهم يقولون هذا الكلام.

جرت العادة، عندما يعود بعض النيجيريين بعد تمضية مدة قصيرة فى الخارج، تراهم يزجون وقتهم بالتجوال فى أنحاء البلاد، ويروون على رفاقهم وأصدقائهم، الظروف الجيدة التى عاشوا فيها فى الخارج.

ويروحون يقارنون ما كانوا فيه بالحال التى عليها البلاد فى نيجيريا، وبذلك يبذرون بذور الاستياء وعدم الرضا عن الظروف الحالية، الأمر الذى يسفر عن الكراهية الشديدة لوطنهم وأرضهم الأم.

واصلت فيث كلامها وهى تحكى قصة مروعة، " فى المكان الذى أعيش فيه، حبا طفل صغير وسقط فى بئر عميقة حفرها الناس فى فناء المنزل طلبًا للماء. وأتى واحد من السكان بذلك الطفل فى دلوه، بعد أن أنزل الدلو فى البئر لجلب شئ من الماء. هل لك أن تتخيلى هذا ؟ نحن فى القرن الحادى والعشرين ؟ والناس يعتمدون على مياه الأبيار ".

" وماذا عن الكهرباء ؟ انظرى إلى المنطقة التى تعيشين فيها – المنطقة فى ظلام دامس. بلغنى أن هذا الحال قائم منذ أيام عدة، وأن محولاً من محولات الكهرباء أصيب بأضرار، وأن هيئة الكهرباء تبحث عن المتسبب فى تلك الأضرار. إلى متى يستمر هذا الوضع فى رأيك ؟ انظرى إلينا هنا فى الظلام. هناك فى إيطاليا، لم أسمع صوت أى مولد من المولدات الكهربية، لم أر مولداً واحداً منها، نظراً لعدم وجود هذه المولدات. لا أحد يحتاج هذه المولدات. الأماكن الوحيدة التى شاهدت فيها الشموع فى إيطاليا هى الكنائس. الناس هنا لا يزالون يستعملون الشموع فى الإضاءة. فى إيطاليا النور موجود طوال أربع وعشرين ساعة. عندهم أيضاً أنوار فى الشوارع لمن يتحركون أثناء الليل".

" وماذا عن الوقود، يا أختاه هل لديهم وقود ؟ أم أنهم يقفون فى طوابير مثلما نفعل نحن هنا ؟ أنا أسمع أنهم يشترون منا الوقود، إذن

طالما ليس عندنا وقود، فهم ليس عندهم وقود أيضًا. أنا واقفة أنتظر الحافلة هنا منذ أكثر من نصف ساعة. السواد الأعظم من تلك الحافلات واقفة على شكل طابور طلبًا للتزود بالوقود من محطة المحروقات. الكل ينتظر وصول الشاحنة الصهريج ".

فيث، لابد من مجيئك حتى ترين بنفسك هذا الذى أتحدث عنه. أرض الرجل الأبيض لا تعانى أى نقص أو عجز فى أى شئ من الأشياء. أنا لم أر طابورًا فى محطات التزويد بالوقود. والعجيب أنهم لا ينتجون البترول ! إنهم يشترونه من نيجيريا. سيارتى موجودة فى محطة المحروقات. لقد أمضى سائق السيارة ليلتين فى المحطة، فى انتظار الحصول على البنزين. تخيلى ليلتان ! " ورفعت ليزى إصبعيها السبابة والوسطى. " وعندما جاء الدور عليه، كان البنزين قد نفد، وعاد السائق خائب الأمل. وهو منذ الصباح اليوم موجود فى محطة موبيل، على الطريق الدائرى، ضمن الطابور الواقف هناك".

" أختاه أنت تتحدثين عن ليلتين فى محطة المحروقات. أنا عمى توفى الشهر الماضى فى وارى Warri. بلغه أن بعض الناس فجروا أنبوبًا فى أحد الأماكن، وعليه ذهب المسكين ليحصل على وقود مجانى. أشعل واحد من الناس النار كى يدخن سيجارة أو شيئًا من هذا القبيل. واحترق الرجل بفعل هذه النار. وابنته أوساس Osas تعيش معى حاليًا".

" قرأت فى جريدة الأوبزفر Observer، أن منزلاً كاملاً احترق عن آخره فى يوزيلو Uselu. كان مستأجر من المستأجرين قد أفلح فى شراء

صفيحة من الوقود احتفظ بها داخل منزله فى غرفه نومه. وعندما انقطع التيار الكهربى أشعلت زوجة هذا الرجل شمعة لكى ترى الأشياء أثناء الليل. وانفجرت صفيحة الوقود، وأحرقت المنزل بكامله إلى أن انهدم على ساكنيه، بما فيهم بعض المستأجرين الذين كانوا نائمين. يقولون إنّ المطافئ لم تأت إلا بعد الحريق بفترة طويلة. كان أحد الناس قد ذهب إلى مكتب المطافئ جريًا كى يبلغهم بالحريق. وعندما جاء رجال الإطفاء، لم يجدوا ماء ولم يكن معهم طفايات حريق كى يطفئوا بها النار".

"هذا شئ يحدث كل يوم. هناك فى المجمع الذى أعيش فيه، مستأجر، سائق تاكسى كان يخفى صفائح البنزين فى البئر. كان الرجل يبتغى بذلك تجنب نشوب الحريق. حفر الرجل حفرة أو شيئًا من هذا القبيل بالقرب من البئر وخزّن فيها الوقود. وعندما كان يحتاج إلى تموين سيارته بالوقود كان يذهب إلى تلك الحفرة ويخرج منها صفائح البنزين. نجح الرجل فى إخراج واحدة من تلك الصفائح. ثم ذهب الرجل لإحضار الصفيحة الثانية، لكنه لم يخرج من الحفرة. يقولون : إنه لابد أن يكون قد انزلق داخل البئر ومن فوقه صفيحة البنزين. جثمانه ما يزال فى البئر. وأسرته لا تعرف كيف تخرج جثته من البئر ".

" فى ذات الوقت تسمم البئر، ناهيك عن الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثمان المتحلل. يا فيث، اسمعينى، بوسعنا الاستمرار فى هذا الكلام إلى ما لا نهاية. لا مستقبل لأى أحد فى هذه البلاد. صدقينى. وهذا هو السبب وراء مغادرة الناس نيجيريا من سائر الأنحاء. قد

تحاول الحكومة إصلاح الأحوال فى نيجيريا ولكنها تحتاج إلى عمر مديد لإصلاح هذه الأمور. هذه بطاقتى معك. اتصلى بى عندما تكونين مستعدة وجاهزة. لا تتأخرى علىّ. بنات كثيرات يتلهفن على العرض الذى أقدمه لك. غداً سوف أسافر لحضور أحد المآتم. وسوف أعود بعد يومين. لا تنسى، إن كان لديك بنات أخريات أو صديقات يرغبن فى السفر... هيا بنا، سنستقل سيارة أجرة حتى لا تتأخرين. أنا لدى هاتف محمول هنا. يمكننا الاتصال بمكتبك ونخبرهم أنك فى الطريق إليهم " .

الفصل الرابع

عندما حان موعد دفن رفات إسحاق أويرجو Owerejo في الأرض، اقتادت النساء أرملته خارج السكن، إلى ركن من الأركان خلف المجمع السكنى لكى يحلقن شعرها المنمق الجميل. كان الشعر كثيفًا وأشعثًا، نظراً لأنه منذ وفاة زوجها قبل أسبوعين، لم تمرر مشطًا خلال هذا الشعر. هذه الأرملة، واسمها انجلينا Angelina كانت جميلة جداً، شقراء المحيا ومتوسطة العمر. يضاف إلى ذلك أن بعض الرجال، كانوا ينظرون إلى انجلينا على نحو يوحى بأنهم يقولون : فلتنته هذه الطقوس، لعل هذه الطقوس العرفية تمر وتنتهى...

أجلستها النساء على كرسى مدوّر والتففن حولها، يحجبن عنها منظر القبر المفتوح وعملية الدفن التى كانت تدور على بعد خطوات قليلة. كن يترنمن بترانيم، ومدائح لتشتيت انتباه الأرملة المسكينة، لكنها بين الفينة والأخرى كانت تطلق صيحة ولولة وعويل، وتنهيد، وتستعمل أطراف ثوبها فى مسح دمعة أو دمعتين من عينيها الحمراوين. فى مثل هذه اللحظات كانت النساء يزدن من ترانيمهن، فى حين كان البعض منهن يواسين الأرملة المسكينة وهن يقلن : " كفى، هل تريدين أن تفقدى

عينيك ؟ " بعض آخر من النساء كن يذكرنها بأطفالها السبعة الصغار، الذين يتعين عليها أن ترعاهم وحدها، وكن يشجعنها على التماسك.

كانت انجلينا Angelina قد اختارت شقيقة زوجها الراحل، فرانكا Franca لكى تقوم هى بحلق الشعر. كانت النساء قد اشترين علبة من الموسى ماركة النمر لاستعمالها فى حلق شعر انجلينا. كانت انجلينا محظوظة. يوم أن كانت أمها على قيد الحياة انكسرت إحدى القوارير واحتفظت بقطعة من تلك القارورة المكسورة لاستخدامها فى هذه الطقوس. كانت لامينا Lamena شقيقة انجلينا تقف إلى جوارها، وفى يدها كيس من البلاستيك، لتجمع الشعر الذى يسقط بفعل الموسى التى تستعملها المرأة القائمة بحلاقة الشعر. يضاف إلى ذلك، أن لامينا نفسها سوف تحمل هذا الشعر إلى مكان أمين، بعيداً عن متناول أعداء انجلينا.

كانت النسوة يسمعن من المكان الذى هن فيه مراسم عملية الدفن التى تجرى فى مكان آخر من المجمع.

كان صوت القسيس الذى جاء من كنيسة القديس ميخائيل، مسموعًا وهو يقول : خُلقت من تراب، وسوف تعود إلى التراب ؛ كان ذلك الكلام على بعد أمتار قليلة من النساء. أشار القس إلى حاملى بساط الرحمة بالاقتراب من الفتحة وهو يرشش الماء المقدس على التابوت وفى القبر الذى كان لا يزال مفتوحًا وجوعان. فُتح غطاء

التابوت وتقدم اثنان من إخوان الميت : عم وابن العم، وهما فى عرف الإخوان طبقًا للأعراف الأفريقية. تقدم الرجلان تقدمًا بطيئًا، والأسف ظاهر على وجهيهما، نظرًا لأن إسحاق كان هو رب العائلة.

راحت انجلينا تندب حظها وتتأوه. الآن، وبعد رحيل إسحاق، الشئ الوحيد المؤكد هو أن المستقبل أصبح غير واضح بالنسبة لها. ثروة الرجل سيجرى توزيعها على إخوانه. كما أن الأرملة، سوف يرثها أيضًا واحد من هؤلاء الأشقاء، لكنها سيكون معها أفواه كثيرة.

واقع الأمر أن الأحداث قد تحولت تحولاً حزينًا لتدمير واحد من البشر. لقد فعل العدو فعلته. كانت انجلينا من داخلها تلعن مرتكب الجريمة.

الجريمة واحدة من جرائم القتل. الموت فى أفريقيا لا يعد أمرًا طبيعيًا. لا أحد يموت فى الموعد الذى حددته الآلهة. هذا يعنى أن الوفاة لابد أن تكون بفعل فاعل. فى مثل هذا الظرف، يذكر الناس أن المتوفى سبق له أن تشاجر مع شخص فى السوق بشأن مجموعة من ثمار السيام وأن ذلك الشخص قال للمتوفى " سوف ترى ".

أشياء كثيرة تؤدى إلى الشجار فى إفريقيا، وبخاصة ما يتعلق من هذه الأشياء بالأرض. ونظرًا لعدم وجود المحاكم السريعة العادلة، فقد راح الناس يأخذون حقهم بأيديهم. الشئ المخيف هو أنه لم يكن هناك معيار متدرج للعدالة. كان الحكم يقضى بالإعدام فى معظم الأحيان فى

كل الجرائم، حتى وإن كان الخصم طيب القلب فى بعض الأحيان، إذ يمكن أن يوصف بالجنون، بدلاً من طيبة القلب.

وعليه عندما كان إسحاق يعود إلى منزله قادمًا من اجتماع عقد فى بلد من البلدان، وعندما كان يشتكى من الإرهاق والتعب، وعندما كان يشكو من تلبك معدى وصداع شديد، كانت زوجته تشك أن الرجل ينقصه شئ ما ؛ وعندما كان الرجل يرفض تناول حساء السيام ومعه اليخنة الحارة المفضلة عنده، بالإضافة إلى طبق المساء المعتاد ؛ كل ذلك جعل الزوجة تتشكك فى كثير من الأمور. ويبدأ إسحاق فى التقيُّؤ بعد ذلك. وهنا تندفع انجلينا إلى الجيران تطلب مجئ أم إسحاق ننى Nne، كما تطلب أيضًا مجئ إخوانه الذين يأخذونه إلى مستشفى خاص فى نيو New ماركت Market رود Road. لم يكمل إسحاق الليل على الرغم من الحقن الكثيرة، والمحاليل والأدوية التى أعطيت له بواسطة هيئة العاملين فى المستشفى.

بدأت الأسرة، تطرح أسئلة حول ما دار فى الاجتماع. قال الناس : إن إسحاق غضب وهاج وماج لأنه لم يرد للمستوصف المجانى الجديد أن يطال أرض والده. وقال من حضروا الاجتماع إنّ الاجتماع لم يحدث فيه أى شئ غير عادى : وأنه لم يجر تناول أى شئ من الطعام. ولم يجر تقديم أى نوع من المشروبات، ومن واقع الخبرة فإن هذه المرطبات لا يجرى توزيعها إلا فى نهاية المحاورات والمناقشات.

يزاد على ذلك أن إسحاق لم ينتظر إلى نهاية الاجتماع. لكن ماذا عن ثمار الكولا ؟ ألم يجر تقطيع الثمرة وتقاسمها ؟ كل الناس يعرفون أن ثمرة الكولا شئ لا يمكن الاستغناء عنه في التجمعات الثقافية والاجتماعية. ترى، هل كان نصيب إسحاق من الكولا مسممًا ؟ من هو الذى يتمنى وفاة إسحاق ؟ كان الناس يتعجبون بصوت عال. راحت أمه تولول وتولول، كما لو كانت عيناها قد خلت من الماء. قالت أمه : إنه منذ أن اشترى هذه السيارة المستعملة وراح يفيد منها كسيارة أجرة، بدأ مغص البطن يدخل فى الأمر. هذا بغض النظر عن وزن إسحاق الزائد، وإهماله فى تنفيذ أوامر الأطباء له بالتزام الراحة. كان إسحاق يضع أنفه فى كل أمر من الأمور. كنت تراه فى النقل، وفى قطع غيار السيارات، وتراه أيضًا فى المركز التجارى. لم يكن إسحاق يعرف الراحة مطلقًا، ولم يكن ينام قبل منتصف الليل. كان الناس يتساءلون فى بعض الأحيان عن الوقت الذى يقضيه الرجل فى تربية أطفاله السبعة. كانت انجلينا قد أنجبت له ست بنات، وأخيراً انجبت له أجبونا Ogbonna، ذلك الطفل الذكر المراوغ.

واصل القس كلامه : " يقول الله (: أنا البعث وأنا الحياة. ومن يؤمن بى، سيحيا، حتى وإن مات. ومن يحيا ويؤمن بى لن يموت، مجِّدوا الرب "

أنزل حمله بساط الرحمة حملهم إلى الأرض وسط عويل وبكاء وولولة الجمهور المحيط بالقبر. رش القس الماء المقدس مرة ثانية على

الخشب فى اتجاه الشمال، والجنوب، والغرب والشرق. وبإشارة من يده طلب من الجارفين التقدم وراحوا يهيلون التراب على حفرة الميت. فى البداية كان الصوت رخيمًا بدأ يزداد رخامة مع الاقتراب من ردم الحفرة.

كان عدد النساء يتزايد ويتناقص نظراً لأن البعض منهن كن يترددن بين مراسم الدفن وطقس حلق الشعر. لم يردن أن يضيع منهن شيئًا. واقع الأمر أنهن كن يحرصن على رواية ما حدث بكل تفاصيله لهؤلاء النساء اللاتى لم يحضرن هذه المراسم، على أن تكون روايتهن رواية شاهدات عيان.

جلست انجلينا هادئة، والدموع تنهمر على خديها. لم تحاول إصدار أى صوت اللهم باستثناء عملية التشمم التى كانت تخونها بين الحين والآخر. وكانت أختها، تمد وبلا أى كلام، يدها الحنونة إلى كتف الأرملة الشابة لتشد عليها.

كانت فرانكا Franca تقول : " اللهم، أعطه الراحة الأبدية ".

وكانت النساء الأخريات يؤمّن على كلامها قائلات : " واجعل نورك السرمدى يسطع عليه ".

" يرحمه الله ".

" آمين ".

وهكذا راحت النسوة ينتقلن من الترنيمات إلى الصلاة ثم يعدن إلى الترانيم من جديد. كانت انجلينا تشاركهن كلما تذكرت ذلك. كان ذهنها شارداً. كان ذهنها سارحاً فى أولئك الرجال الواقفين إلى جوار القبر، الذى كانوا يدفنون فيه زوجها الحبيب. كانوا ينزلونه فى الأرض لكى تبتلعه، بحيث لا يُرى بعد ذلك مطلقاً.

كانت انجلينا تولول قائلة : " أيها الموت، أيتها الحياة ".

كانت انجلينا تسمع بوضوح صوت القس وهو يقوم بطقوس الدفن. كانت ترد على ما يقول فى صمت من خلال ذهنها. بقيت خاضعة إلى أن جرى حلق شعر رأسها إشارة إلى احترامها لزوجها. كانت والدة انجلينا تجلس على حصير، عند قدمى انجلينا، فى الشرفة المرتفعة قليلاً عن الأرض ؛ كانت الأم أوديونى Oduenyi حزينة أيضاً. كانت الأم تهدهد بين ذراعيها الطفل أوجبونا Ogbonna الصغير، آخر أطفال انجلينا. كانت الأم تتنهد بين الحين والآخر وهى قلقه حزينة ". يا من تسبب لابنتى فى هذا، لا أراك الله خيراً. لعل الله يغلق الأبواب كلها فى وجهك " كانت الأم تقول هذا الكلام وهى تسب وتلعن ". حرمك الله من رؤية أولادك، ولعله يحرمك أيضاً من رؤية أحفادك. وإذا كانت لك ذرية، فأنا أدعو عليك بأن تدفن هذه الذرية الواحد بعد الآخر، إلى أن تموت أنت موتاً مفاجئاً وعنيفاً، لأنك تسببت فيما حدث لابنتى انجلينا : ابنتى التى هى العصا التى أتوكأ عليها، والتى دونها أسقط أرضاً ؛ ابنتى التى هى سبب القماش واللباس الذى ألفه حول وسطى، والطعام الذى يوضع على مائدتى ".

كانت تشتاق إلى الذهاب إلى المداوى لكى تستشيره فيمن ارتكب ذلك العمل. لكن ابنتها انجلينا لا تريد ذلك.

" يا أمى، لقد رحل عنا. وليس فى وسعنا ما نفعله كى يعود إلينا. نحن مسيحيون. وعليه أنا لا يمكن أن أذهب إلى المداوى (الساحر) بعد الآن ". لم تكن أوديونى موافقة على رأى ابنتها. كانت أوديونى ترى فى ذلك عبادة عمياء للرب الذى لا يسمح لك بحماية نفسك والدفاع عن نفسك. كان المسيحيون يموتون موتًا غريبًا بأيدى البوذيين لأنهم يؤمنون بإله بعيد عنهم على نحو لا يلبى معه دعاءهم، وسمح إلى الحد الذى لا يمارس معه الانتقام. انظرى إلى هؤلاء الأطفال السبعة، وقولى لى : كيف سيحصلون على طعامهم، ناهيك عن مصروفات المدرسة ومصروفات الملابس. أكبر الأبناء هى آماكا Amaka، وتبلغ من العمر ستة عشر عامًا، تليها شيوما Chioma، التى تصغرها بعام أو عامين. هذا عالم شرير، دنيا شريرة عامرة بالشياطين التى تتصرف كما لو كانت مخلوقات بشرية. لكن أسرتها ستحيا. تمنت الأم لو كانت انجلينا أعقل، ووفرت بعض النقود مثلما أوصتها ونصحتها فيما سبق. الزوج عبارة عن عصا مَضيغة ؛ أنت تمضغينها فترة من الوقت ثم تتكسر بعد ذلك. وهنا تجدين نفسك وحيدة. فى أيامنا هذه ليست هناك امرأة تأتى على نقودها المدخرة وتنفقها فى السوق. هذا يعنى أن مثل هذه المرأة تدخر جزءًا من مالها تحسبًا لتقلبات الزمن. كانت تعرف ذلك الذى تتحدث عنه. ألم تمر هى بنفسها خلال هذه التجربة ؟ لقد ربّت هى

بنفسها أولادها الخمسة بعد أن تخلى والدهم عنها ليتزوج من سيدة متعلمة، مجرد امرأة عادية، مدرسة من المستوى الثانى التى لا تعرف كيف تميز عيط من معيط.

سوف تتشجع انجلينا وتقوى نفسها وتتعلم كيف تعول نفسها وتعول أولادها من يدرى ؟ هى شابة، ويمكن أن تتزوج مرة ثانية. وقد تتزوج ابنتها أماكا Amaka هى الأخرى من رجل ثرى من رجال الأعمال، وتأخذ عن أمها اثنين من أخواتها.

قالت أوديونى مؤكدة لابنتها التى ترملت : " سيكون كل شئ على ما يرام يا انجلينا. امسحى دموعك. لقد انتحبت بما فيه الكفاية. سيكون الحال على ما يرام. لن يسخر أعداؤنا منا. لكنى مازلت أقول، من ذا الذى فعل ذلك؟. أدعو لك بأن تلحقى بإسحاق فى مطاردة سريعة. إسحاق مدفون حالياً أما أنت فسوف تتغذى النسور على جثتك المتعفنة ".

تمنت النساء الأخريات لها أن تكون كذلك. كانت تود التنفيس عن كل هذا الغضب فى ابنتها. كل الناس كانوا يعرفون أن انجلينا كانت تعتنى بوالدتها من خلال الموارد التى كانت تأتيها من زوجها. وفاة إسحاق تعنى عضى الجوع لكثير من هؤلاء المعولين فى هذه الأسرة كبيرة العدد.

انتهت عملية الدفن وجلس الناس يتمتعون بالمرطبات. هذا هو مكبر صوت فى ركن من أركان المجمع السكنى تنبعث منه موسيقى دينية.

هذا الصوت صعّب مسألة الحوار الدائر بين الجالسين بسبب الضوضاء الناتجة عن ذلك الصوت. انتهت فرانكا من حلاقة الجزء الأخير من شعر رأس انجلينا، وأعطتها امرأة أخرى لفاعًا (إيشارب). نهضت انجلينا واقفة لتنفض عن نفسها الشعر الذى سقط على ملابس الحداد. حال موعد تقدمها لتلقى العزاء من الناس. كما كانت تأمل فى الحصول على بعض الهدايا. كانوا قد قالوا لها، إن امرأة من إيطاليا تود مقابلتها. امرأة تدعى جونسون Johnson. ليزى Lizzy جونسون. لم يكن الاسم شهيراً أو ذائعًا. مع ذلك، كانت ليزى تعلم أن هذا المجتمع، عندما يموت فيه أحد من الناس، فإن الناس من غير المعروفين لأهل الميت يمكن أن يأتوا إلى منزل المتوفى لتقديم واجب العزاء. وتقديم يد العون والمساعدة.

تنفجر انجلينا باكية، ودموعها على خديها، " إذن، لقد رحلت عنا يا إسحاق. مات إسحاق، أهذا هو الذى كنا نخطط له أنا وأنت ؟ هل تزوجتنى لتتركنى وحدى مع هؤلاء الأطفال ؟ " ولولت، وعوت ". قولوا لى، خبرونى، ما الذى فعلته للرب حتى يعاملنى بهذه الطريقة، ليصحبنى إلى وسط النهر ثم يتركنى هناك. خبرونى لأنى لا أعرف ماذا أفعل، ولا إلى أين أذهب، ولا من أسأل ".

حاولت النساء إسكات انجلينا مرة ثانية، لكن أمها أوديونى أشارت إليهن بالامتناع عن ذلك.

" اتركنها تولول، دعوها تنفس عما فى داخلها. هذا الذى فى داخلها مكبوت منذ وفاة والدها أوجبونا Ogbonna. أفضل لها أن تخرج ما بداخلها. اتركنها تولول وتبكى ".

أيقظ البكاء أوجبونا Ogbonna، ذلك الطفل الصغير، الذى كان نائمًا على ذراعي جدته. نظر الطفل حوله ليرى أمه تبكى فانفجر هو الآخر في البكاء أيضًا.

قالت النساء : " يا حرام ! موت الزوج كارثة وبخاصة فى زوجين من هذا القبيل. نعم، وفاة الزوج شئ مخيف. هؤلاء الأطفال لن يعرفوا والدهم ".

هذه امرأة أخرى، اسمها أوكويجو Okwuego، تذكرت زوجها الذى توفى منذ سنوات طويلة ". عندما توفى زوجى كنت حاملاً فى طفلى الأول. ظننت أنى لن أستطيع البقاء على قيد الحياة. وكل العزاء الذى سمعته دخل من أذن وخرج من الأذن الأخرى. لم أحتفظ بشئ منه. لكن، انظرى، ألست أنا بشحمى ولحمى أقف أمامك الآن ؟ ألم أتزوج مرة ثانية ؟ انجلينا، تشجعى. ستكون الأمور على ما يرام. نحن لا يمكن أن نعلن الحرب على الله. انجلينا، تشجعى. سيأخذ الله بيدك. أليس هو الذى يبعد الذباب عن البقرة التى لا ذيل لها ؟ تشجعى. سيكون الحال على ما يرام ".

وافقت امرأة أخرى على الكلام، " هذا صحيح. الله قريب. أنا أيضًا زوجى على قيد الحياة ". ثم تساءلت وهى تنتقل ببصرها من امرأة إلى أخرى " أظن أنكن جميعًا تعرفن أوكوى Okoye أودنجبو Odenigbo. أليس من الأفضل له أن يكون ميتًا ؟ " تحاشت النساء

النظر إلى المرأة. كن جميعًا على علم بما تعانيه هذه المرأة ". من يوم وقوع حادث السيارة الذى وقع له، والذى ركبت خلاله المقطورة، الحافلة التى كان يقودها، لم يقو على الوقوف فى أى يوم من الأيام. إنه يتبول على نفسه. ويتبرز على نفسه. ونحن يتعين علينا إطعامه، مثلما تطعمون أوجبونا Ogbonna الصغير هنا، إنه رجل كبير. أنا لا أتحدث عن النقود التى ننفقها على الدواء كل يوم، أو عن الديون التى علينا بسبب نقله من مستشفى إلى آخر. لقد بعنا أرضنا التى على الطريق الرئيسى. ومع ذلك، ليس هذا كافيًا. الأمر ليس سهلاً يا انجلينا. وعليه، يجب أن تتشجعى. وإلا هل تفكرين فى أنّ تعانى مثلما أعانى أنا، أى يكون لك زوج وفاته أفضل من حياته ؟ إن ما يحدث لك، الله يعلمه. جففى دموعك. سيرعاك الله. الله هو زوج الأرامل ".

كانت انجلينا تقدر هذه المواساة وذلك العزاء كله. قالت فى نفسها، قد تسوء الأمور. لقد صدمت بسبب مباغتة الأحداث لها. هل كانت هذه حياة ؟ أهذه هى طريقة تلاعب الحياة بالناس ؟ مسكين يا إسحاق ! يتعب ويعانى ولا يجنى ثمار عمله.

كان كفاحهما مستمراً من أجل المحافظة على الروح والجسد. كان الناس يحسبون أنهما لديهما مالاً كثيراً. وهذا ناجم عن إن إسحاق لم يكن من النوع الثرثار، أو من النوع الذى يذيع مشكلاته على الملأ. هذا هو السبب وراء ظن الأصدقاء والأقارب أن إسحاق وانجلينا كانا فى بحبوحة من الحياة. واقع الأمر أنهما كانا مدينين للبنك.

كـان عم إسـحـاق مـديراً فى بروفت Profit بنك Bank، ومن خـلال نفوذه استطاعا الحصول على قرض ميسر.

حكت انجلينا كيف باءت بالفشل محـاولاتهم المالية والأعمالية الأولى. كانت أولى محاولاتهما التجارية عبارة عن تجارة فى البضائع والسلع المستعملة، التى يقول الناس لها Okrika بلغة القوم. كانا يذهبان إلى رصيف إنزال البضاعة فى أبابا Apapa لشراء بالات من البضائع. كانت تذكر هذه الأشياء تمامًا، لأنها كانت حاملاً فى أماكا Amaka فى ذلك الوقت. أماكا ابنتها البكرية. لم يكن مسموحًا للمشترى بفتح البالة على الرصيف. يدفع المشترى الثمن ويحمل البالة إلى بيته. كانت البالة الواحدة تباع بألفين وخمسمائة نيرة. وإذا ما كان المشترى محظوظًا يمكن أن يجد فى بالته ملابس نسائية. هذه النوعية من الملابس سريعة الحركة. لكنهما لم يكونا محظوظين. كانت أول بالة يشتريانها تحتوى على شنط وأحذية قديمة. كانت الأحذية قديمة على نحو جعل إسحاق يقول، على سبيل التخفيف من يأس زوجته، إن هذه الأحذية كانت تُلبس قبل الحرب العالمية الأولى. لم تكن البالة الثانية بأحسن من البالة الأولى، كانت عبارة عن ستائر قديمة وملابس بالية، لا يلبسها أى أحد فى هذا الجزء من العالم. أما البالة الثالثة وحدها فكانت تحتوى على صديريات للأثداء، وملابس داخلية للنساء والأطفال، وراحت تغسل وتغسل، وهى حامل، وراحت تخيط بعض الأشياء قبل أن يتمكنا من بيع البضاعة. ومن حسن الحظ أن ثمن بيع البالة الثالثة عوض أيضًا ثمن البالتين الأوليين :

بعـد أن أحس إسـحـاق بالإحـبـاط تحـول إلى تجـارة قطـع غـيـار السيارات. واكتشف الرجل أن ذلك كان خطأ. قيل له إنّ هذه التجارة " مغلقة " على أناس بأعينهم ؛ وأن من يريد العمل فيها ينبغى تقديمه أولاً إلى العاملين فى هذه التجارة، حتى يمكن له النجاح بعد ذلك. هذا يعنى أنك لابد أن تعمل صبيًا لُعلم من المعلمين الكبار العاملين فى مجال هذه التجارة، ولمدة ثلاث سنوات، تصبح بعدها حراً. بعد فترة التلمذة هذه يقوم المعلم بتقديمك إلى مورديه ويساعدك فى افتتاح محلك الأول. بعض هؤلاء المعلمين قد يدفع لك إيجار المحل الأول لمدة عام، ويعطيك بضاعة، بلا ثمن. لم يستطع إسـحـاق المرور بهـذه المراحل. كـان الرجل رب أسرة. حمل الرجل المبلغ الذى جمعه من بيع الملابس، وعبر نهر النيجر إلى سوق أوشـانجا Ochaanja الشـهـير فى سائر أنحاء الدنيا، ومقره مدينة أونيتشا Onitsha، واشترى حمولة لورى كاملة من قطع غيار سيارات البيجو، والنيسان، والمرسيدس. وبما تبقى معه من نقود، قصد الرجل إلى سوق ننوى Nnewi لقطع الغيار، وملأ محله بمرشحات الوقود والزيت، ولقم الفرامل، وأسلاك الدبرياج، والمساحات... إلخ.

لكن التجارة لم " تتحرك ". واستهدافًا لجذب الزبائن راح الرجل يبيع بالأجل، وبسعر التكلفة، مستهدفًا بذلك كسر الاحتكار الذى يمارسه المعلمون. بدا له أنه سينجح فيما يفعل. لكن المدينين لم يدفعوا ما عليهم. وفى كل مرة كان يطالبهم فيها بما عليهم، كانوا ينتحلون الأعذار مرة بعد أخرى. كان البعض منهم يقولون إنهم لم يتسلموا رواتبهم منذ

أشهر ؛ بعض آخر كان يتهمه بأنه باع لهم بضاعة رخيصة وليست أصلية، وهددوه بالقتل إذا ما أزعجهم مرة أخرى، وطلب منهم تلك الديون.

غير إسحاق سياسته. وكتب لافتة عليها " لا بيع بالأجل اليوم، تعال إلينا فى الغد "، وعلق تلك اللافتة على باب محله. ولم يجئ إليه أحد. ويوم بعد آخر، لم يكن يقصده أحد من الناس. ومن الصباح الباكر إلى دخول الليل لم يكن إسحاق يبيع حتى ولو مسمارًا أو صامولة واحدة. ترتب على ذلك أن أشرف الاثنان على الإفلاس. وبعد ثلاثة أشهر، وبعد عجز إسحاق عن دفع الإيجار عن المحل والمنزل، باع الرجل بضاعته واشترى سيارة بيجو مستعملة طراز ٥٠٤، وراح يستعملها سيارة أجرة دون تراخيص. كانت تلك السيارة هى مصدر عيشهما إلى أن نصحه أخوه بفتح مركز أعمال ؛ على أمل أن يجيئ الناس إليه طلبًا لنسخ الوثائق وعمل صور منها، وإجراء مكالمات داخلية ودولية، ويرسلون فاكسات إلخ. ونجح المركز. نجح المركز تمامًا إلى حد أن الرجل استطاع خلال عام واحد أن يشترى مولدًا كهربيًا لكى يغطى الفترات التى ينقطع فيها التيار الكهربائى. وعلى العكس من نصائح انجلينا، اشترى إسحاق آلتى فاكس إضافيتين بالأجل واستأجر خطًا تليفونيًا آخرًا من هيئة الاتصالات النيجيرية.

وهنا قامت الحكومة بإغلاق مراكز الاتصالات فى سائر أنحاء البلاد، متهمة هذه المراكز بالتحريض والمساعدة على التلاعب بأسعار

المكالمات أو إن شئت فقل : بالتحريض على ٤١٩. قيل إن المزورين يستخدمون هذه المراكز فى إرسال برقيات مزورة إلى سائر أنحاء الدنيا، مستخدمين فى ذلك خطابات وأوراق تحمل شعار شركة البترول الوطنية النيجيرية، كما يستخدمون أيضًا وثائق البنك المركزى، فى الإعلان عن بعض الصفقات، ويسلبون من الأجانب ملايين الدولارات.

هذه المراكز ما تزال تعمل لكن دون التليفونات ورسائل الفاكس، وبذلك فقدت تلك المراكز جاذبيتها.

الآن، توفى إسحاق. وهى تعلم أن أنسباء إسحاق سوف يشاركون فى ممتلكاته. لم يترك إسحاق وصيته. ولو كان قد ترك وصيته فإن العائلة سوف لا تلقى لها بالاً. مواجهة الأنسباء لن تكون مثمرة. سوف يجرى طردها من المنزل، فإلى أين ستذهب ؟ هل تذهب إلى كوخ والدتها المسنة ؟ لا، ماكينات المركز كلها ستؤخذ منها. سيأخذون السيارة منها أيضًا، سيأخذون ملابسه أيضًا. لن يكون لها أى رأى أو وزن فى الأمر برمته، وينتظر أن يعتصرها الحزن إلى الحد الذى تعجز فيه عن الانتباه إلى المسائل الدنيوية. لكن الإنسان لا يحزن إلى الأبد. كيف لها بإطعام هؤلاء الأطفال ؟ هى لا تملك شيئًا، وليس لديها مدخرات، أو تجارة. الحل الوحيد أمامها هى أن تبيع شيئًا من ملابسها، وبعضًا من الحلى الصغيرة التى أهداها إسحاق إياها، وتبدأ المتاجرة بهذا المبلغ البسيط. وهذا لن يكون أمرًا سهلاً.

ذكّرتها أمها منادية إياها، " انجلينا، هيا تعالى لتلقى العزاء ".

استعادت انجلينا نفسها من تلك الأفكار التي كانت تستبد بها. نهضت واقفة، وهي تتنهد، ومشت لتجلس على الحصير الذى فُرِد على الأرض لتجلس عليه.

قالت دون أن توجه كلامها لأحد بعينه : " نادو أماكا Amaka . اطلبوا منها أن تدير بالها على أوجبونا Ogbonna". ربطت الملابس التى ترتديها حول وسطها ربطًا محكمًا، وجلست حزينة على الحصير، وذهنها سارح فى أطفالها السبعة، وأمها المسنَّة، التى ستصبح من الآن فصاعد مسئولة عنها وعن أولادها السبعة. وهى صفر اليدين.

الفصل الخامس

كان الصوت خافتًا، خافتًا إلى حد أنها كان يصعب عليها الاستماع إليه. الواضح أن الموجود على الطرف الآخر، كان يسمعها جيدًا. اشتكت قائلة : "آه من هذه الخطوط ". من يمن الطالع أنها استطاعت تبين الرسالة من خلال الكلمات القليلة التي استطاعت التقاطها : تأشيرة، فيث Faith، دوريس Doris، أماكا Amaka... كل واحدة منهن مائة ألف. جرى الحديث عن مبالغ للتذاكر.. والحجز... والمسار... ليجوس... شارل ديجول... الوصول.

لم يكن لهذا الكلام معنى أو مغزى. لم يجر الحديث بصوت عال. كان هناك تشويش على الخط نتيجة العوامل الجوية.

صاحت ليزى Lizzy فى السماعة وهى تقول : " إيداهوسا Idahosa سوف أطلبك مرة ثانية مساء هذا اليوم عند الساعة الثامنة. انتظر مكالمتى. سوف أعطيك التفاصيل. أترك الفاكس مفتوحًا أيضًا. سوف أرسل رسالة ".

فصلت هاتفها المحمول، وفردت رجليها وراحت تسترجع الأشياء.

كانت هناك ثلاث بنات جاهزات للسفر. لم تكن الرحلة التى حضرت فيها إلى أرض الوطن خاوية الوفاض. فيث، دوريس **Doris**، وأماكا. هى لا تتذكر أشكالهن. لقد التقت بنات كثيرات عندما سافرت إلى نيجيريا. كثيرات منهن كن يردن الخروج من البلاد. كثيرات منهن كن يردن الهرب من البؤس الذى يحيط بالبلاد ويردن السفر إلى الخارج. يسافرن إلى ماذا، هذا أمر لا يعرفنه، ولا يعرنه اهتمامهن. كل ما يسعين إليه هو السفر إلى الخارج. وعليه إذا ما اقتربت منهن، تراهن يقفزن لانتهاز الفرصة.

ليزى **Lizzy** لا تستطيع الآن الوقوف على التفاصيل الدقيقة. هى لا تعرف من منهن الطويلة، ومن منهن القصيرة ؟ ومن الرشيقة، ومن المتينة ؟ ومن الصفراء، ومن السوداء ؟ ما مغزى ذلك كله ؟ الذى يهم هو أن تكون لهن أجساد يبعتها. ويدفعن لها المبالغ التى سوف يتعين عليها استثمارها فيهن. يدفعن كل شئ : استخراج جواز السفر، الحصول على التأشيرة، عبور الحدود، ركوب الطائرة. فى كل خطوة من هذه الخطوات يتعين الكذب، ويتعين أيضًا دفع ثمن ذلك الكذب. وهى تتذكر جيدًا تلك الرحلة التى قامت بها برًا عن طريق غرب إفريقيا، ثم عبور حدود سيم **Seme** إلى كوتونو**Cotonou**، ثم الانتقال بعد ذلك إلى توجو **Togo** عن طريق لاكونجى **La Conji** مع دخول الليل كانوا قد وصلوا إلى أفلاو**Aflao**، مدينة الحدود فيما بين توجو وغانا. كانت الأسئلة نفسها تطرح عليهم فى كل موقع من المواقع التى يصلون إليها.

وكان مرشدهم يقدم الإجابات نفسها : نعم، هن شقيقاتى، هن قائمات بإجازة. نعم، هذه هى جوازات سفرهن. نعم، هن فوق سن الثامنة عشرة. وبينما كان المرشد يجيب على هذه الأسئلة، كان ضابط الجوازات يتصفح الوثائق إلى أن يصل إلى الملاحظات الخضراء فى منتصف جواز السفر. كانت تتعجب فى بعض الأحيان. يا لهذا الدولار القوى ! ماذا نفعل فى عدم وجودك. فى بعض الأحيان، كان الضابط يلقى بتلك الملاحظات فى كرتونة ملقاة على الأرض تحت الطاولة، ثم يختم الجوازات بهمة وحيوية، مشيراً إليهن بالتحرك والمرور، بمجرد إلقاء نظرة خاطفة على البنات. فى أحيان أخرى تراه يختم الجوازات المزورة، وهو ينظر خلسة وشهوة إلى البنات. بين الحين والآخر، وعندما كان الليل يدخل عليهن فى مراكز الحدود، كان يطلب إلى البنات أن ينمن مع رجال الحراسة وهو ما يسمونه " ضريبة الجسد ". كان ذلك جزءاً من المهمة. ويمكنك بعد ذلك مواصلة الرحلة، أنت ومعك شحنتك من البنات، إلى أن تصل إلى مركز الحدود التالى.

نعم مسألة نقل الناس إلى أوروبا تكلف الكثير عن طريق البحر. ومع كل يوم ينقضى تزداد التكلفة أكثر وأكثر. ليزى تتشكك فى أنها كانت تتعامل مع كل تلك المنظمات التى تكافح تهريب البشر على حد قول هذه المنظمات. " هذه المنظمات هى التى تضفى المزيد من الخطر على هذه التجارة، الأمر الذى يزيد علينا تكلفة الفرد الواحد. لا تزال البنات التى تحميها هذه المنظمات هن اللاتى سيدفعن الثمن " كان ذلك كله يدور بين ليزى نفسها.

تخيل، مائة ألف نيرة مقابل تأشيرة سفر إلى شنجن Schengen ! هذا ثمن باهظ جداً. هذه جودى Goddy أصبحت باهظة التكاليف. من خمسين ألف نيرة إلى سبعين ثم إلى خمس وثمانين ألف نيرة. وها هى تصل الآن إلى مائة ألف نيرة ! حوالى ألف دولار ! إذا كان الأمر كذلك، كم يساوى جواز السفر المسروق فى السوق السوداء ؟ تأشيرة السفر الفرنسية أو الإيطالية ليست تأشيرة أمريكية. فلماذا هى باهظة التكاليف إلى هذا الحد ؟ صحيح أن هذه التأشيرة تعد بوابة أو مدخلاً إلى دول الشنجان كلها، لكن من ذا الذى يحتاج هذه الدول كلها. إيطاليا عادة ما تكون هى محطة الوصول، على الرغم من أن البعض تجذبهم كل من ألمانيا، وفرنسا، وسابينا، والخطوط الهولندية، ولوفتهانزا، وكذلك الخطوط الجوية الإيطالية.

ومع ذلك، كانت الطرق كلها تؤدى إلى إيطاليا، باريس، بروكسل، امستردام، فرانكفورت. كل هذه البلدان كانت مجرد نقاط انتقال أو عبور. كانت المحطة النهائية للبنات فى إيطاليا : تورينو، ميلانو، ونابلى.

كانت ليزى Lizzy تحسب إجمالى المبالغ التى دفعتها إلى الآن على هذا الثلاثى. كان لدى ليزى سجلان تدون فيهما المصروفات التى أنفقتها على كل صفقة من الصفقات. كان السجل الأزرق مخصص للانتقالات أثناء العبور، أما السجل الأحمر فكان مخصصًا للنفقات الأرضية. فتحت ليزى السجل الأزرق، وعثرت على الصفحة المدون فيها أسماء هذا

الثلاثى : فيث Faith، دوريس Doris، أماكا Amaka . كان هناك مبلغ مدون أمام اسم كل واحدة من البنات الثلاثة :

* جواز السفر الدولى ٢٥٠٠٠ نيرة

* صور جواز السفر ٣٥٠٠ نيرة

* مصاريف انتقال التأشيرة ٨٥٠٠ نيرة

* التأشيرة ١٠٠٠٠٠ نيرة

كانت الأرقام كلها مبالغ فيها. الحصول على جواز سفر نيجيرى جديد يكلف صاحبه رسميًا حوالي خمسة آلاف نيرة. والمؤكد أن الحصول على هذا الجواز من الأبواب الخلفية يكلف أكثر من ذلك. سبب زيادة التكلفة هو أن القانون يحتم على طالب الجواز الحضور بشخصه، لكى يجرى تصويره بواسطة السلطات المختصة. هذا يعنى أن الجواز لم يكن من الممكن الحصول عليه من بعد. ومع ذلك، كان يجرى الحصول على الجوازات التى من هذا القبيل عن طريق الوكالة أو التفويض. هذا يعنى أن طالب جواز السفر سواء أكان ذكرًا أم أنثى يتعين عليه إرسال صورته ليجرى وضعها على جواز السفر عن طريق الحاسب الآلى. وجواز السفر الذى يجرى الحصول عليه بهذه الطريقة يستحيل التأكد من المعلومات المدونة فيه. هذا يعنى أن محل الميلاد، وتاريخ الميلاد بل حتى الاسم لا يمكن التأكد من صحتها. وبهذه الطريقة يستطيع الإنسان الحصول على ما يشاء من هذه الجوازات التى تخدم أغراضه،

ومدون فيها من المعطيات كل ما يتخيله العقل. هذا يعنى أن الآنسة فيفيان Vivian تايو Taiwwo، البالغة من العمر عشرين عامًا، والتى تعيش فى أوسوما Uusuma يمكن أن تصبح السيدة / باميلا Pamela إيغو Igo، البالغة من العمر ثمانية وعشرين عامًا ومتزوجة، وتعيش فى ليجوس أو حتى فى سيراليون، أو العكس بالعكس. وأنت عندما تستطيع دفع الرشوة المطلوبة لمسئول إصدار الجوازات، فإنه يمضى قدمًا فى إنهاء الوثيقة. سواء أكانت هذه الوثيقة مطلوبة لك أو لأى شخص آخر. لم تكن هناك مستندات تثبت هذه المعطيات، ولم تكن هناك شهادات ميلاد، أو وثائق تثبت الزواج، أو أى شئ على الإطلاق. كل ما فى الأمر هو أن يملأ طالب الجواز الاستمارة المعدة لذلك بالمعلومات غير الموثقة، ويسلم تلك الاستمارات ومعها المظروف. باستا Basta، على حد قول الإيطاليين.

هذا هو الأسلوب الذى يجعل جواز السفر الذى يتكلف رسميًا خمسة آلاف نيرة، يصل إلى ما يقرب من عشرين ألف نيرة فى السوق السوداء.

فى بعض الأحيان قد تكون هناك أخطاء فى اسم طالب الجواز. هذا الخطأ يمكن أن يكون من الوكيل نفسه. هذا الوكيل يذهب إلى مكتب الجوازات ومعه الكثير من الطلبات والصور. ويقوم بخلط الأشياء ببعضها، فقد يضع صورة جوليت، على سبيل المثال، فى نماذج مونيكا، ويطلب منك قبول الجواز بشكله النهائى، وإلا تعين عليك دفع مبلغ كبير آخر نظير " مراعاة " تصحيح الاسم فى جواز السفر.

عادة مـا يكون طالب الجواز أميًا لا يعرف القراءة والكتابة. هذا يعنى أن طالب الجـواز الذى يكون من هذا القـبـيل لا يعـرف الهـجـاء الصحيح لاسمه وبالتالى يعتمد على الوكيل شبه الأمي فى تدوين الاسم. وهنا نجد الوكيل الذى لا يتعدى تعليمه الصف الثالث أو الرابع الابتدائى يتـهجى الاسم حسب سمـاعه له. هذا يعنى أيضًا أن الأسمـاء البسيطة التى من قبيل بطرس Peter يمكن أن يدونها الوكيل على أنها Pita أو Peta. هذا الوكيل يمكن أن يدون Irine أيرين، على أنها Airin، كما يقوم الوكيل نفسه باختصار الأسماء العامية إلى أبسط شكل ممكن. كما يسقط ذلك الوكيل أيضًا الأصوات الساكنة الصامتة هى وحروف العلة المائعة. وبذلك نجد الكلمات تفقد معانيها بسبب هذه العملية.

هذا الوكيل، ومن باب التسهيل يضع فى الخانة المحددة لتوقيع طالب الجواز الأحرف الأولى من اسم الطالب. من هنا نجد أن الشخص الذى اسمه نجوزى Ngozi كليمنتينا Kelementina أودو Odo يصبح N.K.O . وبذلك يصبح التوقيع غير آمن ويستطيع أى إنسان أن يوقعه. وتضيف ليزى إلى المبالغ الواردة فى سجلاتها مبلغ ١٥٠٠٠٠ نيرة لتذاكر السفر، ليجوس - باريس - ليجوس. هذا يعنى أنهم لن يكونوا بحاجة إلى العودة. كان المبلغ يدون بالنيرات حتى تدركه البنات. هذه المبالغ يجرى تحويلها بعد ذلك إلى دولارات، أو ليرات إيطالية، ثم فى النهاية إلى العملات الأوروبية الجديدة.

تستقل البنات القطار من باريس إلى ميلانو ثم إلى فيرونا Verona. هذا يعنى زيادة مبلغ ٥٠٠٠٠ نيرة نظير الوجبات، وثمن التذاكر، بما فى ذلك تكلفتها هى نفسها. ويتعين عليها أيضًا دفع أجرة القطار. وليزى تعلم أن البنات عندما تستقر أحوالهن سوف يركبن القطارات مجانًا. من جنوة إلى بولونيا، إلى تورينو، ومن تريستا Triesste إلى نابولى، ولن تدفع أية واحدة منهن ليرة واحدة. عند مرحلة من المراحل، لا يشغل محصل القطار نفسه بمسألة السؤال حتى عن التذاكر. لكن الوقت لم يحن بعد للسؤال عن تلك التذاكر، على حد قول ليزى. هن فى هذه المرة لابد أن يطعن القواعد والقوانين تحاشيًا لجذب انتباه لا لزوم له.

يتعين على ليزى السفر إلى باريس لاستقبال البنات. اللهم إلا إذا لم يكن أبو Abu، أحد رجالها بصحبتهن من ليجوس. هذا يعنى أن البنات يمكن أن يضللن الطريق إذا ما تركوا لحال سبيلهن. وهن لا يتحدثن الفرنسية أو الإيطالية، أو حتى إنجليزية سليمة. يزاد على ذلك أن لغة التعامل عندهن عبارة عن لغة مهجنة. كما أنهن يتحدثن أيضًا بلهجات عامية : مثل لهجة الايشان Ishan، البينى Bini، ولهجة الأورهوبو Uurhobo والاتشكيرى Itshekiri، والإيسوكو، ولهجة الإجبو Igbo، واليوروبا Yoruba. والمرجح أن يكون أبو Abu بصحبة البنات فى هذه المرة.

وتبتسم ليزى وتناجى نفسها، " أقتادهن بعد ذلك إلى مزارع الطماطم، وإلى المطاعم التنفيذية بغية الحصول على الحد الأدنى للأجر. ها ! ها ! ها ! الحد الأدنى للأجر بحق ! أنتن ستحققن الحد الأعلى للأجر، يا عزيزاتى. الحدود الأعلى للأجور لعمتكم ليزى Lizzy".

لقد وصلت بالفعل.

بوصول هذه الإرسالية من البنات ستصبح ليزى واحدة من أعضاء نادى السيدات (المعلمات).

بدأت العمل. وكان عليها تحويل المبلغ إلى أيداهوسا Idahosa عن طريق الاتحاد الغربى. وبذلك يستطيع الرجل صرف المبلغ من أى فرع من أفرع الفرست First بنك Bank صباح الغد.

كانت ليزى تعجب عشرات المرات، لتلك الأعجوبة التى تسمى الوسترن Western (الغربى) يونيون Union (الاتحاد). هذه الوسيلة أسهل شئ عند الأسر المتباعدة، وعند الأفارقة الذين يعيشون فى الشتات وبخاصة فى الأزمان الأخيرة. سهَّل الوسترن يونيون تحويل النقود إلى حد بعيد. النقود تكون هنا اليوم وغداً تصل إلى الوطن. وبدون تساؤلات. كل ما فى الأمر هو أن تطلب المستلم وتعطيه رقم التحويل ولا شئ بعد ذلك.

بلغها أن الوسترن يونيون قدم جائزة لمدينة بنين أو بالأحرى للولاية نظير أكبر عدد من التحويلات على مستوى العالم كله فى العام ٢٠٠٠. جرى تحويل حوالى أربعين مليون دولار إلى ولاية بندل Bendel سابقًا. أقصد ولاية بندل العليا ! كانت فرحة وهى تتذكر هذا الكلام. أربعين مليونا ! يا للعجب ! كيف حدث ذلك ؟ هل ما يقوله هؤلاء الناس صحيح ؟

وسبب ذلك أن الإنسان إذا ما ذهب إلى الغرب الأوسط، لا يعثر على النقود فى أى مكان. العاصمة لا تزال فقيرة الحال مثلما كانت فى السبعينيات قبل مجئ هذه التجارة. هل هذا ناتج عن حافلات العبور، أم عن صالونات تصفيف الشعر التى بدأت تنتشر فى محطات الحافلات ؟ هل هذا المال ناتج عن مراكز المال والأعمال أم عن محلات الهدايا، ودور الأزياء الموجودة عند نواصى الطرق ؟ هل ذهبت الأربعون مليون دولار إلى هذه الأماكن ؟

لقد وصل المبلغ. وصل المبلغ بالفعل. نعم، لكن هذا المبلغ استعمل أيضًا فى المبانى متعددة الطوابق التى بدأ إنشاؤها فى كل شارع من الشوارع. بدأ الناس يهدمون بيوت الأجداد والأسلاف، تلك البنايات التى كان الناس ينشئونها من اللبن، وراحوا يستبدلون بها منازل حديثة. كما راح الناس أيضًا يوسعون المبانى الحديثة، عن طريق إضافة امتدادات عمرانية جديدة إليها - شاليهات للضيافة، وأبيار، وخزانات للمياه، ومولدات كهرباء. كما جرى أيضًا تحديث الأثاث. وحلت أجهزة التكييف محل مراوح السقف، كل ذلك حدث بواسطة النقود المحولة من الخارج.

كانت ليزى تعلم أن القسم الأكبر من هذه النقود لا يبقى فى بنين. كان ذلك القسم يذهب إلى أناس خارج بنين، إلى عمال الحكومة، إلى ضباط الجوازات فى سائر أنحاء البلاد، إلى مزورى الشهادات، ومزورى الوثائق. كان القسم الأكبر من هذه النقود يذهب أيضًا إلى أصحاب مكاتب السفريات، والخطوط الجوية، وموظفى التأشيرات فى السفارات

النيجيرية، الذين لا تساوى رواتبهم شيئًا بجانب الرشاوى التى تقدم لهم يوميًا. كان ذلك المبلغ يدخل فى جيوب موظفى الهجرة، وموظفى الحدود.

واقع الأمر أن مبلغًا كبيرًا جرى تحويله إلى نيجيريا عن طريق الوسترن يونيون. وصحيح أيضًا أن المونى Money جرام Gram بدأت تنافس الوسترن يونيون حاليًا، لكن الوسترن يونيون موجود منذ زمن بعيد، وهو ذائع الصيت عن المونى Money جرام Gram. وقد قيل إن الفرست First بنك Bank يود أن يفتح المزيد من الأفرع فى الغرب الأوسط لتلبية احتياجات زبائن وعملاء الوسترن يونيون المتعددين. جرى تعيين المزيد من العاملين الذين جرى نقلهم إلى ولاية بندل القديمة كيما يديرون مكاتب الوسترن يونيون ويقللون من زمن الانتظار الذى يزعج العملاء. كما يجرى الآن التفكير فى عمل خدمة تستمر أربعًا وعشرين ساعة.

يقال فى أيامنا هذه، إنّ الناس كانوا يقترضون النقود مع وعد بالسداد " بعد وصول الوسترن يونيون ". هذا يعنى أن الوسترن يونيون أصبحت واحدة من الكلمات الأسرية. وهؤلاء هم الشحاذون، والعاطلون، والدهماء والرعاع، يتجمعون خارج أفرع الفرست بنك فى انتظار أولئك الذين وصلت تحويلاتهم عن طريق " الوسترن يونيون ".

خطر ببال ليزى، " لقد وجدتها على هذا النحو. وسوف أتركه على هذا النحو أيضًا. وسوف أفعل ذلك باسم المسيح ".

" نعم. سوف تستخدم الوسترن يونيون في تحويل النقود إلى إيداهوسا. ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى انتظار وصول تفاصيل الرحلة الجوية الخاصة بالبنات ".

يلي ذلك إرسال الفاكس. إنها بحاجة إلى سبع بنات أخريات. سبع بنات صغيرات في السن. تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والسادسة عشرة. السوق الآن يطلب البنات صغيرات السن، عذراوات إن أمكن. هذه المسألة تكلف صاحبها حوالي أربعة ملايين ليرة في إيطاليا، إذا ما أراد أن يفض بكارة فتاة من الفتيات.

تذكر ليزي أنها عندما كانت طفلة صغيرة في بلدها ؛ كانت النساء الحوامل يردن أن ينجبن أولاداً ذكوراً، كن يردن أن يعرفهن الناس بأمهات الصبية. كان الأزواج الشبان يودون أن تكون لهم ذرية من الذكور.

لم يعد الأمر كذلك في أيامنا هذه.

الآن الناس يدعون حاليًا أن يرزقهم الله بالبنات، اللاتي يذهبن إلى إيطاليا عندما يبلغن. الناس في أيامنا هذه يتمنون أن تلد الحوامل " إناثًا "، حتى يمكن أن يذهبن إلى إيطاليا، بعد اثني عشر عامًا، ويأخذن عصا القيادة من أخت، أو عمة، أو ابنة عم تكون قد سبقتهن إلى هناك. كانت الأمهات يتوسلن إلى بناتهن " سافري يا عزيزتي واجمعي لي مالاً، ابنتي الطيبة. ابنتي ماذا أفعل دونك ؟ سافري، الأعضاء التناسلية ليس لها مقياس، ليس لها مسطرة. هذه الأعضاء لا تنتهي. وعندما تنتهين من جمع المال، يمكنك أن تتزوجي".

الآباء فى أيامنا هذه يطردن بناتهن لأنهن يردن الزواج، ويردن الاستقرار فى كنف الرجال وفى سن مبكرة.

وعليه راح الآباء يوبخون ويؤنبون بناتهم اللاتى يقعن فى الحب فى سن مبكرة ويعربن عن رغبتهن فى الاستقرار قبل الذهاب إلى إيطاليا. يوبخون البنات ويقولون لهن : " أيتها الفتاة الغبية. أنت هنا تمتعين عشيقك مجاناً وبلا مقابل. احذى حذو رفاقك فى إيطاليا. اذهبى إلى هناك وقابلى الرجل الأبيض واجمعى مالاً. أيتها الفتاة الحمقاء. أيتها الغبية البليدة. هل تودين أن تجلبى علىّ العار ؟ أنت هنا تصادقين الرجال مجاناً. تقولين إنك تودين الزواج. إذا ما سمعت منك كلمة " الزواج " هذه مرة ثانية، فسوف أخلع أسنانك من فمك كريه الرائحة". لسان الحال الآن يقول : إيطاليا أولاً ثم الوفاة.

السوق الآن لا تطلب سوى البنات اللاتى يبلغن من العمر اثنى عشر عاماً بنات صغيرات. بنات تبدو عليهن البراءة. ريَّانات. ضيقات. رشيقات. فاتحات البشرة. حذفت كلمة " ضيقات " من الفاكس. ليس مهمًا أن يكن ضيقات أو واسعات مثل كيس فارغ من أكياس الأرز. حجر الشبه موجود. العذراوات منهن، سوف تفض بكاراتهن عندما يصلن بواسطة الرجل الأبيض الذى على استعداد لدفع أربعة ملايين ليرة وأكثر من أجل ذلك، هذا إنْ قدر لهن أن يصلن أبكاراً أو عذراوات. من الصعب العثور على عذراء. عندما يصلن إلى إيطاليا، يكن قد نمن مرات عدة مع الرجال الذين ينتقلون معهن عبر القارة. وعندما يعرف

العميل أن الشئ لم يكن ضيقًا حسب الطلب، تكون النقود قد دخلت إلى القطة. نعم، حجُر الشبه موجود.

إذا ما عملت هذه البنات الواردات بجد فإن الواحدة منهن يمكنها أن تحصل على مائتين وخمسين ألف ليرة فى الليلة الواحدة. هذا على حد حسابات ليزى. كان الطلب فى السوق على هذه الفتيات الصغيرات. " لكن هؤلاء السبعة عندما يصلن، قد لا يعملن لحسابى بالتجزئة، وإنما قد يذهبن على سبيل الجملة".

لا، راجعت مدام ليزى نفسها، سوف تخسر إن هى باعت هذه البنات جملة. البنت تباع فى أسواق البغاء فى كل من تورينو، وجنوة، وليفيرنو بما يتراوح بين ثمانية آلاف دولارا واثنى عشر ألف دولار - إذا ما كانت جميلة المحيا. هذه البنت إذا ما جرى تشغيلها فى الشوارع، تستطيع أن تسدد لك ما يتراوح بين أربعين وخمسين ألف دولار خلال عامين. لكن هذا المبلغ يكون محاطًا بكثير من المخاطر. نعم، أنت تكسبين كثيراً، لكن هذه البنت لابد أن تأكل، وتسكن، والاهتمام بها بشكل عام. الشرطة قد تقوم بحملة فى أى وقت، وبالتالى يجرى القبض على مثل هذه البنت. وقبل أن يصلك نبأ إلقاء القبض عليها تكون قد أرسلت إلى معسكر الاحتجاز. وبعد أن يصلك النبأ تكون هذه البنت قد رُحِّلت إلى مطار مرتالا محمد فى ليجوس. وبذلك تضيع نقودك، وتتبدد استثماراتك. وتحتاجين إلى البداية من جديد، أى من المربع الأول.

أو قد تهرب البنت إلى الشرطة أو إلى المؤسسات الأخرى من تلقاء نفسها وتنكر كفالتك لها. نعم، مسألة إنكار الكفالة هذه، احتمال وارد

أيضاً. لكنها تعد مسألة نادرة الحدوث بحكم اليمين الذى تقسمه مثل هذه البنت قبل المجئ إلى هنا. ومع ذلك، يظل هذا احتمالاً قائماً. هذا الاحتمال سبق أن حدث بالفعل فى فترة سابقة. هذه مخاطرة محتملة. وعلى المدى الطويل، يصبح من الأربح بيعهن بالجملة فور وصولهن. أو بعد أشهر قلائل بعد أن يكن سددن حوالى عشرين مليون ليرة تقريباً. فى مثل هذا الحال تكونين قد استرددت ما دفعتيه ويصبح ثمن البيع مكسباً صافياً لك.

كانت ليزى تقول بينها وبين نفسها، لو يجئ اختيار مورديها اختياراً طيبًا فذلك يعنى أنها يمكن أن تحقق مبلغًا يتردد بين خمسين وستين ألف دولار من كل بنت من البنات. مبلغ مقبوض. فيث، دوريس، وأماكا.

نهضت ليزى واقفة واتجهت إلى غرفة النوم. كانت هذه الغرفة تغلق بصورة دائمة حتى عندما تكون ليزى فى المنزل. كان المنزل عامرا بالحركة هنا وهناك. بنات داخلات وأخرى خارجات. زبائن من الذكور، ورفاق فى العمل. كل شئ يمكن أن يحدث. هذه المهنة خالية من الثقة ولا يمكن أن تثق بالعاملين فيها.

تخيرت ليزى من بين مجموعة من المفاتيح، مفتاحاً فتحت به كيلون الباب. دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها. كانت الغرفة من النوع متوسط الحجم، الذى يستخدم غرفًا للنوم، لكنها حولتها إلى غرفة متعددة الأغراض. كانت تنام فى الغرفة، وتسترخى فيها، وتأكل فيها فى

بعض الأحيان. كما كانت تخزن فيها بعضاً من المواد الغذائية، فى هذا الركن أو ذاك، وكان فى الغرفة أيضاً أوانٍ ومواعين وأطباق. وكانت تضع تحت السرير صناديق عدة، من النوع الذى يسميه الناس حقائب السفر. كانت حقيبة أو اثنتان من هذه الحقائب تحتويان على ملابس تقليدية كانت تستعملها وترتديها فى المناسبات النيجيرية - الأفراح، الاجتماعات، إلخ. أما الحقيبة الثانية فكانت تحتوى على الواقيات الذكرية. فيها لفائف تحتوى الواحدة منها على ألف واقٍ. وتلك حقيبة تحتوى على قوارير مليئة بالسوائل القاتلة للحيوانات المنوية. وتلك حقيبة أخرى، مليئة بكبسولات المضادات الحيوية. تلك كانت أدوات هذه التجارة أو المهنة إن صح التعبير.

كانت ليزى تلف إزاراً حول وسطها. وكان يتدلى من هذا الإزار حبل كانت تربط فى طرفة مفاتيح متعددة. اختارت مفتاحاً من بين هذه المفاتيح، وتوقفت برهة كما لو كانت تتلو بعض التعاويذ وهى متجهة صوب الشمال، ثم الشرق، ثم الجنوب، ثم تعود إلى الشمال مرة ثانية. دائرة غير كاملة. ثم انحنت لحظة نحو الأسفل كما لو كانت تنتظر شيئاً ما. وعندما لم يحدث شئ انتصبت واقفة مرة أخرى، وأدخلت المفتاح وفتحت القفل. وهنا انفتحت أبواب الدولاب. سحبت إلى الجنب بعضاً من الملابس المعلقة داخل الدولاب على شكل صفوف. ومن الأسفل، ومن تحت هذه الملابس فتحت صندوقاً آخر وأخرجت حقيبة غانية. داخل هذه الحقيبة كانت هناك رزم من النقد الورقى متعدد الأصناف، القسم

الأكبر من هذه النقود الورقية عبارة عن ليرات إيطالية. هذه النقود الورقية مخبأة بين الصحف. كان من بين هذه الأوراق أوراق من فئة ٥٠٠٠٠٠ ليرة إيطالية. عدت ليزا عشرين ألفًا من هذه الأوراق. أى حوالى عشرة ملايين ليرة. أى ما يعادل خمسة آلاف دولار. ثم قامت بلف بقية النقود مرة ثانية ووضعتها بين الصحف الصفراء القديمة، ثم خبأت الحقيبة من جديد فى الدولاب. ذهبت ليزى وفى يدها عشرون مليون ليرة، إلى سريرها وجلست عليه. وراحت تعد هذه الليرات مرة بعد أخرى حرصًا منها ألا تكون أكثر من ذلك. كانت مسألة افتراقها عن هذه العملات الورقية أمرًا لا يطاق. كانت تداعب هذه العملات مرة بعد أخرى، وهى تتشمم واحدة منها وتتفحص واحدة أخرى. خمسة آلاف دولار ! هذا المبلغ يكفى لشراء قطعة أرض على طريق المطار. هذا المبلغ يكفى لبناء شقة واحدة. كما يكفى أيضًا لشراء حافلة من النوعيات الجديدة أو واحدة من الطرز المستعملة الشهيرة، التى تستعمل فى نقل البشر. كانت حزينة لأن النقود ستفارقها. لكنها نقود يجرى استثمارها. سوف تستثمر استثمارًا جيدًا. سوف يتضاعف هذا المبلغ ويعود عليها بعوائد كبيرة.

نعم، ستدفع خمسة آلاف دولار لإحضار هؤلاء البنات الثلاثة إلى هنا، إلى إيطاليا. لكن كل واحدة منهن ستعيد إليها عشرة أضعاف ما دفعته لها. هذا إن سارت الأمور على ما يرام. بعض البنات يسببن المتاعب. بعضهن يهربن. بعضهن يلتزمن العناد، ليثبتن أنهن متعلمات

وأنهن عاقلات. تكلمت إحداهن ذات مرة عن حقوق الانسان. أرز Rice الإنسان Human، على حد قولها، تلك الأمية الجاهلة ! حقوق الإنسان بحق وحقيقة. عندما كانت فى نيجيريا تعانى، ومريضة، وتعانى من الجوع، لم تتذكر حقوقها الإنسانية. لماذا لم تذهب إلى أباشا Abacha لتطالب بحقوقها الإنسانية. إنه أنا ليزى جونسون، التى سوف أعطيها حقوقها الإنسانية.

بينما كانت ليزى تتذكر تلك الحادثة، خرجت منها هسهسة طويلة. وابتلت جبهتها بالعرق، وازدادت ضربات قلبها.

تينا Tina. كان اسمها تينا Tina. وكانت أول البنات التى تسببت لليزى فى كثير من المتاعب. كانت هناك بنات أخريات. لكن تينا كانت أول من ابتدأ تلك المتاعب، وقد أمسكت بليزى فى وقت لم تكن مستعدة أو جاهزة.

كانت ليزى جديدة على هذا العمل، فقد انتهت للتو من سداد ديون المعلمة التى كانت تعمل لحسابها، والتى كانوا يطلقون عليها اسم العمة Aunty روز Rose. كانت ليزى قد اقترضت شيئًا من النقود من كارلو Carlo، عشيقها الإيطالى واشترت بذلك المبلغ فتاة دميمة الخلقة من العمة روز. ونظرًا لأن بيسى Bisi لم تكن جميلة فلم تكلفها مبلغًا كبيرًا. لم يكن وجهها طيبًا على نحو " يناسب السوق "، على حد قول العمة روز. واقع الأمر، أن روز حاولت مرات عدة أن تبيع بيسى Bisi وتتخلص

منبا لكنها لم توفق فى ذلك. وعندما بدأت ليزى تتصرف تصرفات " حرة " بعد أن سددت لروز مبلغ ستين مليون ليرة فى غضون عامين، عرضت روز أن تبيع لها بيسى مع نسبة خصم كبيرة، وذلك من باب مساعدتها على البدء فى عملها الخاص بها حسبما اتفقا عليه فيما بينهما. بعد ذلك، اشترت ليزى بنتين أخريين : جفتى Gifty وتينا Tina، اشترتهما من رجل غانى كان يتخذ من ألمانيا مقراً له.

افتتحت ليزى محلاً لنفسها واستخدمت فيه كلا من بيسى، وجفتى، وتينا ؛ وبدأت عملها باعتبارها واحدة من المعلمات الصغيرات المبتدئات فى هذا العمل. فى بداية الأمر كن جميعًا يعشن فى شقة ليزى المكونة من غرفة نوم واحدة فى مودينا Modena، وكانت البنات الثلاثة يتقاسمن مرتبة واحدة فى المطبخ. كانت بيسى هى أكبر البنات، إذ كانت تمارس العمل قبل مجيئ البنتين الأخريين. لكن جفتى وتينا كانتا جديدتين ولم تكونا تعرفان دواخل الموضوع. وسرعان ما تعلمت جفتى على وجه السرعة. لكن تينا كانت عنيدة ورفضت التعاون.

صحيح أن تينا كانت عذراء عندما وصلت، وهذا أمر نادر الحدوث فى أيامنا هذه مع بنات الثامنة عشرة. فى أيامنا هذه يندر أن تجد عذراوات بين البنات اللاتى تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة. فى وطنها، بلغها أن الرجال الآن يتحولون إلى هذه المرحلة السنية فى محاولة منهن لتجنب الإصابة بالأمراض التى تنتقل عن طريق الجنس. البنات الأكبر من ذلك، أكثر تعرضًا للخطر من منظور أنهن تبرجن، وجربن الجنس مرات ومرات.

ترتب على ذلك أن كثيرات من البنات يقعن فريسة لرغبات الذكور المفترسين، الذين تتساوى أعمارهم مع أعمار أجدادهن. والسبب فى ذلك هو المال. هؤلاء البنات الصغيرات يفتحن أرجلهن نظير نيرات قليلة، وبالقدر الذى يريده الرجل، كل ذلك من أجل أن تشترى البنت حذاء من هنا، وفستانًا من هناك، حتى يكن مثل رفاقهن من البنات الأخريات. كانت البنات صغيرات لكنهن درجن على الشارع. وسرعان ما يتعلمن ويتبعن البنات الأخريات ويحذين حذوهن فى الشوارع عن طيب خاطر. لم تكن تينا Tina واحدة من تلك البنات. كانت تينا تعيش مع أمها فى مدينة بنيين إلى أن جاءت عمة من العمات وأخذتها لتعمل فى جنى الفواكه فى إيطاليا وتواصل دراستها هناك. وانتهى بها الأمر فى شقة ليزى.

" انتبهى، لقد باعتك عمتك لى نظير خمسين مليون ليرة، وعليه يتعين عليك الخروج والعمل وتسددى إلى نقودى. بعد ذلك يمكنك أن تجنى كل الثمار التى تريدينها، وتدرسين كل القواعد التى تريدينها، لكن ذلك لن يكون قبل سداد المبلغ... "

لم يكن صحيحًا. لقد دفعت ليزى عشرة آلاف دولار، أو بالأحرى عشرين مليون ليرة ثمنًا لتينا Tina. لكنها ضخَّمت المبلغ وطلبت من تينا أن تدفع لها خمسين مليون ليرة لكى تحصل على حريتها.

كانت تينا قد رفضت التعاون مع ليزى من اليوم الأول. وعندما اكتشفت ليزى أن تينا كانت عذراء، كانت قد باعت عذرية هذه البنت

لرجل إيطالى نظير مبلغ ثلاثة ملايين ليرة. لكن تينا رفضت التعاون مع الرجل الأبيض. وبعد محاولات فاشلة متعددة للجمع بين تينا والرجل الأبيض، اضطرت ليزى إلى إعادة المبلغ إلى الرجل الإيطالى.

عندئذ كانت ليزى قد استأجرت تاجر مخدرات تحول إلى مدمن مخدرات، استأجرته لكى يفض بكارة تينا بالقوة وعنوة. هذا المدمن كان اسمه إينوسنت Innocent (برئ). اتفق على أتعاب محددة. فيما بعد، اكتشف أينوسنت، بعد أن قام بهذا العمل، إن البنت التى كانت تبكى إنما هى واحدة من بنات عمه غير المباشر. وأعطى الرجل النقود إلى تينا. لكن ذلك حدث بعد اغتصابها. رفضت تينا التعاون مع ليزى حتى بعد أن تم اغتصابها. كانت تخرج فى الليل مع البنات الأخريات وترفض العمل. كانت تجلس بالقرب من محطة الحافلات تبكى وتندب حظها. حاولت كبيرة المومسات مجادلة تينا : " تينا، كلنا نفعلها.. كلنا نمارس هذا الشئ. ستكونين ملكًا للعمة ليزى إلى أن تسددى المبلغ المطلوب. وبعدها افعلى ما تشائين. أنت محظوظة. أنت جميلة، وطويلة، وقوية، وشابة. إذا عملت بجد، تستطيعين سداد المبلغ خلال عام واحد وبعدها ستكونين حرة ".

" تقولين حرة ! وماذا لو أصبت بمرض نقص المناعة المكتسب (إيدز) ؟ "

" نحن نستعمل الواقى الذكرى. نحن لا يمكن أن نصاب بهذا المرض ".

" الواقيات الذكرية تتمزق... ".

" نحن لا نصلى أو ندعو من أجل ذلك. حتى وإن تزوجتِ وبقيتِ فى المنزل، فإن زوجك يمكن أن يصاب بالإيدز، ويحمله لينقله إليك عن طريق العدوى وأنت مقيمة فى المنزل. لقد حدث ذلك لأختى ".

لكن تينا أصرت على مسألة جنى الطماطم.

" قالت : أنا جئت إلى هنا لجنى الطماطم، ولم أجئ إلى هنا لكى أكون مومسًا ".

صاحت ليزى " أية طماطم ؟ " قالتها وهى غير قادرة على تمالك نفسها من الغضب ". أنت لا تجنين طماطم فى بنين، ولم تجيئى إلى إيطاليا لجنى الطماطم. كل ما أعرفه هو أنك يتعين عليك أن تسددى لى خمسين مليون ليرة، وإلا لن يكون اسمى ليزى. أو إننى سألقنك درسًا لن تنسيه مدى الحياة. "

أدخل هذا التهديد الخوف في نفس تينا. وهنا خطر ببالها حال أمها المسكينة فى بنين وأخويها الصغيرين. كانت تعرف أن هؤلاء الناس بوسعهم تدبير قتل الأهل والأقارب فى الوطن، إذا لم تتعاون معهم. القتلة والسفاحون المستأجرون باتوا رخيصين فى البلاد. وأصبح هناك ناس يمكن أن يقتلوا الآخرين نظير خمسين دولارًا.

هدأت تينا برهة قصيرة وأحست ليزى أن الأمور تجرى تحت سيطرتها. ومع ذلك لم تكن تينا تعود إلى المنزل بأية نقود، بدعوى أنها

لم تجد زبائن. قبلت ليزى هذا الوضع. وكانت تقول فى نفسها، ليس كل يوم عيداً. وبعد ثلاثة أيام من ادعاء عدم وجود الزبائن، وبالتالى عدم إحضار النقود، بدأت ليزى تتشكك، وبخاصة أن البنات الأخريات كن يعدن ببعض المبالغ بصورة منتظمة ؛ حوالى مائة ألف ليرة، أو أكثر. بل إن جفتى عادت فى يوم من الأيام بحوالى خمسمائة ألف ليرة. أما تينا فلم تعد بأى شئ على الإطلاق. أخيراً لجأت ليزى إلى أحد المشعوذين فى مدينة تورينو، وقام ذلك المشعوذ بإعداد ثمرة الكولا للبنت تينا. نصحت ليزى تينا قائلة : " كلى هذه الثمرة قبل أن تخرجى للعمل ". " سوف تجذب هذه الثمرة الرجال إليك فى الشارع. " ونصحتها أن تكون عدوانية فى جذب الزبائن واشترت لها رداء أحمر من محل قريب من محطة السكة الحديد.

استمر الحال على ما هو عليه.

لا عائد.

لا شئ إطلاقاً.

عندما سألت ليزى تينا Tina، عن سبب عودتها صفر اليدين إلى المنزل، أجابتها تينا بأن ذلك هو الموعد الشهرى الذى لا يمكن أن أمارس فيه العمل. وهنا نادت ليزى على البنات كلهن وأرتهن مرة ثانية كيف يحشين أنفسهن بالقطن والمناديل الورقية عندما يرين اللون الأحمر، وبذلك يستطعن بالجزء السفلى الخارجى. قالت ليزى وهى تحذر

الجـمـيع : " هذا العـمل لا يعـرف العطلات ". " الوقت من ذهب. الوقت نقود. عليكن دين لابد من سداده. ويجب ألا يغيب عنكن، أنكن لا تفعلن ذلك بدافع من الحب أو المتعة. العملية يجب ألا تستـغرق أكثر من ثلاث دقائق. وعندمـا يرتاح الرجل، اتركيـه ؛ وامـشى لحـال سـبيلك بحـثًا عن الزبـون التـالى. المبلغ الذى يدفـعــه الزبون لشـوط واحـد فـقط، وليس لشـوطين. وإذا مـا كـان يريد شـوطًا ثانيًـا فـعليه أن يدفع من جـديد، ومقدمًا. وإذا لم يدفع لا تنامين معه. احـرصى على أن يدفع قبل تقديم الخدمة. اقبضى النقود فى يدك أولاً. يجب ألا يغيب عنكم الانحناء إلى الأمـام أثناء العـمل وأن تتـركن الزبون يمارس من الخلف. هذا الوضـع أسرع بالنسبة للرجال. أنتن لستن بحاجة إلى السراويل الداخلية. الوقت مال ونقود. لا تضيعن الوقت فى التمهيد. الخدمات الإضافية تؤدى بأجر إضافى. هذه تجارة. أنتن لا تمارسن هذا العمل طلبًا للمتعة. لا توافقن على مـضـاجـعــة الرجـال الســود. وبخـاصـة النيـجـيـريين، والغـانـيين، والسنغاليين. هذه النوعيات بوسعـها إنهاء نقود أية امرأة. هـم يمارسون السـحـر والشـعوذة مـعكن. وأنت إذا ما ضـاجـعتى واحـداً منهم فسوف تعطيه نقودك. لا تتبـعى رجلاً أسود. إنهم مفلسون. وهـم مثلكن جاءوا إلى إيطاليا بحثًا عن المال. لا تعيروهـم اهتمامًا ".

خطر ببال ليزى أمر ما عند هذه المرحلة. كثير من الرجال الأفارقة الذين وصـلوا إلى إيطاليـا، هـم أيضًـا مـدينون لكفـلائهم الذين عـاونوهـم على المجئ إلى هنا، وتصل ديون الواحد منهم إلى ما يتـراوح بين ثلاثين

وخمسين مليون ليرة. وأصبح من الصعب عليهم سداد هذه المبالغ، وراحوا يمارسون أعمالاً غاية فى الوضاعة، مثل بيع الجوارب، والورنيش والإسفنج إلخ. الإيطاليون يطلقون على هذه الأعمال اسم Cerotti ليشيروا به إلى الأعمال الوضيعة التى يمارسها هؤلاء الأفارقة. وقد يشار إلى هذه الأعمال فى بعض الأحيان بالاسم Vu Compra، وهذا الاسم خليط من الفرنسية Vous والإيطالية Buy. الإيطاليون يطلقون هذا الاسم على الباعة الجائلين السنغاليين الذين يشكلون الأغلبية. تورط البعض من هؤلاء الأفارقة فى تجارة المخدرات كيما يسددوا ديونهم. البعض منهم صادق بنات الشوارع لكى يساعدوهم على سداد ديونهم. كانت البنات يعطين نصف إيرادهن كل ليلة إلى هؤلاء الأولاد، الأمر الذى يقلل من الإيراد الذى تعود به البنت إلى عمتها (معلمتها) كل ليلة. وترتب على ذلك طول مدة عمل هؤلاء البنات فى سداد ديونهن التى تبلغ حوالى أربعين ألف دولار، مفروض أن تسددها البنت فى عامين.

وصلت الأمور إلى ذروة التعقيد عندما أبلغت البنات الأخريات عن تينا، وأنها كانت تلتقى الرجال البيض فى مواقف الحافلات والقطارات وتطلب منهم مساعدتها. ونظراً لأن الناس لم يفهموا ما تريد فقد كانوا يهربون منها.

ومن باب معاقبة تينا، قامت ليزى بحبسها فى المخزن وجوّعتها مدة يومين. وكانت تقول لها : " لا عمل، لا طعام ". " لا طعام، لا ماء ". بقيت تينا فى تلك الغرفة فى هذا الضياع والدمار، جوعانة، وعطشانة،

وضعيفة، وفاحت رائحتها الكريهة. صاحت تينا وناحت وراحت ترجو ليزى وتتوسل إليها أن تعطيها فرصة تبحث خلالها عن عمل فى أحد المصانع وتسدد إليها الدين.

كانت ليزى قد أُخرست بسبب هذه الأحداث. فهذا مثال سيئٌ أمام البنات الأخريات. كانت ليزى تعلم أن البنات الأخريات يراقبن ما يحدث ليرين كيف ينتهى موضوع تينا. وهنا أدركت ليزى أنها لابد أن تلقن تينا درساً قاسياً وإلا سيتركها البنات واحدة بعد الأخرى.

كانت ليزى تولول وتقول : " لماذا يختلف حالى ؟ ما الذى فعلته حتى ألقى هذا الحظ العاثر ؟ انظرى، هؤلاء هم البنات الأخريات يعملن بجد ليسددن ما عليهن لعماتهن (معلماتهن). لماذا تختلف بناتى عن بناتهن ؟ أنتن تعلمن أنى عملت عامين كاملين لحساب العمة روز Rose. اذهبن إليها واسألنها. لم أتسبب لها فى المتاعب فى أى يوم من الأيام، لأنى كنت أعلم أنى فى يوم من الأيام سوف أسدد ما على ويصبح لى عملى الخاص بى. عامين كاملين كنت أعمل خلالهما وردية فى النهار وأخرى فى الليل. لماذا يتسبب لى بناتى فى خلق المشكلات ؟ تينا أرجوك انخرطى فى العمل وسددى لى ديونى التى عليك. لقد تعبت من رجائى لك واسترضاؤك. أفهمى أنى لا أضايقك، اذهبى واسألى بنفسك كل أولئك الذين يعرفوننى. لكن افهمى إذا ما طفح بى الكيل.. وأرجو ألا يحدث ذلك... ولا تجعلينى أصل إلى هذا الحد. انخرطى فى العمل وأعيدى إلى نقودى. لن أكرر ذلك عليك مرة أخرى".

حاولت البنات الأخريات، ورحن يرجين تينا أن تعود إلى العمل. قلن " إن الظروف هي التى جعلت سمكة الجمبرى تنثنى مثل الفاصلة المستخدمة فى ترقيم الكلام ". " وهذا ليس حبًا منها. نحن الذين نقوم بالعمل، لا حبًا فى العمل، وإنما الهدف الذى نبتغيه من العمل لا تنسى أمك العجوز فى بنين. نحن نعلم أن هذا ليس أمرًا سهلاً. ولكننا نتساءل من جديد : ما الهدف الذى نبتغيه من العمل ؟ "

كانت البنات الأخريات، وهن على انفراد بأنفسهن، يتساءلن من أين جاءت تينا بالشجاعة التى تجعلها تتصرف على هذا النحو. ألم تقسم هى أيضًا يمينًا مثل اليمين التى أقسمناها ؟ ألم تودع شعر عانتها، وأظافرها، ودم حيضها لدى السحَّار (المشعوذ) ليكون كل ذلك بمثابة تأكيد منها على أنها ستقوم بسداد المبلغ المطلوب ؟ لو حدث غير ذلك، فهن يعلمن أن الرجل السحَّار يمكن أنْ يتسبب لها فى الجنون. كانت هناك بالفعل حكايات عن بنات أصابهن مس من الجنون نظرًا لأنهن خالفن عماتهن (معلماتهن). قلن إنّ واحدة من تلك البنات موجودة فى محطة سكة حديد بادوفا **Padova**. هذه البنت كانت تطارد الناس الذين يمرون عليها وتسىء إليهم. ويقلن أيضًا أن عمة هذه البنت هى التى تسببت لها فى ذلك ؛ ويقلن أيضًا أن هذه البنت سددت ثلاثين مليونًا فقط ورفضت دفع المبلغ المتبقى. وهربت مع رجل أبيض.

أصيبت تلك البنت بمس من الجنون بعد شهر واحد من هروبها. وقد أخذها الإيطالى إلى مستشفيات كثيرة فى بادوا **Padua** وفى ميلانو

أيضًا. وفى المستشفى، وبعد أن استمعت أحدى الممرضات إلى التاريخ المرضى لهذه البنت، نصحت الممرضة ذلك الإيطالى بعدم تبديد ماله ؛ وقالت له أن هذا النوع من الجنون من الأنواع التى لا يمكن " علاجها " أو شفاؤها بالأدوية التقليدية.

حاولن أن يذكرن تينا بأن ذلك كله لا طائل من ورائه.

قالت البنات فيما بينهن وبين أنفسهن : " هذا العناد من النوع الذكورى. لابد أن تينا ولد. إنها شديدة العناد. يبدو أن عظم رسغها شبيه بعظام الصبية ".

هؤلاء العمات (المعلمات) كان لديهن حل أخير لمشكلة البنات العنيدات اللاتى من هذا القبيل. هذا الحل هو على Ali. على هذا كان مدمنًا من مدمنى المخدرات الذين باعو أنفسهم لجالية الإيطاليين الشاذين جنسيًا، مقابل الوفاء باحتياجات إدمانه. وبمرور الوقت أصيب هذا العلى بمرض الإيدز، الأمر الذى ترتب عليه عزله وحجزه. وهو الآن يعيش على الصدقات والتبرعات التى تأتيه من إخوانه النيجيريين ومن المؤسسات الخيرية مثل مؤسسة كاريتاس Caritas، لكى تحفظ عليه حياته وروحه. لكن مؤسسة كاريتاس لا تقدم النقود الكافية. ولكى يكسب على المزيد من النقود، راح يؤجر نفسه للعمات (المعلمات) لكى يلقن البنات العنيدات من أمثال تينا درسًا قاسيًا.

وعندما فشلت ليزى فى القضاء على عناد تينا، أرسلت فى طلب ذلك العلى. وجاء إليها على طائعًا مختارًا، وأعطته ليزى مائة ألف ليرة لكى يصيب تينا بعدوى مرض الإيدز.

أمسكت البنات الأخريات تينا وألقينها أرضًا عندما كان على يغتصبها. وقامت ليزى بتسخين مكواتها. وبعد أن أنتهى على من إفراغ منيه المحمل بفيروس الإيدز داخل تينا التى أصابها مس من الهستيريا، قامت ليزى بكويها على ظهرها بتلك المكواة الساخنة، ثم ألقت بها فى الشارع. كانت ليزى تود قطع أذن من أذنى تينا لأنها قالت إنها لا تسمع بأذنيها ؛ وأن أذنيها كانتا مجرد ديكور، لكن ليزى لم تكن قادرة على استعمال المكواة ومقص الجزار فى آن. وبذلك تكون تينا قد هربت بأذنيها سليمتين. لكنها اعتباراً من تلك اللحظة كانت فى عرف الميت الحى.

كانت تلك المرة الأخيرة التى رأت ليزى فيها تينا. قال الناس إن تينا دخلت مؤسسة البابا جيوفانى الثالث والعشرين فى ريمينى، التى رعاها فيها واحد من القساوسة هى وبعض البنات الأخريات اللاتى تمردن على عماتهن ورفضن العمل معهن.

بعد أسبوعين من وصول تينا إلى دون Don بنزى Benzi، طلبت أحد الجيران وطلبت إليه أن يسأل عن أمها. وقيل لها إن أمها توفيت قبل أسبوع. فقد جاء شخص لزيارتها فى الليل، وكان رجلاً بشع المنظر. وفى صبيحة اليوم التالى وجد الناس أم تينا مقتولة فى سريرها. والدم ينساب من أذنيها.

بعد رحيل تينا، كانت ليزى قد أحضرت بنتًا أخرى، اسمها لافيت Lovett، من سوق المومسات فى جنوة. لم تكن بناتها الحاليات

يضـايقنهـا. كن مطيعـات ومـحـترمـات ويعـدن بالنقود كل صباح بعد عودتهن من عملهن الليلي. وكانت تقوم بتدوين مبالغهن في سجلاتهن. وعند نهاية كل شـهر، كانت تخصم مـائتي ألف ليـرة من كل بنت نظير الطعام الذي كانت تعده لهن، كما كانت تخصم أيضاً ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة نظير إيجار السكن، ومائة وخمسين ألف ليرة نظير استعمال المرافق، بما في ذلك التليـفـون المحـمـول الذي كـانت تؤجـره لهن، ونظيـر أشياء النظافة مثل الصابون، ومعجون الأسنان، والفوط الصحية التي كانت تشتريها لهن. كما كانت تخصم منهن أيضاً مائتي ألف ليرة إيجار المكان الذي يقـفن فـيـه. " الوصلة " التي كـان الناس يـعـرفـون أنـهـا من ممتلكات المافيا المحلية. إذ يتوجب على من يقف في تلك الوصلة أن يدفع ثمن ذلك الوقوف.

كـانت العـمـة (المعلمـة) ليـزي تخـصـم في نهـاية كل شـهـر مـبلغ تسعمائة ألف ليرة من متحصلات كل بنت من البنات.

وتقوم بإدخال ما يتبقى بعد ذلك في سجل المدفوعات قرين اسم كل بنت من البنات.

انشـغـال فكر ليـزي بالبنت تينا هو الذي جعلهـا تصـر في الرسـالة الفكسية التي أرسلتها إلى إيداهوسا، أن يقوم الرجل باصطحاب البنات إلى أجيرجيدنتا Igirigidinta لأداء اليمين الطقوسي قبل أن يشرع في السفر ؛ وبهذه الطريقة يبلغن من الخوف مبلغاً يجعلهن لا يعصين أوامر ليزي. أجيرجيدنتا هذا، واحد من المداوين الشهيرين في منطقة الغرب الأوسط.

جمعت وثائقها، ثم اتجهت إلى وسط المدينة، لإرسال البرقية الفكسية وبعض التحويلات عن طريق الوسترن يونيون Western Union.

فى طريقها إلى وسط المدينة، تلقت ليزى على هاتفها المحمول مكالمة تفيد حدوث كثير من التغييرات فى هذه المدينة الهادئة. كانت المكالمة من مركز رئاسة الشرطة المحلى الذى يسميه الطليان Questura كانت المكالمة من صوت معروف عند ليزى، حذرها ذلك الصوت من أن حملة (غارة) ستقوم فى تلك الليلة، وطلب منها إبعاد بناتها عن قارعة الطريق، فترة من الوقت فى تلك الليلة. وقد أبلغها المتحدث عن وصول موظفين ومسئولين من قنصليتها فى ميلانو. وإنه سيجرى ترحيل المهاجرين غير القانونيين خلال الأيام القلائل القادمة. كما أبلغها أيضاً أن وزارة الداخلية استأجرت طائرة لهذا الغرض. وحذرها المتحدث قائلاً: " امنعى بناتك من النزول إلى الشارع ". سكت الهاتف بعد ذلك. ولم تتح لليزى فرصة توجيه ولو سؤال واحد.

وعلى الفور اتصلت ليزى ببيسى فى المنزل.

" يابشر، لا تخرجن للعمل اليوم إلى أن أجىء إليكن. أبلغى الأخريات. لا عمل اليوم. "

تساءلت ببيسى فى قلق : " عمتى، آمل ألا يكون فى الأمر شئ ؟ " كان ذلك أسلوب من أساليب الكلام النيجيرى، ومعناه، هل هناك ما يعكر الصفو ؟

" أنا لا أعرف بعد. انتظرن لحين وصولى إليكن ".

مشت بضع دقائق وهى تتفكر فى ذلك الإنذار الذى جاءها من مركز رئاسة الشرطة المحلية. ترى هل الحملة ستكون على المدينة وحدها أم على الإقليم كله ؟ هل تسافر البنات وتعملن فى المدن المجاورة لمدة أيام قلائل أم مطلوب منهن التوقف عن العمل كلية، فى الوقت الحالى. عدم العمل يعنى خسارة مقدارها مليون ليرة فى اليوم الواحد. فيما يتصل بالنفقات والمصروفات التى تكبدتها فى هذه البنات، تصبح مسألة خسارة النقود أمراً لا تطيقه ليزى أو تتحمله. لكن إذا كان العمل يعد خطراً، فهل هذا يعنى المخاطرة بالعمل ؟ ماذا لو جرى إلقاء القبض على البنات ؟ إن حدث ذلك فهو يعنى الترحيل الفورى، وهذا الخطر أكبر من خطر توقفهن عن العمل مدة يوم أو يومين. لكن إذا كانت الشرطة ستقوم بحملة على فيرونا، فإن البنات يتحتم عليهن الذهاب إلى بادوا Padua أو فيسنزا Vicenza للعمل هناك. أو قد يذهبن إلى تورينو، أو إلى روما. كان من عادة لفيت Lovett الذهاب إلى روما وإلى نابلى للعمل هناك. القطارات متوفرة طول الوقت. لكن لو حدث وداهمت الشرطة القطارات ومحطات القطارات، وهذا يحدث فى كثير من الأحيان، فماذا يمكن أن يحدث ؟ كانت هناك أسئلة كثيرة بدون إجابات. قررت ليزى الاتصال بمبلغها. إنها بحاجة إلى النقود حالياً. هى بحاجة إلى عمل البنات.

رد المبلغ عليها مع أول رنة من رنات الهاتف المحمول.

بدأت ليزى كلامها، " اسمعنى، أنا لم أفهم هذا الذى قلته لى. هل بوسع البنات الذهاب إلى فيسنزا Vicenza أو بدوا Padua مساء هذا اليوم ؟ "

" من الخطر بمكان الاقتـراب من محطات القطارات هذه الليلة. ابتعدن مدة يومين. " قال كلامه هذا باللغة الإيطالية.

اتضح الأمر الآن. لن يكون بالإمكان الخروج هذه الليلة. هذا يعنى أنّ القطارات ومحطات القطارات سوف يجرى القيام عليها بحملة هذا المساء.

هذا العمل بدأت تزداد مصاعبه أثناء النهار. هناك أخطار كثيرة، وهناك أيضًا حملات وغارات كثيرة أيضًا، وهناك أيضًا كثير من حالات التمرد والعصيان بين البنات. وخطر ببال ليزى، أن البيع بالجملة فور وصول البنات له مزاياه أيضًا. صحيح أن المكسب قليل، لكن الأخطار لا وجود لها، وبخاصة الأخطار التى تحدث بين الحين والآخر.

حولت ليزى النقود إلى بنين على وجه السرعة. ومن كابينة التليفون المجاورة أرسلت ليزى الفاكس إلى إيداهوسا Idahasa. سوف تتصل بإيداهوسا الليلة لتبلغه برقم التحكم، وكذلك س / والسرى، وتصر على حلف الفتيات اليمين قبل أن يجئن إلى إيطاليا.

بينما كانت واقفة فى محطة الحافلات تنتظر وصول الحافلة التى ستقلها إلى شقتها، خطرت عمتها على بالها، التى لديها بنات كثيرات يعملن لحسابها. عمتها هذه، لديها أيضًا محلاً لتصفيف الشعر بالقرب من محطة القطار، وتقوم على أمر هذا المحل نيجيريات كثيرات. وهنا توجهت ليزى إلى صالون الجمال الدولى الألفى.

كانت العمة هيلين Helen جالسة فى ركن صغير من المحل كانت تتخذ منه مكتبًا لها. ومن هذا المكان كانت العمة هيلين تراقب الداخلين والخارجين، وتراقب أيضًا الزبائن الذى يجرى قص شعرهم. كان عدد الزبائن كبيرًا كالعادة. البعض كانوا يحلقون حلقة " بوب مارلى "، والبعض يقوم بالتمشيط، وبعض ثالث يقوم بغسل الشعر، وفى ركن من الأركان كانت هناك فتاة شقراء تعمل وصلة لإطالة شعرها الأسود القصير.

كانت هيلين Helen تتحدث فى الهاتف عندما دخلت عليها ليزى. كانت واحدة من العاملات فى المحل جالسة عند قدمى هيلين للقيام ببعض أعمال العناية بالقدمين. أشارت هيلين إلى ليزى بالجلوس فى أحد الكراسى. لكن ليزى آثرت الوقوف. وعندما رأت هيلين وجه ليزى أنهت مكالمتها الهاتفية على وجه السرعة، وراحت تستمع إلى ليزى.

" ليزى، لم أرك منذ فترة طويلة. هل كنت على سفر طوال هذه المدة ؟ "

" يا أختى، أكاد أموت. إيطاليا لا تسمح للإنسان بمقابلة الأصدقاء. إنه العمل، العمل طول الوقت. "

تبادلتا بعض الكلمات والأحاديث القصيرة قبل أن تفعل ليزى بعينها بعض الإشارات التى توحى لهيلين بالتخلص من الطرف الثالث. وعندما انصرفت البنت التى كانت تعتنى برجلى هيلين، بدأت ليزى تتكلم كلامًا جادًا.

" بلغنى أن الترحيل سيبدأ غداً. وسيأتى القنصل Console غداً قادماً من ميلانو. " معروف أن كلمة Console هى المعادل الإيطالى لكلمة Consu الإنجليزية.

قالت هيلين متعجبة : " ثانى ! أبلغنى أنهم كانوا فى بدوا Padua ونابولى فى الأسبوع الماضى ".

" الدور علينا هذه المرة. أنا جئت إليك لأحذرك. كم عدد البنات اللاتى يعملن لحسابك اليوم ؟ "

" سبع بنات. ثلاث هنا، واثنتان فى بدوا، واثنتان فى بروجيا، وواحدة فى براتو / فلورنسا ".

" هذا يعنى أن لديك ثمانى بنات. بلغيهن ألا يخرجن للعمل على امتداد الأيام القلائل القادمة. ستقوم الشرطة بحملة ".

اشتكت هيلين، " هذا شئ لا يطاق. سفارتنا تتلف لنا تجارتنا. إنهم يودون أن يأخذوا الطعام من أفواهنا. حملات كل يوم، وترحيل كل أسبوع. لماذا كل ذلك ؟ "

" يا أختى، هذا الأمر يتعبنى. وأنا أدعو أن أتمكن من جمع مالى قبل أن تبدأ المتاعب ".

سرح فكر الاثنتين، وراحتا تطيلان النظر إلى الهواء.

قالت هيلين : " اشربى حاجة يا ليزى. بيرة، نبيذ، كمبارى. أو ماء ".

" لا وأشكرك. لست فى حالة نفسية تسمح بذلك. يبدو أننا سنخسر حوالى مليونى ليرة فى هذين اليومين، اللذين لن تذهب البنات فيهما إلى العمل. حملة كل يوم، حملة، حملة، شئ لا ينتهى. كيف يفلت الإنسان من ذلك كله، وكيف يجنى أرباحــاً فى ظل هـذه الحملات ؟ " كانت ليزى لا تطرح هذه التساؤلات على شخص بعينه.

" لا يهمنك هذا كله. هذا نفاق. هم يقومون بهذه الحملات كلها، كما لو كانوا لا يظاهرون المومسات أو يساندونهن. كلهم منافقون. قالت ساخرة : ' يا للعار ! آه، البغاء أمر غير طيب. ' ' يا للأسف، هذه البنات، يا للعار والخزى ! هذا شئ يدعو إلى الشفقة. لابد من فعل شئ لوقف هذا العمل. هذا عمل مشين... ' ومع ذلك، ترين أفراد الشرطة أثناء الليل وهم يتجولون هنا وهناك بحثـاً عن تلك المومس. نفاق. منافقون. إنّ الله سيحاسبهم جميعاً ".

بقيتا صامتتين فترة وجيزة، وكل واحدة منهما تفكر فى الآثار التى يمكن أن تترتب على هذه الحملة على كل منهما.

تساءلت ليزى فجأة، " انتظرى، يا عمتى. افترضى أننا سنقوم بإضراب ؟ وبفرض أننا سنمنع بناتنا من الخروج إلى الشارع فترة من الوقت. ليس أثناء الحملة، وإنما لفترة تمتد إلى ما بعد الحملة ؟ وهذه هى إيطاليا أولاً وآخراً. كل إنسان هنا يستطيع الإضراب Sciopero من باب الضغط لتنفيذ مطالبه ".

" تقولين إضراب يا ليزى ! المومسات يضربن ؟ "

" لم لا ؟ أليس هذا عملاً ؟ العمال على اختلاف أنواعهم يضربون... ؟ "

" الناس العاديون يضربون، العمال العاديون. العمال يضربون احتجاجًا على سياسة الحكومة، أو زيادة المعاشات، أو الإجازات الإضافية، أو ظروف عمل أفضل، أما المومسات ؟ ما الذى يمكن أن نطالب به ؟ "

هذا كلام دقيق. نحن نحتج على الحملات التى لا تنقطع، وعلى مداهمات الشرطة للبنات، وعلى الترحيل الذى لا ينتهى.

ردت هيلين قائلة : " قد يكون معك الحق فيما تقولين يا ليزى ".
" تسألين لماذا ؟ لأن المسئول الحكومى الذى يلتقى مومسًا فى ليلة من الليالى هو الذى يأتى فى الليلة التالية لمداهمتها وإلقاء القبض عليها وترحيلها. إنه السياسى الذى يضاجع البغايا أثناء الليل، ثم يذهب إلى البرلمان ليدينهن. إنهم منافقون ".

" إذن اتفقنا. هيا بنا نمنع البنات من الخروج إلى الشارع بقية هذا الأسبوع ثم نرى ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك. هذه الشرطة التى تلقى القبض على البنات سوف يرجون البنات العودة إلى الشارع. سترين هذا بنفسك. أنا أعرف الرجال حق المعرفة. وهم لا يمكن أن يستغنوا عن هذا الشئ " اختتمت ليزى كلامها بالإشارة إلى ما بين وركيها.

" وهو كذلك، موافقة. لكننا لا يمكن أن نقوم بالإضراب لوحدنا. نحن لا سيطرة لنا على كل البنات اللاتى فى إيطاليا. نحن بحاجة إلى إبعاد البنات كلهن، وإلا خسرنا زبائننا وعملاءنا الذين سيذهبون إلى البنات الأخريات غير المشاركات فى الإضراب Sciopero".

"سوف نتصل بزملائنا. سوف ندعو إلى اجتماع ونتفق على إجراء جماعى ". كانت ليزى كلما فكرت فى مسألة الإضراب تزداد قناعة على قناعتها.

حذرت هيلين متسائلة، " وكيف سيكون حال المومسات الألبانيات ؟ " قالت هيلين هذا الكلام تنطق الكلمة الدالة على " الألبانيات " باللغة الإيطالية.

" إذا ما قمنا نحن بالإضراب، فسوف تبقى المومسات الألبانيات فى الشوارع. ولن توافق المومسات الألبانيات على مساندتنا فى هذا الإضراب ".

" لا تشغلى بالك بهؤلاء الألبانيات. الأمر ليس واحداً. المرأة السوداء مختلفة عن المرأة البيضاء. يجب أن تكونى على دراية بذلك يا عمتى. هل أنت التى تتكلمين بهذه الطريقة ؟ بعض الرجال يفضلن البنات السوداوات على البنات الأخريات. هم لديهم زوجاتهم البيضاوات، لكنهم فى الليل، يخرجون بحثًا عن البنات السوداوات. هيا بنا نجرب مسألة الإضراب هذه. ولا تشغلى بالك بالألبانيات ".

" وهو كذلك، إذا كنت ترين أن هذا يؤيد قضيتنا ويساندها، فلم لا ؟ "

" أنا لا أرى أى ضرر فى ذلك، باستثناء خسارتنا للإيراد خلال ليالٍ قلائل. لكن بعد الإضراب، سوف يتركوننا نعمل فى سلام وهنا نستطيع تعويض خسارتنا كلها ".

" أتمنى ذلك. لقد أنفقت الكثير على هذه البنات. "

" عمتى، اطلبى زميلاتنا. اطلبى العمة أيو Ayo والعمة ستلا Stella اطلبى أيضًا مارثا Martha، جويس Joyce، وفيلو، اطلبى أيضًا العمة أمينة Amina. أطلبى العمة بيشنس Patience، والعمة جلادين، وإيمى Ime، اطلبيهن جميعًا. وبوسعك استعمال هاتفى المحمول. أرقامهن مخزنة فى هاتفى ". كانت ليزى متحمسة للموضوع. لكن هيلين حاولت السيطرة عليها والتحكم فى انفعالها.

" دقيقة من فضلك. هل نطلبهن لحضور اجتماع، أم لنطلب منهن القيام بالإضراب على الفور ؟ "

" أبلغيهن أولاً بالحملة المزمع القيام بها هذه الليلة، واطلبى منهن منع البنات من النزول إلى الشارع مدة أيام قلائل. ثم تكلمى بعد ذلك عن الإضراب Sciopero الذى نخطط له ".

" يجب أن نعقد اجتماعًا رسميًا. ويمكن أن تكون ليزى من بين الأعضاء التنفيذيين أو شئ من هذا القبيل. وإذا أردنا النجاح فيما نفعله، فهذا يحتم مشاركة الجميع ".

" لا يمكن إجبار الجميع على المشاركة. يجب ألا يغيب عنك أننا نتحكم في بنات الشوارع كلهن. بعض هذه البنات يعملن لحسابهن. هن لا يتبعن أية عمة (معلمة) من العمات، ومن هنا فهن أحرار فيما يفعلن ".

" لا تشغلي بالك بهذه النوعية من البنات. هن قلة قليلة. سوف أتصل ببرونو Bruno . وسوف يمنعهن من النزول إلى الشارع طوال المدة التي نحددها له. " برونو هذا، واحد من رجال الاتصال بالمافيا. كما يعمل أيضًا جابيًا للضرائب المفروضة على البنات لحساب المافيا. كانت العمات (المعلمات) يدفعن لبرونو الإتاوة المحددة على كل وصلة من الوصلات التي تقف عندها بنات الليل. يزاد على ذلك أن برونو كان عشيقًا للعمة هيلين من بين العشاق المتعددين.

كانت ليزى تود أن تعرف : " كيف سيقوم برونو بمنع البنات ؟ "

" لا تشغلي بالك. لديه طرقه وأساليبه الخاصة. سيفعل ذلك ".

قبل أن تنهي ليزى كلامها، كانت هيلين تمسك في يدها هاتفها المحمول، وتستعد لطلب زميلاتها (المعلمات).

لم تكن العمات (المعلمات) كثيرات، لكنهن فيما بينهن كن يتحكمن في نسبة تصل إلى حوالي تسعين بالمائة من المومسات النيجيريات اللاتي يعشن في فيرونا، وبادوا Padua، وتورينو، وفلورنسا، وريميني، ومودينا، وجنوة، والمناطق المجاورة لهذه المناطق. ونقلاً عن الإحصائيات الصادرة عن الحكومة الإيطالية، فإن عدد المومسات النيجيريات في إيطاليا يزيد على أحد عشر ألف مومس.؟

الفصل السادس

تحدد أن يكون موعد اجتماع العمات (المعلمات) فى ذلك المساء، فى صالون هيلين لتصفيف الشعر، والذى تطلق عليه اسم صالون الجمال وتصفيف الشعر الدولى الألفى. وعدت العمات بحضور ذلك الاجتماع غير العادى. لم يكن عدد العمات كبيراً لكنهن كن أكثرهن فعالية وتأثيراً، بل إنهن كن الأقدم فى هذه المهنة، ومن ثم يكن من بين مؤسسات الدعارة بالبنات النيجيريات فى إيطاليا.

كان من بينهن تايو Tayo اسيموتا Asemota، التى تعرف حالياً باسم العمة آيو Ayo أوتايو Tayo، وهذا يعتمد على مدى معرفتك لهذه المرأة. بدأت هذه المرأة الذهاب والسفر إلى إيطاليا فى مطلع الثمانينات باعتبارها امرأة أعمال تعمل فى مجال المصنوعات الجلدية وملابس النساء. كانت هذه السيدة تستأجر محلاً على طريق أكبكبافا Akpakpava، الذى لا يبعد عن الطريق الدائرى. وإلى جانب هذا المحل كان يوجد أيضاً صالون لتصفيف شعر السيدات مؤثث تأثيثاً فارهاً، ومقصور على أفراد الطبقة الراقية، كان الصالون مكيف الهواء وله مولد إضافى يستعمل فى حال انقطاع التيار الكهربى. وخلف هذا الصالون كانت تايو

تبيع فى ركن صغير الهدايا الخاصة غالية الثمن. كانت تبيع فى ذلك الركن الساعات، والمجوهرات الذهبية، والعطور ؛ " للصفوة " كما كان يحلو لها أن تقول. كانت سيدات المجتمع، وطالبات الجامعة يساندنها. يقول الناس إن عشيقها، رجل الأعمال الثرى، هو الذى أسس لها هذا البوتيك الصغير. نجح هذا البوتيك نجاحًا كبيراً إلى حد أن زبائنها كانوا ينتظرون عودتها من سفرها بفارغ الصبر، طلبًا لبضاعتها. كان العملاء يقفون صفوفًا أمام ذلك البوتيك الصغير عندما يعرفون أن تايو عادت من سفرها. وفى الوقت الذى كانت فيه البوتيكات الأخرى تبيع بالأجل، كانت تايو تبيع نقداً. تبيع تايو يوم عودتها من سفرها إلى ميلانو ما قيمته آلاف النيرات من البضاعة ويستمر الحال على هذا المنوال إلى أن تنتهى من البضاعة التى أحضرتها. وراجت التجارة على نحو جعلها تسافر إلى إيطاليا مرة كل أسبوعين.

ملت تايو Tayo مسألة السفر هذه وقررت تقديم واحدة من البائعات للسوق. وسافرت ستيلا Stella مع تايو. فى تلك الرحلة، وبينما كانت تُفَرّج ستيلا على سوق بورتا Porta بورتيس Portese، قام نشال بسرقة مبلغ عشرة آلاف دولار التى جاءت بها تايو إلى إيطاليا للتسوق. وفى شجاعة وبسالة، قامت تايو بجولات على عملائها حتى ترى ستيلا مختلف الثياب. نظرات الرجال إلى ستيلا هى التى أوحت لتايو أن ستيلا يمكن استخدامها فى جمع المال على وجه السرعة. هذا هو بايترو Pietro، عميلها الذى فى نابولى باع لها البضاعة بالأجل وطلب منها أن ينام مع

ستيلا. وهنا راحت تايو تحث الصبية الصغيرة أن تكون " لطيفة " وأنيسة مع بايترو.

كانت ستيلا في غاية اللطف مع الرجل، بايترو، مما جعله يعطى تايو خصمًا قدره خمسين في المئة على البضاعة. وعدته تايو بالمزيد من الليالى السعيدة مع ستيلا طوال مقامهما فى إيطاليا، وبذلك حصلت على البضاعة كلها مجانًا وبلا ثمن. ذهبت تايو إلى أبعد من ذلك. فقد وطنت ستيلا في نابولى لتقوم على أمر تجارتها فى إيطاليا.

كانت ستيلا التى تسربت من مدرسة يوسورو Usoro لعيبة بمعنى الكلمة. تهيأت لها فى نابولى تلك الفرصة التى كانت تتحينها، منذ أن حملت من مدرس الأحياء وهى فى الصف الثالث وأجبرت على ترك المدرسة. ابنها الصغير يبلغ حاليًا من العمر عامين ؛ هذا الابن الصغير اسمه إيهى Ehi، وهو يعيش معها حاليًا هى وأمها المسنَّة.

فى بداية الأمر كانت ستيلا تقيم فى فندق رخيص على حساب بايترو. كان بايترو سعيداً فى زواجه على حد قوله لها، لكنه جعل منها عشيقة له عن طيب خاطر ورضا. كان يزورها فى الفندق فى كثير من الأحيان، وكان يتعلل أمام زوجته بأنه مسافر فى مهام مالية وأعمالية عاجلة. بعد فترة من الوقت، ومن خلال علاقاته، استطاع أن يجعل إقامتها فى نابولى إقامة نظامية، وأستأجر لها شقة وأثثها لها بواسطة تاسيتو Tacito.

لم تكن ستيلا تحب بايترو، وإنما وجدت فيه وسيلة أو طريقًا لاكتفائها الذاتى هى وأسرتها. كانت تحصل منه على نقود، وكانت تحول

تلك النقود إلى عائلتها أو بالأحرى لأمها عن طريق تايو. وعن طريق بايترو استطاعت أن تفتح مصنعًا صغيراً لصناعة الصابون لأمها فى أرض الوطن، نيجيريا. وظلت تحفظ جميل تايو التى أحضرتها إلى إيطاليا. وساعدت تايو فى تجارة الأزياء، إذ كانت ترسل لها البضاعة عن طريق الشحن.

فى الرحلات التى تلت تلك الرحلة، كانت تايو Tayo تصطحب معها إلى إيطاليا المتدربات الجديدات اللاتى التحقن بالصالون، كى تضمهن إلى ستيلا Stella فى نابولى ؛ وكانت ستيلا تقول لبايترو Pietro إنّ هؤلاء البنات هم بنات عمها وأنسبائها، أو باختصار إنهنّ من عائلتها الكبيرة. كانت ستيلا تجعل البنات ينزلن إلى الشوارع فى الليل وتقوم بتحصيل المبالغ التى جئن بها، وبالتالى تقوم بتسليم هذه المبالغ إلى تايو فى الزيارات التى كانت تجىء فيها إلى إيطاليا. من هنا وُلدت عملية بغاء بنات بنين Benin فى إيطاليا.

كانت تايو تقول إنها افتتحت محلاً إفريقيًا فى العديد من المدن الإيطالية مستهدفة بذلك تفسير مسألة تمديد إقامة الصبايا المتدربات هناك. وبدأت البنات الصغيرات يتوافدن على محلها طلباً لتسفيرهن إلى إيطاليا للعمل معها فى محلها فى الخارج.

مع ذلك، كانت تايو تعهد بأسرارها إلى صديقاتها المقربات. هؤلاء الصديقات المقربات كن ينتمين إلى ذلك النادى الاجتماعى نفسه، الذى أُطلق عليه اسم النادى الاجتماعى الدولى للأخوات الحميمات ؛ كن

ينادين بعضهن البعض بكلمة " يا أختى " على الرغم من عدم وجود قرابة بينهن. كن يشكلن ملوكًا من ملوك هذه التجارة، ويركبن سيارات الخدمة الشاقة ويواعدن كبار رجال المجتمع. كلهن كنّ إما عزبات أو غير متزوجات، ولكل واحدة منهن ابن أو اثنين، من رجال مختلفين. كن يحضرن الحفلات الليلية كلها فى سائر أنحاء البلاد، وأصبح من المعتاد عند هؤلاء النساء أن تعد لهن طاولة منفصلة فى الحفلات التى من هذا القبيل.

أسرت تايو إلى الأخوات الحميمات أن الطلب كبير على البنات السوداوات فى إيطاليا، بل ربما فى سائر أنحاء أوروبا كلها. هذا الطلب يجرى دفع ثمنه بالنقد الأجنبى (الليرة، والدولار، والفرنك، والجنيه الاسترلينى، والمارك الألمانى). وشرحت لهن طريقة عثورها على ذلك الطلب عندما سرقت منها نقودها فى إيطاليا. وقالت لهن أيضًا : إنا لها حاليًا سبع بنات فى كل من نابولى وتورينو، وأن هذه البنات يعدن عليها بمبلغ لا يقل متوسطه اليومى عن ألف دولار فى كل ليلة. ودعت تايو شقيقاتها الحميمات إلى الاستثمار فى تلك السوق الواسعة والمربحة.

كانت عضوات النادى يسألن تايو بعض الأسئلة حول هذه العملية. كن يسألنها عن طريقة تجنيدها للبنات لهذا العمل، وطريقة الحصول لهن على وثائق السفر.. إلخ، وكانت تلك عملية سهلة سهولة الحروف الأبجدية، عند تايو بحكم أنها مالكة لصالون من صالونات التجميل. كانت لدى تايو بنات كثيرات يعملن لحسابها. وكان لها عدد كبير من الزبائن النساء. وأصبح ذلك الصالون واجهة أو لافتة لتلك المرأة، لجذب المراهقات إلى " المراعى الأكثر اخضرارًا " فى الخارج.

لم تكن الأخوات الحميمات بحاجة إلى المزيد من المعلومات ؛ وبدأت على الفور فى زيارة معاهد الأزياء، ومراكز التدريب التجارى، والمدارس الثانوية بحثًا عن الفتيات الصغيرات. جندت هذه النساء وكيلات كثيرات وجعلتهن يزرن الأسواق، والكليات، ومراكز تدريب المعلمين، والمحلات بحثًا عن البنات الصغيرات المطلوبات للعمل فى الخارج فى مزارع الخضراوات ومجالسة الأطفال البيض الأجانب نظير مرتبات مرتفعة. شارك الرجال فى هذه العملية. وبذلك يبدأ الاتجار فى تهريب البنات الصغيرات والبنات الأخريات المقيمات فى المنطقة نفسها.

هذه الحملة لا تزال مستمرة فى إيطاليا إلى يومنا هذا. وقد امتدت هذه الحملة لتصل إلى الولايات الأخرى كلها فى الاتحاد النيجيرى الفيدرالى.

وبعون ومشورة من تايو، أنشأت الشقيقات الحميمات شبكة من الوكلاء والمكاتب لتنظيم هذه التجارة وتنفيذها. كان هناك وكلاء لتجنيد البنات، ووكلاء للحصول على وثائق السفر، ووكلاء للسفر إلى أوروبا.

ومن باب تأمين الاستثمارات أدخلن خدمات المداوين التقليديين، وخدمات السحرة والمشعوذين، لكى يجعلوا البنات يقسمن قسم الولاء قبل السفر. ومن باب المحافظة على الشكل والمظهر، أبقت تلك النساء على تجاراتهن الحالية، التى لا تعد شيئًا مذكورًا إلى جانب التجارة الإيطالية المثيلة.

ومن نقود البغاء والدعارة راحت تلك النساء ينوعن خط النقل، ويبنين المنازل والفنادق فى العاصمة النيجيرية وحولها، بل امتد هذا النشاط إلى ليجوس وإلى أبوجا لشراء قطع أراضى فى الأماكن الممتازة.

بعد مضى عام على تايو فى هذه التجارة الجديدة سافرت المرأة إلى إيطاليا لتنظيم الأمور هناك. وكانت ستيلا قد سددت دينها واستقرت مع بايترو Pietro بشكل أو آخر، بعد أن طلقته زوجته الإيطالية عندما علمت بنبأ عشيقة زوجها السوداء. وعلى الفور، اتصلت ستيلا بأمها فى بنين، وأرسلت لها أمها، عن طريق تايو، طرداً من بلادها، يحتوى على بعض التعليمات الخاصة بإفراغ المادة الموجودة فى فرجها قبل أن " تضاجع " بايترو.

وإن هى إلا أيام قلائل حتى تزوجها بايترو. وتقدمت بطلب الحصول على الإقامة لمدة عشر سنوات. وبعد أن وقفت على أرباح مهنة الدعارة، بدأت ستيلا فى استقدام البنات. انتقلت مع بايترو إلى شقة جديدة أستأجرها الرجل بعد انفصاله عن زوجته الإيطالية. وتحولت شقة ستيلا الأولى إلى مكان تنام فيه المومسات اللاتى كن يعملن لحسابها على شكل ورديات. كانت تقوم برحلات إلى نيجيريا لتجنيد المزيد من الفتيات لتجارتها. كانت تسمى هذه البنات مغتربات، مغتربات نيجيريات فى إيطاليا. وبعون من تايو، قامت ستيلا بالاتصالات المطلوبة فى مدينة إيدو

Edo، وتمكنت من شحن البنات لها بواسطة وكلائها دون أن تسافر إلى نيجيريا. ومن باب الإهمال، بدأت ستيلا فى سوق المومسات، الذى كانت تباع فيه البنات غير المرغوبات فيهن ؛ وفى هذا السوق، سوق مدينة قلعة فولتورنو Volturno، باعت ستيلا بنتًا قبيحة المنظر.

وبذلك أدخلت ستيلا صديقاتها وأقاربها إلى تجارة الرقيق المربحة، بل إنها كانت تلعب دور الوسيط فى بعض الأحيان، نظير الحصول على أتعاب.

عندما علمت تايو بنبأ ذلك الاجتماع العاجل للعمات (المعلمات) بدأ الفأر يلعب فى عبها. غريب حقًا أن تعقد العمات اجتماعًا، وغريب أيضًا أن يتجمعن كلهن فى مكان واحد. ألا تكون تلك خطة موضوعة أو كمين ؟ ماذا يمكن أن يحدث لو أن الشرطة داهمتهن فى مكان الاجتماع ؟ ولم يحدث أى شئ من هذا القبيل طوال عملها فى هذه التجارة. خطر ببالها أن لكل شئ بداية. يزاد على ذلك أن الضفدعة لا تقفز أثناء النهار إلا إذا كان هناك ما يهدد حياتها. قررت ستيلا حضور ذلك الاجتماع. وبفرض أن الشرطة داهمت ذلك الاجتماع فهى تحمل إقامة نظامية. لن ترحلها الشرطة. الإقامة التى تحملها ما تزال سارية المفعول.

الفصل السابع

حكاية فيث

مرت الأيام سراعًا بعد لقائى العابر مع ليزى. ورحت أفكر فى عرضها صباحًا وظهرًا ومساءً. ذهبت إلى راعى الكنيسة أطلب رأيه فى هذا الأمر. واعترف لى بأن هذا الأمر جديد عليه، لأنه هو نفسه لم يسبق له السفر إلى الخارج. ولكى يكون فى الجانب الآمن، نصحنى الرجل بصوم سبعة أيام صيامًا جافًا. هذا يعنى عدم الأكل والشرب أو القيام بأعمال مدنسة لمدة أسبوع. كما منعنى أيضًا من شرب المشروبات الكحولية، او مضغ اللادن (اللبان) وكل مظاهر الترف الأخرى.

مع نهاية الأسبوع، عدت إلى بيت أمى لكى أزورها. كنت قد قررت وضع مستقبلى بين يدى ليزى. ومع ذلك، كانت هناك بعض المشكلات التى تحتاج إلى حلول. من الذى يمكن أن يرعى أطفالى؟ على سبيل المثال لا يمكن الاعتماد على كنجسلى Kingsley والد يوى Uyi وأوفاى Ovie. كان لا يمكن الاعتماد على هذا الرجل لسببين أولهما أننا لم نكن

زوجين ؛ وثانيهما أن امرأة من سيكوبنا Sakponba العليا أنجبت طفلاً من هذا الرجل. وكما هى عادة الرجال، فإن هذا الرجل سيولى هذا الطفل الذكر جل اهتمامه، ويهمل ابنتاى. كان كنجسلي يعمل فرد أمن وحراسة فى شركة من الشركات الواقعة على طريق مشن Mission. كما كانت له أيضًا تعريشة حلاقة صغيرة، كان يديرها فى المساء. كان ذلك خطأ من أخطاء حياتى التى يجب أن أندم عليها، ولا أستطيع أن أفعل إزاءه أى شئ. وإذا كانت البنات الأخريات وُلدن Borned لآباء أثرياء، فأنا ولدت أطفالى لأب بائس مسكين. مسألة أن تكون للمرأة أطفال خارج نطاق الزواج، أمر غير جديد على مدينة بنين. واقع الأمر أن هذا الشأن كان هو المعيار الطبيعى فى هذه المدينة.

لم تعرف أمى هى الأخرى كيف أتصرف أنا مع العرض الذى قدمته لى ليزى، بعد أن أخبرتها بفحوى ذلك العرض، مساء يوم وصولى إليها. وكعادتها، " تدبرت " أمى الأمر طوال الليل. وعند فجر، اليوم التالى، استيقظت أمى ورحنا نتكلم حول هذا الموضوع.

منذ وفاة والدى أصبحت أمى بمثابة الأسرة الحقيقية التى لى فى هذه الحياة. عقب وفاة والدى تزوجت أمى من شقيقه، فستوس Festus، وذلك حسب العادات والتقاليد السائدة. إلى أن قتل هو الآخر فى حريق من حرائق البترول. والآن تعيش أمى مع دانيال Daniel ابن زوج أمى / عمى فى بلدة أودا Oda. كانت أوساس Osas أختًا لدانيال. كنت قد

" ورثتها " بعد وفاة والدها. وعندما يموت أحد، من الطبيعي جداً أن يجرى توزيع أطفاله على أعضاء الأسرة الذين على قيد الحياة. كانت أوساس Osas من النوع المتعاون. كانت أوساس تقوم على رعاية أطفالى الصغار عندما أذهب أنا للعمل.

كان فستوس يعمل فى صيد الأسماك فى بلدة أودا Oda، على بعد أميال قليلة من بلدة وارى Warri. كان الرجل عاطلاً مدة عامين قبل وفاته. وكان من عادته أن يقول : " لقد أتلفت شركات البترول مسألة صيد الأسماك ". كانت القرى السبعة الواقعة فى منطقة الحكم المحلى غير منتجة. هذا يعنى أن صيد السمك لم يعد أمراً ممكناً. ولم تكن الزراعة أو الفلاحة كذلك. نظراً لأن الأرض كانت عبارة عن مستنقع كما جرى تلويثها بسائل لامع زيتى القوام. هذا السائل كان يقتل كل أنوا ع الأسماك وطعام البحر. هذا السائل كان يمنع أيضاً نمو النبات. كانت هناك نار متوهجة على مسافة بعيدة، مشتعلة صباحاً، وظهراً، وليلاً. يقولون إن هذه عبارة عن غازات متوهجة. وأن هذه الغازات تؤذى حيوات ومصادر عيش السكان المحليين. كما تسبب هذه الغازات الأمراض، وتزيد من حرارة الجسم، وتسبب الحمى، والصداع، والأمراض العامة. وان الحكومة جاءت للتفتيش عن هذه الأضرار. ووعدت الحكومة الناس بالسماد والأرض، ووعدتهم أيضاً بإصلاحات وتعويضات. وقام مديرو شركات البترول بزيارة المنطقة، وكرروا الوعود نفسها. وإلى يومنا هذا، لم ير الناس شيئًا يتحقق من تلك الوعود. قام

الحاكم التقليدى مؤخراً بتوزيع شئ من الأرز وزيت الخضراوات الذى أهدته شركات البترول على القرويين لمنع الإضراب، ولم يجر فعل أى شئ بعد ذلك. لم يفعلوا شيئًا من أجل الناس. وغدا الناس جوعى، مشتاقين للطعام، وبلغوا من الضعف حداً لم يقووا معه على القيام بالإضراب احتجاجًا على هذه الأضرار.. وخطر ببال الناس، ما حدث للناس بسبب الاحتجاج، كما سرحت أفكارهم فى أولئك الذين احتجوا فى الماضى، وكيف ذبحتهم الحكومة عندما راحوا يقاومون طلبًا لحقوقهم. كان الآباء يتفرجون على أطفالهم وهم يموتون بأعداد كبيرة بسبب سوء التغذية. ومع ذلك لم تفعل الحكومة أو شركات البترول أى شئ. مارس القرويون كل أنواع الأعمال، سعيًا إلى الحصول على الطعام. استمر ذلك إلى أن مات فستوس موتًا مفاجئًا فى حريق خط الأنابيب، عندما حاول الحصول على شئ من الوقود نظير الطعام. كانت دائرة رذيلة. تنبأت لأمى بأن " الناس سوف يحتجون فى يوم من الأيام، عندما يعجزون عن تحمل الجوع، عندها سيثورون. كل ما فى الأمر هو أننا ينبغى علينا الانتظار لنرى ما سيحدث ".

بعد أن تدبرت أمى عرض ليزى، أجابتنى قائلة : " ما لا يعرفه الإنسان يكون أكبر من الإنسان نفسه. الرحال يعرف أكثر ممن يقيم فى وطنه أو منزله ولا يتحرك منه. صديقتك ليزى سافرت ومن ثم فهى أعقل منا. والطريقة الوحيدة لمعرفة صدق ما تقوله هذه المرأة هو أن ترى أنت الشى بعينيك. أنا أعلم أننا فقراء الحال، فقراء جداً فى واقع الأمر. أنت،

عندما تعولين هؤلاء الأطفال كلهم بذلك الدخل الهزيل، وعندما تدفعين ثمن الأدوية التى تشترينها، فضلاً عن النفقات الأخرى... كل ذلك يجعلك بحاجة إلى النقود ؛ هذا إذا ما وجدت النقود. وعلى الرغم من طول سنين حياتى فى هذا العالم، فأنا لم يحدث أن رأيت يا فيث Faith، يا ابنتى المكان الذى تسقط عليه النقود من الأشجار. ومن واقع ما تقوله صديقتك ليزى، فإن هذه النقود قد سقطت من الشجرة، وأن مهمتك تتمثل فى التقاط هذه النقود ".

صححت لوالدتى بعض ما قالته ". أنا لست ذاهبة إلى إيطاليا طلباً للنقود، ولكنى ذاهبة إليها لجمع الطماطم والتفاح والفاكهة ".

" أليس هذا هو الشئ نفسه ؟ أنت تقولين إنك ذاهبة لجمع الفواكه المتساقطة، وفى المقابل ستحصلين على مقدار كبير من النقود. عيناك تقولان أنك تودين الذهاب لتجربى حظك هناك. نعم، سوف أدير بالى على أولادك نيابة عنك. أطفالك سيكونون أطفالى. أنت تفهمين ذلك. وإذا ما سافرت لا تنسينا. تذكرى دانيال هنا. لو وجدت له سبيلاً هناك... لقد تجاوز الخامسة عشرة من عمره. آن الآوان ليبدأ التفكير فى مستقبله. وما المستقبل هنا مع امرأة عجوز ؟ ما المستقبل هنا مع أرض مدمرة وماء ملوث ؟ نعم، يقولون لنا إن أرضنا فيها بترول وإنها مصدر لثروة كبيرة. لكنك تعرفين ورأيت بعينيك أن هذه الثروة ليست للحيوانات. لا تنسينا. لا تتركينا نموت جوعًا. لا تتركينا وحدنا. أنا يمكن أن أعول نفسى. وأنا إذا ما رأيت الطعام، أكلت. وإذا لم أر

الطعـام أشـرب الماء، ثم أنـام. لكن فـى وجـود الأطفـال، لابد من وجـود الطعام. وعليه، أقول من جديد، لا تنسينا ".

" لن أنسـاكم مطلقًـا، يا أمـى. أنت الإنسـانة الوحـيـدة التى لى فى هذه الدنيا، أنت وأطفالى. إذا نسيتكم، فمن سأتذكر ؟ ربما كانت هذه هى الفرصة التى كنت أنتظرها لتحسين حياتى ؛ أى أساعدك، لكى أوفر لنا احتياجات الحياة الأساسية. الإنسان لا يتعين عليه الوقوف فى مكان واحد لمشاهدة حفلة تنكرية. لن أنساك ولا يمكن أن أنساك ".

ثم باركتنى أمى ودعت لى بالخير.

" أدعو الله أن تصحبك أرواح أسلافنا وتحميك. آمين. ولتفتح هذه الأرواح الأبواب أمامك. آمين. أدعو لك بالمعروف والخير حيثما ذهبت. آمين. وأدعو لك ألا توجدى حيث توجد المتاعب ! أدعو لك أن تكونى أنت فى الخلف، عندما تبدأ المتاعب فى التجمع أمامك. آمين. وإذا ما جاءت المتاعب من الخلف تكونين أنت فى الأمام. آمين. اذهبى يا عزيزتى. وآمل أن يكـون القـدمان اللتـان حملتاك فى الذهاب هما اللتان تحملانك فى العودة ".

أمّنت على مـا قـالت، على الدعـوات كلهـا التى دعت لى بهـا أمـى. واتفقنا على أن أرسل لها مقتنيـاتى كلها، قبل الرحيل. أبلغت أمى أن تبيع الأشياء كلها إذا ما اضطرت إلى ذلك، لكى يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة، إلى أن أتمكن من تحويل النقود إليهم من إيطاليا.

ثم ناقشنا موضوع دانيال باستفاضة. كانت أمى تود لدانيال السفر إلى الخارج هو أيضًا. شأنه فى ذلك شأن ولد إيجون Egun. كان إيجون واحداً من أبناء بلدنا. وكان قد " افتتح " مؤخراً منزله الجديد المكون من عدة طوابق استغرق بناء هذا المنزل ستة أشهر فقط، فى الوقت الذى يمضى الناس سنوات وسنوات فى إتمام بناء منزل من هذا القبيل. كان الناس يبنون على مراحل فى تلك الأيام. فى العام الأول، كان الناس يستخدمون أموالهم فى إخلاء الأرض وتسويرها. وفى العام الثانى يدخرون ثمن الأساسات. ثم عامًا آخراً، فى البناء إلى السقف. ويبدأ المنزل بعد ذلك يأخذ شكله النهائى على امتداد سنوات أُخر.

لكن ولد إيجون Egun سافر إلى الخارج، وفى غضون عام من سفره استطاع الرجل العجوز إكمال المنزل. كان فى المنزل مولد كهرباء. وهم يقولون إنه سوف يُدخل خط تليفونى إلى المنزل لأن مصلحة التليفونات النيجيرية جرى تخصيصها.

" لكن يا والدتى، لقد بلغنى أن ولد إيجون ينقل المخدرات. وهذا هو السبب وراء بناء منزل خلال فترة قصيرة. هذا العمل ينطوى على مبالغ كبيرة جداً ولكنه محفوف بالمخاطر. يتعين عليك ألا تنتظرى أو تتوقعى شيئًا من هذا القبيل من دانيال ".

ردت عليها أمها، " طالما أنه لم يقتل أحداً ". كانت أمها ترى أن القتل هو أبشع الجرائم. وما دون القتل يعد أمراً مسموحًا به من أجل البقاء على قيد الحياة.

" لكن، يا أمي، المخدرات أمر شديد الخطورة. وإذا ما جرى القبض على أحد متلبسًا فإن أقل حكم يصدر عليه لا يقل عن عشر سنوات في السجن ".

أكدت والدتها، " لكن ولد إجيون لم يجر القبض عليه ".

ختمت كلامي، " كيف لنا بمعرفة ذلك ؟ أولاً وقبل كل شيء، هذا الولد لم يعد إلى البلاد منذ فترة طويلة. واقع الأمر أن هذا الولد لم يكن حاضراً عندما جرى افتتاح المنزل الجديد. لابد أن يكون في ضائقة من الضوائق ".

"فيث، هناك طرق متعددة لعمل هذه الأشياء. هناك مثلاً الدواء الذي يمنع رؤية البشر. وهذا دواء قوي جداً. لكنه له مفعوله. أنا أستطيع حمل المخدرات، وأمر على أوبالجبي Obalegbe دون أن يراني. أنا أعرفكم يا من التحقتم بالمدارس وشاهدتم حضارة الرجل الأبيض. لكن لا تنسوا أننا أيضًا لدينا قوتنا. وإذا ما وصلتِ إلى بلاد الرجل الأبيض واحتجتِ إلى أي شيء فأنا موجودة هنا. قد لا أستطيع إعطاءك نقوداً، لكن بوسعي أن أعطيك السحر والشعوذة التي تحتاجين إليها سواء أكان ذلك للحب، أو النقود، أو الحماية.. ".

كانت أمي مثل بقية رفاقها تذهب إلى الكنيسة في يوم الأحد، ولم تتخل أمي عن أساليبها الوثنية. ولم تتردد في زيارة الساحر، أو

المداوى كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وهى مثل رفاقها كانت تخلط دواء الرجل الأبيض هو ومنظومة معتقداتنا بالممارسات والطرق التقليدية.

" لقد سمعت ما تقولين، يا أمى. وسوف انتبه من أجل الحصول على فرصة مواتية لدانيال. وإذا ما احتجت إلى تأكيدات تقليدية فسوف أبلغك ".

* * *

ركزت بعد تسوية موضوع أطفالى، على ترتيبات السفر. كانت ليزى قد عرفتنى على " أخ " لها، يدعى إيداهوسا Idahosa. وأنا لا أعتقد أن بينهما قرابة. وأنا أظن أنه وكيل لها أو شريك لها فى العمل.

كان إيداهوسا مسئولاً عن وثائق وخطط السفر اللازمة. كانت ليزى قد سافرت عائدة إلى الخارج، وقال إيداهوسا إنه سوف يلتقى بنا هنا. سيلتقى بنا لأنى اكتشفت بعد ذلك، أن الكثيرات منا كن مهتمات بجنى الفواكه الإيطالية. كنت أحس بالقلق لاحتمال عدم وجود فاكهة تكفى لنا جميعًا. كم عدد المزارع التى هناك ؟ وكم عدد البنات الراغبات فى السفر لجنى الفواكه ؟ وما هو حجم هذه المزارع ؟ أعطيت الوكيل نقودًا كى ينهى إجراءات سفرى قبل البنات الأخريات، وأخذ الرجل النقود لكنه أكد لى أن الفاكهة كثيرة وفيها متسعا للجميع. وقال لى إن العمل بحاجة إلى المزيد من البنات، وعليه إن كان لدى بنات عمى أو بنات أخواتى،

أو بالأحرى قريبات وصديقات، فإن هناك متسع لهن جميعًا. سرح ذهنى فى دانيال وسألته إن كانوا يكفلون الرجال. وقلت له : إن الرجال بوسعهم أن يجنوا الفاكهة مثل البنات تمامًا. ونظر الرجل إلى نظرة طويلة، ثم قال :

" فيث، يبدو أنك تبلغين من الذكاء حدًا لا يتفق مع هذا العمل. أنت كثيرة التساؤل، تسألين كثيرًا جدًا. احتفظى بذكائك لنفسك حتى لا تتسببى لنفسك فى المتاعب ".

صمت الرجل، وهو يناجي نفسه هل يقول أكثر مما قال أم لا؟ وبعد برهة قصيرة واصل الرجل حديثه :

" أنا لا أحتاج الأولاد أو الرجال. إذا كان لديك مرشحين من الذكور فسوف أحيلك إلى الوكيل المسئول عن الذكور. وعلى كل حال، أنا أنصحك بأن تنتهى أولاً من ترتيبات سفرك قبل التفكير فى الآخرين ".

كان ذهنى مشغولا بالسفر إلى إيطاليا. ليتنى أسافر وأكون مثل زميلاتى اللاتى رأيتهن فى شوارع بنين، وهن يركبن سيارات كبيرة، والبعض منهن كن " يجلسن " فى الخلف فى مكان مالك السيارة. كن يتحدثن فى هواتفهن المحمولة. ويتخذن وضع الشخصيات الكبيرة. ويلبسن حليًا من الذهب والمرجان، وتحملن حقائب، ويلبسن أحذية تناسب تلك الحلى والمجوهرات ؛ ولهن أيضًا محلات لبيع الهدايا، وصالونات لتصفيف الشعر، ويشغلن خدمات النقل والانتقالات. داخل المدينة وخارج المدينة. كلهن صاحبات عقارات مبعثرة فى سائر أنحاء بنين والعاصمة الفيدرالية.

اصطحبنى إيداهوسا إلى مصور قريب من مكتبه، بعيداً عن الطريق الدائرى الشرقى الثالث. التقط ذلك المصور لى صوراً فى أوضاع مختلفة ومن زوايا مختلفة. ثم وقعت بعد ذلك على بعض الأوراق. قال لى إيداهوسا : إن تلك التوقيعات خاصة بجواز السفر. وقعت فى المكان الذى أرانى إياه. وبصمت بإبهامى فى بعض المواضع الأخرى. لم أذهب معه إلى مكتب الجوازات لأنه قال لى إن الأمر لا يستدعى ذلك. الواضح أنه كان عميلاً دائمًا لدى ذلك المكتب، وكان يعرف موظف الجوازات.

بعد بضعة أيام، أرانى عندما ذهبت إليه، كتيباً أخضر اللون، وقال لى إن أحداً لا يستطيع السفر خارج بلاده دون هذا الجواز. ذلك الكتيب الأخضر، هو جواز سفرى.

قال لى إيداهوسا بعد ذلك، إن على أن أنتظر : وإن المرحلة التالية ستستغرق وقتًا طويلاً. قال لى : إن من يود السفر إلى إيطاليا يكون بحاجة إلى تأشيرة سفر لذلك البلد. وقال أيضًا إن البيض لم يعودوا يسمحون بدخول الغرباء، أو الأجانب إلى بلادهم السهولة السابقة نفسها، وعليه كان لابد من رشوة بعض الناس الذين يعملون مع البيض كيما يحصل على مثل هذه التأشيرات. وأكد إيداهوسا لنا أنه لن تكون هناك مشكلات فى الحصول على هذه التأشيرات ؛ وأن الأمر لا يحتاج إلا إلى النقود. وعند هذا الحد، سألت الرجل، عن المبلغ الذى ينبغى أن أساهم

به فى هذه المصروفات. وهنا ضحك الرجل بصوت عال، وقال لى : إننا سنجىء إلى هذه النقطة فيما بعد. وقال أيضًا : إننى عاقلة وأعرف أن الغداء لا يقدم مجانًا، لكننا سوف نعبر هذا الجسر عندما نصل إليه، وسيكون ذلك العبور قبل مغادرتى مدينة بنين. ونصحنى الرجل بالمتابعة بين الحين والآخر، حتى أكون على بيِّنة بما يجرى فى موضوع السفر. وقررت فيما بينى وبين نفسى التردد على إيداهوسا بصفة منتظمة يوم الجمعة من كل أسبوع.

فى كل مرة كنت أذهب فيها إلى إيداهوسا، كنت أرى عنده بنات كثيرات من مختلف الأعمار والألوان، ومنهن من ينتظرن وصوله أو يخرجن من مكتبه. كل هؤلاء البنات كن فى مراحل مختلفة من عملية السفر والاستعداد للرحلة. بعضهن كنّ موجودات للتوقيع بالحضور. بعضهن كن يأخذن الصور المطلوبة لجواز السفر، فى حين كان بعض ثالث منهن ينتظر وثيقة أو أخرى. كان واضحًا تمامًا أن المكتب عبارة عن وكالة سفريات. بعض هؤلاء البنات كن بصحبة مرافق لهن إلى المكتب. التقيت بنات كثيرات جئن إلى المكتب بصحبة آبائهن، أو أمهاتهن، أو عماتهن، أو جداتهن، أو إخوانهن، أو أزواجهن أو أصدقائهن. كانت أغلبية هؤلاء البنات قادمات وحدهن. كانت بنات كثيرات منهن صغيرات السن، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى حول ما إذا كن تلميذات فى المدارس، أم إنهنّ مثلى، تعانين من وفاة رب الأسرة، واضطررن إلى التسرب من التعليم ؟ وعلى الرغم من ذلك كله، كان

البعض منهن قد تخطين سن الالتحاق بالمدرسة. تعرفت على واحدة أو اثنتين منهن كن يعملن بائعات فى سوق بنين الجديدة. كما التقيت أيضاً تلميذة من تلاميذ مصففة شعرى، كما التقيت أيضاً خادمة كانت تعمل فى منزل أحد الخياطين. قلة قليلة من هؤلاء البنات هن اللاتى جئن إلى العيادة. يبدو أنهن لم تعرفن شخصيتى.

كـان الحـاضرون يتجمعون على شكل جماعات مكونة من فردين أو ثلاثة يناقشون مختلف الأمور. هنا فى هذا المكتب سمعت عن أوساهون Osahon كما التقيتها أيضاً.

كـانت أوسـاهون امـرأة مـتـينة، ويرجح أن تكون فى مطلع العشرينات. كانت هى الأخرى مهووسة إلى حد ما، إن صح أن يكون هناك إنسان مهووس. بعض الناس يقولون إن الإنسان قد يكون مهووساً أو غير مهووس. وليس هناك مرحلة بين بين. ترددت قصص كثيرة عن أوساهون. ربما لم يستطع أحد القطع بصدق أو بكذب أية قصة من تلك القصص. كان الناس يسمعون ويزيدون على ما يسمعون من قبيل " الملح والفلفل "، عندما يعيدون سرد ذلك الذى سمعوه. قال البعض إن والديها أرسلاها إلى الخارج لاستكمال تعليمها. وإنها أصيبت هناك بالهوس والجنون وعادت إلى البلاد. قال آخرون : أن البعض كفلوها لكنها هربت بعد أن سافرت إلى إيطاليا. وقيل أيضاً إنَّ المرأة التى كفلتها هى التى تسببت لها فى الجنون. وقام السفير النيجيرى فى ذلك البلد بإعادة أوساهون إلى نيجيريا على حساب الحكومة نظراً لأنها كانت تشكل نوعاً

من الحرج لنيجيريا فى ذلك البلد. كان والداها لا يريدان لها العودة. قالا بأنها ستكون عاراً لهما. ومع ذلك، وصلتهما مكالمة تليفونية من شرطة المطار، فى أحد الأيام، وبذلك عادت أوساهون إلى نيجيريا.

كان والدا أوساهون قد أرسلاها إلى مستشفى يوسيلو Uselu النفسى. وهربت أوساهون من المستشفى. وجرى بعد ذلك إرسالها إلى مستشفى بعيد هو مستشفى آرو Aro بلدة أبيوكوتا Abeokuta. ولم يفعل المستشفى لها شيئًا. قال المستشفى إنه ليس لديه المواد أو العقاقير المطلوبة لعلاج المرضى النفسيين فى المستشفى، وإنَّ المستشفى يترك المرضى يتجولون فى شوارع البلدة، وهم يلعبون الموسيقى على العلب الفارغة ويروحون يجمعون الصدقات من الناس.

جرى الاتصال بكثير من المداوين بالأعشاب أملاً فى علاج أوساهون، لكن ذلك كله باء بالفشل. كان بعض آخر من الناس يتساءل، كيف يمكن شفاء الجنون بعد " حدوثه " ؟ يقولون إنّ والدى أوساهون استغلاها فى جمع المال. وأنهما كان يطمعان فى مال لا يعد ؛ مال لا ينتهى. وعليه، طلب منهم المداوى المشعوذ التضحية بأغلى شئ عندهما فى هذه الدنيا، ابنتهما البكرية. وبذلك أصبحت أوساهون عديمة الجدوى. فى بعض الأحيان كانت تنمو بسرعة إلى حد أن رأسها وأذنيها كانا يتضاعفان من حيث الحجم. وفى أحيان أخرى كانت تضعف وتنحف، وتصبح مثل عود الذرة وذراعاها يتدليان على جانبيها كما لو كانا لعبتين.

كانت أوساهون تظهر دومًا فى هذا الشارع، وتروح تتسكع هنا وهناك. تراها هادئة فى بعض الأحيان، وتستجدى الصدقات من الناس. وإذا ما أعطاها أحد ورقة من فئة النيرة، فإنها تبدأ فى الرقص، وتروح ترفع أطراف ملابسها إلى الأعلى وتنزلها إلى الأسفل، بيد واحدة كاشفة بذلك عن مناعمها الداخلية، وهى تبتسم ابتسامة بلهاء. فى حين كانت يدها الأخرى تمسك بالعملة الورقية لكى يراها الحاضرون كلهم. لم تكن أوساهون تحب العملات المعدنية، وكانت تصب لعناتها على كل من يعطيها نقوداً معدنية، وكانت تلعنه بأنه ممسك وترميه بالعملة المعدنية التى أعطاها إياها. والويل لمن يحاول الحصول على هذه العملة أو التقاطها ؛ لأنها ستقوم بمطاردته وأخذ تلك العملة من يده، ثم تلكمه أيضاً.

فى بعض الأحيان الأخرى، تثور أوساهون وتروح تطارد الناس هنا وهناك وتسىء إلى السيدات والبنات اللاتى يأتين إلى إيداهوسا طلبًا للعمل.

كانت أوساهون تسر إلى كل من تلقاه قائلة : " انظر. هؤلاء هم المومسات ". وتروح تشير إلى النساء الواقفات ". أنتن تردن السفر إلى الخارج وتضاجعن العضو الأبيض. بنات عديمات النفع والجدوى. رجال بنين لا يكفيكن ؟ " ثم تطلق بعد ذلك فحيحًا شبيهًا بفحيح الأفعى.

كان خدم إيداهوسا يطاردونها لإبعادها عن المكتب قدر المستطاع، لكنها كانت تعاود العودة تدريجيًا إلى المكتب. كان الناس يقولون لهؤلاء الخدم، ألا يتعرضوا لأوساهون وأن يتركوها لحال سبيلها طالما أنها لا تضر أحداً منهم، وكانوا يقولون أيضًا إنها مصابة فى عقلها، وإنّ

عقلها غير كامل، وإنها مجرد طفلة ليس إلا. لكن الخدم كانوا يقولون ويشتكون من أنها كانت تحرج زبائنهم وعملائهم. وأنا شخصيًا لم آخذ أوساهون مأخذ الجد.

وأنا الآن أتمنى لو كنت أخذت كلامها مأخذ الجد. كانت تحمل لنا رسالة من خلال جنونها. ليتنى فهمت تلك الرسالة.

تكررت أسفار إيداهوسا طوال الأسبوع. كان يقول لنا : إنه كثير المشاغل، وأنه رجل أعمال دولى. كما كان يقول لنا : إن أعماله تضطره إلى السفر إلى ليجوس والبلدان المجاورة الأخرى، لإنجاز أمر أو آخر، ويتابع ما يجرى فى الأعمال الأخرى.

دعوت كثيراً طلبًا لإنهاء أوراقى. ليتنى عرفت ذلك الذى كنت أدعو من أجله. ليتنى عرفت ذلك الذى كان ينتظرنى. والآلهة عندما يريدون عقابنا، يلبون دعاءنا.

واصلت ذهابى إلى عملى فى المستشفى لكن روحى لم تعد متعلقة بالمستشفى. وبدأت صوم سبعة أيام أخرى صيامًا جافًا محاولة من جانبى تسريع الأمور روحيًا.

بانتهاء صيام الأيام السبعة جاء إيداهوسا إلى العيادة يبحث عنى. قال : إن هناك أمراً صغيراً؛ مفاده أن موظف التأشيرات فى السفارة الإيطالية يود رؤية بعض مقدمات هذه الطلبات، وأن هذه " الرؤية " ستتم فى يوم الأربعاء القادم. وقال : إننا يجب ألا ننزعج من ذلك، وإن الأمر

عـادى تمامًا. وأكد لنا أن ذلك شيء عادى جدًا وروتيني. وأنه قد " رأى الـــرجل بالفـعل، بمعنى أنه أعطاه رشـــوة من أجل الحـصــول على التأشيرات ".

اتفقنا على أن نستقل الحافلة من موقف حـافلات إيارو Iyaro فى ليلة يوم الثلاثاء. كانت الحـافـلات تبدأ فى ذلك التوقيت لكى تصل إلى ليجوس فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى. وكان علينا أن نتوجه إلى السفارة عند الساعة الرابعة صباحًا حتى نتمكن من الوقوف فى الطابور لكى نحصل على أرقام تسلسل الحضور. قال إيداهوسا إنّ الناس يمضون الليل خارج السفارة على أمل الوقوف فى بداية الطابور.

* * *

كانت محطة الحافلات عامرة بالضوضاء، وكانت هناك محاولات من هنا ومن هناك لجعلنا نركب حـافـلات بعينهـا. فى وسط هذه الفوضى ضاعت منى حقيبتى. حاول بعض السائقين ربطنا بالأحزمة التى كانت فى حافلاتهم : كان فى الحافلات أجهزة تليفزيون وأجهزة فيديو، وكانوا يقدمون العشاء، فضلاً عن الموسيقى على امتداد الليل كله. بدا ذلك كله غريبًا علىّ. وسرعان ما اكتشفنا أن هذه التسهيلات موجودة فى الحافلات كلها ؛ وكانت تلك الحافلات تحمل أقوالاً فلسفية مثل " حكم الله، لا مفر منه ؛ ليت الناس كانوا آلهة ؛ لا تنس أقدامك الستة " ؛ وهنا

اتضح لنا ان إيداهوسا له عميل خاص به، لأنه سلمنا إلى رجل يدعى السيد / لكى Lucky الذى وضعنا فى حافلة فاخرة مكتوب عليها المزمور الثالث والعشرون.

كنا ثلاث بنات، بيشنس Patience، ودوريس Doris، وأنا. قال لنا إيداهوسا إن لكى Lucky سينقلنا إلى ليجوس وسيقوم هناك بتسليمنا إلى شخص آخر سيقوم بتوصلينا إلى السفارة.

انتظرنا إلى أن يكتمل ركاب الحافلة. قال إيداهوسا إننا سوف نحتل المقاعد " الملحقة ". هذه المقاعد كانت عبارة عن كراسى خشبية مستديرة يجرى وضعها فى الممر فيما بين المقاعد الموجودة على جانبى الحافلة. هذه المقاعد كانت أرخص من المقاعد الأساسية المعتادة، لأن مقْعَدَة الجالس كانت تزيد على حجم قاعدة الكرسى المستديرة، فضلاً عن أنه لم يكن لتلك الكراسى مساند من الخلف. هذا يعنى أن الجالس على هذه الكراسى يتعين عليه أن يكون منحنيًا إلى الأمام، طوال الرحلة التى تستغرق خمس ساعات، يزاد على ذلك أن تلك الكراسى لا تسمح بالنوم إطلاقًا. صحيح إنها رخيصة، لكنها أكثر كلفة. ونظرًا لنقص الوقود والديزل، فقد زادت أجرة الركوب إلى ثلاثة أضعاف. يزاد على ذلك أن شغل هذه الكراسى يستغرق أيضًا حوالى ساعة أيضًا. فى الوقت ذاته كنا نقف خارج الحافلة نمدد أرجلنا ونفردها استعدادًا للرحلة الطويلة.

كان موقف حافلات إيارو شبيهاً بخلية النحل حتى فى تلك الساعة المتأخرة من الليل. كان هناك باعة ثابتون وباعة جائلون يبيعون الطعام والمأكولات الصغيرة، ويبيعون الفواكه والأطعمة الأخرى. كان هؤلاء الباعة يحيطون بالحافلات ويصيحون كيما يشترى المسافرون بضاعتهم. وتلك هى نساء يحملن أطفالهن على ظهورهن يبعن البيض المسلوق، ويبعن أيضاً اللحم الغانى محمراً، واسم اللحم الغانى هذا يطلقه الناس هنا على المحار النهرى أو البحرى ؛ ويبيع هؤلاء الباعة أيضاً أجزاءاً من الدجاج، ولحماً مقلياً، وخبزاً، وموزاً. كان هناك أيضاً ماء مثلجاً، ومشروبات غازية. وهذا رجل يحمل نفيراً من المطاط يبيع المجلات والكتب الدينية، فى حين كان بائع آخر يعرض بضاعته على لوح من الكرتون معلق بخيط فى عنقه ويتدلى نازلاً على صدره. هذا الرجل يبيع مسحوقاً أبيض ملفوف فى أكياس نيلون شفافة. وكانت هناك قوارض ميتة معلقة فى لوح الكرتون. كان الرجل يصيح بصوت عال قائلاً : " أيوه، نعم، أيوه، نعم " وهو يدق جرساً كان يحمله فى يده ". قاتل الفيران الأصلى، وقاتل الفراش الأصلى أيضاً ".

حذر المحصل، أو زميل السائق على حد قول الركاب، وطلب منهم أن ينتبهوا إلى متعلقاتهم الشخصية، نظراً لوجود نشالين ولصوص حقائب يتجولون بين الناس على أنهم مسافرون. أثناء هذا التحذير انطلقت صيحة من وسط الجمهور : " امسك، امسكوا اللص، حرامى ! " لكن اتضح الأمر أنهما كانا صبيين صغيرين كانا يبيعان البسكويت،

ويحـاولان المزاح وتخـويف الناس. وراح بعض آخـر من البـائعين يوبخانهما لمزاحهما فى أمر خطير من هذا القبيل، وأن ذلك يمكن أن يؤدى إلى عدم الإمساك باللص الحقيقى إذا ما جاء للسرقة نظراً لأن الناس لن يكونوا متأكدين من حقيقة ما يجرى.

كان الشيالون يدفعون الواقفين هنا وهناك وإلى الأمام وإلى الخلف. وقد اندهشت عندما رأيت أطفالاً مستيقظين حتى هذه الساعة. وهنا خطر ببالى أطفالى الذين تركتهم فى المنزل. دعوت أن تكون أوساس حريصة عليهم ومهتمة بهم. هى دائمًا تتصرف تصرف الكبيرات الناضجات لكن هى فى الثانية عشرة من عمرها، وهذا يعنى أنها لا تزال طفلة. كنت قد طلبت من أحدى الجارات أن تدير بالها عليهن. وكنت أيضًا قد اعتذرت عن وردية من الورديات الليلية. ونحن إذا ما وصلنا فى ساعة مبكرة إلى مدينة ليجوس، سنتجه مباشرة إلى السفارة. ويتحتم علينا إنهاء المطلوب منا قبل دخول المساء، وبذلك يكون أمامنا متسع من الوقت للعودة إلى محطة الحافلات، لكى نلحق بحافلة المساء العائدة إلى بنين. هذه الحافلات يمكن ركوبها من منطقه جيبو **Jibowu**، وعند محطة ميل **Mile 2**، وكذلك محطة مازا **Maza** فى ليجوس، هذا على حد قول إيداهوسا.

كنت لم أسافر منذ زمن بعيد، ولذلك كنت كلى آذانًا صاغية. كانت تلك تجربة جديدة علىّ تمامًا، وبخاصة ذلك السوق الليلى. على امتداد الطريق كان هناك باعة جالسون على طاولاتهم وكراسيهم وبضاعتهم

موضوعة أمامهم على طاولات أمامهم. وفي وسط الطاولة يوجد مصباح يعمل بالكيروسين. كما توجد مجموعة من البعوض الذى لا مفر منه. كان هناك رجل من الفولاني يشوى الكباب على النار. وهذه امرأة بدينة على غير العادى تشوى الذرة فى جانب آخر من الطريق. وهذه روائح الطعام تنساب فى الهواء من كل جانب. هذه الروائح كانت تختلط بالروائح المنبعثة من ملفات البعوض لتساعد على طرد البعوض وإبعاده عن الناس، الذين كان البعوض يتراكم عليهم وعلى رؤسهم على شكل جحافل. وبين الحين والآخر يتعين على الإنسان أن يضرب رأسه بيده ليقتل ناموسة أو ناموستين ويطرد الباقى بعيداً عنه، لكن البعوض كان يعاود المجئ على الفور.

هذا البعوض يتوالد فى المياه الراكدة فى الميازيب التى تمتد محاذية للطريق. هذه الميازيب أو المصارف كانت تفوح منها رائحة البول والغائط. كان الناس يقضون الحاجة فى تلك الميازيب أو المجارى. وهذا طفل شمر ملابسه حول بطنه وراح يدوس فى هذه الميازيب. وعن بعد هذا رجل آخر يمسك عضوه فى يده وهو يبول أو إن شئت " يدفع قارورة مائه "، فى هذا المصرف نفسه.

كانت الموسيقى، إضافة متباينة من الموسيقى والأغانى تنبعث من مكبرات الصوت المختلفة فى سائر أنحاء المشاريع التجارية، وكانت تلك الميكروفونات ومكبرات الصوت على بعد مسافات قصيرة جداً من بعضها البعض. كان هناك محل من محلات الموسيقى مقابل موقف

الحافلات، وكانت تصدر من هذا المحل أصوات موسيقى الأجبو Igbo الدينية لكى يسمعها الحاضرون جميعهم. كما كانت هناك أيضًا أماكن متعددة لتناول الطعام، وكانت تنبعث من هذه الأماكن الأغانى الخاصة بروادها وبأصوات المغنيين من أمثال فكتور أويفو، ويوسف أوزايامور Osayamore. كان بائعو الشرائط الموسيقية يتجولون وهم يحملون معهم أجهزة الكاسيت الخفيفة، كى يجربوا الشرائط للزبائن المرتقبين. كان ذلك المطعم يغص بالضوضاء. ومع ذلك كان المرء يحس شيئًا من النظام، كان هناك شئ من تنظيم العمل فى هذا المكان. كما كان الناس مشغولين بأعمالهم. أما أولئك الذين لم تكن لهم أعمال فكانوا يتسكعون هنا وهناك، لكى يزجوا وقتهم. تحت اللوريات كان الناس ينامون على الحصير الذى فرشوه على الأرض. فى حين كان سائقو الحافلات ينتظرون اكتمال عدد الركاب فى حافلاتهم ؛ كان أولئك السائقون جالسين على المقاهى، يشربون المسكرات، ويدخنون القنب الآسيوى. وهذا شحاذ أعور يتكئ على بنت صغيرة، يمشى وسط الجموع البشرية، يستجدى الناس. أعطيته عملة معدنية، ودعوت لنفسى " بسلامة الرحلة ".

عندما انتصف الليل، نادى محصل الحافلة على الركاب للصعود إلى الحافلة. ركبنا الحافلة، وسعدنا بأنها ستبدأ التحرك، اشتياقًا منا إلى الجو اللطيف، نسيم الليل الذى سيمسح عرقنا، وفرحنا بأننا سنبتعد عن ضوضاء الجراج. أمضينا حوالى الساعة فى محاولة الخروج من بين صفوف السيارات التى كانت تنتظر التموين بالوقود فى محطة

المحروقات. عندما بدأنا السير فى الطريق الرئيسية التى ستوصلنا إلى الطريق السريع، همست لى دوريس Doris أن أخلع المجوهرات التى كنت أرتديها وأن أخبئ نقودى فى حزامى وألفه جيداً حول وسطى. هذا لأننا يحتمل أن نواجه لصوصًا مسلحين على الطريق. هذا لأن طريق بنين – ليجوس شهير بعصابات اللصوص. لم تكن معى مجوهرات كثيرة، سوى ساعة يدى، التى خلعتها من يدى وربطتها مع نقودى فى ملابسى. وهمست أنا بنفسى إلى بيشنس Patience. ولفتت بيشنس هى الأخرى اهتمامى إلى الرجلين اللذين كانا فى مقدمة الحافلة، وكان معهما بنادق طويلة تتدلى من كتفيهما.

قالت بيشنس Patience " هما من رجال الأمن الأهليين ". اللصوص المسلحون لا يهاجمون الحافلات التى يركبونها لأنهم مسلحون. يضاف إلى ذلك أن حافلات كثيرة تستأجر هؤلاء اللصوص المسلحين لمرافقة الرحلات التى تقوم بها هذه الحافلات.

ما أن أنهت بيشنس جملتها حتى أطلق الرجلان المسلحان طلقات عدة فى الهواء وذلك من باب تحذير قطاع الطرق، وجاءت تلك الطلقات على فترات متقاربة.

عندما بدأت الحافلة السير فى طريق ليجوس الجديد، ركب بائع أدوية من الأجبى Igbo الحافلة. بدأ البائع حديثه بأن راح يطلب من الركاب الدعاء بسلامة الوصول من الرحلة. وبعد أن انتهى من ذلك، بدأ الرجل فى تسويق أدويته.

" انظروا إلى وتيقنوا من القوة التى ينبغى أن يكون الرجل عليها. أيها المحصل ولّع النور دقيقة واحدة حتى يتبين الركاب قوة عضلاتى. إنها مكتنزة، وشديدة، وقوية أيضًا ". شمر الرجل كُميّه وراح يوتر عضلات ذراعيه حتى يراها المسافرون ". فى كل مرة، أضاجع فيها زوجتى، فإنها تلد لى بعد ذلك بتسعة أشهر، طفلاً ولدًا. عندى خمسة أولاد ذكور، وليس لى بنات. أيها المحصل، أكِّد ما أقول. قل إن كنت أكذب أم لا؟ ". تحدى البائع الجائل المحصل الذى أكد صدق كلامه. بدأ انتباه المسافرين يتحول ناحية البائع.

واصل البائع كلامه، " البعض منكم، أقول : البعض منكم، وأنتم فى منازلكم يروح يشاهد التليفزيون إلى أن تنهى المحطة إرسالها. ثم يتحولون بعد ذلك إلى الفيديو. لماذا ؟ لأنكم تخشون دخول الغرف ونساؤكم مستيقظات. وحتى عندما تناديك زوجتك، فإنك تتلكأ. وتبدأ فى انتحال الأعذار لتأخرك. 'عفوًا يا عزيزتى، دعينى أشاهد هذا الجزء الشيق وسوف أجئ إليك بعدها مباشرة '، ويروح البائع يمصمص شفتيه ". أيها الرجل الأحمق. هل هناك فيلم أهم من امرأة تدعوك إليها ؟ " توقف البائع برهة كى يمسح شفتيه، ثم واصل كلامه بعد ذلك ". بعد ذلك وعندما تتأكد، بل عندما تتأكد تمامًا إن زوجتك راحت فى سبات عميق، فإنك تدخل وأنت تمشى على أطراف أصابعك، وفى صمت، مثل اللصوص، متجهًا صوب غرفتك حتى لا توقظ زوجتك ".

وهنا راح هذا البائع الجائل يمثل سيناريو. انحنى الرجل قليلاً إلى الأمام، دافعًا كتفيه إلى الأمام، وبرّق بعينيه، ثم نظر يمينًا ويسارًا، كما لو كان أحد يحاول التسلل فرارًا. ثم صاح الرجل فجأة : تخيل ! مشى الإنسان على أطراف أصابعه، كما لو كان لصًا. كل ذلك لأنك خائف. ماكينتك عطلانة. أنت لا تقوى على مواجهة زوجتك. الماكينة لا تعمل ! ذلك هو ما يسميه الرجل الأبيض العجز الجنسى المؤقت. لا تدع هذا العجز المؤقت يفسد عليك حياتك، يفسد عليك زواجك. لا تترك زوجتك تتجه إلى رجل آخر، لأنك غير قادر على توصيل البضاعة. انظر إلى ". وتّر الرجل عضلاته ودار حول نفسه لكى يعجب الركاب بعضلاته ". متزوج منذ تسع سنوات. تسع سنوات طوال وأنا طوالها أضاجع زوجتى كل ليلة. وليذهب التليفزيون إلى الجحيم ! وليذهب الفيديو إلى الجحيم أيضًا ! ولتذهب هيئة الكهرباء هى الأخرى إلى الجحيم ! أنا لا يهمنى حتى وان قطعت هيئة الكهرباء النور (الكهرباء) لمدة عام. أنا تليفزيون زوجتى، أنا الفيديو الذى تشاهده، أنا السينما التى تشاهدها زوجتى. جيراننا يغارون منا لأننا نشتغل يومياً ". أخرج البائع شيئًا من حقيبته . هذا هو الدواء. نعم هو الدواء. البندين **Penidene** هو الدواء. دواء الشغل. من الذى يريده ؟ "

أمسك البائع الجائل بلفة حمراء وبيضاء لكى يراها الناس، وراح يحركها ببطء من جنب إلى آخر. وبالتدريج، على طريقه الحواة، وأخرج منها لفافة فيها عشر كبسولات، وراح يمررها على المسافرين الذين فى مقدمة الحافلة الذين نظروا إليها وقرأوا ما عليها ثم مرروها إلى المسافرين الجالسين خلفهم. وواصل البائع الجائل حديثه قائلاً :

" البندين مضاد حيوى مصنوع ليفيد منه الرجل. النساء لا يشترينه إلا إذا كان لاستعمال أزواجهن. البندين يسرى فى منظومتك ويطهر مجرى البول والأعضاء التناسلية، بيت القوى، وبذلك يستبدل بالدم الفاسد مغذيات صحية. والنتيجة هى زيادة الانتصاب عند الرجال، البعض منكم سمعوا عن الفياجرا البندين أقوى من الفياجرا. وأفضل منها أيضًا. وليست له تأثيرات جانبية ". هذا الدواء صنع فى إنجلترا العام الماضى. إنه دواء جديد. إنه دواء نادر جدًا فى الأسواق. فى بعض الأحيان أورد هذا الدواء للمستشفيات التعليمية فى الشرق. يمكنكم الذهاب وشراؤه من هناك. وسوف يبيعون لكم هذه اللفة نظير ٨٠٠ نيرة. أما هنا ولأن هذه هى اللفة الوحيدة التى لدى فسوف أبيع الواحدة منها بثلاثمائة نيرة".

وعند هذه المرحلة صاح صوت منطلقًا من مؤخرة الحافلة يطلب إلى البائع تنزيل السعر إلى ١٠٠ نيرة.

" يا أخى، أتريد أن تقتلنى ؟ أنا لا يمكن أن أدمر نفسى لأنى أود أن أكون كريمًا وحنونًا. أنا أقول إنهم يبيعون هذا الدواء فى المستشفيات بمبلغ ٨٠٠ نيرة للشريط الواحد الذى يحتوى على عشر كبسولات. وأنا نزلت بالسعر إلى ثلاثمائة نيرة من أجل عيونك. ومع ذلك... أنا موافق، والناس يقولون دع اليد اليمنى تغسل اليد اليسرى، واليد اليسرى تغسل اليد اليمنى، حتى يمكن أن تكون اليدان نظيفتين.

سوف أنزل بالسعر إلى مائتين وخمسين نيرة. أعطنى مائتين وخمسين نيرة وخذ شريطًا واحداً . أدفع أربعمائة وخمسين نيرة وخذ شريطين. لكن قبل أن تشترى، أنصت إلى طريقة استعمال هذا الدواء. ستكون بحاجة إلى شريطين على الأقل فى بداية العلاج. خذ كبسولتين بعد تناول العشاء مع كوب من الماء أو المشروب الغازى، لكن لا تستعمل البيرة. كرر هذه العملية كل ليلة لمدة عشرة أيام. وسوف تشعر بالتحسن فى غضون ثلاثة أيام، لكن لا تتوقف عن تعاطى الدواء. يجب أن تكمل الجرعة المكونة من شريطين. بعد ذلك، وعندما تنتظم صحتك الذكورية، خذ كبسولة واحدة بعد وجبة العشاء لمدة خمسة أيام ". توقف البائع لالتقاط أنفاسه ". الشريط الواحد بمائتين وخمسين نيرة، ادفع أربعمائة وخمسين نيرة واشتر شريطين، من يريد الشراء ؟ الكمية التى معى محدودة. اشتر قبل نفاذ الكمية. لا تخسر زوجتك بسبب فشل الطاقة، أى ضعف العضو. إذا كنت تود عضواً قوياً، فهذا هو البندين فى خدمتك. لا تُعايد فى صمت. إذا كان لك أخ أو صديق متزوج منذ فترة، ولم تلد زوجته بعد، اشتر له هذا الدواء. البندين. نعم، إنه البندين، من الذى يريد الشراء ؟ "

ارتفعت عندئذ فى الحافلة أيدٍ كثيرة، طلبًا على ذلك الدواء العجيب. كان الناس يشترون ويعدون النقود ويسلمونها للصيدلى الدجال ، وكان الناس يقولون إنهم يشترون هذا الدواء لأقاربهم ولأصدقائهم. سأل أحدهم عن تاريخ انتهاء الصلاحية، وسأل آخر عن

المرحلة العمرية التى يستعمل فيها هذا الدواء. وفى غضون دقائق قلائل، نفدت الكمية كلها. وهنا انتقل الصيدلى الدجال إلى الدواء التالى الذى فى ترسانته.

" بعضكم ينجب أطفالاً يبدون وكأن الحرب البيافريه Biafra ما زالت قائمة ودائرة : أطفال كبار البطون، عيونهم دامعة، ورؤوسهم كبيرة وأرجل نحيفة.. ".

باع هذا الصيدلى بهذه الطريقة ستة أنواع من الأدوية المختلفة لأولئك المسافرين السُّذج، فى غياب التشخيص الطبى، ودون أبحاث، ودون الاستماع إلى التاريخ الطبى. كان من بين هذه الأدوية دواء تدور الشكوك من حول فعاليته، راح ذلك الصيدلى الدجال يبيعه لاستعماله مع مختلف فئات الأطفال. دونت ملاحظة عن ذلك الدواء. لعلنى أحتاج إلى خدمات ذلك الصيدلى المزيف فى عيادتى المستقبلية.

تواصلت الرحلة بلا حوادث. كانت هناك نقاط تفتيش شرطية على بعد مسافات معلومة. كان الضباط يشيرون إلينا طلبًا للتوقف مستخدمين فى ذلك كشافاتهم الضوئية الكهربية. وعندما تتوقف الحافلة كان المحصل ينزل منها، ويسلم مظروفًا، وبعدها يلوحون لنا بالتحرك، ويردون علينا التحية. كان بعض المسافرين يقولون : إنهم متعجلون، ولولا ذلك لتعطلنا ساعات طوال فى نقاط التفتيش تلك :

قال واحد من الركاب : " أوراقك لا يمكن أن تكون مكتملة من وجهة نظر الشرطى. نحن المسافرون الذين ندفع هذه الرشاوى كلها. وإلا، كيف يمكن أن يدفع المسافر مبلغ مائتى نيرة أجرة للرحلة من بنين إلى ليجوس ؟ فى العام الماضى. دفعت خمسين نيرة أجرة لهذه الرحلة نفسها. الأجرة اليوم مائتا نيرة. أليس هذا أمرا عجيبًا ؟ " كان يقصد " مفزعًا " بدلاً من " عجيباً ".

قال السائق، وهو يحول وجهه ناحية المسافرين، وعين من عينيه مركزه على الطريق : " احمدوا الله أنكم تجدون حافلة تنقلكم إلى ليجوس. أين الوقود ؟ أين الديزل ؟ أنا أشترى الوقود من السوق السوداء، بواقع ثلاثة آلاف نيرة للصفيحة التى تحتوى على خمسين لترًا. قبل الآن، كنت أقوم بهذه الرحلة من بنين إلى ليجوس بواقع ثلاثة أشواط فى اليوم الواحد ". وواصل الرجل كلامه وراح يعرض ثلاثة من أصابعه كى يراها المسافرون ". منذ حدوث أزمة الوقود هذه، إذا ما عمل السائق شوطًا واحداً فى الأسبوع، فذلك يعنى أنه محظوظ. فى حال عدم وجود الوقود ؛ يتعين علينا تدبير كل شئ. أم هل تظنون أن السيارات تسير بالماء ؟ "

تساءل مسافر آخر " إلى أين يذهب هذا البلد ؟ بلد ينتج البترول، يعانى من نقص فى الوقود على امتداد سنوات وإلى يومنا هذا. ما الذى تفعله الحكومة بحق السماء ؟ "

" أية حكومة ؟ " حكامنا لا يهتمون إلا بملء جيوبهم. إنّ لهم حسابات ضخمة فى سائر أنحاء بنوك العالم. لا أحد يهتم بالفقراء. حكومة. أية حكومة ؟ كان الرجل يكرر كلامه مستاء.

تساءل رجل آخر " إلى أين نحن ذاهبون فى هذا البلد ؟ الرواتب مجمدة، وصاحب الملك سوف يرفع الإيجار، وسوف يزيد الناقلون أجور النقل، والبائعات فى الأسواق سيزدن ثمن الطعام ".

سادت الحافلة لحظة من لحظات الصمت والحافلة تمضى قدمًا فى ابتعادها عن العاصمة. وراح النسيم العليل يداعب ستائر الحافلة، وهو ينساب قادمًا من فتحات السقف، الأمر الذى جعل المسافرين يدخلون فى نوبة من النوم.كل ما يسمعه المرء هنا لا يعدو أن يكون أصوات الشخير المنبعثة من النائمين. أذكر أن والدى هو الآخر كان من الذين يشخرون أثناء النوم، هذا خليط مريع من الشخير، والنقيق الذى يشبه نقيق الضفادع. عندما يكون والدى فى الراحة، وموجودًا فى المنزل، نجد أن من الصعب علينا النوم وكنا نندفع إلى سررنا قبل أن يدخل والدى للنوم. وأنا هنا فى الحافلة، التى تقلنى إلى الحصول على تأشيرة الدخول إلى إيطاليا . كنت منفعلة جدًا على نحو حال بينى وبين النوم. هذه الرحلة ستكون بداية حظى السعيد، نهاية متاعبى، نهاية عوزى وحاجتى، نهاية الاقتراض لشراء الضروريات، ضروريات الحياة، الضروريات التى تحفظ الجسم والروح معًا ، لى وللصغار. فهمت أنى الآن تهيأت لى فرصة تصحيح وضعى البائس. وأنا لم ألم أحدًا على ما أصابنى فى حياتى. وفاة والدى هى السبب الرئيسى فى صراعى وكفاحى ونضالى. ومن الـذى تسبب فى وفاته ؟ أنا لم ألم الرب. أنا

لا يمكن أن أحارب الله. لكن هذا هو الله يهيئ لى فرصة حل مشكلتى ثم الهرب. الله يرفع الذباب عن البقرة التى لا ذيل لها ؛ رحت أُمنى نفسى وأطمئنها.

بينما كنت مستمرة فى حلم اليقظة، أحسست أن الحافلة بدأت تفرمل فجأة استعداداً للوقوف. أدى ذلك الوقوف المفاجئ إلى استيقاظ كثير من المسافرين. كان فى خارج الحافلة أناس يصيحون ويلوحون للسائق يطلبون منه الوقوف. هدّأ السائق من سرعته. ثم توقفت الحافلة تماماً.

تساءل السائق وهو ينظر من نافذة الحافلة، " ما الذى حدث ؟ "

" هجم علينا لصوص مسلحون. هجموا علينا الآن. لقد فروا الآن فقط. نرجو أن تأخذنا معك. لقد فقدنا كل ما معنا ".

" وماذا عن حافلتكم ؟ ألا تستطيع تكمله المشوار إلى ليجوس ؟ "

" لا تستطيع ذلك. فقد أصيب السائق. لقد تعرّف واحداً من هؤلاء اللصوص ولذلك فتحوا النار عليه وفروا هاربين. نرجوك أن تساعدنا ".

" ليس فى حافلتى متسع لكم. السيارة كاملة العدد. انتظروا سيارة أخرى ".

كان هناك ركام كثير على الطريق. كانت هناك صناديق هنا وهناك، وملابس مبعثرة، وحقائب وأوراق. ودم أيضاً. كان الناس مجتمعين حول الحافلة من كل جانب، الكل ينعون ويندبون حظهم.

سـأل المحصل واحداً من الركـاب المنتـشـرين على الطريق، " أين سائقكم الآن ؟ "

" لقد نقلوه إلى المستشفى فى شاجامو Shagamu. وقد لا يصل إلى المستشفى نظراً لأنه نزف دماً كثيراً ".

عندئذ وصل شاب قادم من ناحية الحافلة المنهوبة. تعرَّف المحصّل وتبادلا التحية.

" يا رجل، هؤلاء اللصوص مسلحون. الموقف يخرج من أيدينا ".

تساءل شخص آخر، " ألم يكن معكم حارس أهلى ؟ "

" كان معنا حارس أهلى. لقد هربوا داخل الغابة ومعهم البندقية وكل شئ. هذه هى المرة الثانية التى يجرى فيها الهجوم على حافلتنا فى هذا الشهر، وفى هذا المكان على وجه التحديد. أرجوك عندما تصل إلى ليجوس أن تبلغ ما حدث للجراج. بلغ ناظر المحطة أن يرسل أحد يقود هذه السيارة. سوف أبقى هنا لحراسة السيارة. يا للأسف ! وكنا نحمل بضائع كثيرة للتجار. لقد أخذ اللصوص كل شئ ".

تساءل أحد الواقفين من جديد، " ما الذى يتحول إليه هذا البلد ؟ تبقى فى منزلك فلا تشعر بالأمان. وتسافر بالطريق البرى وتحس أيضاً بعدم الأمان. أين يمكن أن نجد الأمان ؟ "

قال مسـافر آخـر وهو يتفل على الأرض، " الحكومة لا نفع منها. لا طائل من ورائها. كل ما يعرفونه هو جمع المال. أما مسألة إنهاء طريق من الطرق فلا ؛ ومسـألة شق طريق من الطرق، لا أيضًا ؛ ومسـألة المستشفيات، لا أيضًا. ومسألة الأمن، لا ثم لا ".

" نحن نستخدم حراسًا خصوصيين فى شارعنا. الناس الآن يقومون بأعمال الحكومة نيابة عنها. إذن لسنا بحاجة إلى الحكومة ؟ "

" ألا تعلم أن التجار فى أونيتشا Onitsha، تبرعوا بالمال لإنشاء مطار من المطارات ؟ خبرنى، إذا كان عامة الناس يستطيعون فعل ذلك، فما الذى يتبقى بعد ذلك ؟ لم تعد هناك بعد حاجة إلى الحكومة ".

عند هذه المرحلة من الفوضى والارتباك، شق رجل فى منتصف العمر طريقة إلى مقدمة المركبة وحاول النزول. كان الرجل ممسكًا بالجزء الأسفل من بطنه وأعضائه التناسلية، كما لو كانت تلك الأعضاء ستسقط منه. الواضح أن الرجل كان مكروبًا. وراح يرجو السائق ويطلب إليه أن يسمح له بأن يريح نفسه. وهنا كان عدد كبير من الركاب قد استيقظوا وحكى الناس لهم ذلك الذى حدث. خاف الركاب وحذروا السائق من التأخير. راح البعض منهم يتحدث إلى المسافر التعيس :

" ما الذى أكلته فى المحطة وجعلك تحس بالاضطراب المعدى ؟ بعض الناس لا يستطيعون السيطرة على شرههم ". قالوا هذا الكلام

دون أن يوجهوه إلى أحد بعينه ". إنهم يأكلون أى شئ يرونه سواء أكان برتقالاً، أم جارى(*)، أرزاً أم سلاطة، أو محاراً. كل هذه الأطعمة تتصارع حاليًا فى معدتك، وهى التى تسبب لك هذا التلبك المعدى، وبالتالى تريد من السائق أن يتوقف. وعصابات اللصوص تحيط بنا من كل جانب ".

سأله آخرون، " لماذا لم تشتر المضاد الحيوى الذى كان طبيب الحافلة يبيعه ؟ "تجاهل الرجل كل هؤلاء، وراح يرجو المحصل أن يسمح له بالنزول حتى يريح نفسه.

" بعض الناس يشترون الطعام والملابس لكن عندما يصل الأمر إلى حد شراء الدواء لصحتهم، فإنهم يتلكأون فى ذلك ".

" أيها السائق، نرجوك ألا تسمح للصوص المسلحين بالإمساك بنا هنا بسبب مسافر تافه. اجعله يتغوط فى كيس من البلاستيك ويلقى بالكيس من الشباك. هذا أولاً وآخراً، هو ما يفعله الناس فى الطائرات. لا يمكن أن تقف الطائرة كلما شاء أحد المسافرين إراحة نفسه أو قضاء الحاجة ".

قال مسافر آخر : " الطائرات فيها مراحيض ".

" نعم فيها مراحيض، لكن الغائط يتساقط من الطائرة ؛ الشئ نفسه يحدث فى القطارات. لقد رأيت هذا الشئ بعينى عندما ذهبت لقضاء الحاجة فى ذلك المرحاض.. ".

(*) الجارى : وجبة نيجيرية شبيهة بالبطاطس المحمر. (المترجم)

في ذات الوقت كان المحصل قد فتح الباب. واندفع الراكب مثل البرق إلى داخل الغابة. وعلى الفور تبعه أناس آخرون، مستغلين هذه الفرصة لإفراغ مثاناتهم. وهنا أمسك المحصل ميكرفون الحافلة وراح يطلب من الجميع الإنصات إلى ما سيقول :

" هذه هي الوقفة الأخيرة قبل وصولنا إلى ليجوس. على كل واحد منكم أن يقضي حاجته، لأننا لن نقف بعد ذلك إلا في إديوموتا Idumota في ليجوس. أشكركم ".

الفصل الثامن

كان آموس Amos خريجًا أمريكيًّا يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، تخرج الرجل من قسم اللاهوت فى الجامعة الجورجية فى روما. كان ضمير الرجل يؤنبه بين الحين والآخر.

كان الرجل يقول مرارًا فيما بينه وبين نفسه : " لا يمكن أن أكون قسيسًا، لأنى لست جديرًا بأن أكون واحدًا منهم. أنا لا أستطيع السيطرة على تلك الرغبات والنزوات التى تتملكنى بين الحين والآخر. أنا شخص ضعيف، منافق، مدَّع. مدمن من مدمنى الجنس إن كان هناك شئ من هذا القبيل. كيف لى بالتطلع إلى أن أكون قسًا من القساوسة الراقين وأنا لا أستطيع المحافظة على نقائى وعفافى ؟ كيف لى بالمحافظة على نزاهتى إذا ما استمررت على الحال الذى أنا فيه ؟ اعتراف كل أسبوع، انتكاسية(*) كل أسبوع. الناس الذين من أمثالى هم الذين يجرون السِّباب واللعنات على الكنيسة ".

(*) الانتكاسية : نزعة للارتداد إلى وضع أو سلوك سابق (وبخاصة إلى الإجرام). المترجم

كان آموس يضطر فى موسم الميلاد، والأسبوع المقدس، إلى السفر إلى بيروجيا Perugia فى وسط إيطاليا، لتقديم يد العون والمساعدة لأبرشية ماتر Mater ديئى Dei. وقد سار الحال على هذا المنوال منذ مجيء آموس إلى روما قبل أربع سنوات. كان من عادة الرجل الإقامة مع صديق له فى جامعة اللغات، وكان يصل كل صباح ماشيًا إلى الأبرشية لتنفيذ ذلك الذى طلبه منه الآب ماريو Mario. كان ذلك يبدأ دومًا فى الصباح بإمامة الصلاة عند الساعة السابعة. يلى ذلك القيام بجلسات التعليم الشفهى لأعضاء الكنيسة، ثم إمامة قُدَّاس آخر عند الساعة الحادية عشرة إلخ. لم يكن الحال سيئًا أثناء النهار ؛ نظرًا لأن الأنشطة الكثيرة كانت تشغل باله وتبعد عنه الضرر.

كانت الرغبة والنزوة يتملكانه فى الليل. تلك النزعة والرغبة التى لا تقهر. فى بعض الأحيان، كان يحس وكأنه على وشك الانفجار بفعل هذه الرغبة الشديدة. فى بداية الأمر كان آموس يتلاعب بنفسه كل ليلة. كان يشترى فيلمًا أو مجلة من المجلات إياها . كانت هناك طاولات كثيرة لبيع تلك المجلات فى محطات القطار. ويروح بعد ذلك، فى سكون الليل، وفى سرِّية غرفته وخصوصيتها، ينظر إلى صور النساء. الفنتازيا (التخيل). النشوة. الإفراط فى الخيال.

فى وقت من الأوقات، كان الرجل يمارس هذا الشئ كل ليلة ؛ مرتين أو ثلاث مرات فى بعض الأحيان ؛ ثم يروح بعد ذلك فى نوم قلق غير مريح. كان الصوت الصادر عن جهاز التليفزيون يوقظه عند منتصف الليل فى بعض الأحيان.

في الصباح الباكر كان الرجل يخفى تلك الكتب السيئة فى حقائب الملابس بعيداً عن فضول مدبرات المنازل.

كان ذهنه يشرد فى معظم الأحيان. متى تغير الكنيسة من قواعدها الخاصة بالقساوسة وتسمح لهم بالزواج ؟ سيسهل ذلك أمور هؤلاء الناس. هو يعلم أن البابوات فى الماضى كان مسموحًا لهم بالزواج. وهناك بابوات كانوا آباء لبابوات آخرين، ويشهد تاريخ الكنيسة على ذلك. لكن هذا الإجراء جرى إيقافه وإبطاله. كيف يمكن تسهيل حياة الوحدة هذه؟

كان هناك ما يسمى بالعطلة، وكان الرجل يحصل على هذه العطلة كان الناس يستدعونه. وكان الرجل يلبى تلك الدعوات. هذا شئ خارج عن إرادته. كان سعيداً، اللهم باستثناء أن تلك الحياة كانت فيها لحظات من الخلوة والوحدة الموحشة.

خطر ببال آموس بعض رفاقه من رجال اللاهوت الذين تسربوا من المعهد اللاهوتى أو طُردوا منه. وكيف أن الكثيرين منهم تزوجوا وأصبحت لهم أسر مستقرة، وأصبحوا آباء لأطفال متعددين. لم يحسد هؤلاء الرفاق أو يحقد عليهم. كان الأمر لا يعدو أن يكون حياة مختلفة. لو يسمح للقساوسة الكاثوليك بالزواج مثل نظرائهم المارونيين، يحظى ذلك بترحيب الجميع. كان آموس يوبخ نفسه، " أوقف هذا التفكير الشهوانى ! " لن يستسلم جون John بول Paul الثانى مطلقًا. ورضوا لأنفسهم بتلك المتعة التى يختلسونها من الكتب والأفلام. بل ربما من البنات إذا ما تيسر ذلك.

البنات كثيرات حاليًا فى إيطاليا. بنات من الكتلة الشرقية سابقًا، وبنات مختلفات الألوان، بنات ألبانيات وبنات نيجيريات. كان الرجل رائعًا فى تهكمه. كيف يسمح للبغاء بالرواج والانتشار فى هذا البلد، مدينة النور السرمدى، مقر الكنيسة الكاثوليكية، العامرة بالآثار الدينية وتذكارات القديسين والقديسات منذ أقدم العصور ؟ كيف يحدث ذلك ؟ هل يعنى ذلك أن القمع تمخض عن ثورة ؟ هل يعنى ذلك أن المشاعر المكبوتة والسرية المستنكرة قد انطلق عقالها وراحت تعبر عن نفسها فى حياة اللعب والخلاعة ؟

البنات ينتشرن فى شوارع إيطاليا وفى بلدانها ومدنها الكبيرة والصغيرة، وفى مناطق العطلات، وفى طرقها الخلفية. شابات، وصغيرات، متوسطات العمر، وكبيرات فى السن. يلبسن ألبسة مختلفة العرى. يقال أن بعضهن يمشين عاريات فى فصل الصيف. لا يرتدين من الملابس شيئًا سوى الأحذية ذات الكعوب العالية، وكذلك الأحذية ذات الرقاب العالية (البوت)، وحقائب أيديهن المعروفة، التى يستعملنها فى خزن حصيلة عملهن الليلى.

نظرية العرض والطلب القديمة لها مغزاها هنا أيضًا. كان العرض كبيرًا بسبب الطلب الكبير، من الناس العاديين، الإيطاليين والأجانب، العزاب والمتزوجين، من كل الأعمار، بحثًا عن التنويع والتغيير. البحث عن التغيير، يرفع إلى عدم مراعاة الحواجز. الطلب من رجال مثله، رجال بيض وسود على حد سواء. هنا، تعلق ذهنه بالممارسة غير العادلة من

قبل المؤسسة التى تتهم القساوسة السود بعدم البراءة. مثلما قال المسيح Master عندما أحضروا له امرأة زانية، اسمحوا لمن لم يخطئ بأن يلقى الحجر الأول. وهذا لا علاقة له باللون.

صحيح أن هناك شاذين جنسيًا ولوطيين Paedophiles بين الأكليروس. لكن الأمر هنا شبيه بالبيضة والكتكوت من الذى جاء منهما أولاً ؟ ترى هل الوحدة والحرمان هما اللذان دفعا هؤلاء ليكونوا بين أذرع رفاقهم القساوسة وجعلهم يتوددون إلى الأطفال الصغار الذين يُعْهَدُ بهم إليهم ؟ أم أنهم كانوا على هذا الحال فى بداية الأمر ثم التحقوا بالأكليروس والأنساق المقدسة طلبًا للاختباء والاختفاء ؟ هل ولدوا على هذه الشاكلة، أم أنهم اكتسبوا الانحراف والضلال، أم أن الانحراف هو الذى ألقى عليهم ؟

هناك الشاذون جنسياً. وهناك أيضًا اللوطيون. لكنهم يشكلون أقلية قليلة جداً. لم يكن يدافع عن أى أحد من هؤلاء. رابطتهم كانت إخوانية متعددة الأنواع. كان عضواً فى هذه الرابطة. هذه الرابطة تجعل الإنسان يعى الحدود ويعى الآلام وكذلك القلق. الناس يجادلون بأنهم اختاروا نوعية الحياة التى تناسبهم. هذه النوعية ليست صحيحة فى كل الأحوال. البعض منهم انضم إلى هذا الأكليروس اللاهوتى بضغط من آبائهم. بعض آخر منهم انضم أو التحق بالكلية اللاهوتية دون معرفة كاملة بمغزى ذلك الذى انضموا إليه. البعض منهم سمع عن العزوبية وفهموها، دون أن يعرفوا معناها الحقيقى. التقشف. وفى كل الأحوال

كانوا لا يعرفون معنى التقشف. كانوا فى مرحلة عمرية لا تتيح لهم تجربة النزعات والرغبات الجنسية التى لدى الكبار. وعلى الرغم من كل ذلك انغمسوا فى هذه الحياة، إلى أن فات الأوان، ووقعوا فى الفخ وعجزوا عن الهرب دون إراقة ماء الوجه، ودون الاعتراف بالهزيمة.

البعض منهم هرب بأية طريقة كانت وذهبوا إلى شأو بعيد، مبتعدين بذلك عن عيون الأبرشية وعن معارفهم وأقاربهم. البعض منهم كانوا يهربون من أفراد الأسرة الذين لحق بهم العار والخزى. وأيا كانت المسافة، وأيا كان البعد، لا يستطيع المرء الهرب من نفسه، الهرب من السيد **Master**. أنت لا تستطيع أن تختبئ من عقلك وذهنك. وفى لحظات الهدوء، يخطر على البال يوم رسامة الكاهن، هو والكلمات التى يرددها الأسقف أو المطران فى أذنيك مدوية مثل أجراس الكنائس ؛ ستكون قسيساً إلى الأبد، شأنك شأن ملشزيدك **Melchizedek** القديم. هذا يعنى أن مهربك لن يفيد، وما أنت عليه لن يفيد أيضاً، وأن الشئ الأساسى هو أنك باق على ما صرت إليه، قس من قساوسة الأعلى **Most High**.

المؤكد أن بعض القساوسة اكتشفوا أن مهنتهم تحقق لهم ذاتهم. كانت تلك المهنة بمثابة نداء لهم ولبوا ذلك النداء. كانوا سعداء بكونهم قساوسة لهم القوة والسلطة التى يضفيها هذا اللقب عليك، القوة التى تشربتها أنت وسرت فى داخلك. أنت بوسعك العفو عن الخطيئة. بوسعك أن تعلن أن اثنين أصبحا زوجا وزوجة. والذى لا شك فيه أن الياقة الرومانية تضفى عليك قدراً كبيراً من الاحترام والنفوذ. أمهات

القساوسة يفخرن عندما يعرفهن الناس باسم ماما Mama فطا Fada.
هذا رمز لوضعيه.

وليس من العجب في شئ أن يبذل المتحررون من سحر الآلة الكاثوليكى، قصارى جهدهم. هذا الذى فى دواخلهم، عبارة عن صراع يومى، شأنه شأن الصراع الدائم مع اللحم البشرى. ذلك الصراع الذى يعجز الإنسان عن الفوز فيه فى بعض الأحيان.

قال فى نفسه مرة أخرى : ينبغى ألا أكون قسيساً. أنا لست جديراً بذلك. هذا العمل قاس تماماً علي ؛ وراح الرجل يتنهد وهو يتذكر لحظات ضعفه من جديد.

كان الرجل يتعرق على الرغم من برودة الجو. كانت حبات العرق تقطر من ظهره وهو يتذكر الأحداث، وتروح تبلل قميصه الداخلى. سامحنى، يا الله. اغفر لى عيوبى وذنوبى ونقائصى. كان ذلك نداء أخيراً وختامياً. لكن بفرض أنه استسلم وخضع فى يوم من الأيام، ماذا يمكن أن يحدث لو أنه قطع أو سار فى الطريق نفسه من جديد ؟

كان إحساس ثقيل يجثم على مكان ما فى صدره. كان يعرف أن ذلك هو الإحساس بالذنب، وأن ذلك الإحساس لن يختفى أو يزول إلا إذا قام بالاعتراف. واقع الأمر، أنه كان فى قرارة نفسه، كان يحسب حساب ذلك الذى سيعترف له ومكان ذلك الشخص. كل الاحتمالات تقول إن ذلك الشخص هو دون Don روبرتو Roberto فى ريجينا Regina

موندى Mundi. كان أموس يفضل الاعتراف أمام قساوسة القديس بطرس الذين لا يعرف أسماءهم فى باسيليكا Basilica، لكن ذلك يعنى الانتظار إلى أن يسافر إلى روما بعد موسم الميلاد. لكنه لم يكن يقوى على الانتظار أو يطيقه. كان الرجل بحاجة ماسة إلى الرضا والرحمة فى احتفالات عيد الميلاد. قال فيما بينه وبين نفسه، يجب أن أسيطر على نفسى. يجب ألا يرانى الناس محتاجًا أو معوزًا.

* * *

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا فى فيرونا. كان الجو لا يزال مظلمًا. كانت لفيت Lovett متعبة وجائعه. سيصل باولوPaolo فى غضون لحظات لكى يوصلها إلى المنزل فى سيارته. كانوا يسمون باولو بابا جيرو Giro. بابا السائق. كل مجموعة من البنات كان لهن سائق يوصلهن إلى العمل ويعيدهن منه، وبخاصة إذا ما كنت تعملين فى ضواحى المدن الرئيسية. كان السائق يحضر أيضًا أثناء دورية الليل ليرى أن الأمور على ما يرام. أثناء برد الشتاء القارس تتجمد وتتخشب أصابعك وأصابع قدميك، ويرتعد جسدك بكامله، السائقون يأتون إليك فى سياراتهم، ليبقوا معك برهة من الوقت، أو يوصلونك هنا أو هناك، ومكيف السيارة شغال. هذا من أجل أن تحسيى بالدفء. مجرد دقائق قليلة. وهنا يصبح مثل هذا العمل حنانًا مقبولاً فى بحر الحياة المضطربة الذى أنت فيه.

هذا الحنان مجانى.

لا بأس. فى المقابل يتعين على البنت أن ترفه عن مثل هذا السائق ترفيهًا مجانيًا بين الحين والآخر. تفعل له ذلك الذى يفضله. وعادة ما يكون ذلك خدمة خاصة. كثير من الزبائن البيض يعشقون الباب الخلفى. وهم على استعداد لدفع أجر مجز نظير ذلك، يصل هذا الأجر فى بعض الأحيان إلى ثلاثمائة ألف ليرة، فى حين لا تكلف الخدمة العادية طالبها سوى ثلاثين ألف ليرة، أو خمسين ألف ليرة، على أكثر تقدير. وهم يقولون : إن زوجاتهم فى المنازل لا يعطونهم ذلك، ولهذا فهم يخرجون بحثًا عنه. هذا ليس بصحيح. الحقيقة هى أن هؤلاء البيض قد أسرفوا فى استعمال زوجاتهم من هذه الناحية، إلى حد النزف. وهم الآن يبحثون عن دم أكثر شبابًا، يبحثون عن أجسام غير مترهلة، أجسام على درجة عالية من المرونة. كانت البنات يناقشن ذلك فى بداية الأمر. وجرى إقناعهن بممارسة ذلك. وبهذه الطريقة يمكنك أن تجمعى ملايين الليرات فى الليلة الواحدة. وخلال فترة قصيرة تتمكنين من سداد الملايين الثمانين لعمتك (معلمتك) وتروحين تعملين لحسابك الخاص، هذا فى حال رواج التجارة. وبفرض أنك ستجدين كل ليلة ثلاثة أو أربعة زبائن على استعداد لدفع ثلاثمائة ألف ليرة نظير ذلك، أى نظير الباب الخلفى.

راقت هذه الفكرة للبنات لبرهة قصيرة. ولم تجرؤ إحداهن على تجربتها إلا بعد شيوما Chioma.

ذات ليلة، وعند الساعة الثانية صباحًا، جاء رجل إيطالى ضخم، متين يركب دراجة بخارية من طراز سوزوكى، ووقف أمام لفيت Lovett. قال لها كلامًا قليلاً. أولاً، هذا يمكن أن يكون زبونًا على الماشى، نظراً لأن المضاجعة لا يمكن أن تتم على دراجة بخارية. العملية بهذه الطريقة تصبح غير ممكنة لكن ماجاى Maggie ضاجعها زبون بهذه الطريقة. وتلك كانت المرة الأخيرة التى شاهدن ماجاى خلالها وهى على قيد الحياة. واعتباراً من ذلك اليوم، قررت البنات أن تكون خدمة على الماشى هذه على شكل ثنائيات، وذلك توخيًا للأمن والسلامة. وإذا ما أنهى الزبون العمل مع الاثنين فإنه سيدفع لكل منهما أتعابها، وإذا ما أراد واحدة لوحدها فإن رفيقتها ستكون بصحبتها. والآن، أصبح هذا الخيار فى عرف المنتهى نظراً لأن الدراجة البخارية السوزوكى لا يمكن أن تحمل راكبين إضافيين.

لو أرادت ذلك، فبوسعها استعمال الرقعة. والرقعة هذه عبارة عن قطعة من الأرض الفضاء موجودة فى الخلف، تستعملها البنات فى مضاجعه الزبائن " الطيارى ". كانت هناك ملاءة قديمة مفروشة على الأرض. فى بعض الأحيان كانت البنات اللاتى لسن مشغولات يجلسن فى هذه البقعة لنيل قسط من الراحة، ويرحن يدخن السجائر قبل أن يعدن إلى الشارع من جديد فى بعض الأحيان تستعمل بنتان أو أكثر هن وزبائنهن، هذه الرقعة فى آن.

كان الرجل قد قيّم لفيت Lovett. كان الرجل جديداً على المكان، وربما كان من أطراف المدينة. لم يسبق أن رأت لفيت هذا الرجل فى

المنطقة من قبل. وعلى الرغم من أن لفيت كانت ترى كثيراً من الرجال كل يوم، إلا أن وجه ذلك الرجل لم يكن مألوفًا لها. ولما كانت قد بدأت عملها الحالى قبل عام فقط، فقد ضاجعت أكثر من ألفى رجل طوال هذه المدة. هى لا تستطيع معرفة الرقم الدقيق. هذا يعنى أنها نسيت العدد.

لكنها عرفت النوعية، إنه من نوع الماكو Mocho. شديد يتسبب فى الإيلام. معجب بنفسه. تميل معداته إلى الصغر على الرغم من كبر دراجته البخارية وخوذته ؛ تلك الخوذة التى تستر مخًا صغيراً.

" مساء الخير " حياها بالإيطالية وهو يفك حزام خوذته.

" مساء الخير، ماذا تريد ؟ " ردت عليه بالإيطالية.

" الجنس "، قالها أيضًا بالإيطالية.

" هنا أم فى المنزل ؟ " تساءلت بالإيطالية.

" هنا " رد عليها بالإيطالية.

" أربعين ألف ليرة ". كانت الأتعاب المعتادة ثلاثين ألفًا، لكن يجب دفع عشرة الآف ليرة إيجار الرقعة. كان هناك شخص يحصل هذا المبلغ لحساب برونو Bruno.

لكن الزبون كان يريد الباب الخلفى. قالوا إنه أضيق. والاحتكاك فيه أكثر. تكلمت لفيت Lovett فيما بينها وبين نفسها. تريد احتكاكًا ؟ وتجىء لمضاجعة امرأة من نساء الشوارع طلبًا لذلك الاحتكاك ؟ ما هو

الشكل الذى ينتظرون أن تكون فتحة الشرج Ashawo، هذه الفتحة التى استعملها عدد كبير من الناس على اختلاف أنواعهم. لا يمكن الوثوق من احتكاك الباب الخلفى بعد هذا الاستعمال الطويل.

واقع الأمر، أن باولو سبق أن قال : إذا لم تفعلها من الباب الخلفى، فذلك يعنى أنك لم تبدأ ولم تنته. ناقشت البنات هذه المسألة لكنهن لم يجربنها. والآن حانت الفرصة وجاء وقت التجريب. رفضت لفيت ذلك، على الرغم من أن الرجل عرض أن يدفع خمسمائة ألف ليرة. لم تكن لفيت من أولئك اللاتى يردن الثراء السريع. إذا كان رجل يود أن يدفع خمسمائة ألف نظير شئ يساوى ثلاثين ألفاً، فذلك يعنى أن مثل هذا الرجل ليس خاوى الوفاض. طلبت لفيت من الرجل الانتظار. سوف تسأل زميلاتها. ربما تكون واحدة منهن راغبة فى ذلك.

نادت لفيت على البنات الأخريات القريبات منها، " من التى تود أن تضاجع من الخلف ؟ "

تساءلت إحدى البنات فى الظلام، " كم سيدفع ؟ "

" فايف Five سنتو Cento. كانت البنات يتكلمن لغة عبارة عن خليط من الإنجليزية والإيطالية. لم يكن متمكنات من اللغة الإنجليزية. معظمهن كن من المتسربات من المدارس الابتدائية. فضلاً عن أنهن لم يمكثن فترة طويلة فى إيطاليا حتى يتمكن من اللغة الجديدة. فايف Five سنتو Cento، تعبير إيطالى معناه خمسمائة ألف ليرة.

منذ بداية الوردية، لم يحضر زبون (عميلِ) واحد إلى شيوما Chioma. وقد أقلقها ذلك تماماً، لا لنفسها شخصياً، وإنما تخوفاً من العمة (المعلمة) التى ستعاقبها على ذلك. ولن تصدق العمة (المعلمة) تحت أى ظرف من الظروف عودة شيوما خالية الوفاض إلى المنزل. بالأمس أقرضها بابا جيرو (السائق) مائة ألف ليرة قدمتها للعمة على أنها حصيلة الليلة. وهاجت السيدة العجوز وماجت، وراحت تسبها وتلعنها لأنها عادت بمائة ألف ليرة فقط.

صاحت (المعلمة) فى شيوما " هذه آخر مرة أقبل منك فيها مائة ألف ليرة " " ألا ترين أن رفاقك عدن كل واحدة بمليون، والبعض منهن عدن بمليون ونصف المليون من الليرات. وأنت تعطينى، مائة ألف ليرة فقط؟ لو أنك تعرفين كيف يتصرفن من أجل الحصول على المليون، فالأفضل لك أن تتبعهم وتتصرفى مثلما يتصرفن حتى تحصلى على المليون، وإلا لو عدتِ إلىّ بمائة ألف ليرة، فسوف أصيبك بشامة لن تنسيها مدى الحياة ".

لم يكن ذلك التهديد بلا مضمون لأن مدام لوس كانت البنات يسمونها لوسيفر Lucifer كانت امرأة شريرة قاسية القلب ولن تتردد فى إيذاء البنات وتعذيبهن ومص دمائهن. كانت كارو عبرة ومذكراً بما يمكن أن تفعله العمة (المعلمة). كانت لوسى عمه (معلمة) سريعة التقلب، تقسم إيرادها الليلى إلى قسمين : ترسل قسماً منها إلى أمها فى بنين عن طريق الوسترن يونيون. هذا الجزء الخاص بأمها جرى إرساله إليها منذ أكثر من شهرين. وبلغ العمة لوسى من مخبريها العائدين إلى البلاد

أن والدة كـارو اشـتـرت حـافلة تعـمل على طريق إيكن وان Eken Wan الدائرى. هذا يعنى ببسـاطة أن ابنتـها كانت تحـول لهـا نقـوداً، دون أن تقوم أولاً بسـداد مسـتـحـقـات (المعلمـة). وعندمـا عادت كارو فى سـاعة مبكرة من صـبـاح اليـوم التـالى، أطبـقت عليـهـا (المعلمـة) لوسى، وقـامت بتفتيشها، وجردتها من كل ما معها، ومزقت مـلابسها بل فتشت فرجها. كانت بعض البنات قد تعودن على طى النقود الورقية ولفها فى الورق ثم إخفائها بعد ذلك فى فروجهن، شأنهن فى ذلك شأن النساء اللاتى يعملن فى تهريب المخدرات. كـان من عـادة العمـات (المعلمـات) أن يفـتـشن بناتهن بحثًا عن النقود المخبأة. لم تعثر لوسى (لوسيفر) على شئ مع كارو. كـانت كارو، شـأنهـا شـأن البنات الأخـريات لها مكان بالقرب من البقعة كانت تسرح وتصيع فيه. كانت كارو قد حفرت حفرة فى الأرض وعلمتها بغصن شجرة قديم، ودفنت شيئًا من النقود فى تلك الحفرة. وبعـد أن أصـيـبت لوسى بالإحـبـاط، أمـسكت بمقص وقطعت أذن كـارو اليسرى. وتدخلت البنات ورحن يتوسلن إلى لوسى أن تسمح لكارو بأن تأخـذ أذنها المبتورة وتذهب إلى قسم الطوارئ فى أحد المستشفيات القريبة. لعل الأطباء يتمكنون من إعادة الأذن إلى مكانها مرة ثانية. وقد أصـيـبت البنات كلهن بالرعب عندمـا التـقطت لوسى الأذن من الأرض وراحت تقطعها إلى شرائح صغيرة مثل قطع الإسباجتى. لم تنس البنات ذلك المشهد المرعب. مسكينة يا كارو. أمضت أسابيع فى المستشفى وهى تحـاول استعادة توازنها. وسـألتها إدارة المستشفى والشرطة عن الأذن

المبتورة. لكنها لم تقل للشرطة أو المستشفى أى شئ عمن بتر تلك الأذن. وهى الآن تضطر إلى لبس رداء طويل على رأسها كى يستر أو يخفى ذلك الجانب من وجهها. وعلى الرغم من ذلك، وبعد أن صرح المستشفى لها بالخروج، عادت إلى الشارع من جديد. ومازال يتعين عليها سداد مبلغ الثلاثين مليون ليرة المتبقية...

كانت شيوما تعلم أنها لو عادت صفر اليدين، فإن ذلك سيكون كارثة لها. وسوف تظن (المعلمة) فيها أسوأ الظنون. لن تسمح لها بتناول الطعام. وسوف تصب عليها أقذع اللعنات هى وعائلتها، فضلاً عن التهديدات والإساءة البدنية إليها.

الآن هذه فرصة لكسب خمسمائة ألف ليرة. ويمكن قبول هذا المبلغ على أنه دخل ليلى لا بأس به. يضاف إلى ذلك أن لوسى، أو بالأحرى لوسيفر لن تعرف أن هذا المبلغ من زبون واحد، ثمنًا لخدمة خاصة.

أشارت شيوما إلى لفيت Lovett إشارة خفيفة، " أنا أقبل ذلك ".

قالت البنات الأخريات : " دوه ".

اصطحبت شيوما زبونها إلى البقعة التى كانت البنات واقفات فيها. ومدت شيوما يدها طلبًا للأجر. كانت خدمة مدفوعة الأجر سلفًا. عد السيد سوزوكى خمسمائة ألف ليرة، وأعطاها لشيوما ؛ طوت شيوما النقود ووضعتها فى راحة يدها المبتلة. كانا على انفراد فى البقعة لكنهما كانا على مسمع من البنات الأخريات.

صاحت واحدة من البنات " تأكدى من وضع الكريم أولاً ". كن يعلمن أن ذلك مؤلم. وأن هذه هى المرة الأولى لشيوما. كن يعرفن أنها مضطرة لفعل ذلك حتى لا تعود خاوية الوفاض إلى لوسى.

تساءلت شيوما، " هل أنت حكاك ؟ " لم يمض على شيوما بعد ثلاثة أشهر فى إيطاليا. كانت معرفتها باللغة الإيطالية محدودة جداً. يوم أن توفى والدها، اتصلت سيدة بأم شيوما فقيرة الحال. كانت أنجلينا قد سلمت أماكا Amaka وأنا (شيوما) لهذه السيدة. كانت ليزى جونسون بدورها قد باعتها إلى لوسى، واحتفظت لنفسها بأماكا Amaka. وها هى لوسى تطلب منها أن تسدد لها تسعين مليون ليرة.

" فهمت " Si.

تناولت شيوما، وهى تمشى ببطئ مثل حمل ذاهب إلى المجزر، شيئًا من الشحم البترولى من إناء عام موضوع على الأرض وراحت تدهن المكان.

خلع الزبون خوذته وألقى بها على الأرض، وفك حزام بنطاله ومد يده داخل سرواله. وانحنت البنت إلى الأمام، فى حين كانت أصابعها ممسكة بساقيها دعت أن ينتهى الأمر سريعًا. ولإبعاد ذهنها عما هى فيه، راحت تفكر فى أمها الأرملة وأطفالها الذين خلفتهم وراءها فى بلدها. دعت أيضًا ألا يطيل الرجل مضاجعتها. كانت البنات يقلن أن هذا الوضع سريع، وأنه لا يستغرق وقتًا طويلاً. ومن بين رجليها راحت شيوما ترقب ما يفعله الرجل.

سمعت البنات من المكان الذى كن يقفن فيه صرخة ألم فى جوف الليل، كن يعرفن أن شيوما فى ورطة. وعلى الفور سارعن جميعهن إلى الرقعة فى اتجاه الصراخ. كانت أماكا تحمل كشافًا كهربيًا، سلطت ضوؤه على أختها، الراقدة على الملاءة وهى تتألم. فى حين كان السيد سوزوكى واقفًا هنا، فى انتظار إنهاء العملية. وعلى العكس مما قالت لفيت، لم يكن الرجل رجلاً صغيراً.

تساءلت البنات باللغة الإيطالية، " ماذا حدث ؟ "

" لقد دفعت خمسمائة ألف ليرة، ولابد أن أكمل ".

" أتريد أن تقتلها ؟ "

أكد الرجل، " لابد أن أكمل. لقد دفعت خمسمائة ألف ليرة ".

" لقد أولجت بالفعل. وضاعت عليك نقودك "، وتجمعن حوله. لقد ماتت. لقد قتلتها، ألا ترى أنك لا يمكن أن... إنها صغيرة جداً... وراحت البنات كلهن يؤنبن الرجل الذى أصبح يحس بالحرج، وخاف منهن، وأعاد عضوه الجائع إلى سرواله، وركب دراجته البخارية، ومضى لحال سبيله، وهو يصف البنات بالهمجيين ويهددهن بأنهن سيدفعن ثمن ذلك.

اعتبارا من ذلك اليوم، امتنعت البنات كلهن عن إمتاع الزبائن من طريق الخدمة الخاصة، باستثناء الظروف الحرجة، وعندما تصدر العمة (المعلمة) إنذاراً نهائياً. كانت شيوما قد قالت إن الباب الخلفى مؤلم. ولم تكن البنات بحاجة إلى معرفة ذلك. فقد سمعوها وهى تصرخ.

لا يـزال هــذا الأمـــر هــو تزجية الوقت المفضل عند البابا جيرو (السائقين). كان السائقون يتوددون إلى البنات طوال أيام من أجل هذا الشئ. إذا كنت ممتنة للسياقة فى الطقس البارد، وإذا كنت ممتنة أيضًا للتوصيلات المجانية. فلابد من التعبير عن هذا الامتنان. ولذلك كانت البنت توافق فى نهاية المطاف. وتصبح المسألة تعوداً بعد ذلك. قالت لفيت أولاً وقبل كل شئ المرة الأولى هى التى تكون دائمًا مؤلمة حتى ولو كانت بالطريقة المعتادة.

نشأت فى نهاية المطاف تجارة مقايضة ؛ كان العشاق يمشون على حل شعرهم، ثم يقومون بعد ذلك باللعب بالبنات على امتداد عصور. كانت البنات يستلطفن هذا الشئ أيضًا. بعد أشهر من كثرة الاستعمال وتعدده، وتلبية متع الزبائن والعملاء، تتبلد جدران تلك البنات الداخلية ويفقدن الحساسية تمامًا. كل ما يهمهن هو الزبون ولا شئ غير ذلك، الذى يهمهن هو لذة ذلك الزبون ومتعته، وليست لذتهن أو متعتهن. كل أنواع الرجال ضاجعوهن من مختلف الزوايا. لم يتركوا لهن أى شئ. ليس هناك ما يمكن أن يعلمه الزبون لأية بنت من هذه البنات. لقد شاهدت كل شئ، مرت بالأوضاع كلها، وتحملت الأوضاع كلها. لكنها عندما تكون فى الفراش، ومسترخية، تخطر ببالها متعة من نوع آخر. هنا لا تكون البنت مستعدة أو جاهزة للشوط الأول مدفوع الأجر. عندما تكون البنت فى الشارع فذلك يعنى أن الوقت له ثمنه. الشارع ليس فيه استرخاء. أنت تحدثين الضوضاء المناسبة لكى تثيرى الزبون. ومن بعده تبدئين البحث عن زبون آخر.

هنا وفى غرفة النوم المريحة، يمكن أن تكونى ريِّسه. هنا فى غرفة النوم تحاولين تناسى شياطينك، والمواعيد المحددة، وكذلك الديون المسجلة عليك فى السجلات والدفاتر. هذا يعنى أنك عندما تكونين فى غرفة النوم فإنك تحاولين الهرب من عقلك أو تلغينه.

كانت لفيت Lovett تنتظر وصول باولو. كان قد طلبها وأخبرها بأن تتوقع مجيئه عند الساعة الرابعة والنصف. قررت لفيت إحصاء متحصلاتها عن تلك الليلة. كانت المتحصلات عبارة عن أوراق مالية الواحدة منها مطوية مرات عدة. كانت تلقى بتلك العملات فى حقيبة يدها أثناء الليل. أخرجت لفيت العملات الورقية، وفردتها ووضعتها إلى جوارها، فوق بطانية الرقعة. يبدو أن الليلة كانت كلها عمل. هى لا تذكر عدد الرجال الذين ضاجعوها فى تلك الليلة، لكن ما تذكره هو أنها لم تفرغ ولو للحظة واحدة. ضاجعها رجلان على الماشى فى تلك الليلة، المرة الأولى كانت بصحبة ريتا، أما المرة الثانية فكانت بصحبة أماكا Amaka. كان الرجلان لطيفين ودفعا للبنات مبلغًا كبيراً. هاتان المرتان كان يمكن أن يكونا ثلاث مرات، لكن الرجل الثالث كان يود منها معاشرة كلبه، مقابل مليون ليرة. رفضت لفيت هذا الطلب، على الرغم من أن هذا الرجل رفع الأتعاب إلى مليون ونصف المليون، ثم زادها بعد ذلك إلى مليونى ليرة، ومع ذلك رفضت لفيت هذا العرض. الحيوانات يجب أن تضاجع حيوانات مثلها، وليس البشر. عندئذ كان الرجل قد أحضر البنات إلى الوصلة. وكان ذلك من حسن الحظ، نظراً لأن البعض يلجأون إلى العنف إذا ما رفضت طلباتهم الشاذة.

لم يؤذ ذلك التصرف مشاعر لفيت Lovett. وهي تعلم أن الناس ينظرون إلى المومسات باعتبارهن أقل منزلة من البشر، أو بالأحرى أعلى من الحيوانات بشئ قليل. كانت لفيت على علم بأن بعض البنات يقبلن مضاجعة حيوانات زبائنهن. لم تلمهم لفيت على ذلك. الظروف وحدها هي التي تضطر الجمبرى إلى الانحناء، على حد قول الناس. والجمبرى لا يفعل ذلك من تلقاء نفسه.

كانت بنات كثيرات واقعات تحت ضغوط عمتهم طلباً لسداد ديونهن الباهظة. هؤلاء البنات أيضًا كن واقعات أيضًا تحت الضغوط المنزلية والعائلية، إذ مطلوب منهن تحويل نقود لسداد فواتير المستشفيات، ودفع الإيجارات، وسداد الرسوم المدرسية، وعمل النظارات الطبية، ولشراء الأدوية، ونقود أيضاً للسيارات، والدراجات البخارية، ودراجات الصغار. يتعين على البنت أولاً دفع مبلغ يومي كبير على شكل قسط يومي يجرى دفعه للعمة (المعلمة)، وتحويل مبلغ آخر لأهلها في الوطن ثانياً. بعض البنات كن يعملن وردية الليل ووردية النهار، بلا توقف، ولا يحصلن على شئ من النوم سوى تلك اللحظات القصيرة، عندما يكن راكبات في القطار، الذي يقلهم من وصلة إلى أخرى.

حياة هؤلاء البنات صعبة. لكن ما الذي يمكن عمله ؟ كانت لفيت تمني نفسها بأن القرن لا يدوم إلى الأبد. ذات يوم سينتهي هذا السداد الذي لا ينتهي وبعدها أصبح حرة وأعمل من أجل أطفالي في وطني ومن أجل نفسي. وهنا راحت لفيت تدعو لأطفالها بالخير فيما

بينها وبين نفسها، كما راحت تدعو أيضًا لأمها التى ترعى هؤلاء الأطفال فى القرية.

وجدت لفيت أن حصيلة اليوم كانت سبعمائة ألف ليرة، بالإضافة إلى بعض الفكة. هذه ليلة طيبة، معقولة. هذا المبلغ كله سوف يتعين عليها تسليمه إلى العمة (المعلمة) عندما تصل إلى الشقة. لقد سددت حتى الآن خمسا وأربعين مليون ليرة. أى ما يعادل اثنين وعشرين ألف دولار أمريكى. أى ٢,٥ مليون نيرة نيجيرية. لايزال أمامها سداد مبلغ آخر كبير. إجمالى دينها يصل إلى حوالى تسعين مليون ليرة، بخلاف ما تدفعه نظير الإيجار، والطعام، والوصلة التى تقف عندها عندما تكون فى الشارع، بالإضافة إلى بعض النفقات الطارئة الأخرى. هذه حياة صعبة وشاقة. لكنها سبق أن وقعت عقداً مع العمة (المعلمة). لقد سبق أن حلفت اليمين أمام المداوى، أقسمت بحياتها وحياة طفلها. لن تحنث فى أيمانها مثلما تفعل بعض البنات الأخريات. ليتها تعثر على رجل ثرى، يقع فى حبها وينهى دينها ويشترى لها حريتها.

هاهى من جديد تعرف أنه لا يوجد شئ يسمى الوقوع فى الحب. لقد أصبح ذلك أمرًا مبتذلاً. هناك دواء خاص لذلك. صحيح أن الدواء مكلف لكنه ناجح. هذا الدواء يأتى فى صور مختلفة. هناك مسحوق يمكن استعماله قبل مضاجعة الرجل الأبيض الذى اخترتيه. عندما يلمسك يصبح ملكًا لك. هذا الدواء يكون فى بعض الأحيان على شكل شئ يوضع فى الشراب أو الطعام. وبعد أن يأكل الرجل ذلك الشئ

يصبح ملكًا لك تفعلين به ما تشائين، بل تأخذينه إلى مكتب تسجيل واقعات الزواج.

الرجل الأبيض " الطيب " يمكن أن يسدد عنك ديونك لعمتك، سواء أكانت هذه الديون خمسين مليونًا أو حتى تسعين مليونًا من الليرات. وبعدها سيقوم بمساعدتك فى استخراج " الوثائق " المطلوبة لك، تصريح الإقامة العتيد. لكنه سيبنى لك ولعائلتك بيتًا فى بداية الأمر فى وطنك، ثم يفتح لهم متجراً صغيراً يقومون بإدارته. وسيصحبك إلى القنصلية، ويحصل منها على تصريح بالزواج، ثم يتزوجك بعد ذلك. معروف أن بعض الرجال طلقوا زوجاتهم الكاثوليكيات بعد زواج دام سنوات طويلة، من أجل أن يمشوا وراء كلبة (عاهرة) أمية كئيبة الشكل. بعض الرجال، حرمتهم أسرهم العريقة من الميراث، لأنهم ضحوا بحياتهم الاجتماعية الهادئة، وأساءوا إلى سمعة أسرهم، بأن تزوجوا من مومسات سوداوات، بائسات وغير معروفات. والذى لا تعرفه هذه العائلات هو أن هؤلاء الرجال لم يعودوا بعد " مثلما كانوا عليه من قبل ". لقد وقع هؤلاء الرجال فريسة للسحر، السحر الأسود. ولم يكن بوسع أى إنسان فعل أى شئ لهؤلاء الرجال اللهم باستثناء ذهاب مثل هؤلاء الرجال إلى المداوى فى نيجيريا، وفك العمل الذى عمله السحرة لهم.

بينما كانت لفيت lovett تنتظر مجئ باولو، قررت الاتصال بأمها فى نيجيريا وتسألها عن محلول الحب. كانت مشكلتها الوحيدة تتمثل فى احتياجها إلى رجل ثرى فى البداية. كان باولو يصلح لاستخراج تصريح

الإقامة. لم يكن باولو ثريًا. الرجل لا يستطيع تسويه ديونها أو توفير حياة طيبة لأهلها في وطنها. كان باولو مجرد بنَّاء، مجرد عامل معمار بسيط الحال. سرح ذهنها في إدواردو Edoardo. كان إدواردو واحداً من زبائنها المستديمين في روما. الأرجح أنها سوف تقبله حسب عرضه الذى قدمه لها...

" مساء الخير ! " Buona Notte كانت تلك تحيتهما لبعضهما عندما يلتقيان.

بدأت البنات يغادرن الوصلة الواحدة بعد الأخرى. البعض منهن كن يغادرن الوصلة بصحبة السائقين Papa Giro. بعض آخر حصلن على توصيلة مجانية من الزبائن فى الصباح الباكر. كانت البنات الأخريات يمشين على مضض قاصدات المنعطف الذى يبعد عن الوصلة مسافة ميل تقريبًا، لكي يلحقن بالحافلة الليلية المتجهة إلى وسط المدينة. ومن وسط المدينة كن يركبن قطار الصباح الباكر المسافر إلى البلدان المجاورة والمدن المجاورة التى تجيء منها هؤلاء البنات. هؤلاء البنات كن يختلطن بالجماهير الأكثر عقلاً وحكمة، ويضعن وسط غُفيْليَّة(*) المدن الكبيرة.

(*) الغُفيْليّه : بضم العين وتسكين الياء الأولى وتشديد الياء الثانية، هى كون الشئ غُفلاً من الاسم. (المترجم)

الفصل التاسع

بعد تناول الغداء، قال فابيو لأمه إنه سيخرج مع أصدقائه. كان فابيو عند الباب عندما قال هذا الكلام لأمه. ولم يعط أمه فرصة الموافقة أو الرفض. اندفعت أنتونيلا Antonella ناحية الباب وصاحت فى إثر فابيو ". لا تنس أن تعود إلى المنزل عند الساعة الحادية عشرة ".

منذ أن طلقها والد فابيو، وعداء ابنها لها يتزايد بصورة مستمرة، وانسحب فابيو وانطوى على نفسه. كان الإخصائى الاجتماعى قد عزى ذلك الانسحاب والانطواء إلى المراهقة. لكن أنتونيلا كانت ترى شيئًا غير ذلك. أولاً لأن جيانلوسا Gianluca، ولد أختها المراهق لم يكن على هذا الحال. فقد كان حسن التصرفات، ويساعد أمه فى المنزل ولطيف معها بشكل عام ويحترمها ويقدرها. لم تكن هى المسئولة عن مسألة الطلاق. لم يكن أمامها شيء تفعله حتى تمنع ذلك. فقد التقى سباستيانو Sebastiano امرأة أخرى وترك أسرته ليقيم مع تلك المرأة. لم تر أنتونيلا تلك المرأة، لكن الشائعات تقول إنها امرأة سوداء، ويرجح أن تكون مومسًا سابقًا. معظم بنات الشارع فى المدينة كلهن سوداوات، هاربات من الجوع والفقر فى بلادهن. أحست أنتونيلا بالإهانة لكنها أفلحت فى تسيير

أمورها. هل يمكن أن يترك الزوج زوجته البيضاء ليعيش مع زوجة سوداء ؟ هل يمكن أن يترك الزوج الحضارة ويدخل في الوحشية وعدم التحضر.

بعد أن عرفت كل شئ عن المرأة الأخرى، نصحها الناس بتحليل دمها. نظراً لأن السواد الأعظم من هؤلاء الإفريقيات مصابات بمرض الإيدز (نقص المناعة المكتسب) ". إذا كان زوجك يتركك ليعيش معها، فذلك يعني أن العلاقة قائمة بينهما منذ مدة، ولابد أنه كان يخدعك ويغشك ".

أجرت أنتونيلا الفحوصات الممكنة كلها : الدرن، والهربس، والإيدز إلخ. ومن حسن حظها أن النتائج كلها جاءت سلبية. ومع ذلك نصحها طبيبها أن تعيد هذه الفحوص والتحاليل مرة أخرى بعد ستة أشهر. وقد فعلت ذلك أيضاً. وجاءت النتائج سالبة أيضاً.

كانت أنتونيلا قد تعلمت في المدارس أن الأفارقة شبيهون بالقردة ؛ وأنهم يعيشون في الأشجار ويتجولون عراة، وينامون في الأكواخ نفسها مثل الحيوانات. وأن المستعمر الأبيض هو الذي أستأنس هؤلاء الأفارقة. وأن هذا الذي تعلمته وعرفته هو الذي جعلها هي وأصدقاءها الإيطاليين ينظرون إلى النساء الأفريقيات نظرة احتقار وازدراء عندما يلقونهم في الشوارع والأسواق. وأن السواد الأعظم من هؤلاء النساء الأفريقيات يعملن شغالات أو خادمات في المنازل عند زميلاتها. وها هو سباستيانو

يتركها حاليًا ليعيش مع واحدة من هؤلاء الإفريقيات ". إنها قمة الفضائح والعار. لم يكتف سباستيانو بأنه كان يخون أنتونيلا. ووصل به الحال إلى التخلى عنى تمامًا ".

تعجبت أنتونيلا مرات ومرات، وتساءلت عشرات المرات عن السبب الذى جعل سب Seb يتركها ويتخلى عنها، يتخلى عن زوجته التى تزوجها زواجًا كاثوليكيًا دام سبعة عشر عامًا. ترى ما الذى اكتشفه سباستيانو فى تلك المرأة السوداء ؟ ما الذى تفعله هى ولا أفعله أنا ؟ شرحت لها صديقتها بعض الأشياء ". هؤلاء النساء يعرفن كيف يضاجعن الرجال Basta. ليس لديهن أى مظهر من مظاهر الكبت أو الموانع، وليس لديهن أية توقفات مثلما نفعل نحن. هن يطعن الرجال ".

لكنها هى وسب Seb كانا يعيشان حياة مفعمة بالحميمية أيضًا. أو هكذا هيئ لها. كانا يمارسان الأوضاع كلها، بل إنهما كانا أيضًا يقلدان ذلك الذى فى أفلام الفيديو والمجلات.

" أزواجنا يقولون لنا من ناحية، إنَّ هؤلاء النساء الإفريقيات غير متحضرات. ومن الناحية الأخرى يهجروننا، نحن الذين نسمى النساء البيضاوات المتحضرات، ويذهبون إلى النساء غير المتحضرات ". لابد أن يكون فى الأمر شئ.

بدأت أنتونيلا تتفهم الموقف. الناس يطلقون كل يوم. الزيجات تنهار أيضًا يوميًا. لها أصدقاء وأقارب متزوجون للمرة الثانية وللمرة الثالثة

أيضًا. وهي لن تكون الأولى أو الأخيرة من المطلقات في المكاتب أو المجتمع. لكن ما الذي جرى لفابيو ؟

كان فابيو يأخذ الأمر مأخذًا سيئًا. لم تنقلب حياته المنزلية الآمنة رأسًا على عقب، وإنما تركهما والده ليعيش مع امرأة سوداء. وبضربة حظ، تحولت امرأة سوداء إلى زوجة لأبيه. تحول فابيو إلى مَضْحَكة أمام أنداده من الأصدقاء. كان أصدقاؤه يسخرون من البنات السوداوات من قبل، ويقولون إنهن مومسات. البعض من هؤلاء الأصدقاء ضاجعوا بعضهن في البلدة، على حد قولهم. كان هؤلاء الأصدقاء يتكدسون في سيارة، كلما أرادوا المتعة والمرح ويتجهون مباشرة إلى كورسو Corso، كافور Cavour. وعندما كان أولئك الشبان يصلون إلى المكان الذي تقف فيه هؤلاء البنات، كانوا يهدئون من سرعة السيارة ويتظاهرون بأنهم زبائن. وفي بعض الأحيان كانوا يلقون عليهن الحجارة. وفي بعض الأحيان الأخرى كانوا يكتفون بسبهن ولعنهن والتفل عليهن. حدث ذات مرة أن أخذ هو وفرانكو Franco اثنتين من هؤلاء البنات السوداوات، لكنهما لم يكونا يعرفان المكان الذي سيأخذانهما إليه، وهنا اكتفيا بإنزالهما من السيارة في مكان ما على الطريق. وأصرت البنتان على الحصول على أجرهما قبل النزول من السيارة. طلبتا ذلك الأجر نظير الوقت الضائع. كانت البنتان قد هددتا بتكسير نوافذ السيارة. ومن باب الخوف أعطاها فابيو مصروفه الأسبوعي. أعطاهما خمسين ألف ليرة.

كـان فـابيـو يتـعـجب ويندهش من سـهـولة انقـيـاد هؤلاء البنات السـوداوات. وذلك على العكس من البنات الإيطـاليـات اللاتى لا ينقـدن إلا بعد مـحاولات مضنية ومستميتة. لقد أصبحت له زوجة أب سوداء. فقد تزوج والده واحدة من تلك البنات الإفريقيات السوداوات. صحيح أنه يكشف عن شـجاعة مظهرية لكنه أوذى من الداخل، جُرح جرحًا لا يمكن التعبير عنه بالكلام. لم يعد لأى شئ معنى عند فابيو.

كان فـابيو يـخشى من زيارته لوالده كل أسبـوع. كان يخشى من وجوده فى منزل واحد مع تلك السـيدة السوداء، المسـماة إيف Efe. مع مطلع هذه الترتيبات الجديدة، كانوا جميعًا يتبادلون الغداء سويًا. فى البـداية كـان فـابيو يراقب هـذه السـيـدة مـراقـبة لصيـقـة، كـان يراقب سلوكياتها. كـانت إيف تتكلم الإيطالية بلكنة مضـحكة وعدد كبـير من الأخطاء النحـوية والأخطاء الصـوتيـة. فى بعض الأحـيـان كـان والده يصحح أخطاء زوجته الجديدة. وفى بعض الأحيان كان يكمل لها جملها من باب تحاشى الأخطاء.

كان فابيو يطيل النظر إليها وهى تستـعمل أدوات تناول الطعام، عندمـا تروح تشـيـر فى الهـواء وفى يدها الشـوكة والسكين. كـان فـابيـو يخشى أن تصيب إيف Efe أحداً بالسـلاح. أكل الجميع الفطير. لكنها لم تأكل الفطير معـهم. كانت قد أعدت لنفسـها طبقًا آخر، طبقًا من أطباق بلادها، راحت تـأكله مستـعملة أصابعـهـا. كان ذلك الطبق مـغروفًـا فى طبقين، أحدهما عبارة عن مادة يميل لونها إلى الابيضاض، كانت تسميه

الفوفو Fufu، ويصنع من البطاطس المهروس، والدقيق، والطبق الآخر سائل حسائى فيه كمية كبيرة من السمك المجفف والسمك المحفوظ. كانت تستعمل يدها فى أخذ شئ من طبق البطاطس المهروس أبيض اللون وتغمسه في السائل الحسائى، قبل أن تلقى بالكرة كلها فى فمها الواسع. ثم تقوم بعد ذلك بلعق أصابعها بغية تنظيفها مثلما تفعل القطاط. ثم تغمس أصابعها من جديد فى طبق الفوفو. هذا شئ يلخبط فى أضعف الأحوال. لم يكن فابيو يطيق تلك الرائحة الغريبة التى كانت تنتشر فى سائر أنحاء الشقة وما بعدها.

كان فابيو يتعجب من معيشة والده مع امرأة من هذا القبيل.

كان من الواضح أنها لا تعرف شيئًا عن آداب المائدة. قال له والده : إن سلوكياتها تختلف عن سلوكياتهم. وحدث أن وضع الوالد شوكته فى أطباق المرأة وأكل من ذلك الطعام الغريب. كاد فابيو أن يتقيأ. الحب يجبرك على فعل أشياء غريبة ومرعبة.

طلب فابيو أن يلتقى والده فى منتزه من المتنزهات أو فى وسط البلد بعيدًا عن هذه المرأة. لكن هذا الترتيب قلل من وقت لقائهما خارج المنزل. كان والده يتعجل العودة إلى المنزل حيث توجد ايف Efe.

حاول سباستيانو، ذات مرة، مناقشة هذا الأمر مع ولده فابيو، لكن الأخير لم يفصح عن مشاعره، أو عن الضرر الذى أصابه، أو عن غضبه أو إحساسه بالعار. الشئ الوحيد الذى نجح فيه فابيو، هو تكرار سؤاله لوالده مرات ومرات " كيف فعلت ذلك ؟ كيف فعلت ذلك ؟ "

" لقد وقعت فى الحب، يا ولدى. وقعت فى حبها فعلاً ". وكان فابيو يسأل والده عن هذا الرد، : كيف فعلت ذلك ؟ : قاصداً بذلك، لماذا هذه المرأة دونا عن سائر نساء البلدة ؟ لماذا امرأة سوداء ؟ (ولماذا مومس سابقًا ؟).

" وهل نعرف نحن كيفية حدوث مثل هذه الأمور ؟ كنت أنا وأمك فى نزوة. لقد قمت برحلة خلوية. والتقيت هذه البنت. وأدت الأمور بعضها إلى بعض. أنا لم أطق ذلك، يا ولدى. وما على الإنسان إلا أن يكيف نفسه مع مثل هذه الأمور. الأشياء لا يمكن أن تكون دومًا على هوى الإنسان ".

صرخ فابيو فى وجه والده متسائلاً، " أليس لى وزن عندك ؟ ماذا عن مشاعرى ؟ ألا تعرف أن ما تفعله يؤثر على أيضًا ؟ " جفف فابيو دموعه بالمنديل الذى قدمه له والده ". أنا لا أود أن تكون لى زوجة أب سوداء ".

" يا ولدى، اللون لا وزن له، فى زماننا الحالى، زمان العولمة. سامحنى إن كنت قد آذيتك. لكن كما قلت لك : نحن لا نعرف كيفية حدوث الأشياء. سوف تتعود على هذا الأمر ".

كان فابيو قد تعود على الانفصال. كان كثيرون من أصدقائه ورفاقه يعيشون فى أسر مهدمة أيضًا. المسألة الوحيدة المؤلمة هى لون هذه المرأة. هل يصح أن يهجر أمه الإيطالية إلى امرأة سوداء ؟

كان فابيو يطلب تفسيراً من أمه لكنه كان يواجه جداراً أبيض فى هذا الاتجاه أيضًا. كان بوسعه تفضيل العيش مع والده. لقد أُعطى فرصة الاختيار. لكن لم يكن فابيو يطيق هذه المرأة، لم يطق سماع تلك الضوضاء، والأشياء الذى كان والده يفعلها مع أمه فى جوف الليل.

وإذا كانت لا تعرف آداب المائدة فماذا عن آدابها فى بعض المناطق الأخرى. كان لديها بعض الملابس الإفريقية المضحكة التى كانت تلبسها بين الحين والآخر، كما كانت تصفف شعرها بطرق غاية فى الغرابة. استطاعت الحصول على عمل لها فى الكوميون(*)، كما تنتظر حادثًا سعيداً أيضًا، طفلاً خلاسيًا ! طفلاً إفريقيًا بكل المعايير. لم يكف أن تكون له زوجة أب ملونة. سيصبح له أخ أو أخت ملونة. كان فابيو قد طلب من أمه الانتقال إلى بلدة أخرى، هربًا من ذلك العار، وأن تبدأ حياة جديدة، وأن تنأى بنفسها عن هذه المتاعب كلها. لكن أنتونيلا لم تكن توافق على ذلك. نظراً لأنها ستخسر عملها. وهما حاليًا بحاجة ماسة إلى راتبها أكثر من ذى قبل. راتبها حالياً هو الشئ المهم عندها. وهى ليست على استعداد للتضحية بهذا الراتب. كانت أنتونيلا تطلب من ولدها الاصطبار عليها. وإما سيعود والده إلى صوابه ويطلق هذه المرأة السوداء. هذا يعنى أنه كانت هناك خلافات بينهما حول هذا الزواج ؛ أو أنهما يتعين عليهما التعود على هذا الوضع.

(*) الكوميون : هو أصغر التقسيمات الإدارية فى كل من فرنسا وإيطاليا وسويسرا (المترجم)

لقد انجرت إلى إيذاء مشاعر سباستيانو بأن أعطت موعدًا غراميًا لرجل أسود أو عربى لكن ذلك لم يكن أسلوبها فى حياتها.

المرأة لا تملك فعل أى شئ عندما يود الرجل تطليقها. هل ترجينه البقاء معك على غير رغبة منه، وتفقدين كرامتك واحترامك لنفسك ؟ كانت أنتونيلا ممتنة لعملها، الذى كان يعاونها فى حياتها مع ما يدفعه سباستيانو لها، كانت هى وولدها يعيشان على هذا المبلغ عيشه مريحة. صحيح أنها بدأت غرامياتها من جديد، ولكن مع مراهق فى هذه المرة، هذه الغراميات كانت من قبيل لعبة (الاستغماية).

لقد صارا متعودين على الموقف. المشكلة الوحيدة التى كانت تواجه أنتونيلا هى تلك الكآبة التى تنتاب ولدها فابيو. لقد التزم الولد السرية كما لو كان يخفى آلامه فى داخله. كان فابيو يمضى ساعات طوال فى غرفته فى الظلام، مع الموسيقى الصاخبة.

كان الناس يؤكدون لأنتونيلا، " سيفيق مما هو فيه ".

" أتمنى ذلك. أتمنى ألا يسوء الأمر أكثر من ذلك ".

بلغها أن ولدها كان يتردد على بعض الصبية الأشقياء الذين كانوا يتجولون فى البلدة فوق دراجاتهم النارية محدثين الكثير من الجلبة والضوضاء، للجيران. بعض هؤلاء الصبية كانوا يتعاطون المخدرات، على حد قول الناس لها. واحد منهم يتعاطى هذه المخدرات منذ زمن بعيد. أحست أنتونيلا بقلة حيلتها فى إيقاف ذلك الشر الذى كان يضايق

ولدها ويقلقه. ها هو قد اعتاد على الخروج من المنزل. كانت تدعو له بألا يقع فى المتاعب والمشكلات.

كان فابيو دائم البحث عن اللهو والمتعة، اللهو والمتعة الخطرة. كان فابيو يلتقى كلا من بينو Pino ولورينزو Lorenzo وآخرين. كانوا يطلقون على أنفسهم اسم المراهقين المرعبين. كانوا يتجولون فى المدينة ويعوون ويصيحون معبرين عن غضبهم. غضبه هو. كان يتمنى لو يذهبون إلى المكان الذى تسرح فيه تلك البنات الساقطات. إن لديه حساب يود تصفيته معهن !

* * *

أطال لويجى الكاستليانى Castelnuovo النظر إلى الهاتف كما لو كان سلاحاً من أسلحة القتل. ما يسمعه حاليًا ليس مجرد صدمة، وإنما هو تهديد للحياة أيضًا. كانت حياته العملية على وشك الانتهاء. لم تكن حياته العملية وحدها المهددة بالانتهاء، وإنما كانت حياته أيضًا محطًا لذلك التهديد، بل كل شئ آخر. كل ذلك الذى عمل من أجله طوال ثلاثين عامًا كان يتهدده الخطر. كل شئ أوشك على التبخر. سيخسر الرجل كل شئ بسبب قرار سيئ اتخذه فى تجارته.

كانت أمه منذ سنوات شبابها، تحذره دومًا من الجشع والطمع.

" احترس، يا لويجي. أنت دومًا تتطلع إلى جمع المال بطريقة سهلة. صحيح أن المال لابد من جمعه. لكن إياك وجمع المال بطريقة سهلة ".

كان لويجي قد أغفل وأهمل تحذيرات أمه له. ترى، هل كانت نبوءة أمه على وشك التحقق ؟ ترى هل كان على وشك أن يدفع ثمن ذلك القرار الجشع المتعجل الذى سبق أن اتخذه ؟

قرار جرى اتخاذه من جانب واحد، دون علم الأسرة بذلك القرار، أو حتى موافقتها عليه. هذا القرار يمكن أن يكلف الشركة الصغيرة أرباحها كلها التى جنتها خلال العامين الماضيين. لم يقف الأمر عند هذا الحد، نظرًا لأن لويجى أضاف إلى ذلك مدخراته الشخصية، إضافة إلى مكافأة تقاعد زوجته التى حصلت عليها من شركة أجيب AGIP. هذا يعنى أن الشركة سوف تفلس. ستبقى الأسرة على قيد الحياة، لكن ماذا عن الشركة؟

بدأ هذا القرار برسالة استلمها لويجى Lugi. كانت الرسالة تحمل طوابع بريد لندنية، لكن الرسالة كانت من نيجيريا. كانت الرسالة من كاتب فى البنك المركزى يقدم عرضًا فى مجال المال والأعمال. كان الرئيس النيجيرى الراحل قد خطط لنقل مبلغ كبير من المال إلى خارج البلاد، لكن المنية وافته قبل أن يتمكن من ذلك.

سمع الناس عن ذلك المبلغ، الذى كان فى مكان سرى. هذا الكاتب كان يبحث عن حساب آمن فى الخارج يمكن أن يحول عليه هذا المبلغ.

وهو على استعداد لإعطاء صاحب الحساب نسبة أربعين في المئة من إجمالي المبلغ. هل كان دوتور Dottore لويجي الكاستلياني مهتمًا بتقديم رقم حسابه ؟ وإذا ما كانت الإجابة بنعم، فهل يرسل رقم حسابه البنكي ومعه عنوانه إلى ذلك الكاتب الموقع على تلك الرسالة ؟ وكان يتعين على لويجي الحفاظ على سرية هذه الصفقة نظرًا لأن بنك الكاتب يتابع الموضوع.

أربعين في المئة من خمسة وتسعين مليونًا من الدولارات ! وراح لويجي يحسب ذلك الذي يمكن أن يفعله بمبلغ ٣٨ مليون دولار. الواقع أن هذا المبلغ كان يتغير في بعض الأحيان إلى ٩٥ مليون دولار. لو وضع هذا الوغد الأحمق تلك النقود في حساب لويجي، لأصبح بوسع لويجي أخذ المبلغ كله دون أن يعطي ذلك الكاتب العجوز شيئًا على الإطلاق. هذا سيحدث فور وصول المبلغ إلى حساب لويجي في بنك روما.

كانت الرسالة تحتوي على رقم تليفون ورقم فاكس يمكن من خلالهما الاتصال بذلك الكاتب. راح لويجي يفكر في ذلك العرض أيامًا عدة.

سأل لويجي نفسه مرارًا : " كيف لبلد أفريقي أنْ يكون فيه مثل هذا المبلغ في الوقت الذي يقولون لنا فيه كل يوم إنَّ هؤلاء الناس فقراء جميعهم ". دخل الرجل على شبكة الإنترنت وراح يبحث عن نيجيريا. وقد انشرح صدر لويجي عندما عرف أن نيجيريا واحدة من الدول الغنية

بالبترول ؛ سادس منتج للبترول على مستوى العالم. وعرف أن الرئيس النيجيرى مات مؤخراً فى ظروف غريبة.

أتى لويجى بصورة عابرة ذات مساء على ذكر هذا الموضوع فى نادى التنس الذى هو عضو فيه، وأخبره رفيقه فى اللعب أن كل شئ ممكن فى البلاد المتخلفة التى من هذا القبيل ؛ كما أخبره أيضًا أن الرشوة على أشدها فى دوائر المال والأعمال فى دول العالم الثالث، ويمكن أن يكون لرئيس الدولة مثل هذا المبلغ دون مساءلة من أحد. وكنوع من الحرص طلب منه رفيقه أن يقوم بإبلاغ مسئولى السفارة عن هذا الأمر. لكنه استشعر أن هذا البلاغ لن يكون مثمراً. وأنه لو فعل ذلك سيخرج القطة من الحقيبة، وتحت أى ظرف من الظروف، لن تكون هذه الصفقة رسمية ونظيفة. يزاد على ذلك أن السيد / عيسى Isa سبق أن حذر لويجى من سرية المشروع.

بعد ثلاثة أيام من استلام الرسالة الأولى، طلب لويجى السيد / عيسى على الهاتف. كان لويجى يود أن يعرف الطريقة التى حصل بها السيد / عيسى على اسم لويجى. وأوضح له عيسى أنه حصل على هذا الاسم من مكتب التجارة المحلى. وسارع عيسى إلى التأكيد لكاستليانو Castelnuovo أن الصفقة كانت مؤمنة بنسبة مئة فى المئة من حيث النجاح.

فى هذا اليوم نفسه أرسل كستليانو إلى نيجيريا رقم حسابه وعنوان البنك عن طريق الفاكس، كما أرسل أيضًا الرقم الكودى للحساب.

راح لويجى ينتظر بعد ذلك.

كان لويجى يطلب البنك كل أسبوع ليسأله عن الرصيد فى حسابه. واندهش الرجل عندما عرف أن الرصيد هو الرصيد المعتاد ولم يحدث له أى تغيير. ومن باب تمهيد هيئة العاملين فى البنك للمبلغ الضخم الذى على وشك أن يحول إلى حسابه، ومن باب منع التساؤلات أيضًا، شرح لويجى لرئيس البنك أنه يتوقع تحويل مبلغ ضخم له لأنه حصل على عقد كبير فى نيجيريا.

بعد ذلك بأسبوع كتب له عيسى رسالة جديدة أخرى ؛ يفيد فى هذه الرسالة أنه يواجه بعض المتاعب فى عملية التحويل. ومن باب تسهيل العملية، قام بأعداد الوثائق التى تفيد أن كاستليانو أبرم عقدًا فى صناعة البترول وأن قيمة هذا العقد تقدر بحوالى ٩٥ مليون دولار. وأفاد أيضًا أنه جرى تحرير شيك مقبول الدفع لاسم شركة كاستليانو سبا Spa. وأرفق صورة من الشيك بالرسالة، وأنه (عيسى) يقوم حاليًا بتسجيل شركة كاستليانو فى وزارة المالية، وسيقوم بدفع بعض الضرائب حتى يمكن " تمرير الشيك ". والأمر يحتم دفع ضرائب ثلاث سنوات فى أضعف الأحوال. فهل يتفضل السيد Signor لويجى بإرسال مبلغ ألفى دولار يقوم عيسى بتحويلها محليًا ويدفع منها الضرائب المطلوبة ؟

أطال لويجى النظر إلى الشيك وهو بين يديه. صحيح أن الشيك صادر عن البنك المركزى النيجيرى، وأن الشيك مقبول الدفع وقيمته ٩٥

مليون دولار، لاسم شركة كاستليانو، في روما. لم يكن لدى لويجي وسيلة يتأكد منها من صدق أو عدم صدق ذلك الشيك، لكن الشيك يحمل شعار البنك المركزي وبعض الشعارات الأخرى. أحد هذه الشعارات كان عبارة عن اسم البنك التجاري النيجيري، وشعار آخر لجمهورية نيجيريا الاتحادية.

اندفع لويجي إلى أقرب فرع من أفرع الويسترن يونيون وحول أربعة ملايين ليرة لعيسى. واتصل بليجوس بعد ذلك وأعطاه الرقم الكودي للتحويل.

وانتظر لويجي فترة أخرى.

ويتلقى لويجي رسالة أخرى. تطمئنه وتطلب منه ألا يقلق ؛ لأن الشيك مدته تسعون يوماً. وكان قد تقرر إرسال الشيك إلى عنوان شركة لويجي، لكن عيسى قال إنْ مدفوعات العقود كلها تبلغ حوالي خمسة آلاف دولار أمريكي، كرسم تنمية وتعمير من هذه العقود، وأن هذا المبلغ يستخدم في إعادة تأهيل مناطق البترول. وأن كل ما ينبغي على لويجي عمله هو أن يحول هذا المبلغ عن طريق التحويل السريع وبعدها يصبح الشيك من حق لويجي ويقوم بتحصيل قيمته بنفسه. وراح عيسى يذكر الإيطالي باتفاقاتهم السابقة. وأعرب عن موافقته على أن يخصم لويجي كل المصروفات التي تكبدها. وأن الاثنين سوف يقسمان المبلغ المتبقي بنسبة ٤٠ / ٦٠ في المئة.

سارع لويجي إلى تحويل المبلغ المطلوب. ما الذي يمكن أن يحدث إذا كان سيصرف سبعة آلاف دولار نظير الحصول على خمسة وتسعين مليون دولار في نهاية المطاف ؟ كان لويجي مندهشًا لأن النيجيريين لم يطلبوا رشوة نظير الإفراج عن هذا المبلغ. في إيطاليا، يدرك لويجي أن أشخاصًا متعددين ينبغي " مقابلتهم " قبل أن يحصل الإنسان على نصف هذا المبلغ من العقود الحكومية.

لما كان لويجي ليس معه هذا المبلغ بكامله اضطر الرجل إلى الاقتراض من مدخرات زوجته. كان من حقه الصرف من حسابهما المشترك.

وبهذه الطريقة، راح لويجي يحول، طوال ثلاثة أشهر، مبالغ من هذا القبيل إلى عيسى في محاولة منه للحصول على المبلغ الضخم المشار إليه. صرف لويجي أموال الشركة بهذه الطريقة، أملاً في سداد هذه المبالغ فور وصول الملايين. لقد رهن حصة زوجته من أسهم شركة أجيب AGIP، التي حصلت عليها عند تقاعدها من الخدمة، التي دامت ثلاثين عامًا في تلك الشركة. لقد وصل به الحال إلى حد الاقتراض من البنك بضمان الشركة، مع وعد بسداد القروض خلال شهر واحد.

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن عيسى قريبًا أو في المتناول.

كان لويجي قد حول ما يزيد على أكثر من خمسة وعشرين ألف دولار إلى ليجوس على سبيل الرشوة. ومع ذلك لم يتسلم لويجي الشيك.

كانت مصاعب الرجل لم تتكشف بعد. لاحظت زوجته نظراته التى توحى بالقلق. وسألته عما جرى.

كان قد كذب عليها، " آه، لا شئ. مجرد حالة بسيطة من حالات عسر الهضم ".

حدث تعتيم إخبارى خلال فترة محددة. إذ لم يعد عيسى يتصل به أو حتى يرسل له الرسائل الفكسية المعتادة.

حاول لويجى مرات عدة الاتصال بعيسى تليفونيًا. كان الاتصال بليجوس عملية صعبة، ولكنه كان يصر على الاتصال. فى البداية قالوا له إن عيسى غير موجود، على الرغم من أن الصوت كان مألوفًا للويجى. بعد ذلك، أبلغه شخص آخر فى يوم من الأيام أن عيسى توفى فى حادث سيارة وأنه جرى دفنه منذ سويعات قليلة. وهنا كاد قلب لويجى أن يقفز من صدره. لم يعرف الرجل من أين جاءته القوة أو الصوت الذى يفسر له الصفقة التى لم تنته بعد بينه وبين عيسى. فى البداية أنكر ذلك الشخص أية معرفة له بهذه الصفقة قبل وفاة عيسى. وبعد فترة طويلة، نصح ذلك الشخص الذى يدعى أن أسمه أيجوييبو Egoyibo، والذى أدعى أيضًا أنه نسيب عيسى، نصح لويجى بالمجئ إلى ليجوس ويسوى معه هذه المشكلة، أو إذا كان بوسعه توفير ثمن التذاكر لأيجوييبو Egoyibo، فإنه سوف يقوم هو بإحضار الشيك له.

خطر ببال لويجى بعد ذلك أن يقوم بزيارة للسفارة. وأنه إذا كان يود السفر إلى نيجيريا، فلابد من طلب تأشيرة...

طلب لويجى السفارة النيجيرية وتكلم مع القنصل. كان السيد أوفوت Ufot يود أن يعرف نوعية العمل الذى كان لويجى يود القيام به هناك. طلبوا إليه إرسال صورة من المراسلات الفكسية التى تلقاها من عيسى لقد تسلم الرجل كمية كبيرة من الأوراق من نيجيريا، من عيسى النيجيرى. وعلى وجه السرعة أرسل لويجى للسفارة بعضًا من الأوراق التى لديه.

أبلغه القنصل، أن كل ما قاله عيسى كان زيفًا ونصبًا واحتيالاً. كما أبلغه أنه لا توجد أية نقود فى أى مكان جاهزة أو يجرى تحويلها، كما أبلغه أيضًا أنه ليس هناك شيكًا باسمه، أو عقدًا جرى تنفيذه، أو أى شئ.

يا للأسف !

لم يصدق لويجى ما سمعه من القنصل.

" وماذا عن الرسالة المعنونة مستندات من البنك المركزى النيجيرى ؟ لا يمكن أن تكون هذه المستندات مزورة ".

كان القنصل قد أكد للرجل " أنا آسف. هذه المستندات كلها مزورة".

" وماذا عن النقود التى دفعتها له ؟ كيف لى بالحصول على هذه النقود ؟ " كان لويجى فى حال من اليأس الشديد.

" أخشى أن أقول لك إن هذه النقود ضاعت عليك. واقع الأمر أن هذا المدعو عيسى طبخ هذه العملية كلها من أجل أن يحصل منك على هذا المبلغ أولاً. لقد تمكن منك وخدعك ".

أصر لويجى، " لكن حكومتك لابد وأن تكون قادرة على إعطائى نقودى، هى والضرائب والرسوم التى دفعتها.. ".

أجاب القنصل فى صبر وأناة، " الحكومة النيجيرية لا علاقة لها بذلك. لقد وقعت فى أيدى بعض النصابين. السفارة هنا لكى تتحقق أنت من تلك الصفقات الوهمية. وأنت وحدك الذى اخترت الدخول فى هذه الصفقات. يؤسفنى أن أقول لك ذلك لكنى لا أستطيع أن أفعل لك شيئًا ".

" كيف لى بالحصول على أموالى واستردادها ؟ لابد من استرداد هذه الأموال، وإلا كان ذلك دمارًا وخرابًا علىّ ".

" لقد نشرت البعثة الدبلوماسية تحذيرًا فى الصحف من هذه الألاعيب. والمؤسف أنك لم تعر تحذيرنا اهتمامًا. واقع الأمر، ومن باب الحقيقة، لقد دخلت فى صفقة من الصفقات التى تهدف إلى سلب الحكومة والاحتيال عليها. والآن بعد أن احتالوا عليك وسلبوك، تبكى وتصيح. أنا آسف لما حدث لك. ليس لدينا ما يمكن أن نفعله من أجلك. بعد إذنك، أنا لدى بعض الأشياء الأخرى التى أود إنجازها ".

وتوقف الهاتف عن الكلام فى يدى لويجى. وأمسك الرجل بسماعة التليفون لحظة فى يده. ثم أعادها بعد ذلك إلى مكانها. وأمسك برأسه بين راحتى يديه، وهو مذهول.

" لقد انتهيت Finito. لقد وقعت فريسة لنصاب من النصابين، آه من السود! كلهم سيئون، كلهم أوغاد. لا يمكن أن تثق بأى أحد منهم. الدخول معهم فى مسائل المال والأعمال عملية خاسرة. لكنهم سيدفعون ثمن سوئهم ".

تناول لويجى البندقية التى فى الدرج السفلى. لقد قرر القتل. لكن سيقتل من ؟

أدى صوت جرس الباب إلى إعادة الرجل إلى صوابه، إلى الواقع.

تساءل لويجى " من بالباب ؟ " لم يكن ينتظر أو يتوقع مجئ أى أحد من الناس. ولم يكن فى حالة نفسية تسمح له باستقبال الزائرين أيضًا.

" أنا تايو Tayo من فلورنسا ".

" ماذا تريدين ؟ "

لقد أحضرت البنت.

كان لويجى قد نسى الموضوع. كان مقررًا لهما أن يلتقيا فى ذلك المساء. وفى ضوء ارتباكه الشديد نسى الرجل موعد اللقاء.

أعاد لويجى البندقية إلى مكانها.

ضغط لويجى على الزر وانفتح الباب الذى فى الدور الأرضى. هذا يعنى أن الاثنتين ستكونان هنا فى غضون دقيقتين. لم يكن لديه رغبة فى

عمل أى شئ فى هذه اللحظة. ماذا يفعل وهذه المتاعب المالية تتدلى من عنقه كما لو كانت طائرًا من طيور النورس. كان الرجل قد عمل حساباته على أن الصفقة سوف تنتهى فى هذا اليوم. وكان ذلك هو السبب الذى دفعه أن يطلب إلى المرأة النيجيرية ترتيب هذا الشئ. فكر الرجل فى استقبالهما ثم إرسالهما لحال سبيلهما. لم يكن حاله النفسى يسمح بمثل هذه الأشياء الحسية الجسدية.

نهض لويجى واقفًا وراح يفتح الباب. وبهذه الطريقة يمكنهما الدخول عندما تصلا إلى الطابق الذى يسكن هو فيه. سوف تتاح له بضع ثوان ينظر خلالها إلى الفتاة. إذا كانت مناسبة، يمكن...

دخلت تايو مكتب لويجى ودخلت بعدها بنت صغيرة السن جدًا، لا يمكن أن يزيد عمرها على أحد عشر عامًا بأى حال من الأحوال... أما أن هذه البنت صغيرة جدًا فى السن، أم أن هذا ناتج عن سوء التغذية. لقد بلغه أن المعاناة كثيرة فى بلادهم إلى حد أن ذلك يؤثر على نمو البشر هناك. كانت البنت تبدو متهالكة لكن لها وجه جميل، وجه ملائكى. كانت البنت شقراء المحيا والبشرة. وكانت تبتسم ابتسامة توحى بالخجل وهى تنظر إلى الأرض. كانت لتلك الفتاة غمازتان كانتا تظهران فى طرفى خديها عندما كانت تبتسم.

" مرحبًا، يا تايو ".

" مرحبًا بك ".

" كيف حالك ؟ "

" بَيْنَ بَيْن ".

قدمت تايو رفيقتها ". هذه هى آيريتى Ireti. لقد وصلت من نيجيريا الأسبوع الماضى فقط. وها هى جاءت معى للسلام عليك ". ثم سألته تايو بالإيطالية، " هل أعجبتك ؟ "

سألها " كم عمرها ؟ " يبدو أنها صغيرة جداً.

" قلت لك، إنها لم تصل بعد إلى الثانية عشرة من عمرها، إنها شئ خاص. هى أيضاً عذراء. هذا حسب طلبك أنت ".

تردد لويجى. لقد دفع أربعة ملايين ليرة فى آخر مرة جاءت إليه هذه المرأة تايو، بفتاة عذراء. كانت تايو من النوع الذى يساوم كثيراً. لم يكن معه هذا المبلغ حتى يبدده بهذه الطريقة فى هذا الوقت بالذات. التجارة لم تكن رائجة مثلما كانت من قبل. صحيح أن الحال سيئ. لكن هذه البنت تعد فرصة جميلة. كانت البنت رشيقة ولها أرداف عريضة. كما كان ثدياها، وهما بلا صدرية، يتمردان على البلوزة الضيقة التى كانت ترتديها. وهاتان هما حلمتا ثدياها تبدوان واضحتين من تحت البلوزة.

همس لويجى وحلقه جاف " كم تطلبين ؟ " وعلى الفور أحس لويجى بعضوه يعاود الحياة متمدداً. لم يتمكن من مقاومة تلك الأشياء الصغيرة. هذه الأشياء الصغيرة كانت على العكس تماماً مما لدى

زوجته متجعدة البشرة التى فى منتصف العمر. كان صدره ينشرح لكل ملامح هؤلاء الملائكة السود، بشرتهن المتماسكة، لون البشرة نفسه، رائحتهن، خفة حركتهن. كما أنهن أرخص من الاحتفاظ بعشيقة إيطالية. فى بداية الأمر كان لويجى يتردد على المكان الذى تقف فيه البنات السوداوات. لكن هذه العملية كانت تنطوى على بعض المخاطر. نظرًا لأن سيارته كانت معروفة للجميع، فضلاً عن أنه لم يكن يعرف من يا ترى الذى يمكن أن يمر على ذلك المكان. كان لويجى قد التقى تايو فى إحدى الليالى وأبرما سويًا هذه الصفقة.

سوف تطلبه عندما تجىء نوعية أخرى من البنات. وسوف تختار له أفضلهن. وكان ذلك الاختيار ينصب على صغيرات السن تمامًا. كان من عادة الرجل اختراع اجتماع خيالى أو وهمى، ويصحب البنت إلى موتيل من الموتيلات ؛ ليقضى فيه أمسية ممتعة جميلة، يفض فيها بكارة البنت. وقد قام الرجل مؤخرًا باستئجار شقة من غرفة نوم واحدة، فى ضاحية من ضواحى البلدة. لم يخبر زوجته بذلك. وراح يزين هذه الشقة بديكورات جميلة، وملأها بالمشروبات والأطعمة المعلبة. كما وضع فيها جهاز تليفزيون، وجهاز عرض أسطوانات، ويجرى التحكم فيه عن بعد. كما كانت هناك أيضًا بعض أفلام الفيديو الزرقاء (الجنسية) موضوعة على الرفوف. الآن هو يأخذ البنات إلى هذه الشقة فى الوقت الذى يناسبه هو.

سألها، " كم ؟ "

ترددت تايو Tayo. فى المرة الأخيرة التى أحضرت فيها بنتًا أعطاها السيد لويجى أربعة ملايين ليرة إيطالية. كانت تتمنى الحصول على مبلغ أكبر ". اسمعنى، هذه الفتاة عذراء، وأنت أول إنسان يضاجعها. وهى خالية من الأمراض. وليست مريضة بالإيدز. ولا داعى لاستعمال الواقى الذكرى. ستكون مرتاح البال. انظر إلى صدرها، كم هو قوى، كم هو كبير الحجم. أنثى بحق وحقيقة، سوف تتمتع بهذا كله. ويمكنك الاحتفاظ بها مدة أسبوع ".

" هل أنت متأكدة من أنها لم تمس ؟ "

هنا راحت تايو تتكلم بلهجة محلية مع الفتاة. وأومأت البنت برأسها علامة الموافقة. ثم بدأت البنت ترقد على الأرض. ورفعت ملابسها إلى وسطها.

حثت تايو الرجل الأبيض " تحسس أنت بنفسك هذا الموضع، تحسس لترى أنت بنفسك ".

تساءل لويجى ثانية، " كم ؟ " وقلبه تزداد ضرباته، وشفتاه تجفان، ومشتاق بشكل كبير.

" خمسة ملايين ليرة إيطالية ".

" آسف أنا لا أستطيع دفع هذا المبلغ " قالها بالإيطالية.

" اسمع يا أنت، أنا ألاقى أخطارًا كبيرة فى إحضار هذه البنات إلى هنا فى الوقت الراهن. العملية تكلفنى الكثير جداً. لقد دفعت خمسة

آلاف دولار نظير هذه البنت، فى جواز السفر، والتأشيرة، والتذكرة، والأمور الخاصة بالهجرة، كل هذه الأمور باهظة التكاليف ".

كرر لويجى، " آسف لا أستطيع دفع هذا المبلغ ". لم يكن بوسعه فعلاً دفع هذا المبلغ. يا ليت الصفقة النيجيرية تمت. لو حدث ذلك لطلب فتاتين بدلاً من واحدة.

" كم تود أن تدفع ؟ "

" مليونا ليرة إيطالية ".

راحا يتساومان بالإيطالية، فى حين كانت البنت آيريتى Ireti تراقبهما، دون أن تفهم ما يدور بينهما. جلست البنت على الأرض مرة ثانية ولم تقل شيئًا، وراحت تنظر عجبًا واندهاشًا إلى الديكورات التى على الجدران. كانت عمتها (معلمتها) قد أخبرتها أن تذهب بصحبتها إلى واحد من الزبائن وأن تكون لطيفة مع ذلك الرجل. كانت البنت قد جلست فترة طويلة فى وعاء به ماء مضاف إليه محلول الشبه. لم تكن البنت عذراء. لقد ضاجعها عدد كبير من الزبائن مرات عديدة عندما كانت تبيع الفول السودانى المسلوق فى شوارع ليجوس. لكن مع استعمال الشبه تحولت البنت إلى عذراء من جديد. سيكون لويجى الزبون رقم اثنان الذى تحضر له تايو هذه البنت. وسوف تجلس هذه الفتاه، كما هى عادتهن جميعًا، فى محلول الشبه قبل أن تخرج للعمل.

أخيرًا توصلت عمتها إلى اتفاق مع الرجل الأبيض يدفع بمقتضاه مبلغ أربعة ملايين ونصف المليون ليرة. وصف لويجى محطة الحافلات

التى ينبغى أن تصحب تايو إليها هذه البنت. وأنه سوف يحضر ليأخذ أَيريتى Ireti من هناك. ويمكن للعمة (المعلمة) الاتصال به بعد أسبوع ليقول لها عن المكان الذى يمكن أن تأخذ منه البنت. ذهب إلى أحد أدراج مكتبه وعد منه مبلغاً.

قال : " هذان مليونان. ستحصلين على الباقى إذا ما ثبت أن هذه البنت عذراء . احضرى المزيد من البنات. لدى بعض الأصدقاء الذين يرغبون فى هذه النوعية من البنات ". أنهى لويجى كلامه وهو يغمز بعينيه للبنت الصغيرة. وابتسم ابتسامة عريضة، وراح يربت على أرداف البنت، لكن مشكلاته المالية مازالت معلقة.

الفصل العاشر

تنقسم هيئة العاملين فى أية بعثة من البعثات الدبلوماسية إلى فئتين أساسيتين، المجموعة العاملة الرئيسية، والمجموعة المحلية. هيئة العاملين المحليين يجرى استخدامهم ويشكلون هيئة الموظفين الملحقين. وهم يشغلون مناصب أو وظائف الكتبة، والسكرتيرين، وأفراد الأمن، والسائقين وعمال النظافة. أما المجموعة العاملة الرئيسية فهى تلك الجماعة التى يأتيها أفرادها من الوطن. وأفراد هذه المجموعة يتمتعون بشئ من الحصانة. البعض منهم قد يصلون إلى مناصب السفراء.

الفارق الرئيسى بين هاتين الجماعتين يتمثل فى أن الدبلوماسيين عادة ما يعودون إلى الوطن عند انتهاء جولتهم - أى بعد ثلاث سنوات فى معظم الأحيان. أما مجموعة العاملين المحليين فيبقون فى وظائفهم نظرًا لأنهم يكونون قد خرجوا من أوطانهم وجعلوا من الدولة المضيفة وطنًا ثانيًا لهم. هذا يعنى أن السواد الأعظم من هؤلاء العاملين المحليين يعيشون فى البلاد التى يكونون فيها مددًا قد تزيد على العشرين عامًا ولا تقل عن اثنى عشر عامًا. البعض من هؤلاء الموظفين المحليين قد يتزوجون من أجنبيات إيطاليات، أو فلبينيات، أو سنغاليات، أو غانيات ؛ أى أناس من أمثالهم يعيشون على أرض أجنبية.

عدد كبير من هيئة العاملين المحليين فى البعثة النيجيرية فى ميلانو يلتحقون بالجامعات الأسقفية التى تنشئها الكنيسة الكاثوليكية لإعداد قساوستها. عادة ما يكون التعليم متديناً فى هذه الجامعات كما يكون مرناً أيضًا. بهذه الطريقة يستطيع هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء أيضًا دراسة الشرائع، واللاهوت، والفلسفة، والزواج، ويقدمون أطروحات قيمة، تسخر عناوينها من تعليم الدرجة الثالثة.

هذا هو الدكتور يودوفيا Udofia، على سبيل المثال له أطروحة لدرجة الدكتوراة، عن مكانة ثمرة الكولا فى ثقافة الأجبو. الدكتور يودوفيا تخرج فى جامعة القديس جيمس. وهذا هو دوتوريسا Idotoressa مجبوجى Mgbojl قدم بحثًا عن عيد اليام الجديد عند قبيلة الأجبو، وقدم هذا البحث لجامعة إيريان Urban، وهنا شخص آخر قدم رسالة عن أهمية نبيذ النخيل فى الإقليم الغربى السابق من نيجيريا، وقد تقدم بهذه الأطروحة لجامعة إبيسكوبال Episcopal فى ميلانو. أما مسألة تقديم هذه الأبحاث على احتياجات نيجيريا فى التنمية فأمر غير واضح. فى معظم الأحوال كانت عناوين الأطروحات غريبة وعجيبة على المحاضر المشرف على الأطروحة، إلى حد أنه لم يكن يستطيع تبين هذا من ذاك فى هذه الأمور. كان المشرف يعطى للطالب تقدير مقبول، وهذا التقدير معروف فى الجامعة بأن يعنى " دع الناس يذهبون إلى حال سبيلهم ". عند التخرج، بعد أربع سنوات من الدراسة، يحصل الطالب على لقب دكتور Dottore إن كان ذكرا ودكتورة Dottoressa إن كانت أنثى. والويل والثبور لكل من لا يناديهم بهذه الكنية.

من سوء الطالع أن الدراسات الأسقفية يجرى تفصيلها طبقًا لاحتياجات الكنيسة الأم. الناس العاديون الذين يلعبون دوراً مهمًا فى الكنيسة والذين يجدون أنفسهم مسلحين بشهادة أسقفية، لا يجدون فرص عمل مجزية خارج المنظومة الكاثوليكية. وهذا هو السبب وراء بقاء هؤلاء الناس فى إيطاليا والدخول إلى ميدان تجارة التجزئة، أو البحث لأنفسهم عن أعمال مؤقتة ضمن هيئة العاملين المحليين فى السفارات والمنظمات الدولية.

فى بعض الأحيان تحدث بعض التوترات بين هاتين الفئتين فى السفارات، جراء الدرجات العلمية الطنانة التى يتطلب الحصول عليها إقرار هيئة العاملين صغار السن، أو إن شئت فقل : الشباب من هؤلاء الموظفين.

وهذا شجار دائم ينشب بين سكرتير ثالث يحمل شهادة الليسانس، يسوق له سيارته شاب يحمل درجة الدكتوراة ؛ وهناك أيضًا ملحقة إدارية، لا تحمل درجة جامعية ترأس كاتبتها *التى* تحمل درجة *الدكتوراة*.

قام *القنصل* ببعض *الأبحاث* وحاول تفسير *الأمر* لرفاقه :

" ما عليكم منهم. الإيطاليون لا يصلون إلى مستوى الجامعة بشكل عام. وإذا ما أفلح واحد منهم فى الوصول إلى مستوى الجامعة، فإن مسألة حصوله على لقب دكتور إن كان ذكرًا أو دكتورة إن كانت أنثى، تعد أمرًا هائلاً عند هؤلاء الناس. ما عليكم منهم فإن هذا اللقب لا يرقى

إلى درجة الدكتوراة التى تمنحها الجامعات النيجيرية. هذه الدكتوراة الإيطالية تساوى عندنا درجة الليسانس أو البكالوريوس، كما أنها لا ترقى حتى إلى درجة الماجستير التى تمنحها جامعاتنا. وعلى حد قول مدرسين فى تلك الأيام " " الدكتور فى إيطاليا حمار فى ألمانيا ". Doc-torus Romanus Donkeys Germanus.

ما يزال التوتر قائمًا بين هيئة المجموعة العاملة الرئيسية والمجموعة المحلية. بعض العاملين المحليين كانوا يتقاعسون فى تنفيذ التعليمات التى تصدر لهم من الدبلوماسيين، فى حين كان بعض آخر منهم شديد الوقاحة. وقد فصل القنصل واحداً من هؤلاء العاملين المحليين لعدم الانصياع للتسلسل الوظيفى. والآن ونظرًا لبروز بعض آخر من هؤلاء الموظفين المحليين ؛ فإن الاحتكاك ما يزال قائمًا بين الفئتين.

هناك خاصية مميزة فى هيئة العاملين المحليين فى مكتب القنصلية العامة لنيجيريا فى ميلانو، مفادها أن معظم هؤلاء العاملين كانوا بصحبة بعض الدبلوماسيين الذين خدموا فى ميلانو وجرى استدعاؤهم منها. هذا يعنى أن هؤلاء العاملين المحليين كانوا حرأسًا وأطفالاً كبارا لأولئك الدبلوماسيين الجدليين الذين كانوا فى ميلانو. عشية استدعاء هؤلاء الدبلوماسيين كانوا قد رتبوا لتوظيف أقاربهم ضمن كادر هيئة العاملين المحليين، وذلك من باب توطين هؤلاء الأقارب فى إيطاليا. ومن المرجح بل ومن العادى تمامًا أن تجد طباخًا / أو رئيس خدم مع قنصل سابق قد تحول إلى رجل أمن فى القنصلية، كما نجد أيضًا ابنه ملحق إدارى سابق، تحول إلى كاتب فى قسم التأشيرات.

ونظرًا للفجوة الكبيرة بين مرتبات الدبلوماسيين والموظفين المستخدمين محليًا، فإن هؤلاء الموظفين المحليين يحاولون المعارضة هنا أو هناك. هذا يعنى دخول هؤلاء العاملين فى صفقات التربح وعقد الصفقات وطلب الرشاوى نظير الخدمات التى يؤدونها.

وهذا يحتم على الموظف الذى يشرف على هؤلاء الموظفين أن يكون يقظًا. لكنه لم يكن ينجح دومًا. فى بعض الأحيان يكون إغراء المال شديدا إلى حد يجعل هذا المشرف يتستر على هؤلاء الموظفين المحليين عندما يتقاضون مبالغ إضافية، بل ويطلبون نقودًا نظير الخدمات التى يؤدونها.

وجود عدد كبير من النيجيريين فى إيطاليا يعنى زيادة انشغال القنصلية. كان الكثيرون يتوافدون على القنصلية لاستخراج وثائق متباينة، وتوثيق بعض المستندات والشهادات التعليمية الحاصلين عليها من نيجيريا. كان كثيرون يتوافدون أيضًا على القنصلية طلبًا لتجديد جوازات سفرهم أو استخراج جوازات جديدة. بعض آخر يجيئون إلى القنصلية لإضافة أسماء مواليدهم إلى جوازات السفر، كان البعض يذهبون إلى القنصلية طلبًا للتصريح لهم بالزواج. بعض آخر من النيجيريين كانوا يذهبون إلى القنصلية طلبًا للتأشيرات وتسجيل شركاتهم. كانت القنصلية فى ميلانو والسفارة فى سان مارينو بمثابة خليتين من خلايا النحل. من هنا كانت فرص الإثراء والتربح عالية جدًا، ومغرية.

السواد الأعظم من النيجيريين الموجودين في إيطاليا وفدوا عليها عن طريق " الباب الخلفي "، على حد قول السفير، أي بدون مستندات صحيحة أو شرعية. الكثيرون منهم سافروا بمستندات سفر مزورة، وتحقيقات شخصية مزيفة. ومن أجل تمرير هذه الأوراق والمستندات المزيفة، كان الكثيرون من المتقدمين لطلب الخدمات القنصلية على استعداد لدفع رشاوى باهظة، لهيئة العاملين في البعثة الدبلوماسية. يزاد على ذلك أن حراس الأمن أنفسهم الموجودين على البوابة كانوا يأخذون " شيئًا ما " في بعض الأحيان، قبل أن يسمحوا بدخول طالب الخدمة. وتحول الكثيرون من هؤلاء العاملين إلى كتَّاب طوارئ للتعجيل بإنهاء طلبات المومسات الجاهلات اللاتي كن يترددن على القسم القنصلي. أنشأ مزوِّرو الوثائق لأنفسهم محلاً بالقرب من القنصلية، ليقوموا بتقديم البديل للمتقدمين الذين يفشلون في الحصول على ما يريدون. يزاد على ذلك أن البائعين الجائلين الذين يبيعون الطعام النيجيري في سيارات الفيات الإيطالية يحتلون المواقف المحيطة بمقرات البعثات الدبلوماسية. ويتربحون من هيئة العاملين في السفارة وزبائنهم النيجيريين.

وصلت إلى السيد يوفت Ufot شكاوى مُجهَّله عن الفساد المنتشر في البعثة. وأصدر الرجل تحذيرات للعاملين بناء على هذه الشكاوى. ومع ذلك كان الرجل يعرف أن القضاء على هذا الفساد قضاء أمير ما أمر غير ممكن. ونظم الرجل خطة للتنقل بين الأقسام المختلفة لمنع أو التقليل من ذلك الفساد المزعوم، في أضعف الأحوال.

جرى جمع هيئة العاملين فى المجموعة الرئيسية فى غرفة مؤتمرات القنصلية كان اليوم يصادف يوم الجمعة. وكانت البعثة مغلقة ولا تتعامل مع الجمهور. وبينما كانت المجموعة تنتظر وصول السفير لحضور الاجتماع، راحوا يتبادلون أطراف الحديث مع بعضهم البعض، ويطلقون النكات على بعضهم البعض. هذا واحد يثرثر فى هاتفه المحمول. وهذا آخر يقرأ فى صحيفة محلية مضى يومان على صدورها وجاء بها أحد الزائرين. وكان هناك طابور ينتظر قراءة هذه الجريدة.

ذكّر الملحق التجارى المجتمعين " ليس هناك داع لعمل طابور لقراءة هذه الجريدة. يا سادة، بوسعكم الوقوف على الأخبار كلها من خلال شبكة الاتصالات الدولية (إنترنت). اصحوا، كونوا عصريين ".

أبدى أحد الحاضرين ملاحظة مفادها، " شبكة الاتصالات الدولية ليس فيها مكان للوفيات. وصفحة الوفيات واحدة من أهم صفحات الجريدة النيجيرية اليومية ". قال السيد أواك Awak "بعض الناس متخصصين فى قراءة تلك الصفحة فى حال عدم إلمامهم بمثل هذه الأخبار ". كان السيد أواك مستشارًا أولاً وكان مسئولاً أيضًا عن التأشيرات.

قال الذى يقرأ فى الجريدة : " لقد عاد التيف Tivs والجوكون Jukuns إلى الاقتتال مرة أخرى ".

" الأمر ليس مقصورًا على التيف والجوكون وحدهم وماذا عن الهوساويين وعن الايف Ife، والموداكيكى Modakeke؟ وماذا أيضًا عن

الهوساويين والجنوبيين في أعالي الشمال ؟ إنها حروب مصغرة، حروب قبلية ؛ الحروب في سائر أنحاء البلاد. أنا أتعجب إلى أين يتجه هذا البلد ؟ "

ما يحيّرني هو أن هؤلاء القوم يتزوجون من بعضهم البعض. والذي يؤلمني حقًا هو تجارؤ هؤلاء الناس على قتل أنسبائهم. ونحن في المكان الذي انتسب إليه، لا نقاتل أنسباءنا. لو حدث ذلك، فإنهم سوف يسحبون بناتهم. كان ذلك تعليق السيد أوكوره Okoroh.

"ماذا تفعل لو أن جارًا من جيرانك اغتصب منك أرض الأسلاف ؟ هل تسمح له بذلك لأنك تضاجع أخته أو ابنته ؟ "

" يا رجل، يتعين علينا ألا نتصرف تصرف السوقة. نحن نقوم بإرسال وفد، وفد سلام "...

" سيقتلون وفد " سلامك " Piss(*) هذا. أنت لا تعرف هؤلاء الناس ".

" خذ على سبيل المثال اللواءين باجودا Bagauda ونيارو Nyaro. نحن نعرف يقينًا أنهما متزوجان من بنتين من بنات الجنوب، أو من الأجبو إن أردت التحديد. ما هو إحساسهما عندما يشاهدون إخوانهم وهم يقتلون ويشوهون التجار الأجباويين في أعالي الشمال ؟ يتعين عليهما أن يكونا أول من ينادي بالنظام، أو السلام، بين الأخوان ".

(*) هذا تهكم من جانب المؤلفة فهي تستعمل Piss التي معناها " يبول " مكان كلمة Peace التي معناها " السلام " (المترجم).

" وعليه طبقًا لنظريتك، فإن الأجباويين يتعين عليهم سحب بناتهم. وعندها يتوقف العنف. أنا آسف لهذا الكلام. هذا كلام غاية فى السذاجة. لن يفيد هذا الإجراء ".

" مسألة الأنسباء هذه كانت سائدة فى زمن " الأشياء تتداعى(**) ". فى المجتمع القبلى، الأبوى، المتجانس، الذى يعتنق دينًا واحدًا، وتقاليدًا واحدة، وله تاريخ واحد. لكن المجتمع النيجيرى يذهب إلى ما بعد هذه المرحلة. حاليًا الدين هو العامل المسيطر. والدين هو الذى يحدد الموقف من المشكلات ".

" الناس يقتلون ويشوهون باسم الدين ! ألا ينطوى ذلك على شئ من التناقض ؟ أليس ذلك تضاد وتضارب ؟ "

" الدين، يا أمى، ليس وحده هو المسئول. بين الايف Ifes والمداكيين، نجد أن الخلاف على الدين لكن ماذا عما بين التيف Tivs والجوكونيين؟ Jukuns؟ هناك مشكلات كثيرة ؛ مثل انعدام الثقة، الخوف من السيطرة والهيمنة. السياسيون هم الذين يبذرون بذور الصراع هذه، بغية الإساءة إلى الحكومة المركزية والتقليل من شأنها ".

(**) الأشياء تتداعى : رواية، تعد درة من درر الأدب الإفريقى، وهى من تأليف شنوا أتشيبى، وقد ترجمتها إلى العربية الدكتورة / إنجيل بطرس. (المترجم)

" انظر إلينا هنا، ونحن من قبائل مختلفة، من أجزاء مختلفة من البلاد، نعيش فى سلام ونعمل فى سلام أيضًا. لماذا لا يكون المجتمع الأكبر على هذا الحال ؟ "

" الحال ليس على هذا المنوال فى بعض السفارات الأخرى، وعليه يجب ألا تقيس على ما يجرى هنا فى هذه السفارة. السياسات القبلية تعمل عملها فى بعض البعثات الدبلوماسية الأخرى. هناك حرب باردة دائرة بين الناس فى البعثات الدبلوماسية. بعض الموظفين ليسوا على وئام مع رفاقهم وزملائهم، أو مع سفرائهم. وعليه يجب عدم استعمال البعثة الدبلوماسية مقياسًا تقيس عليه ".

" الحكومة تتصرف تصرفًا طيبًا عندما تجعل البعثة الدبلوماسية مكونة من موظفين يجيئون من أجزاء مختلفة من البلاد. هذا العمل يدعم الوحدة، والتآلف ".

" لا داعى لكل هذه الثقة. الدبلوماسى يكون مسالمًا طالما هو على ما يرام من الناحية المالية. الدبلوماسى عندما يعود إلى الوطن، ليصبح بين شعبه، ويعيش مظاهر الإفلاس، أو الضيق المالى على حد قول الناس، لا يمكن لنا أن نتنبأ بما يمكن أن يفعله. هذا يعنى أن الفقر، والبطالة، والجوع هى سبب المتاعب التى نواجهها فى هذا البلد. الجوعان يكون دائمًا غضبان، ومحارب قبلى ".

" أنت محق فيما تقول. السياسيون يستغلون العاطلين من الشباب فى بذر بذور الفوضى والإساءة إلى الحكومة ".

" اسمح لي، أود أن أعيدك إلى مسألة أنت أثرتها. أنت تقول إن الدبلوماسيين على ما يرام من الناحية المالية. وإن هذا هو السبب وراء مسالمتهم للحكومة. كم تتقاضى أنت هنا ؟ هل تعرف ذلك الذى تدفعه أمريكا لدبلوماسييها ؟ يتعين عليك أن تعترف بفضل كونك واحداً من العاملين ضمن الخدمة الخارجية فى أكبر الدول الأفريقية وربما أكبر دول العالم. المال ليس كل شئ. تأمل ذلك التعرض والاحتكاك الذى يحصل عليه أبناؤك. هل بوسعك تمويل هذا التعرض والاحتكاك ؟ "

" هل يقتصر الأمر على أولاده فقط ؟ وماذا عن نفسه هو ؟ أليس عمله فى وزارة الخارجية هو الذى مكنه من تنفس هواء مطار مرتالا محمد، وأعطاه أيضًا فرصة العمل فى الخارج ؟ "

راح الدبلوماسيون يتبادلون النكات مع بعضهم البعض فى سائر أنحاء صالة الاجتماعات. كان الكثيرون منهم يتكلمون فى آن واحد.

" وماذا عنك أنت نفسك ؟ هل كان بوسعك تنفس هواء ليجوس لو كنت من غير العاملين فى وزارة الخارجية ؟ ألا تعلم أنه لولا عملك فى وزارة الخارجية لبقيت ضمن شاربى نبيذ النخيل مثل أسلافك الذين سبقوك ؟ ومع ذلك، فإن أطفالنا يدفعون الثمن. ولعلك تقف على عدم انتظام تعليمهم ".

" صحيح أن لك الخيار فى ترك أبنائك فى نيجيريا ليواصلوا تعليمهم. وصحيح أيضًا أن الحكومة كفلت لك ذلك. وما عليك إلا أن تقرأ قواعد الخدمة المدنية، وقواعد ونظم الخدمة فى وزارة الخارجية ".

" لقد تعهدت الحكومة بذلك وكفلته لك، وهذا صحيح. لكن هل هناك بديل غير ذلك في واقع الأمر ؟ حاول أن تتدبر حال التعليم في بلادنا. انظر إلى مدارسنا، والحال التي هي عليه. من ذا الذي يمكن أن يترك أطفاله وراءه في الوقت الذي لديه خيار تنشئة هؤلاء الأطفال وتربيتهم خارج البلاد ؟ أعيان البلاد وكبارها يوفدون أبناءهم للتعلم خارج البلاد. لماذا أترك أطفالي ورائي يعانون ويقاسون في الوطن ؟ ما أقوله هنا هو أن الحكومة عندما تجرى حركة التنقلات يجب أن تأخذ بعين اعتبارها توقيتات العام الدراسي. هذا هو الحد الأدنى من مطالبنا.... "

" يا صديقي، أنت تطالب بالكثير. يجب علينا أن نعدد النعم التي أنعم الله علينا بها في هذا البلد. كل ما تفعله الحكومة يدخل في نطاق الأعمال السيئة إذا لم يكن لصالحنا ومحاباتنا. نحن لا يمكن أن نكون دومًا في موقع الرابح. يجب ألا يغيب عنك ذلك الذي قاله ذلك السياسي الأمريكي الكبير لزملائه: لا تقل ما الذي أعطاني بلدي إياه، وإنما قل : ما الذي أعطيه أنا لبلدي. أو قول جون فوستر دالاس : بلدي وإن كان مخطئًا أم مصيبًا "....

" هو يقول : ' الحكومة فعلت هذا. الحكومة فعلت ذلك. ' أما أنا فأسأل من هي الحكومة ؟ اسمحوا لي أن أقول لكم : إننا نحن الحكومة. كل واحد منا هنا جزء من الحكومة النيجيرية. وعليه إذا ما حدث خطأ فلابد من أن ينظر كل واحد منا في المرآة. والشخص الذي تراه ربما يكون هو المخطئ ".

جـ

" يا صديقى، يجب ألا ينطلى عليك هذا الجدل. أنا موظف. إذا ما استُدعيت فى منتصف العام الدراسى، دون أخذ تعليم أبنائى بعين الاعتبار، فكيف يمكن أن أكون أنا المخطئ ؟ "

" أنت حرفى إلى حد بعيد. ما يعنيه هذا الزميل هو أن زملاءك فى الوطن، فى مقر وزارة الخارجية، هم الذين يصنعون السلَّة، على حد قول الناس، أى أنهم هم الذين يتآمرون من أجل عودتك فى منتصف العام الدراسى، وعليه يمكن أن يحلوا هم محلك ".

" شكرًا لك يا أخى. هذا تفسير صحيح. بعض الناس تخرجوا فى الجامعة دون أن يستفيدوا منها شيئًا ".

" تواصل الجدل، وتواصلت النكات والمداعبات أخذًا وعطاءً. وبينما كان الدبلوماسيون ينتظرون مجئ رؤسائهم، ناقشوا الكثير من المشكلات المتعلقة بوطنهم الأصلى. وهذا هو الدبلوماسى الذى يقرأ فى الصحيفة، يختار خبرًا مثيرًا للجدل ويقرأؤ فيدور من حوله جدل كبير. وهذه قضية صافية Safiya حسين يدور الجدل والنقاش حولها. صافية هذه، فتاة مسلمة حكم عليها بالموت رجمًا بالحجارة لاقترافها كبيرة الزنا. ودار كثير من الصراخ والصياح حول هذا الموضوع فى إيطاليا، وانهالت على القنصلية خطابات الاحتجاج من كل حدب وصوب. جرى إرسال ما يزيد على خمسين ألف رسالة احتجاج على عنوان صندوق بريد البعثة الدبلوماسية، الأمر الذى أحدث نوعًا من الشلل فى منظومة البريد ".

" الإيطاليون مرتبكون. هم لا يستوعبون مسألة إعدام امرأة حملت سفاحًا وهي من بلد يصدر المومسات إلى إيطاليا ".

كانت القنصلية النيجيرية نفسها تقع في فناء مبنى قديم في بوسيني Puccini في الحي التجاري الرئيسي في مدينة ميلانو. كانت القنصلية تشغل الطابقين الأول والثاني بكاملهما. كان هناك موقع من مواقع الأمن عند المدخل الرئيسي المؤدي إلى المكاتب. كان المكان ضيقًا. كانت البعثة قد قدمت عرضًا لأبوجا Abuja للسماح للبعثة بشراء عقار لإسكان السفارة. كانت القنصلية قد عثرت على بناية مناسبة لكن أبوجا لم تعط البعثة الدبلوماسية بعد الضوء الأخضر. كانت البعثة تنتظر الرد. وعلى الرغم من إرسال الكثير من الاستعجالات إلا أنها لم يصلها أي رد على تلك الاستعجالات من المقر الرئيسي لوزارة الخارجية. كان السفير قد أوضح وحذر من أن هناك عددًا كبيرًا من المشترين يودون شراء العقار نفسه. كانت البعثة الدبلوماسية قد ضاعت منها فرصة شراء العقار المجاور لمسرح أسكالا Scala بسبب البيروقراطية. ودعى السفير ألا يضيع منه هذا العقار مثل سابقه.

كانت هناك بعض الدلائل على أن موافقة أبوجا كانت في طريقها إلى البعثة الدبلوماسية. ومنذ تولى الرئيس أوباسونجو منصب الرئاسة النيجيرية للمرة الثانية، بدأ يتضح أن الحكومة تحبذ شراء العقارات بدلاً من دفع مبالغ باهظة نظير الإيجار. هناك تقرير يقول : إن وزارة الخارجية دفعت ما يزيد على خمسمائة مليون نيرة كل عام على سبيل

الإيجار لعقارات الدبلوماسيين فى الخارج. أما الآن فقد أصدرت الحكومة الفيدرالية توجيهات بأن يجرى فى الخارج شراء مقرات البعثات الدبلوماسية، ومساكن رؤساء البعثات الدبلوماسية،هى ومساكن العاملين الرئيسيين فى سائر أنحاء العالم على أن يتم ذلك بصورة تدريجية.

وصل زائر مسئول من أبوجا. وطوال فترة الصباح كان الزائر يتناقش مع كل من الوزير والقنصل حول هذا الموضوع. كان رئيس البعثة الدبلوماسية قد أصدر منشورًا دوريًا يفيد أن الزائر يود الاجتماع إلى هيئة العاملين الرئيسيين الدائمين.

عندما اقتاد القنصل كلا من السفير جدسون **Godsonn** والزائر إلى مكان الاجتماع، اندهش الموظفون الحاضرون عندما عرفوا أن الزائر كان واحدًا من ضباط الشرطة. كان هؤلاء الموظفون يظنون أن هذا الزائر مسئول كبير من مسئولى وزارة الخارجية. نهض الحاضرون من أماكنهم لتحية الوفد والترحيب به. وقبل أن يعود الموظفون إلى الجلوس على مقاعدهم، استدعى سيادته واحدًا من العاملين المسيحيين ليدعو بدعاء الافتتاح. على أن يقوم أحد المسلمين بالدعاء بدعاء الختام.

" أيها السيدات والسادة، سيكون اجتماعنا هذا وجيزًا. أنا أعرف أنى قلت فى المرة الأخيرة أننا أنفقنا ما يزيد على أربع ساعات فى المناقشات. ومع ذلك، سيكون اجتماعنا هذه المرة وجيزًا. يوجد بيننا اليوم مفوض الشرطة كورما **Kurma**، من قوة الواجب الخاصة بمكافحة

الاتجار فى البشر فى المقر الرئيسى لوزارة الداخلية فى أبوجا. وسوف يقدم لكم نفسه خلال دقيقة واحدة، ويعلمكم بالمهمة المكلف بها هنا. مرحبًا بك، يا سيادة المفوض".

رد المفوض التحية بإيماءة برأسه وابتسامة عريضة، كشفت عن أسنان زائدة فى فمه، تتزاحم بعضها مع بعض على المكان.

" اسمح لى أن أقدم لك الموظفين قبل أن نواصل اجتماعنا. هذا هو السيد يوفت Ufot وقد سبق لك أن التقيته، والسيد يوفت وزير مفوض، وهو المسئول القنصلى الرئيسى هنا، أو إن شئت فقل القنصل العام. كما تعلم، أنا بحكم كونى سفيرا، أقيم فى العاصمة. والسيد يوفت Ufot هو المسئول هنا، وهو يرسل لى التقارير فى سان مارينو. وأنا أزورهم هنا فى ميلانو بين الحين والآخر، كيما أتأكد أن كل شئ على ما يرام. يجئ السيد أوكوره Okoroh بعد السيد يوفت. وهو مستشار بدرجة وزير الجوازات. وهو الذى يصدر الجوازات ويجرى التغييرات المطلوبة لها – مثل التجديدات، إضافة المواليد، وتغيير الاسم إلخ. ويجئ السيد أواك Awak بعد ذلك، وهو بدرجة مستشار أول، ومسئول عن التأشيرات والتعليم. والسيد يوسمان Usman مستشار الرفاهة. السيدة أوسند Osunde هى العضو المسئول عن التهريب فى مجال المخدرات والبشر، فى حين تقوم السيدة حرم توماس Thomas، التى تشغل منصب سكرتير أول، بمسئوليات الشئون التجارية. أما السيد أنجبا Angba فهو الملحق أنّ المالى. ويسعدنى القول أن الموظفين كلهم يجيدون استعمال الحاسب

الآلى. هذا يعنى أنهم يكتبون تقاريرهم السرية بأنفسهم. أما الموظفون المحليون فيقومون ببقية الأعمال. وأنت ترى، أن هذه البعثة صغيرة الحجم، إذا ما قارناها بقنصلياتنا فى كل من نيويورك، لوس أنجيلوس، أو ليفربول. لكن العمل الذى تقوم بها هنا كثير ومتعب ".

" أيها السيدات والسادة مفوض الشرطة موجود بيننا اليوم لمناقشة المشكلة الدائمة لبناتنا اللاتى يجلبن عنوة إلى إيطاليا لممارسة الدعارة. وأنا أعطيه الكلمة حتى تسمعون منه بأنفسكم تفاصيل هذا الموضوع من فم الحصان ".

" أشكرك، يا صاحب السيادة. لكن اسمح لى أن أختلف معك ". ثم قال على سبيل النكتة : " أنا لست حصانًا ". وبعد أن انتهت الهمهمات والضحك واصل المفوض كورما حديثه، " اسمحوا لى أن أشكركم على الاستقبال الحار الذى لقيته منذ مجيئى إلى هنا. وطالما أن اجتماعنا سيكون موجزًا، فسوف أدخل فى موضوع الزيارة مباشرة ".

" الحكومة الفيدرالية ليست سعيدة بالتقارير التى تتلقاها عن مواطناتها اللاتى يجرى إحضارهن إلى هنا ليقمن " بأعمال الشوارع ". هذا يشوه صورتنا تشويهًا كبيرًا. لأسباب نحن لا نفهمها، وأن غالبية هؤلاء البنات يأتين من ولاية بندل إحدى الولايات السابقة فى نيجيريا، وهناك أيضًا ولأسباب لم تتضح بعد أن التوجه يكون بصفة أساسية إلى إيطاليا، ومن بعدها أسبانيا، وألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا. والسؤال الآن،

لماذا لا تقم بنات نيجيريات أخريات، من أجزاء أخرى من نيجيريا، لا يقمن بهذا العمل ؟ ولماذا تنجذب هذه البنات إلى إيطاليا بصفة خاصة ؟ نحن نرى أن الإجابة على هذه الأسئلة تبين تعقيدات هذه التجارة، وبالتالي نضرب على أيدى الضالعين والمتسببين فيها. كما تعلمون فإن المفتش العام فى الشرطة أنشأ ما يسمى قوة الواجب، ضمن القوة الرئيسية لوزارة الداخلية، وتتمثل مهمة هذه القوة فى مكافحة الاتجار فى البشر. وبالتالى تصبح زيارتى هنا واحدة من زيارات جمع الحقائق والوقوف عليها. أولاً، طريقة القضاء على هذا الشكل من أشكال تجارة الرقيق، وذلك بدءًا من الوطن نفسه. أى قبل أن تغادر البنات نيجيريا. نحن فى تعاون وثيق مع مؤسسة استئصال عمالة الأطفال والتجارة فى النساء، كما أننا على اتصال أيضًا بجمعية أيديا Idia النهضية من هذه الناحية، عن طريق حملات التنوير إلخ. ثانيًا، سوف نستطلع الطريقة التى تمكننا من ضم جهودنا إلى جهود السلطات المضيفة حتى نكافح هذا الشر هنا وفى أى مكان توجد فيه هذه البنات. هذه واحدة ".

ظهر القلق والضجر على وجه السفير. وكتب كلامًا على ورقه مررها للقنصل ". ما معنى المختصر WOTCLEF؟ ". وكتب القنصل على الورقة نفسها هذا المصطلح هو " مؤسسة استئصال عمالة الأطفال والاتجار فى البشر ". إحدى المؤسسات غير الحكومية التى ترعاها زوجة نائب الرئيس.

كانت جمعية أيديا النهضية شبيهة بمؤسسة استئصال عمالة الأطفال والاتجار فى النساء. هذه الجمعية عبارة عن جمعية تديرها

زوجة حاكم ولاية إدو Edo، ومعروف أن هذه الولاية كانت أسوأ الولايات فيما يتعلق بحركة الاتجار فى البشر، أو بالأحرى النساء النيجيريات. قامت زوجة نائب الرئيس هى وزوجة حاكم ولاية إدو Edo بزيارة إيطاليا مرات عدة فى إطار الحرب المعلنة لمكافحة تصدير البنات النيجيريات.

صمت ضابط الشرطة قليلاً ثم استأنف حديثه :

" يزاد على ذلك، أننا لاحظنا أن كثيراً من رعايانا يؤدون أحكامًا بالسجن فى السجون الإيطالية، وبخاصة فيما يتعلق بتهريب المخدرات. وسوف أجرى أيضًا بعض المناقشات مع المسئولين عن تنفيذ الأحكام فى الدول المضيفة للوقوف على التقارير الدقيقة. وسوف تساعد النتائج التى سيجرى التوصل إليها، فى معاونة الحكومة الفيدرالية فى مكافحة هذه الجريمة.

أخيراً، ونظراً لوجود قسم تجارى هنا فى القنصلية، فسوف أنتهز الفرصة وأجمع بعض المعلومات، عن عمليات النصب والاحتيال المالية التى سجلتموها هنا فى القنصلية. أنتم تعرفون الكثير عن هذه الفضائح، وعن الصفقات المشبوهة والوثائق المزورة، التى يستعملها المجرمون والمزورون فى الاحتيال على رجال الأعمال وابتزاز أموالٍ كثيرة منهم. هذه العمليات التى نطلق عليها نحن فى نيجيريا الاسم ٤١٩، هزت ثقة العالم كله هو وكثير من المستثمرين فى بلادنا وآذتها فى سمعتها. والحكومة تبذل قصارى جهدها من أجل محو هذه الصورة المؤلمة واستعادة الثقة فى اقتصادنا. وكما تعلمون، فإن هذه المراكز

المالية والأعمالية التى دأبت على إرسال هذه الرسالات الفكسية المزورة، قد جرى إغلاقها جميعها ".

" سيادة السفير، السادة الحضور، هذا هو الهدف الرئيسى من هذه الزيارة. مرة أخرى أشكركم على تعاونكم. ولعل موظفيكم المعنيين يقدمون لى المزيد من المعلومات عن الموضوعات التى أتيت على ذكرها ".

" بعد بداية المؤتمر الموجز بثلاث ساعات، كان الاجتماع الموجز ما يزال منعقداً هو الآخر ".

الفصل الحادى عشر

كانت البنات متجمعات حول نار أضرمنها فى كتلة من الخشب طلبًا للدفء. كان ذلك فى عز فصل الشتاء. السواد الأعظم منهن كن يفضلن لو أنهن كن فى الفراش، فى أجازة لمدة ليلة واحدة. لكن العمة (المعلمة) ليست على استعداد للاستماع إلى أى شئ من هذا القبيل ". الوقت مال "، كانت المعلمة تذكرهن دومًا بهذه المقولة ". إنتهين من تسديدا ما عليكن أولاً وبعد ذلك استرخين كما تشأن، لكن ليس قبل ذلك ". حتى إيفلين Evelyn التى تعانى من الحمى ودرجة حرارتها تزيد على الأربعين درجة مئوية أجبرتها (المعلمة) على النزول إلى العمل. كانت إيفلين ترقد ضعيفة هامدة، وكأنها جثمان يرتعد، على الرقعة، وكان فكيها يصطكان كما لو كانا من سكاكين المائدة.

وهذه ليلى Leila تفرد يديها على لهب النار. كانت جالسة على ركبتيها، فيما بين الأمل والراحة. كانت البنات يقتربن من بعضهن البعض طلبًا للدفء. كان الوقت ما يزال فى بداية الليل. ولم يبدأ الزبائن بعد فى الوصول. كانت البنات يدردشن فى أمور عامة.

سألت كونفيدنس Confidence البنت الجالسة إلى جوارها، " ما المبلغ المتبقى عليك لعمتك (معلمتك) ؟ "

" بحسابى أنا أكون قد دفعت ستين مليون ليرة. وعليه لا يتبقى على سوى عشرة ملايين ليرة. لكنك تعرفين أن المعلمة لها سجلاتها الخاصة بها "...

" أنت حظيظة. أما أنا فمدينة بتسعين مليونًا لعمتى ! "

حولت إحدى الحاضرات المبلغ وقالت " هذا ما يعادل خمسة وأربعين ألف دولار ".

" هذا كثير جداً Osanabua. عمتك جشعة. أن سداد هذا المبلغ سوف يستغرق منك عامين ونصف العام ".

تدخلت ماجى قائلة : " اللهم إلا إذا ظهر لك رجل أبيض يقدم لك يد العون والمساعدة ".

" نعم، رجل أبيض مثل رونك Ronke. كان مطلوب منها سداد ثمانين مليونا عندما جاءت إلى إيطاليا. وظهر لها رجل أبيض دفع كل شئ لعمتها. وهى تعيش حاليًا مع هذا الرجل ".

" كيف لى بالحصول على رجل أبيض ؟ قولوا لى أيها الناس، فأنا جديدة على هذا المكان ".

" تسألين كيف تحصلين على رجل أبيض ؟ كلنا نتطلع إلى الحصول على ذلك الرجل الأبيض ؛ أعقلى ما تقولين، المسألة ليستا مسألة العثور على رجل أبيض وحسب. رجل أبيض وثرى أيضاً ".

قـالت كـونفـيـدنس Confidence" : الرجل الأبيض هو عندى رجل أبيض وحسب ".

" الرجل الأبيض تحتـاجينه فقط فى استـخـراج المستندات. فـهـو يمكن أن يساعدك فى استـخراج تصريح الإقامة. لكن إذا كنت تريدين أحداً يسوى حساباتك مع عمتك، فذلك يحتم عليك أن تبحثى جيداً . هناك رعاع أيضًا بين البيض ".

" مسألة الحصول على إيطالى أصيل حاليًا ليست سهلة. لقد أصبح الإيطاليون أكثر عقلاً وحكمة. قبل الآن، كانت تلك عملية سهلة وبسيطة. لكنهم حاليًا يقولون لك انتظرى ؛ لأنهم ليسوا بعد على استعداد لذلك ". كان ذلك هو كلام إيفلين.

" وفى ذات الوقت يواصلون مضاجعتك ".

" صحيح انهم سيدفعون ثمن هذه المضاجعة. ليس هناك ما هو مجانى الآن. فأنا أمامى دين كبير ينبغى سداده ".

" إذن، رونك Ronke حظيظة الآن ".

" إنها حظيظة جداً . وهى عاقلة أيضًا . إن لديها زبون، كان من عادته المجىء إلى هنا ويسأل عنها، فى هذا المكان نفسه. كان لدى ذلك الرجل سيارة جيب. كان رجلاً تبدو عليه النعمة. يقولون : إنه كان مديراً لواحدة من الشركات الكبرى. وعلى الفور أرسلت رونك برقية إلى أمها فى وطنها . لقد وقع الرجل فى غرامها . وقد وضعته فى جيبها ".

" كيف ؟ كيف فعلت ذلك ؟ "

" كيف، تسألينني كيف ! ألست أنت إفريقية أيضاً ؟ "

" أليست لك أم ؟ اطلبي منها أن تفعل لك شيئًا. هذه هي أسهل الطرق. عندما تأكل الفريسة ذلك الشئ، أو عندما يضاجعك الرجل، وهذا يعتمد على نوعية الرجل، فإنه يصبح ملكًا لك بعد ذلك ".

" لا داعي أن تطلبي من أمك هذا الشئ وهي في بنين على بعد مسافة كبيرة منا. هنا رجل موجود حاليًا في تورينو. يقولون إن سحر هذا الرجل قوى ".

" لكنه يتقاضى أجرًا كبيرًا جدًا. عشرة ملايين ليرة، على حد ما سمعت. لو أنى أملك مثل هذا المبلغ من المال، فسوف أعطيه لعمتى وأخلى سبيلى وأتحرر منها ".

" هذا لأنك مدينة بمبلغ عشرة ملايين فقط. أما أنا فيتبقى على خمس وسبعون مليونًا من الليرات ".

"أنت ما زلت في البداية. لا تقلقي، سوف تشتغلين بالفأس إلى أن يصيبك التعب والنصب". كانت ماجى تمازحها.

قالت بنت أخرى ". أنا أحب هذا العمل، إنه لهو ومرح ".

ردت عليها فتاة أخرى، " لا قدر الله Tufia، أنا لا أحب هذا العمل ".

" هذا بدلاً عن بقائى فى المنزل لا أفعل شيئًا ".

" إنها تجارة. أنت تستعملين ما لديك فى جمع المال. وفى مثل هذا الحال يصبح الشئ شيؤك ".

" نقود كثيرة. الرجال يحبون هذا الشئ حبًا جمًا... وأنا أود الانتهاء من سداد مستحقات تلك العمة الفظيعة، وبعدها أجمع مالى الخاص. سوف أبنى منزلاً فى مدينة بنين، وسوف أشترى سيارة "...

" المشكلة الوحيدة تتمثل فى " كبسات " الشرطة التى يمكن أن تحدث فى أى وقت ".

" الكبسة تكون سيئة إذا لم تكونى تحملين تصريح إقامة أو وصل يفيد أن إقامتك جارى استخراجها ".

" أنا لدى أوراقى الثبوتية. وعليه إذا ما قامت الشرطة بمداهمة، وإذا ما ألقوا القبض علىّ، فإنهم لن يستطيعوا ترحيلى ".

" كيف استطعت الحصول على هذه الأوراق ؟ أنا ليست معى أية وثيقة من هذه الوثائق ".

" عمتى تعرف أحد العاملين فى القنصلية. لقد أعطانى جواز سفر استخدمته فى الحصول على تصريح الإقامة. اطلبى من عمتك أن تساعدك. أولاً وقبل كل شئ، إذا رحلوك فستكون هى الخاسرة ".

" هل هى تهتم بالموضوع ؟ لقد دفعت لها فعلاً خمسًا وأربعين مليون ليرة "...

" هناك طريقة أخرى. الواقع أن هناك طرقا متعددة لعمل الأوراق. أقصد الأوراق (المستندات) الحقيقية، وليست المستندات المزورة ".

" إذا كنت تودين الحصول على وثائق مزورة فاذهبى إلى أحمد، ذلك الرجل السنغالى، صاحب محل الفن الإفريقى القريب من محطة القطار. يستطيع عمل هذه الوثائق بالختم والطوابع أيضًا. نظير ثلاثمائة ألف ليرة ".

" أنا لا أريد مستندات مزورة. بوسع الشرطة إرسال هذه المستندات إلى السفارة للتأكد من صحتها ".

" إذن، تزوجى من رجل أبيض، وعندما تتقدمين بطلب تصريح للزواج، سوف تصرف لك السفارة جواز سفر. وبعد ذلك يمكنك ترك الرجل الأبيض وتعملين لحسابك وأنت فى مأمن ".

" إذن، فكل شئ يعود إلى الرجل الأبيض مرة ثانية ".

" قالت سينيثا Cynthia فجأة : " أنا معى تصريح إقامة ".

تساءلت البنات دفعة واحدة، " كيف حصلت عليه ؟ "

" قلت لهم إنى حامل من رجل إيطالى ".

" هل أنت حامل بحق وحقيقة ؟ "

" ألا ترين أن بطنى منبسط ؟ بالطبع لا ".

" ألم يكشفوا للتأكد من هذا الحمل ؟ "

" اشتريت بولاً ".

تساءلت البنات الأخريات فى صوت واحد، " تقولين، اشتريتِ بولاً ؟ "

" نعم، اشتريت بولاً بثلاثة ملايين ونصف المليون ليرة ".

تساءلت البنات الأخريات دفعة واحدة من جديد، " تقولين بثلاثة ملايين ونصف المليون ليرة ؟ كل هذا المبلغ من أجل البول ؟ "

" نعم، إنه بول من امرأة حامل ".

أصبحت البنات كلهن آذانًا صاغية لسينثيا Cynthia وهى تحكى لهم كيف أن الترحيل يصبح عملية مستحيلة إذا ما كانت المرأة حاملاً. وبدلاً من الترحيل وبواسطة الشهادة الطبية، يصبح من حق المرأة الحامل الحصول على تصريح إقامة مؤقت يجرى تجديده كل عام إلى أن يصل عمر المولود الجديد إلى ثلاث سنوات.

كانت البنات مشتاقات ويردن أن يعرفن، " كيف فعلتِ ذلك ؟ "

" إذا كان أحد منكن يعرف امرأة حاملاً، فإن هذه المرأة يمكن أن تعطيكن قارورة من بول الصباح الباكر. خذى هذه القارورة واتجهى إلى المستشفى. وقولى لهم إنك حامل. وسوف تعطيك الممرضة قارورة للحصول على شئ من بولك. ادخلى دورة المياه. واسكبى بول الحامل فى قارورتك. افهمى ! إنك حامل. خذى الورق الذى سيعطونك إياه واذهبى

إلى مركز الشرطة الرئيسى. لكن يجب أن يكون فى يدك ثلاثة ملايين ونصف المليون ليرة ! "

" سأفعل ذلك ".

" وأنا أيضًا ".

" اتفق الجميع على أن هذه الوسيلة أسهل فى الحصول على مستند ".

" لكن يا سينثيا، من التى فعلت هذا لك ؟ أنا أعرف امرأة حامل ".

" إيف Efe، هل تعرفين البنت التى تعمل فى الكوميون. إنها متزوجة من ذلك الرجل الأبيض الذى التقيناه فى القطار ذات ليلة. اسمه سباستيانو Sebastiano. إنها حامل. وسوف تفعل ذلك من أجلك. هى بحاجة إلى النقود ".

" طالما أنها فى عصمة رجل إيطالى، فلماذا تحتاج النقود ؟ "

" يا سلام. هل تظنين أن من السهل الزواج والبقاء فى المنزل بعد القيام بهذا العمل ؟ تخيلى بنتا كانت تكسب فى الليلة الواحدة مليون ليرة كحد أدنى، تتحول إلى الحصول على مائة ليرة فى الأسبوع ! من زوجها. وحتى لو تكلمنا أيضًا عن العمل التى حصلت عليه فى الكوميون، ما المبلغ الذى تحصل عليه هى من هذا العمل ؟ "

" أختاه ! المسألة ليست سهلة ".

" لا شئ سهل في هذه الحياة. الزواج ليس بالأمر السهل. شغل الشارع ليس أمراً سهلاً أيضاً ".

" أنا حتى وإن تزوجت رجلاً أبيض، فسوف أواصل الخروج إلى الشارع ولو لمرة واحدة كل فترة. مسألة رجل واحد هذا شئ مضجر وثقيل الظل. أنا متعودة على عدد كبير من الرجال. في إحدى المرات ضاجعني سبعة أو ثمانية وعشرون رجلاً. هذا في ليلة واحدة ! وبعدها لم أقو على السير إلى محطة الحافلة. وكان لابد أن أتكئ على ريتا Rita .وبعد أن أتزوج، هل تنتظرى مني البقاء في المنزل وأنظر إلى رجل واحد. أنا لست ممن يفعلون ذلك ".

قالت ماجي Maggie محذرة " احترسي، بعض الرجال البيض قد يقتلونك إذا ما اكتشفوا أنك تخدعينهم أو تغشينهم. هذا يمكن أن يحدث بعد أن تقومي بسداد دينك وتقديم هدايا قيمة لأفراد أسرتك. لا تنسى إيتوهان Itohan. ولا تنسى ريمي Remi أيضاً ".

" وعليه كان أزواجهن البيض هم الذين يقتلوهن ؟ "

" نعم. وأنا متأكدة أن ذلك يصدق على إيتوهان في أضعف الأحوال. يقولون : إن الرجل الإيطالي دفع خمسين مليونًا لعمتها وحررها منها. بل أنه بنى منزلاً لوالديها في أوبيجا، كما أنشأ لهم شركة نقل صغيرة. سافر الإيطالي ذات ليلة وعاد في الليل. لم يجد إيتوهان. ذهب الرجل يبحث عنها في الأماكن المشبوهة كلها. وراح ينتظر مجيئها. وقد بلغني أنه قتلها خنقًا وألقى بجثتها في الغابة ".

" ألم تتخذ الشرطة أى إجراء ".

" أية شرطة ؟ نحن مومسات. نحن لا نساوى مليمًا (كوبو). الناس بوسعهم قتلنا وينجون من العقاب. كم عدد المومسات اللاتى توفين هذا العام فقط ؟ اثنتان وعشرون بنتًا . ومع ذلك لم يجر القبض على قاتل واحد. فى العام الماضى، وبعد أن قتل رجلان أبيضان فى بادوفا Pado-va، قامت الشرطة بالبحث عن القتلة. وفى غضون عشرة أيام جرى الإمساك بالقاتل. أما نحن، فحياتنا لا تساوى شيئًا ".

" تقولين إنك ضاجعك سبعة وعشرون رجلاً ذات ليلة. هذا يحدث عندما يروج سوق هذه التجارة، كما يحدث أيضًا أثناء المؤتمرات الدولية. ذهبت أنا وبلسنج Blessing ذات ليلة لحضور المهرجان الموسيقى الذى انعقد فى كمبانايل Campanile. ووقفنا نحن الاثنتان فى الخلف. كان زبائن الحفل قد بدأوا يفدون على المكان أعددا كبيرة. جمعت ما يزيد على المليونين. وعلى امتداد أسبوع، المدة المقررة للمهرجان، جمعت ما يزيد على عشرة ملايين ".

" لماذا تعتقدين أن البنات ينتقلن هنا وهناك من مدينة إلى أخرى ؟ إنهن يبحثن عن الأماكن التى يروج فيها هذا الشئ ".

" أماكن تمضية العطلات هى والمنتجعات جديدة أيضًا. وإذا ما أسعدك الحظ فإنك تعثرين على رجل متقدم فى السن شيئوه شبه ميت. سوف يلمسك مدة دقيقة أو دقيقتين، وينهى مهمته مثل كمفورت Comfort. ثم تأخذين نقودك وتذهبين لحال سبيلك ".

يقول كمفورت Comfort الذى يسخرون من اسمه : " أنت لست على ما يرام ".

تواصل ليلى كلامها، متجاهلة كمفورت، " ريمينى Rimini هى الأفضل عند السائحين. اصطحبنى أحد الزبائن إلى منزله، أو بالأحرى إلى غرفته. لم نفعل أى شئ. كل ما فعلته هو أنى رحت أحك له عضوه الميت فى حين راح هو يتمتم بأشياء بلغة لا أعرفها ولم أفهمها. ثم راح يشخر بعد ذلك مثل دراجة بخارية من طراز بياجيو Piaggio. بعد ذلك، طلب الرجل طعام الإفطار، ثم أعطانى ألف دولار وسلسلة من الذهب ".

" هل أنت متأكدة أنك لم تسرقى هذه السلسة الذهبية ؟ "

" بعض الرجال البيض غريبون. أخذنى أحدهم إلى منزله لكى أضاجع زوجته. ووعد بإعطائى مليون ليرة. رفضت ذلك ".

" آه ! هذا هو ما يسمونه السِّحاق. السحاق هو أن تفضل المرأة امرأة أخرى ".

قلت لهم : " أقول أنى رفضت ذلك. من أين لى بالمجىء، النساء لا ينمن مع النساء ".

" هذا يعنى أنك لست مستعدة لسداد دين عمتك. أنت لم ترى أى شئ بعد. تمهلى. سوف تمتلئ عيناك. فى هذا البلد يوجد رجال كانوا نساء من قبل وفيها أيضًا نساء كن يتصرفن تصرف الرجال. الناس يدعونهم أيضًا. أنا أعرف بنات نمن مع كلاب الزبون. الأجر هنا يكون

أكبر، وهذا هو كل ما فى الأمر. لو كنت مكانك، لكنت نمت مع تلك المرأة السحاقية. سوف أفعل كل ما يساعدنى على سداد دين عمتى. إنها شرسة تماماً ".

حذرتها بنت أخرى، " لا تنسى استعمال الواقى الذكرى. الأمراض كثيرة فى هذه الأيام. لا تنسى ما حدث لإين Ene ".

"من هى إين Ene؟ "

" لقد توفيت بسبب مرض الإيدز. احترسوا أيها الناس. استعملوا الواقيات الذكرية ".

" جرت العادة أن نستعمل الواقيات الذكرية، لكن ماذا يحدث لو تمزق ذلك الواقى ؟ "

" هنا، يكون هذا حظك ومصيرك ".

" المضاجعة بدون واقى ذكرى تكلف أكثر ".

" أنقذى حياتك. نحن نتكلم عن الحياة. وأنت تتكلمين عن الأجر الإضافى. أعقلى الأمر. مرض الإيدز لا علاج له، وعليه إذا ما أصبت بهذا المرض فذلك يعنى نهايتك. هل تعرفين كيف يعاملون مرضى الإيدز فى بنين؟ جب أن تصرى على استعمال الواقى الذكرى. انقذى حياتك ".

" لا قدر الله ! لا تقولى هذا الكلام. أنا أعلم أن لك طفلين. من الذى سيرعاهما إذا ما متِ ؟ "

" من الذى يرعـاهمـا حـاليًا ؟ كل شئ بيد الله. لقـد سئـمت هذه الحياة، كرهت هذه المعاناة. انظرى إلى. أنا لم يتجاوز عمرى الخامسة والعشـرين وهـاأنـذا أبـدو كما لو كنت فى الستين من عمرى. فـهل هذه حياة ؟ "

" احـمدى الله على هـذا الطقس البـارد. وهذا هو مـا يحـفظ علينا بشرتنا. لولا هذا الطقس لتجعدت بشرتنا وغدونا مثل الملابس المستعملة. لن يأخذ أحد البسكويت من أيدينا ".

اتفق الجميع على أن هذه الحياة مؤلمة وموجعة. ودعو جميعهن أن يتمكن من سداد ديون عمتهن. لم يكن أمامهن مفر مما هن فيه.

" فيمـا يتعلق بى، سوف أعمل مدة عامين بعد الانتهاء من سداد ديونى لعمتى ".

هذا هو مـا قـالته هوب Hope هوب تبلـغ من العمر عشرين عـامًا. وهى أحدى المتسربات من كلية College ماريا Maria جورتى Goretti". ثم أستعمل النقود فى الصرف على نفسى ".

" ما المبلغ الذى سددتيه ؟ "

" أنا لا أعـرف. يتبقى عـلى حـوالى عشـرين مليون ليرة. لكنى لا أعطى عمتى كل ما أحصل عليه. وأنا أحول بعض النقود لأمى ".

قالت أيرتى Ireti وهى تتنهد ألمًا وأسفًا : " أفضل الأشياء ألا ندخل فى هذه التجارة مطلقًا. أنا نادمة على ما فعلت. لو كنت أعلم. "...

تحول الكلام إلى الحديث عن العمات وشراستهن وطمعهن. ومع مرور السيارات أمام البنات، وإبطاء السرعة، كانت البنات تقفن وتتحدث إلى من فيها. هؤلاء هم الزبائن. وكن ينتهزن الفرصة لفرد أرجلهن، التى توترت عضلاتها بسبب الجلوس والركوع غير المريح وهن يلبسن أحذية لها كعوب عالية. لم يكن يتشاجرن على الزبائن. كانت الغرامة المترتبة على الشجار تقدر بحوالى ألف ليرة. هذا يعنى أنهن كن يسالمن بعضهن البعض الآخر.

كانت هذه التجمعات تفيد البنات. كن يتعلمن أشياء كثيرة من البنات اللاتى أمضين فترات طويلة فى الشوارع. كانت البنات بمثابة العائلة الوحيدة لهن فى هذه البلاد الغريبة عليهن.

يدخل الليل عليهن. بدأت سيارات كثيرة تصل إلى المكان. البنات كلهن مشغولات. هذا زبون يغادر المكان، وذاك زبون آخر يجىء بعده على الفور. كانت الزبائن تنهال على المكان داخل أنوا ع مختلفة من المركبات، سيارات الجيب، وسيارات مرسيدس بنز، وسيارات بيجو ٦٠٧، وسيارات هوندا. كان بعض الزبائن يركبون دراجات نارية. بعض الزبائن كانوا يرون أن البنات مشغولات فيواصلون السير على أن يعودوا فيما بعد. بعض آخر من الزبائن كانوا يذهبون إلى مناطق أخرى من المدينة بحثًا عن المغامرة.

هذا واحد من الزبائن يلاحظ قلة عدد البنات فى تلك الليلة.

" ربما تكون هناك مداهمة (كابسة). فى حال وجود مثل هذه المداهمة، قد تعلم البنات بأخبارها وبذلك يمتنعن عن الخروج إلى الشارع ".

" أو قد يكون جرى القبض عليهن وهن فى المحطة. إذ من عادة الشرطة مداهمة محطات القطارات ".

" هناك خطأ ما. نحن أكثر من هذا ".

" هل تشتكين ؟ كلما قل عددنا كان ذلك أفضل لنا. انظرى، الساعة الآن التاسعة مساء وأنا لم أجمع سوى نصف مليون ليرة فقط ". كان ذلك هو كلام هاجيا Hajya. عندما بلغت الثانية والخمسين من عمرها كانت هى أكبر النساء سنًا فى الوصلة كانت عمتها قد طلبت منها سداد مبلغ ثلاثين مليون ليرة فقط، وهذا هو أقل مبلغ تطلبه أية عمة من العمات. هذا المبلغ البسيط كان من الصعب على هاجيا سداده. العمل الذى يتسع لعدد كبير من المراهقات، ويتسع أيضًا لاستعراض مفاتن اللحم البشرى، لم يكن فى صالح هاجيا بأى حال من الأحوال. ومع ذلك كانت هاجيا تثابر. كانت أمها طاعنة فى السن وكان محتم عليها أن تعولها وتعتنى بها، هى وأطفالها الثلاثة، الذين كانوا ما يزالون فى الجامعات فى الجامعة الفيدرالية فى نيجيريا.

عند منتصف الليل يبدأ عدد السيارات فى التناقص. هذه قلة قليلة من البنات تجرى مضاجعتهن فى السيارات الواقفة بالقرب من المكان.

أما البنات الأخريات فكن يذهبن لشب النار ويهوّين عليها حتى تزداد اشتعالاً. ويرحن يتحلقن حول هذه النار مرة أخرى، مثل الفراش، طلبًا للدفء. بعض آخر من البنات كن يحصين المبالغ التي جمعنها، وبعض ثالث منهن كن يطلن النظر إلى الفراغ، وهن يدخن السجائر، وهن خائفات من العودة إلى المعلمة في ساعة مبكرة من الليل، وتلك بنت أخرى كانت تدردش مع صديقة على الهاتف المحمول.

كانت البنات ما يزلن في الوصلة عندما مر عليهن فريق المراهقين المرعبين. توقف هؤلاء المراهقون أمام النار. نظرت البنات إلى الأعلى وهن مندهشات، عندما أخرج فابيو رأسه من نافذة السيارة الأمامية وصاح قائلاً " مومسات " Putane، وألقى في النار قارورة مليئة بالبنزين.

أفسد الانفجار هدوء الليل وسكونه. وتوفيت في المكان كل من إيفلين وسينثيا Cynthia. وأصيبت كل من ليلى وبلسنج Blessing بحروق خطيرة.

الفصل الثانى عشر

فى كل من سان مارينو وفى إيطاليا يعرف الناس مركز الشرطة الرئيسى بالاسم Questura ولكن مأمور القسم يسمونه Qucstore. الشرطة هى التى تصدر الوثائق المختلفة بما فى ذلك تصاريح الإقامة التى يسمونها باللغة الإيطالية Permesso di Soggiorno. تقوم الشرطة بأعمال أخرى مثل مكافحة الجريمة والتهريب. وقسم الشرطة مقسم إلى أقسام عدة. وهناك قسم للأجانب. فى المدينة الكبيرة، التى تعد مركز رئاسة إقليم من الأقاليم، من الطبيعى أن نرى أكثر من مائتى ضابط يعملون فى مركز من مراكز الشرطة. بعض هؤلاء الضباط يعملون على شكل ورديات، والبعض الآخر يعملون على شكل جماعات يتردد عدد الواحدة منها بين تسعة وأربعة أفراد، وبعض ثالث منهم يرتدى الزى الرسمى، والبعض يرتدون الملابس العادية البسيطة، أو يرتدون المَفْتِى، على حد قول المهاجرين النيجيريين الجدد. بعض رجال الشرطة يقتصر عملهم على أقسام الشرطة فقط، وهناك بعض من رجال الشرطة يكون عملهم فى الشوارع. واقع الأمر، أن الكثيرين لن يترددوا فى القول : إن إيطاليا بلد شُرَطِى، وذلك فى ضوء كبر جهاز الشرطة فى هذا البلد.

وقوة الشرطة نفسها تنقسم إلى ثلاث فئات : Poliza، Carabinieri، Guarda di Finanza. هذه الأفرع الثلاثة لكل واحد منها مهامه الخاصة. وكلها تكافح الجريمة وتحمى الدولة. وكلها توحى بالرعب والخوف، فى أنفس المهاجرين فى أضعف الأحوال، وبخاصة أولئك الذين تكون أوضاعهم غير نظامية.

ربما كانت فيرنز Firenz واحدة من أجمل المدن فى إيطاليا، بل وأوروبا أيضاً. وفيرنز هى مركز رئاسة إقليم توسكانى. يضاف إلى ذلك أنها واحدة من أكثر البلدان التى يتردد عليها الزائرون.

يفد الزائرون على فيرنز من كل أنحاء الدنيا للاطلاع على، ومشاهدة أعمال كبار فنانى عصر النهضة الذين من قبيل " مايكل أنجلو " Michelangelo وجيوتو Giotto، وسانسوفينو Sansovino، وجلّينى Gellini ودوناتللو Donatello. يزاد على ذلك أن تماثيل داود David التى فى بيازا Piazza ديومو Duomo، قامت بتصويرها أعداد كبيرة من البشر الذين يرتبون لزيارة محلات المجوهرات الموجودة عند أعالى نهر آرنو Arno على امتداد بونت Ponte فيكيو Vecchio.

كان الدكتور كلوديو Claudio روسباك Rossbach مأموراً لمركز الشرطة فى هذه المدينة السياحية. كان الرجل قد عين مأموراً لقسم شرطة فلورنسا Florence قادماً إليها من تورينو. وعندما انتهى الدكتور كلوريو من شرب قهوة الصباح رن جرس تليفونه الأحمر. قبل أن يرفع الدكتور كلوريو سماعة الهاتف، كان يعلم، أن تلك المكالمة من ريّسه Boss فى روما.

لم يضع الريّس وقتًا فى المجاملات.

" هناك شكاوى من أن المومسات الأجنبيات غزين مدينة فلورنسا. اتخذ من الإجراءات ما يكفل تخليص الشوارع من كل ما يشوه اسم المدينة ويدمرها باعتبارها مركزًا اقتصاديًا يقوم على السياحة ".

عندما كان الدكتور كلوريو ينهى مكالمته الهاتفية امتدت يده وضغط على زر الجرس ليستدعى مساعده المباشر، لوقا Luca. هذا المساعد لم يأتى على ذكر هذه المسألة فى أوامره ". نظفوا الشوارع. داهموهن. جَمِّعوا المومسات حتى يمكن ترحيلهن. لقد دبرت روما طائرة لهذا الغرض. أبلغوا بقية القنصليات لتجهيز مستندات الترحيل الضرورية ". كان الدكتور كوريو يقصد القنصلية الألبانية، والقنصلية النيجيرية، والقنصلية الروسية، وبعد قنصليات دول الكمنولث المستقل.

" متى نقوم بالمداهمة، يا فندم ؟ "

" هذه الليلة. غطوا الشوارع، ومحطات السكة الحديد، والضواحى، وكل الأماكن. أنتم تعرفون أماكن المومسات. أوجدوهم. الليلة. الطائرة سوف تقلع فى غضون يومين من الآن. خذوا معكم كل الأولاد الذين تحتاجون إليهم ".

كان ذلك النوع من الأعمال هو المفضل عند لوقا. العمل فى الشوارع فى الإمساك بالمومسات. المداهمة على الطرقات وفى الشوارع. كان لوقا قد بدأ يمل مؤخرًا الأعمال المكتبية والأعمال الروتينية التقليدية.

حان موعد الحركة والعمل. اتخذ لوقا الترتيبات الضرورية من حيث المعدات وأبلغ القنصليات كلها أن ترسل مندوبًا إلى معسكر الاحتجاز لكى يستجوب الرعايا. وأعد لوقا قائمة بالرجال الذين سيقومون بتنفيذ المهمة. وقبل الانطلاق إلى العمل بوقت وجيز عقد لوقا اجتماعًا قصيراً مع هؤلاء الأفراد.

" ستكون هناك ثلاث مجموعات، كل واحدة منها مكونة من خمسة أفراد، سائق واثنان يبقيان فى السيارة فى حين يقوم الاثنان الآخران بالقبض واقتياد المقبوض عليهن إلى سيارة الشرطة. وأنا أقول اقتياد وسحب لأنهن سيقاومن عملية القبض عليهن. وأنت يا نينو Nino يتعين عليك تغطيــة مــحطة السكة الحــديد والمحــلات المجاورة لهـا. وأنت يا جيانى Gianni، ستقوم مجموعتك بالطواف فى الشوارع سيئة السمعة، فى حين ستقوم مجموعتى بالطواف فى الضواحى. سوف تصطحبون البنات إلى الحجز. خذوا حذركم البنات واعيات تمامًا وسوف يكن متوقعات لحضوركم. وأنت يا سلفيو Silvio ستكون موجوداً للقيام على أمر الحاسب الآلى (الكمبيوتر). حاول الرجوع إلى بنك المعلومات لمعرفة حقائق تصاريح الإقامة. يجب ألا يغيب عن بالك أننا نرحل هؤلاء البنات لأنهن يقمن هنا إقامة غير قانونية، ونحن لا نرحلهن بسبب البغاء. البغاء ليس جريمة فى إيطاليا. وعليه اللاتى منهن يحملن وثائق رسمية وقانونية لا دخل لنا بهن. وسوف يبقين فى مركز الشرطة إلى أن يصل قنصلهن، أو أى موظف من القنصلية، فى ساعة متأخرة من الليل،

صادر هواتفهم المحمولة. نحن لا نريد لهن الاتصال برفاقهن ويحذرهن. هل لديك أى أسئلة ؟ "

رفع أحد الحاضرين يده. هذا هو جيوسبى Giuseppe.

"نعم، لدى سؤال ".

" وماذا عن الرجال، وهل نحن نطارد النساء المقيمات إقامة غير نظامية فقط ؟ "

" فى هذه المرة نحن نطارد البنات فقط. ما الذى يمكن أن يكون أهم من هذا ؟ ما عليك من الرجال هذه الليلة ".

ارتفعت يد أخرى.

" نينو ".

" إلى أى مدى ستكون عملية إلقاء القبض على البنات ؟ نحن نعرف أن بعضهن يمكن أن يكن عنيفات ".

" أنا أترك هذا لتمييزكم. لا أحد منكم جديد على هذه الخدمة. أصغركم هنا هو سيلفيو Silivo، وهو يبدو كما لو كان عمره خمس سنوات. وعليه استعملوا أقل حد ممكن من القوة. لا تؤذوهن. سوف يعدن إلى أوطانهن خلال يوم أو يومين. نحن لا نريد من حكوماتهن أن تشكونا بسبب حقوق الإنسان والأشياء التى من هذا القبيل ".

صمت قليلاً، ثم نظر إلى رجاله من حوله. لم يكن لدى الرجل أى شك فى إمكانية قيام رجاله بتنفيذ المهمة المطلوبة منهم تنفيذاً جيداً. الكثيرون منهم سبق لهم القيام بمثل هذه المداهمات فى الماضى. العملية روتينية. كان الرجل على مستوى المهمة وبخاصة أنه كان يود إبلاغ روما بما يتم، ولذلك لم يكن الرجل من النهازين للفرص.

" إذا لم يكن لديكم أية أسئلة أخرى فهيا بنا نبدأ. أود أن أقول لكم إنّ الريس مهتم بنجاح هذه المداهمة. وعنده رسالة سيرسلها لكم. هو لا يريد أى تراخٍ. أنا على علم بأن البعض منكم له صديقات وزبائن لدى هذه النساء. وإذا ذهبنا ولم نجد هؤلاء النساء فى الشوارع فذلك يعنى فشلكم فى عملكم. إلى اللقاء ؟ " هل كلامى واضح ؟

حيوه، وسلموا عليه وهم يخرجون من مركز الشرطة.

الفصل الثالث عشر

وصلنا ليجوس عند الساعة الرابعة والنصف صباحًا. استقلينا سيارة أجرة إلى إليك Eleke كرسنت Crescent في جزيرة فيكتوريا، حيث توجد السفارة الإيطالية. هناك أيضًا بعض السفارات الأخرى. السفارة الأمريكية والسفارة الألمانية موجودتان هناك في جزيرة فيكتوريا، إضافة إلى بعض السفارات الأخرى التي لا أذكرها حاليًا. على الرغم من أننا كنا في ساعة مبكرة من ساعات الصباح، إلا أننا التقينا مئات من البشر هناك، يطلبون تأشيرات السفر خارج البلاد. كانت هناك طوابير في كل مكان ؛ لتحديد مواعيد، لإجراء مقابلات، لاستلام المستندات. طوابير السفارة الألمانية طالت واستطالت إلى أن تداخلت مع طوابير البعثة الدبلوماسية الإيطالية، في حين تقاطع طابور البعثة الدبلوماسية الأمريكية مع طابورنا من موضع آخر. هذا يعني أن صاحب المصلحة يتعين عليه أن يسأل أسئلة للتأكد من أنه يقف في الصف الصحيح.

يحكى أن رجلاً وقف ما يزيد على الساعات الثلاثة في صف السفارة الألمانية، في الوقت الذى كان يتقدم فيه لطلب تأشيرة من

السفارة الأمريكية. وعندما وصل الرجل إلى النافذة أدرك خطأه وتحتم عليه أن يقف في الصف الصحيح من جديد !

قال الرجل الواقف أمامي في الصف : " لقد تحتم عليّ قضاء الليل هنا. وأنا أداوم المجيء إلى هنا منذ ما يزيد على أسبوعين. وفي كل مرة كان الدور يصيبني، لكنهم كانوا يقولون : " لقد اكتفينا اليوم بهذا العدد فقط ". تعال إلينا غداً." وعليه قررت تمضية الليل هنا. ونمت على الحشائش الموجودة هناك عبر الطريق. كنا عدداً كبيراً من الناس، ما يزيد على المئة فرد ".

" لابد أن " تلاغي البواب " قال لي أحد الواقفين. بخمسمائة نيرة لن تكون بحاجة إلى الوقوف في الصف أو تمضية الليل هنا ".

كنت خائفاً عندما رأيت هذا الجمهور الحاشد وعندما استمعت إلى كل هذه القصص المؤلمة. كنت مرتبكاً. لم أعرف إلى أين أذهب، أو ماذا أفعل. كان إيداهوسا قد طلب منا أن نسأل عن السيد جودي Goddy، إذا ما وصلنا إلى مبنى القنصلية. كان هناك جمع كبير من الناس، الأمر الذي لم نتمكن معه من تحديد مكان السيد / جودي. ترى هل يعمل هذا الرجل في السفارة أم أنه من أولئك الذين يعملون في تخليص الطلبات خارج السفارة ؟ تركت دوريس تقف في الصف وذهبت أنا لإجراء بعض الاستفسارات.

سألني الرجل عندما اقتربت منه، " من الذي يبحث عن جودي Goddy؟ "

" أنا الذى أبحث عنه ".

" من أين أنت ؟ "

" أنا من إيداهوسا فى بنين ".

" كم عددكم ".

" ثلاثة ".

" وهو كذلك. انتظر تحت الشجرة التى هناك. كان هناك آخرون ينتظرون حول الشجرة نفسها، ينتظرون كل أنواع البشر وكل أنواع الأشياء. هذا يوم مشهود لبائعى الطعام الجائلين. الناس غادروا بيوتهم دون أن يتناولوا طعام الإفطار. كثير من الناس ناموا فى منطقة السفارة. اشترينا خبزًا وشايًا من أحد المعلمين وواصلنا انتظارنا. كان هناك باعة للصحف، وكان هناك أيضًا مصورون، وكان هناك أيضًا جرسونات. كان المكان سوقًا بحق وحقيقة."

كان الناس متجمعين فى سائر الأنحاء يناقشون الوثائق والمطلوبات.

" الحمد لله على أن السفارات الأخرى ليست فى هذا المكان. وإلا لتعذر مرور الناس من هذا المكان أو الطريق ".

" يقولون إنَّ صف الحصول على التأشيرة فى المفوضية البريطانية العالية يمتد على نحو يعرقل حركة المرور فى هذا المكان. والشئ نفسه موجود فى السفارتين الفرنسية والبلجيكية ".

" النيجيريون يغادرون بلادهم. هذا البلد يلاقى متاعب ".

" انتبه، أنا طبيب، تخرجت منذ أربع سنوات، ولا أجد عملاً. يقولون إنَّ هناك حظراً على التوظيف. ما الذى يجب على أن أفعله ؟ أنا أعمل سائقًا لسيارة أجرة منذ حوالى عامين، أمارس هذه المهنة لمجرد حفظ رمقى على نفسى. أنا لى شقيق فى إيطاليا. وهو يقولة إنى إلىء ينبغى أنى أسافر إلى هناك ".

" أنت حظيظ. أنا تخرجت فى الجامعة منذ تسع سنوات. ولم أجد عملاً إلى الآن. حاولت العمل مدرسًا فترة من الوقت. هل تصدق أن المدرسين لم يتسلموا رواتبهم منذ ثمانية عشر شهراً ؟ ثمانية عشر شهراً. خبرنى، ماذا أفعل ؟ "

" ينبغى عليك أن تحاول المشاركة فى يانصيب التأشيرة الأمريكية. قد يحالفك الحظ ".

" أنا أحاول كلما تهيأت لى الظروف. أنا أحاول فى اتجاهات كثيرة. أحاول أيضًا الحصول على تأشيرة السعودية أو الكويت. لقد بلغنى إنهم بحاجة إلى أطباء وممرضات ".

" الحياة صعبة لكن الله أبقى. وهذا هو دعاء الفقراء ".

" هذا هو سبب وجود لصوص مسلحين فى أيامنا هذه ".

" لا، لا. أنا لا أساند اللصوصية المسلحة. الفقر ليس سببًا من أسباب السرقة أو عذراً للقيام بها. لماذا لا أكون أنا أيضًا لصًا ؟ أنا بلا

عمل منذ سنوات لكن ذلك لا يعني... هذا الأمر شبيه بسفر بناتنا إلى الخارج للاتجار بالدعارة. أنا لست ممن يساندون الرذيلة ".

تساءل الطبيب العاطل وهو يضع مظروف المستندات تحت إبطه : " هل هناك أمل فى حصولنا على تأشيرة ؟ "

" مسئول التأشيرات مثل رجل الشرطة. الأوراق عنده لا تكتمل مطلقًا. تراهم يقولون لك : أحضر خطاب دعوة، أعطنا صورة تصريح إقامة الشخص، أحضر كشف حساب بنكى. أحضر هذا، أحضر ذاك. بعد ذلك كله إذا لم يستلطف الموظف منظر وجهك فإنه سيرفضك. لقد أحبطوا أناسًا كثيرين هنا ".

" لماذا فى رأيك ترى موظفى التأشيرات، وهم مختبئون خلف أقفاص زجاجية مدعمة ولا تسمح بمرور الطلقات النارية ؟ المترددون على هذه المكاتب، عندما يصيبهم الإحباط، يلجئون إلى تهديد هؤلاء الموظفين واستعمال العنف معهم. لولا هذه الأقفاص الزجاجية لأصبح عدد كبير من هؤلاء الموظفين فى عداد الموتى والمصابين ".

" أعرف شخصًا استطاع الحصول على خطاب تزكية من وزير من الوزراء. ومع ذلك رفضوا أن يعطوه التأشيرة. هؤلاء الناس لا يحترمون الرجل الأسود ".

" إذا أردت الوقوف على ذلك بنفسك أحضر لهم عشرة رسائل من رئيس الدولة، وإذا لم تكن تلك الرسائل مصحوبة بالرشوة، فلن يعطوك التأشيرة ".

" إذن، هم يتقاضون رشوة أيضًا ؟ "

" أنصت إلى كلام هذا الرجل. من ذا الذى لا يأخذ رشوة ؟ حتى فى هذه السفارة بعض العاملين يجبون ما يسمى " ضريبة الفراش " من البنات قبل أن يحددوا لهن موعد المقابلة الشخصية المطلوبة للتأشيرة. وحتى مع دفع هذه الضريبة لا يكون النجاح فى الحصول على التأشيرة أمرًا مضمونًا ".

"الناس كلهم يحبون الإثراء السريع. عملية النصب المسماة ٤١٩، لماذا هى فى رأيك عملية مستمرة وتنجح ؟ السبب فى ذلك أن الرجل الأبيض يود مشاركة النيجيرى فى خداع الحكومة والنصب عليها، دون أن يدرى أنه هو الذى سيجرى النصب والاحتيال عليه ".

" المؤلم أنهم عندما لا يريدون إعطاءك التأشيرة يختمون فى جوازك بختم " مرفوض " ولذلك فهم يرفضون إعطاءك التأشيرة إذا ما راجعتهم مرة ثانية ".

" هذا هو السبب وراء استخراج الناس لكثير من الجوازات فى الوقت الحالى. وعندما تختم سفارة من السفارات جواز سفرك بخاتم " الرفض " فإن بقية السفارات تحنو حنو هذه السفارة وترفضك هى الأخرى. وهنا لا يكون أمامك من مخرج سوى استخراج جواز سفر جديد وتروح تجرب حظك من جديد فى مكان آخر ".

" ولد عمى يعمل فى مكتب الجوازات. لقد حقق ما يريد. الناس يتدافعون على بيته كل مساء ومعهم مظاريف. لقد بنى مجمعًا سكنيًا مكونًا من ست شقق ".

" الشئ نفسه يحدث لموظفى التأشيرات. أنا أعرف شخصًا فى قسم التأشيرات فى السفارة الألمانية. أنت تعجز عن عد المنازل التى يمتلكها ذلك الرجل. بلغنى أنهم يتقاضون ألف دولار نظير التأشيرة السياحية ".

" نعم، لكنهم يتعين عليهم مراجعة رؤسائهم البيض ".

كنا نسترق السمع على هذه الحوارات ونحن ننتظر عودة جودى إلينا. كانت حرارة الظهيرة غير رحيمة علينا. لم يعد للشجر ظل (هذا يعنى أن الشمس كانت فى مرحلة الزوال). التبول يكلف صاحبه مالاً. الجماهير باقية لم تتحرك. كان هناك صف واحد يتحرك كما كان هناك صفان آخران يمتدان إلى الطريق الرئيسى. بقينا مع رفاقنا من المترددين على القنصلية، وكنا نجلس جميعًا تحت الشجرة. كانت هناك مشاجرات هنا وهناك. كان الناس يتشاجرون بسبب أماكنهم فى الصف. وهذه امرأة متقدمة تخرج من المبنى وهى تبكى. فقد رفضوا إعطاءها تأشيرة زيارة إلى بدوا Padua لتتمكن من زيارة ابنتها أو شئ من هذا القبيل. تعاطف الناس معها. كان واحد من أبنائها يرافقها إلى السفارة. استدارت هذه المرأة المتقدمة فى السن، ناحية السفارة، وراحت تكيل اللعان والسباب.

" الله لا يوريكم الخير جميعًا، كلكم يا من أنتم فى السفارة، من السفير إلى الكناس. يا سحرة التأشيرات. يا مشعوذى التأشيرات. أدعو الله أن يحل غضبه عليكم. لن تروا الخير مطلقًا. سوف يتيتم أطفالكم، وتتحول حياتكم إلى بؤس. يا سحرة يا مشعوذين ". ثم تفلت هذه السيدة تفلة كبيرة على العشب الأخضر.

أخيراً وفى حوالى الساعة الثالثة جاءنا السيد جودى وهو يتصبب عرقًا. كان يلبس سترة حمراء اللون على بنطلون أخضر اللون. كان متعجلاً تمامًا. اعتذر لنا عن طول الانتظار. قال إنه مشغول وإنَّ كثيراً من الناس يبحثون عنه. قال إنَّ التأشيرات جاهزة ولكن ريس الجوازات، وهو رجل أبيض يود لقاءنا لمجرد المشاهدة فقط. ومع ذلك، حضرت زوجة ذلك الموظف، والتى كانت تقيم فى إيطاليا، فى زيارة مفاجئة لزوجها الأمر الذى أعفانا من تلك المشاهدة. ونصحنا بالعودة إلى بنين وأنه سيقوم بإرسال الجوازات إلى إيداهوسا فى غضون أسبوع.

اختتم الرجل كلامه قائلاً : " أبلغوه بأن يقوم بتجهيز المبلغ. متبقٍ عنده مائة وخمسون ألف نيرة. عدم وجود المبلغ، يعنى عدم أخذ الجوازات ".

الفصل الرابع عشر

عندما عادت مرسى Mercy يوفت Ufot من رحلتها إلى نيجيريا، كان عضو من أعضاء الهيئة المحلية منتظراً فى مطار مالبنسا Malpensa لاستقبالها عند وصولها. وكان بصحبة هذا الموظف سائق من سائقى القنصلية.

أثناء سيرهما فى وسط المدينة راحت مرسى تدردش مع فرد الهيئة المحلية مستخدمين فى ذلك لهجة من لهجاتهم العامية، عجز السائق الفلبينى عن فهم معناها. وجاءت ترجمة الدردشة على النحو التالى :

مرسى : " إذن ما هى أخبار العمل ؟ "

موظف الهيئة المحلية : " لا مشكلات يا سيدتى. كان الموظفون يعقدون اجتماعاً قبل مجيئى إلى المطار. وهذا هو السبب فى عدم مجىء سيدى بنفسه ".

مرسى : " ما موضوع هذا الاجتماع ؟ "

الموظف : " أنا لا علم لى بذلك. وصل أحد ضباط الشرطة قادماً من أبوجا وهم مجتمعون معه منذ ذلك الحين ".

مرسى : " لقد فهمت ".

واصلا سيرهما فى صمت دون حديث، كل منهما يفكر فى أموره الخاصة.

مرسى : " سوف أعرف من زوجى موضوع هذا الاجتماع. أما فيما عدا ذلك فكل شئ على ما يرام ".

الموظف المحلى : " نعم، سيدتى ".

واصلا سيرهما بقية الطريق فى صمت. فى منتصف الطريق طلب السيد / يوفت هاتف السيارة ورحب بزوجته وعودتها إلى وظيفتها. أكد لها أن الأطفال كانوا على ما يرام. واعتذر الرجل عن تعذر حضوره إلى المطار. كان هناك اجتماع مهم فى المكتب. استغرق كلام الرجل معها مدة دقيقة واحدة.

عندما وصلا إلى منزل يوفت الكائن فى ميلانو ديو Due، سلَّم الموظف المحلى زوجة الدبلوماسى مظروفًا.

" هذا هو بريدك يا سيدتى "، كذب الموظف المحلى تحاشيًا للسائق. ثم قال هامسًا بعد ذلك : " كل شئ موجود فى هذا المظروف. العائدات كلها ".

أجابت مرسى وهى تخفى الطرد " أشكرك، يا أويكا Eweka. سنناقش هذا الموضوع فيما بعد ".

" وهو كذلك. كيف سارت الأحوال ؟ "

" كل شئ تمام. نحن نتوقع وصول أربع فى أى وقت اعتباراً من الآن. لقد أخذتهن إلى السفارة وحصلن على تأشيرة شنجن Schengen. كان مفروض أن يأتين على متن رحلات الطيران التى تلت ذلك، لكن الرحلات كلها كانت كاملة العدد إلى بداية الشهر التالى. وقد أبلغتهن أن يداومن على متابعة عملية الحجز ".

" الشهر القادم ليس ببعيد ".

" أهم من ذلك، أني اتخذت بعض الترتيبات مع أحد الوكلاء الملاحيين أن يقوم بشحن الحمولة إلينا مباشرة. هذه المسألة تكاليفها أكثر نظراً لكثرة التردد علىّ هناك لتسهيل العملية ".

" هذا أمر طيب. الأمر يسهل عليك تدبيره بحكم حصانتك الدبلوماسية. بعد ذلك ترسلين لى التفاصيل على أن أقوم أنا بالأعمال المتبقية ".

" أرجوك. أن تعلم أن منصب زوجى حساس جداً. وإذا ما اكتشف حقيقة الأمر فسوف تكون تلك نهايتى. لقد قمت فعلاً بمخاطرات كثيرة ".

" لن يكتشف زوجك أى شئ. أنت مغطاة تماماً وبخاصة فيما بينى وبين هيلين Helen. لا تخافى ".

* * *

توجه القنصل، وبصحبته أحد كتبة القنصلية قاصداً محطة قطارات سانتا ماريا فى فلورنسا. هذه هى محطة القطارات الرئيسية فى فلورنسا وهى تبعد خمس ساعات عن محطة ميلانو على خط إيوروستار ميلانو - نابولى. هذا الخط تسير عليه القطارات بمعدل قطار كل ساعة. قطار إيوروستار يتوقف فترة وجيزة فى بولونيا، وفى فلورنسا ثم فى روما قبل أن يصل المحطة النهائية فى نابولى. هذا يعنى أن الموظفين القنصليين إذا كانوا قد استقلوا قطار الساعة الخامسة عشرة طبقًا لبطاقة الحجز، فذلك يعنى أنهم ينبغى أن يصلوا إلى محطة سانتا ماريا - نابولى عند الساعة التاسعة عشرة وثلاثين دقيقة، بعد توقف قصير فى بولونيا. والذى حدث أن هذين الموظفين القنصليين، فاتهما قطار إيوروستار Eurostar، وأنهما بدلاً من أن يضيعا وقتهما فى انتظار القطار التالى، قرر السيد / يوفت أن يستقلا القطار المباشر، الذى ليس اسمًا على مسمى، لأنه يقف على بلدان كثيرة. ولكن القنصل ندم فيما بعد على هذا القرار.

كانت الرحلة إلى بولونيا متعبة ومملة. الأدهى من ذلك، أنها كانت رحلة عامرة بالأحداث ومثيرة أيضًا. استقلت القطار من بولونيا مجموعة من النساء السوداوات. كانت تلك المجموعة كثيرة الضوضاء، ويتكلمن بصوت عال بلهجتهن المحلية ويضحكن ضحكًا مبتذلاً. كان منظر هؤلاء السوداوات ملفتًا للأنظار. كانت قصات شعورهن غريبة، وكن يلطخن وجوههن بمكياج ثقيل. لاحظ السيد يوفت أن قلة قليلة منهن كن طويلات

ورفيعات لكن النساء المتبقيات كن متينات ويلبسن أحذية عالية الكعوب. كعوب من تلك التي تدبدب على الأرض الخشبية، طراز جيمس بوند، هؤلاء النساء السوداوات كن كلهن صغيرات السن، إذ تتراوح أعمارهن بين سبعة عشر وثلاثين عامًا. كان عدد كبير منهن يلبسن بنطلونات، بنطلونات مجسمة، وكلهن يحملن حقائب، حقائب يد مصنوعة من الجلد، وكانت كل واحدة منهن تمسك في يدها أيضًا كيسًا من أكياس الأسواق المركزية.

عثرن على مقاعد قريبة من بعضهما البعض، ومن لم يجدن منهن مقاعد قريبة حشرن أنفسهن بجانب زميلاتهن حتى لا يبعدن عنهن. وبهذه الطريقة جلس على الكرسي المخصص لراكبين ثلاثة أو أربعة من هؤلاء النساء. وتواصلت الدردشة بصوت عال، الأمر الذى أساء وأغضب المسافرين الآخرين. وهذه واحدة من هؤلاء الناس ترسل رسالة إلى زميلة لها وهما واقفتان واحدة فى بداية العربة والثانية فى نهايتها، الأمر الذى جعلهن كلهن يضحكن ويكررن الإجابات والردود فى ذات الوقت. وهذه سيدة منهن تخرج علبة سجائر ليبدأن كلهن فى التدخين، ويرحن ينفثن الدخان فى جميع الاتجاهات. هذه العربة ليست من عربات التدخين. نهض بعض الركاب ليبحثوا عن مقاعد جديدة فى عربات أخرى، فى حين كان هناك بعض آخر من الركاب كان الشرر يتطاير من أعينهم، راحوا ينتقلون بأنظارهم من امرأة إلى أخرى.

غادر السيد يوفت Ufot العربة مستاءًا. بحكم الفطرة والغريزة، كان الرجل يعرف أن هؤلاء النساء مواطنات أو مواطنون أو رعايا من بلده ؛ رعايا جرى استدعاؤه حتى يشارك في ترحيلهن. تعرف السيد / يوفت على لغتهن، وهي واحدة من اللغات الكثيرة السائدة في إقليم الغرب الأوسط سابقًا من نيجيريا. حول الرجل وجهه لينظر من النافذة، كما لو كان يخبئ وجهه عنهن. لم يكن الرجل يرغب أو يود أن يراه أحد أو يتعرفه. ربما السواد الأعظم منهن كانت لهن مصالح في القنصلية. المؤكد أن البيضاوات من هذه النساء التقينه في القنصلية. وعندما رأى الرجل صورة وجهه منعكسة على نافذة القطار، راح يخبئها من جديد بصفحات جريدة الهيرالدتريبيون التي أحضرها معه.

واصل القطار رحلته إلى فلورنسا. ومع الوقوف في كل محطة من المحطات كان عدد آخر من النساء يستقل القطار إلى أن امتلأت بهن الممرات. وصارت العربة تضج بالضوضاء مثل سوق الأحد(*)، أو Porta Portese على حد قول الإيطاليين.

وعلى الرغم من الضوضاء أفلح السيد / يوفت في الدخول في سنة من النوم. جاءت هذه السنة على شكل تغفيلة مفاجئة. كان الرجل يعرف سلفًا، أن رحلة ليلية طويلة تنتظره. لام نفسه لأنه فاته القطار السريع. قطار البضاعة هذا كان يقف عند كل قرية من القرى الواقعة في المسافة

(*) سوق الأحد هذا : سوق البضائع الرخيصة أو المستعملة. (المترجم)

ما بين ميلانو وفلورنسا. كان القطار واحداً من القطارات البطيئة. كان السيد يوفت يود انتهاز فرصة الحصول على شئ من النوم. كان الوقت يشير إلى أنهما تأخرا فى الوصول. عمليات الترحيل عادة ما تكون عمليات متعجلة وسريعة الوقع : المقابلات الشخصية التى يتعين القيام بها، ومستندات السفر التى يتعين تجهيزها، وعملية الطباعة، والتوقيعات والتحريات والمراجعة. لو أمكن لنا أن ننام هذه الليلة ولو لساعات ثلاث، فذلك يعنى أننا حظيظون. ودخل مايت Might فى غفوة هو الآخر.

كانت الأيام القليلة الفائتة عامرة بالحركة : مغادرة المنزل فى ساعة مبكرة من النهار والعودة فى ساعة متأخرة من الليل. كانت هناك سلسلة من الاجتماعات. ثم حضر السفير بصحبة الزائر القادم من الوطن... بالأمس اجتمعوا إلى مسئول الشرطة إلى ساعة متأخرة من الليل. ثم جاء بعد ذلك الاستدعاء المرسل من قبل مركز رئاسة الشرطة Questura ، للقيام بالعمل القنصلى المطلوب لترحيل الأجانب الذين لا يقيمون إقامة نظامية فى البلاد. لم يعد يوفت يرى أبناءه فى هذه الأثناء. كان الرجل يغادر المنزل وهم نيام، ويعود بعد أن يكونوا قد ناموا. كان الرجل ممتناً للدادة. كانت امرأة يمكن الاعتماد عليها. كان الرجل ممتناً أيضاً لعودة مرسى Mercy من رحلتها التى قامت بها إلى البلاد (الوطن).

كانت مرسى قد أبلغته أن العمل مستمر فى بناء المنزل. وأن العمل وصل إلى مرحلة السقف تقريباً. وأنها اتخذت بعض الترتيبات لتوريد المزيد من الطوب الأسمنتى. كل شئ عال العال. كانت هى الأخرى قد

استطاعت بيع البضاعة التى حملتها معها إلى بلادها، الأجذية، والشنط، والملابس. والمؤسف أن هذه المهمة جاءت فى صباح يوم عودة مرسى Mercy. لكن هذا هو الواقع. كان الرجل قد شرح الموقف لها فى المكتب، وأعلمها بالزيارات الرسمية العديدة، كما أعلمها أيضًا بموضوع الترحيل. كانت مرسى قد وجهت لزوجها أسئلة كثيرة حول موضوع الترحيل. كان الرجل سعيداً بإلمامها بالموضوع وتفهمها له. وكانت تفهم جيداً أسباب سفره وبعده عنها. كان العمل طيبًا لكن له أيضًا تحدياته وتضحياته. جلس الرجل ليدخل فى سنة من النوم.

ما أن أغلق الرجل عينيه حتى أيقظه المساعد. كان مفتش التذاكر قد وصل إليهما. قدما تذكرتيهما، اللتين قاما المفتش بثقبهما. وراح يرمقان المفتش وهو يتجه صوب السيدات.

" التذاكر من فضلكن " كرر المفتش هذه العبارة بصوت عال، وهو يمد ذراعيه، ولكن السيدات تجاهلنه.

قامت واحدة من البنات، متعجلة، وفتحت حقيبة يدها وأخرجت منها شيئًا أعطته لمفتش التذاكر الذى قبله بدوره. كان ذلك الشئ عبارة عن علبة من علب الواقيات الذكرية. وهنا ضحكت البنات كلهن.

قالت واحدة من البنات : " هذا أفضل من التذكرة ".

وأضافت أخرى، " وأكثر نفعًا أيضاً ".

أحس مفتش التذاكر المسكين بالحرج. وأحمر وجهه خجلاً. وتسمر الرجل في مكانه لا يعرف ماذا يفعل. يبدو أنه كان جديداً على المهنة أو أنه جديد على هذا الخط من خطوط القطارات.

" تذاكر من فضلكن "، كررها مرة ثانية، وهو ينتقل ببصره من امرأة إلى أخرى. واصلت البنات كلامهن مع بعضهن البعض، متظاهرات بعدم وجود مفتش التذاكر بينهن.

قامت امرأة سوداء أخرى موجودة في الخلف بتمرير المزيد من الواقيات الذكرية، من يد إلى أخرى، لتصل إلى مفتش التذاكر في المكان الذى كان يقف فيه، وأردفت هذه المرأة السوداء قائلة، ربما لا يكفيه واحد. يبدو أنه قوى. أعطه المزيد ".

راحت البنات ينفخن الهواء في اتجاه مفتش التذاكر، وسط ضحكهن وهن يضعن المزيد من الواقيات الذكرية في راحة يد الرجل ويقلن : " يا رجل يا قوى خذ المزيد من الواقيات ". وقامت إحداهن بإعطائه أنبوبة من المطهرات. وقامت أخرى بنفخ دخان السيجارة في وجهه. وصاحت وضجت أخريات. وغطت أخريات وجوههن كسوفًا وحرجًا. وراح الجميع ينتظرون، خائفين ومشفقين على ذلك الموظف العام المُهَان. تجاهل مفتش التذاكر الواقيات وراح يتركها تفلت من بين أصابعه لتسقط على الأرض. لم يكن الرجل يعرف ماذا يفعل : هل يواصل مع المسافرين العاديين الآخرين أم يصر على دفع النساء الأجرة

المطلوبة ؟ عند هذه المرحلة، تساءلت واحدة من هؤلاء البنات دون أن توجه سؤالها لأحد بعينه.

" ترى، هل يريد الشغل ؟ "

" اطلبى منه أن يأتى للقائى فى الوصلة. لكنه سيدفع خمسين ألف ليرة. الشغل ليس بالمجان. أنا مازلت مدينة لعمتى ".

مع نظرات المفتش التى كانت توحى بعدم الفهم، قام أحد الركاب بترجمة الكلام إلى اللغة الإيطالية ". تقول : إن كنت تود تذكرة فتعال إليها عند الوصلة. لكنك ستدفع خمسين ألف ليرة. خمسين ألف ليرة ".

تعجبت زميلة أخرى قائلة : " كيف يدفع مرة ثانية ؟ يجب أن يشتغل مجانًا وفاء لثمن تذاكرنا ".

" شكرًا لك. أنت لست رجلاً مضبوطًا. أمك هى التى تجعله يشتغل مجانًا. وأنت يا بنت. اذهبى واجعليه يضاجعك مجانًا ".

نشب شجار على إثر ذلك. وارتفعت الأصوات، وتعكرت الأمزجة. وتدخلت سيدة أو اثنتان لتهدئة السيدات الصائحات، فى حين وقف مفتش التذاكر المسكين ينتقل ناظرًا من سيدة إلى أخرى.

كان الناس يتصايحون، ويتجادلون بمختلف اللغات، وأصوات مضغ اللبان تحيط بهم من كل جانب. وملأ الدخان العربة الممنوع فيها التدخين. وتجاهلت البنات وجود مفتش التذاكر تجاهلاً تامًا. وبعد برهة تناول المفتش تلفونه المحمول كما لو كان يطلب العون من رؤسائه.

قالت واحدة منهن وهي تحذر الباقيات : " أنه يستدعي (أوبالجبي) Obalegbe" كلمة Obalegbe هذه واحدة من كلمات لغة بنين ومعناها " الشرطة " . وهنا دب الارتباك في العربة كلها . وقفت البنات كلهن ورحن يبحثن عن أشيائهن الشخصية. وراح البعض منهن يبحثن عن أحذيتهن التي خلعنها .

كان القطار يقترب من فلورنسا . وكان قد هدأ من سرعته استعداداً للوقوف في محطة براتو Prato، أي المحطة السابقة لفلورنسا . كان هناك هرج ومرج نظراً لتكدس البنات في اتجاه مخرجي العربة. كانت رائحة العرق تفوح منهن، وأفواههن تفوح منها رائحة مثل رائحة البول، وأقدامهن كذلك، إذ تخرج منها نفثات الدخان، وأجساد غير مغسولة مختلطة بروائح مختلفة من العطور الرخيصة. ويتوقف القطار . ويقف بعض آخر من الركاب وينضمون إلى النساء في طابور النزول. وفور انفتاح الأبواب الكهربية، خرج الجميع نازلين من العربة في جوف الليل، وهن يسخرن من مفتش التذاكر ويتندرن بنكاتهن. بعضهن كن يلعنّه لعناً صريحاً وهن يشرن إليه، ثم يَشِحْن بوجوههن صوب السماء.

كن يصرخن في مفتش التذاكر ويقلن له : " يا لقيط " ؛ ثم يتحولن بعد ذلك ويختفين في جوف الليل، وهن يثرثرن ويتهامسن. وخيم على العربة بعد ذلك صمت الراحة والسلام. وهنا التفت يوفت إلى جاره :

ـ ويبدي الرجل ملاحظة إلى مساعده، " ها أنت ترى بنفسك إلى أي مدى أهلونا يحرجوننا في كل مكان " .

الآن وبعد أن ذهبت النساء لحال سبيلهن، اعتدل الرجل فى مكانه وكشف وجهه. وتعجب إن كان زملاؤه القائمون بمهمة شبيهة بهذه المهمة فى كل من فيرونا وتورينو، يواجهون أحداثًا شبيهة بتلك التى رآها هو فى القطار.

أجاب الكاتب، " هذا حادث عادي يا سيدى. بلغنى أن واحدة من هؤلاء البنات قضمت ذات مرة إصبعًا من أصابع واحد من مفتشى التذاكر، عندما أصر على أن يجعلها تدفع الأجرة ".

" هذا شئ مخيف. لديك أشياء كثيرة مطلوب منا إنجازها فى إيطاليا. ليست هذه هى نوعية البشر التى ينبغى أن تعرضها نيجيريا على العالم الخارجي. إنهن يسئن إلى سمعتنا. إنهن يلطخن صورتنا، هن ومعهن مهربو المخدرات. ويبدو أن إيطاليا هى مركز رئاسة أولئك وهؤلاء ".

" يتعين علينا مداومة ترحيلهن بصورة دائمة ".

رد يوفت مرددًا كلام مساعده، " يبدو أن الترحيل ليس عملية مجدية. أنت ترحل خمسين اليوم، وفى الغد يصل ثمانون ".

" يتعين على الحكومة القيام بأمر ما ".

" الحكومة تفعل شيئًا بالفعل. أنت وأنا، نحن نمثل الحكومة. الحكومة تفعل شيئًا بالفعل ". ويكرر الرجل كلامه قائلاً : " إما أن تكون عملية الترحيل غير كافية، أو أن الأمر تجرى معالجته بطريقه غير صحيحة ".

" ومع ذلك، أنا سعيد لأنهن يستعملن الواقيات الذكرية ".

" ومع ذلك، ما تزال نسبة الوفيات بسبب الإيدز بينهن عالية جداً. نحن تصلنا كل أسبوع تقارير طبية تفيد وفاة مواطنينا فى كثير من المستشفيات. وسبب الوفاة المعتاد هو مضاعفات مرض الإيدز ".

وصلت هيئة موظفى القنصلية إلى فلورنسا. كان الوقت يصادف بداية شهر نوفمبر. كان الجو مظلمًا. وجرى استقبال هذه الهيئة فى محطة سان مارينو- نابلى SMN، بواسطة بعض ضباط الشرطة، الذين اصطحبوهما فى سيارة الشرطة إلى مركز الاحتجاز فى لونجارنو Lun-garno. فى الحجز جرى استقبال الهيئة القنصلية مرة ثانية من قبل ضباط يرتدون الزى الرسمى. كان فى مجمع الشرطة منشآت مؤقتة شبيهة بالحاويات المستعملة فى الشحن البحرى. كانت هناك بعض الكبائن أيضًا. كان عدد كبير من البنات المقبوض عليهن ينظرن من نوافذ الكبائن. كثيرات منهن كن يجلسن على الأرض على شكل مجموعات، بعضهن متكئات على الجدار والبعض الآخر يدخن. وكانت صدورهن العارية تظهر من وراء ياقات معاطفهن. كن جميعهن يلبسن شعرًا مستعارًا، ووصلات لشعورهن مصنوعة من الشعر المستعار. وكان دخان السجائر يملأ المكان.

جرى توصيل الموظفين القنصليين إلى غرفة من غرف التحقيق. كانت تلك الغرفة تحتوى على قليل من الأثاث. كانت هناك طاولة وكرسيين على أحد الأجناب، وكرسى واحد آخر على الجانب المقابل.

وكان هناك جهاز هاتف على الأرض فى حين كانت هناك آلة كاتبة فوق طاولة صغيرة مجاورة للطاولة الرئيسية.

أخرج الكاتب أدوات عمله التى كان يحملها فى مظروف كبير بنى اللون. كان هناك عدد كبير من الاستمارات غير المكتملة، كما كانت هناك أيضًا ختَّامه، وبعض مواد الكتابة، كما كان من بين هذه الأشياء مقص وزجاجة صمغ.

كان القنصل يناقش مع ضباط الشرطة، مأمور المركز، بعض الأمور.

كان القنصل يود أن يعرف " كم عدد البنات اللاتى لديك ؟ " " نحن حاليًا لدينا فى مركز الشرطة ثلاث وأربعون بنتًا. وما يزال رجالنا قائمين بعمليات المداهمة وسوف يصلنا عدد إضافى من البنات. نحن نستطيع الإمساك بهؤلاء البنات فى المساء وفى الليل. هذان هما الوقتان اللذان تخرج البنات فيهما للعمل ".

" ما عدد ركاب الطائرة ؟ "

" الطائرة تتسع لستين مُرَحَّلة. إضافة إلى عدد آخر من الحراس يصل إلى ضعف هذا العدد ".

من واقع الخبرة، كان السيد يوفت يعرف أن المرحَّلات عادة ما يكن عنيفات، وأنهن يحتجن إلى السيطرة عليهن بواسطة اثنين من رجال الشرطة، واحد منهما فى كل جانب من الجانبين. شركات النقل الوطنية

ترفض نقل المرحَّلات مع المسافرين العاديين. وقد أوشك حادث سابق أن ينتهي بمأساة. كانت البنات قد أثرن الفزع والفوضى على متن الطائرة، ووصل الأمر إلى حد أن قامت البنات بالتغوط على مقاعدهن وفى ممرات الطائرة، ورحن يتفلن فى وجوه أفراد طاقم الطائرة. وقمن بتمزيق الأشياء المنجَّدة فى الطائرة وخلعن مساند الرؤس وقطع الأثاث الأخرى القابلة للإتلاف. وقد خسرت شركة الخطوط الجوية الإيطالية مبالغ كبيرة جراء هذا العمل، ناهيك عن القضايا التى رفعها المسافرون العاديون على الشركة. حاليًا تقوم الحكومة الإيطالية باستئجار طائرة صغيرة لترحيل المهاجرين غير المرغوب فيهم والزوار غير المرغوب فيهم أيضًا. ويخصص لكل مترحلة اثنان من رجال الشرطة حتى يمكنهما السيطرة عليها. ولا يجرى تقديم المشروبات أو الطعام على الطائرة. أى شئ يمكن أن يتحول إلى سلاح فى أيدى المُرَحَّلات على غير رغبة منهن، واللاتى يكلن الشتائم واللعنات لرجال الأمن طوال الرحلة إلى ليجوس.

" متى تقلع الطائرة ؟ "

" غداً ".

" فهمت ما تقول. وعليه سوف تمضى البنات الليل هنا فى حجز الشرطة. هل اتخذتم الإجراءات المطلوبة لإطعامهن وإسكانهن ؟ "

" نعم. وبوسعك الوقوف على ذلك حاليًا أو فيما بعد. أنت تعلم أن هذا المركز من مراكز الشرطة بني خصيصاً ليكون معسكر مرور. ولدينا

من المؤن والتموينات ما يكفى لإيواء مائة شخص. والمركز فيه قسم خاص بالرجال ".

" هل تتوقعون ترحيل الرجال أيضاً ؟ "

" ليس فى هذه المرة. لدينا قلة قليلة جرى إخلاء سبيلهم مؤخراً من السجن. لكنهم لن يكونوا من ضمن ركاب الطائرة المستأجرة ".

" ما هى جرائمهم ؟ "

" مخدرات ".

" لقد فهمت. لكن بفرض أننا استطعنا الحصول على أكثر من ستين مترحلة، فماذا ستفعلون مع هذه الزيادة ؟ هل ستحتفظون بهن هنا ؟ "

" سوف يتحتم علينا إخلاء سبيلهن. نظراً لأن الطائرة لا تتسع لأكثر من ستين شخصاً ".

" فى مثل هذا الحال سوف يتعين علينا التوقف عن مداهمة البنات إذا ما بلغ ما عندنا منهن ستين بنتاً ".

" هذا شئ طيب ".

" هل هذه هى الطائرة نفسها التى ستحمل البنات اللاتى جرى استجوابهن فى كل من فيرونا وتورينو ؟ "

" أعتقد ذلك. نعم هى الطائرة نفسها ".

وهنا هاتف القنصل زملاءه فى فيرونا ليعرف ما يجرى عندهم. ورد عليه السكرتير الأول، " يا ريس، لدينا مشكلة هنا " قالت السيدة أوسوندى Osunde". يبدو أنه حدث بعض التسريب فى مكان ما. لا توجد بنات فى الشوارع. لم يجر إلقاء القبض إلا على ثلاث بنات كن قادمات فى قطار بادوا Padua".

"لابد أن أحداً أبلغهم عن الغارة. فيرونا فيها عدد كبير من البنات. لابد أن يكون هناك أكثر من ثلاث بنات ".

" قامت الشرطة بدوريات على المحطات، وفى الشوارع، حيث توجد مخابئ هذه البنات. إنهن لسن فى هذه المخابئ. ما الذى نفعله يا سيدى ؟ "

تسألنى " ماذا نفعل ؟ إذا لم يكن لديكم من تستجوبونه، فأنت لا يمكنك أن تخترع أحداً. لماذا لا تنتظرون لتتبينوا ما يحدث. التموينات هنا تكفى ستين مترحلة وكذلك الطائرة. ربما نستكمل هذا العدد من فلورنسا. لدينا عدد كبير هنا ". وبعد صمت قصير واصل يوفت حديثه، " أعتقد أنكم سعداء. أنتم لم يحدث مطلقًا أن أيدتم عملية الترحيل هذه ".

" هذه المسألة فيها كلام، يا سيدى. أنا شخصيًا أرى أن هؤلاء البنات يتعين السماح لهن بالبقاء وأن يجرى تأهيلهن هنا ".

حاول يوفت تذكير مرؤسيه، " يجب أن تعلموا، أن وجود هؤلاء البنات هنا غير قانونى ".

" بوسعنا جعل الحكومة تقنن وجود هؤلاء البنات. يا سيدى، أولاً وقبل كل شئ، لقد نزح الإيطاليون أنفسهم إلى الأمريكتين. لم يجر ترحيلهم إلى هناك. بمعنى آخر، لولا ذلك النزوح لما أصبح جيولياني Giuliani عمدة لنيويورك ؟ ولما أصبح جوارديا Guardia عمدة لها من قبله ".

" إذن، أنت ترى أننا ينبغى علينا تركهن هنا ؟ "

" هذا هو رأيى، يا سيدى. نحن نرحلهن وهن يعدن من جديد إلى هنا بطريقة أو أخرى. وبوسعنا تحرير هؤلاء البنات من عماتهن (معلماتهن) وجعلهن مستقرات هنا فى إيطاليا. ومستقبلاً، ستصبح لنا هنا بلدانًا نيجيرية، مثلما لنا إيطاليا صغيرة وشيناتون Chinatown فى أماكن أخرى ".

" قد تكون على صواب فى هذا الذى تقوله. والأرجح أن تكون العمات (المعلمات) هن اللاتى ينبغى ترحيلهن فى واقع الأمر. وفى العقدين القادمين، ستكون الطبقة الحاكمة من الإيطاليين الذين لهم أجداد نيجيريون ".

" هذا كلام دقيق، سيكون منهم وزراء، وبرلمانيون. خلاصة القول : سيكون منهم صناع القرار الذين ليسوا إيطاليين مؤصلين. "..

ويضيف القنصل قائلاً : " لكن أمهات نيجيريات ".

" هذا صحيح، يا سيدى ".

أردف يوفت Ufot "نحن جميعًا نولى هذا الأمر اهتمامنا. حاليًا، أمامنا عمل كثير ينبغى إنجازه".

" هل أنت بحاجة إلى العون والمساعدة ؟ "

" أرى، أن الأمور تسير على ما يرام. فيرونا مدينة جميلة. كانت فيرونا مسرحًا لمشاهد بعض مسرحيات شكسبير، ' رجلان كريما المحتد من فيرونا ' وكذلك ' روميو وجوليت '. يجب أن تفيد من زيارتك وتزور هذين الموقعين. هناك الساحة، التى يوجد فيها منزل كليوباترا وقبرها. يجب ألا تضيع منك هذه الفرصة ".

" أشكرك على تذكيرى بهذه الأشياء. سأفعل ما قلت. أتمنى لكم حظًا سعيداً ".

يقوم يوفت بإغلاق تليفونه المحمول بعد ذلك.

"عجيب ! لم يمكن القبض على أية بنت من البنات فى فيرونا ! كنّا نشك دومًا أن هناك مخبراً في جزء من أجزاء المنظومة، شخص يعمل لمصلحة البنات. قرر تحرى الأمر وراح يركز على العمل الذى أمامه. ناوله ضابط الشرطة بعض المستندات ".

" هذه هى أوراق إلقاء القبض على هذه البنات، وبصمات أصابعهن، وصورهن. هذه الوثائق مرتبة حسب مجئ البنات. إذا ما احتجت إلى شئ، فنحن هنا. هل لك فى شئ من القهوة ؟ "

" نعم، من فضلك. قهوة سوداء لفردين. نحن بحاجة إلى هذه القهوة كيما نظل مستيقظين ". منذ أن جاء القنصل إلى إيطاليا، أخذ يتعود على عاداتهم فى شرب القهوة وإدمان شرب هذه القهوة. أطلق القنصل نكتة : عندما تكون فى روما افعل مثلما يفعله الرومان. : كانت الكابوتشينو Cappuccino قهوته المفضلة. إذ كان بوسعه شرب كميات كبيرة من تلك القهوة. لكنه الآن، يعرف أن المطلوب فى هذه المناسبة هو ما يسميه الإيطاليون كافيه Café اكسبرسو Expresso؛ أى القهوة السوداء ؛ أى بدون حليب.

" هناك شئ آخر. هل راجعتم تصاريح الإقامة ؟ "

" نحن نقوم بذلك، حاليًا. زميلى سلفيو Silvio يقوم بهذه العملية. لحد الآن لا يوجد لأى منهن تصريح إقامة ".

" وهو كذلك، هيا بنا إلى العمل. نحن جاهزان. بوسعك إحضارهن الواحدة بعد الأخرى ". قال هذا الكلام وهو يوجه الكلام إلى مساعده ؛ ويواصل القنصل كلامه، " يا جيمس James، سوف أبدأ مقابلة البنات المرشحات للترحيل. مطلوب منك تجهيز شهادات الترحيل الطارئ كى أوقع عليها. الصور موجودة هنا. اختم الصورة من ETC للسلطات المسئولة، واحتفظ بصورة للحفظ. ثم اختم الصور بعد ذلك بخاتم القنصلية الرسمى. انتبه إلى ما أفعله. إذا ما انتهيت من المطلوب منك يمكنك المشاركة فى استجواب البنات. وأنا إذا ما قدر لى استجواب

البنات كلهن وحدى، فذلك يعني أننا سنقضى الليل كله هنا. إذا حدث لديك لبث اسألني ".

" وثيقة السلطات المسئولة ETC هي وثيقة يجرى إصدارها لواحد من الرعايا يتحتم سفره، لكنه لا يحمل جواز سفر. وهذه الوثيقة تصلح للسفر في اتجاه واحد أى إلى بلد المواطن. كان القنصل قد أحضر معه رزمة من تلك الشهادات أو الوثائق. هذه الوثيقة ستعين على ترحيل بنات الليل هؤلاء إلى نيجيريا ".

شرعا في العمل. كانت أول البنات فتاة صغيرة سمراء اللون يصل عمرها إلى حوالى خمسة عشر عامًا. بدا عليها الخوف، وكانت تصيح وتنتحب. كانت عيناها حمراوان. كانت هناك كدمة على كتفها الأيمن. خطر ببال يوفت أنها كانت تقاوم عملية إلقاء القبض عليها. وكانت على رأسها باروكة أو طاقية شعر مستعار.

تفحص القنصل أوراق القبض على هذه الفتاة : كان اسمها بريشص Precious إسحاق Isaac. مولودة في إبيدجان بتاريخ ١٧ أكتوبر من العام ١٩٨٠. وبذلك تكون من مواطنى ساحل العاج، ويجعل عمرها أيضًا واحدا وعشرين عامًا. النيجيريات فقط هن اللاتى سيجرى ترحيلهن إلى ليجوس. كانت رفيقاتها قد لقنها تلقينًا جيداً. انتحلى جنسية أخرى وسوف يطلقون سراحك. كان يوفت يعرف أيضًا أن القسم الأكبر من المعلومات التى تدلى بها البنات للشرطة، غير حقيقية.

ومنعًا لهذا التحايل، كانت الشرطة عندما تلقى القبض على مهاجرة من المهاجرات غير القانونيات أو عندما تصدر أمر بالطرد والترحيل، تقوم بمقارنة بصمة الأجنبية التى جرى القبض عليها بالبصمات السابقة لهذه البنت. ثم تقوم بإدخال هذه المعطيات ضمن الحاسب الآلى حتى يمكن أن تفيد منها مراكز الشرطة.

بصمات الأصابع لا تكذب.

بعض البنات سبق إلقاء القبض عليهن وأدلين بأسماء مختلفة فى تلك المناسبات. وعن طريق مضاهاة بصمات الأصابع ثبت أن بريشص Precious إسحاق Isaac هى نفسها ماريا Mary سونداى Sunday. وهى أيضًا ماريا Mary جون John، وهى أيضًا أماكا Amaka أويرجو Owerejo.

سألها القنصل، " ما اسمك ؟ " وانفجرت البنت فى البكاء.

" أرجوك يا سيدى، ألا ترحِّلنى إلى نيجيريا. أهلى يعانون. والدى متوفى وأمى لديها أحد عشر طفلاً. أرجوك، نحن نقاسى ونعانى. أرجوك ألا توقع أوراقًا بترحيلى. أستحلفك بالله ".

" سوف نجىء إلى هذه النقطة فيما بعد. الأهم فالمهم. قولى لنا اسمك ؟ "

" الاسم الحقيقى ".

" أماكا ".

" أماكا من ؟ "

" أويرجو ".

" هل أنت متأكدة مما تقولين ".

" طبعًا متأكدة ".

" وماذا عن ماريا سونداى وماريا جون ؟ "

" عندما قبضوا على أعطيتهم ذلك الاسم كى أربكهم ".

" وماذا عن الاسم بريشص Precious إسحاق ؟ "

" هذا اسم الشارع. أنا استعمل هذا الاسم فى العمل ".

" ما هو تاريخ ميلادك ؟ "

" ١٧ من أكتوبر من العام ١٩٨٠ الميلادى ".

" هل أنت متأكدة ؟ "

" أنا لا أعرف. هذا هو ما قالوه لى ".

" من الذى قال لك ؟ "

" عمتى ".

" أين هى حالياً ؟ "

" لا أعرف ".

" فهمت. ما هو محل ميلادك ؟ المكان الحقيقى ".

" أبدجان ".

" كيف الحال ؟ " قالها القنصل بالفرنسية، من باب تذكير نفسه بالسنوات التى أمضاها فى كتونو Cotonou.

صمت.

كرر القنصل تساءله بالفرنسية، " كيف الحال ؟ "

" أنا لا أفهم ما تقول ".

" تقولين أنك ولدت فى إبدجان ؟ "

" هذا صحيح ".

" هذا يعنى أنك يجب أن تفهمى ما قلته بالفرنسية. قولى لنا ما هو محل ميلادك الحقيقى ؟ "

" مدينة بنين ".

" ما اسم والدك ؟ "

" إسحاق ".

" ما اسم والدتك ؟ "

" أنجلينا ".

هذان السؤالان الأخيران لم يكونا مهمين. إذ جرت العادة أن تذكر المترحلات أسماء مزيفة للوالدين.

العنوان في إيطاليا ؟

فيا كازلينا Casilina، روما.

" هل قطعت هذه المسافة كلها قادمة من روما ؟ "

" جئت لزيارة بعض الصديقات و. "..

" عنوانك في نيجيريا ؟ "

" أرجوك يا سيدى، لا ترحلني. أنا هنا من أجل مساعدة عائلتي. أرجوك يا سيدى. الجوع كان يقتلنا في بلادنا. لقد توفى والدى، نحن فقراء ".

" كرر يوفت كلامه متجاهلاً رجاء البنت، العنوان في نيجيريا ".

ردت عليه أماكا، " ٣٠ شارع السوق العلوية ". وراحت تمسح الدمع من عينيها بين الحين والآخر، مع التوسل بين الحين والآخر. لم يهتز يوفت لتوسلات البنت. لقد سبق أن رآها في القطار وهو يعرف مدى غلظتهن وقسوتهن في الحياة الواقعية.

" هل أنت متزوجة ؟ "

" لا ".

" هل لديك أطفال ؟ "

" لا ".

" متى جئت إلى إيطاليا ؟ "

دون يوفت " دخول شهر ديسمبر يكمل وجودى هنا إلى عام كامل ". كان الرجل على صواب فيما كتبه. كانوا يرحلون المومسات غير القانونيات على امتداد السنوات الثلاثة الأخيرة. ومع ذلك كن يعدن مرة أخرى.

" كيف جئت إلى هنا ؟ "

" تسألنى كيف ؟ "

" نعم، أسألك، كيف جئت إلى هنا ؟ هل جئت بالبر أم الجو، أم بطريق البحر ؟ "

" جئت بطريق البر من بنين إلى كونتونو، ثم على متن الخطوط الجوية الأفريقية إلى باريس، ثم بالقطار إلى تورينو. ثم إلى روما ". نعم، خطر ببال يوفت أن ذلك كان واحداً من طرق الرقيق.

" من الذى أحضرك ؟ "

" أنا الذى أحضرت نفسى ".

كانت البنت قد بدأت تدرك أن الطريق مسدود عليها. وفهم يوفت ذلك أيضًا. وتوقفت البنت عن التعاون مع يوفت. هذا هو المعتاد في مثل هذه الظروف. تبدأ البنات بالتعاون فى البداية، تجبن على الأسئلة، وهن يتطلعن إلى الرحمة وتترجين طلبًا للصفح والتسامح. ومع استمرار التحقيق والاستجواب تتزايد حدة الأسئلة وقسوتها، ويتضح للبنت فى نهاية المطاف أنهم لن يطلقوا سراحها. وهنا توقفت البنت عن التعاون، وكانت تلزم الصمت تمامًا أو تتحول إلى الصلافة والبذاءة.

من الصعوبة بمكان أن تكشف البنات عن كفيلاتهن. معروف أن هؤلاء البنات قبل أن يغادرن منازلهن، يؤخذن إلى الأضرحة ويقسمن على عدم إفشاء شخصيات عماتهن (معلماتهن) وكفلائهن. هذا يعنى أنهن حلفن اليمين. وإذا ما تصرفن تصرفًا آخرًا فقد يصبن بالجنون أو يمتن.

تجاهل يوفت السؤال. فقد تأكد له أن البنت نيجيرية. وهذا يكفى تمامًا لأغراض الترحيل. عند هذا الحد، إذا اتضح أنها لا تحمل أوراقًا تعطيها الحق فى البقاء فى إيطاليا، تصبح فى عداد المطلوب ترحيلهن. الأجانب الذين لا يحملون إذنًا بالإقامة هم المطلوب ترحيلهم وليست المومسات.

ومع ذلك، كانت البعثة الدبلوماسية بحاجة إلى معرفة طبيعة أولئك الذين يقفون وراء هذا الاتجار فى البشر حتى يمكنها السيطرة على

الموقف. كان القنصل يعلم أنه إذا لم يجر إلقاء القبض على الكافلين والإمساك بهم ومعاقبتهم فسوف يستمرون فى إغواء البنات وجذبهن إلى أسواق الجنس فى أوروبا. هذا الذى يجرى هو عودة إلى تجارة الرقيق من جديد. البنات يبقين مقيدات بسداد ملايين الليرات، التى يقال إنها صرفت على جلبهن إلى هنا فى إيطاليا، تحت زعم إخراجهن من حيوات الفقر المدقع التى يعشنها فى نيجيريا. السواد الأعظم من هؤلاء البنات لم يكن يعرفن طبيعة الأعمال التى تنتظرهن فى الخارج. لكن عند هذا الحد يكون الميعاد قد فات. هذا يعنى أن مستندات سفرهن تكون قد أخذت منهن، ويجرى استخدامها فى تسفير وجلب بنات أخريات. هؤلاء البنات أصبحن فى بلد غريب من غير مال أو وسيلة تمكنهن من الرحيل. هذا يعنى أيضًا أن السواد الأعظم من هؤلاء البنات كن مجبرات على احتضان حياة الشوارع. وهن يدعين أنهن لم يكن أمامهن أى خيار آخر. لكنهن انخرطن فى حياة الشارع هذه.

هؤلاء البنات، إنْ قدر لهن أن يذهبن ويشتكين كفلاءهن للسلطات يمكن أن يحصلن على العفو العام لأسباب تتعلق بالرحمة والرأفة. وتجنبًا للأخطار التى يمكن أن تواجه هؤلاء البنات، إذا ما عدن إلى بلدهن، جرى إصدار تصاريح إقامة لهن، تمكن بفضلها من البقاء فى إيطاليا. يزاد على ذلك أن هؤلاء البنات جرى ترشيحهن للتأهيل من جديد، على حساب الحكومة، أو على حساب المؤسسات الدينية التى من قبيل مؤسسة كاريتاس CARITAS، ومؤسسة البابا جيوفانى Giovanni

الثالث والعشرين. فى هذه المؤسسات يجرى تعليم هؤلاء البنات العلوم المنزلية، والرعاية الصحية، الأمر الذى مكن هؤلاء البنات من العمل مع كبار السن والضعفاء.

عندما ألقى القبض عليهن، وعندما أصبحن وجهًا لوجه مع عملية الترحيل، يكون ميعاد العفو العام قد فات وانتهى. البعض منهن قد يخاطرن بحيواتهن ويفشين أسماء عماتهن (معلماتهن) تطلبًا إلى الحصول على الوثائق. هن يخشين العودة إلى بنين تجنبًا للفضائح، وتجنبًا لدفع بقية الدين. بعض آخر لا يفشين أسماء عماتهن (معلماتهن) حتى ولو تعرضن لآلام الموت. فقد أقسمن يمين الصمت.

" متى ألقى القبض عليك ؟ "

" مساء هذا اليوم ".

" أين ألقى القبض عليك ؟ "

" فى محطة براتو. كنت أنزل من القطار، وألقوا القبض علىّ أنا وبنات أخريات ".

" أين مكان عملك ؟ "

صمت

كرر القنصل السؤال نفسه.

صمت من جديد. وأعاد الرجل صياغة السؤال مرة ثانية.

" هل أنت تعملين في الشوارع ؟ "

أومأت برأسها وهي كسيرة الخاطر.

" فهمت. هل لديك جواز سفر ؟ "

" ضاع جواز سفرى ". كان القنصل يعرف أن جواز سفرها جرى أخذه منها فور وصولها. هذا الجواز سوف يستخدم في نقل بنات أخريات.

" أليس معك أية وثيقة من الوثائق، بطاقة شخصية، أو Soggiorno Naziolita ? ، كما يقول الإيطاليون ".

" لا ".

شهادة Certificato الجنسية Di Nazionalita ما هي إلا بطاقة شخصية تصدرها السفارة والقنصلية بصفة مبدئية للمواطنين النيجيريين الذين لا يحملون جوازات سفر. جرى وقف إصدار هذه الشهادة بعدما جرى تزويرها وبيعها في محطات السكة الحديد بواسطة السنغاليين والمزورين.

" فهمت. يمكنك أن تنصرفي الآن ".

" أرجوك يا سيدي، من فضلك، لا تُرَحِّلْني. نحن نعاني ونقاسي في نيجيريا ".

" ما أفعله هنا هو لصالحك يا عزيزتي. أنت صغيرة السن. يجب أن تستثمري حياتك في شئ أفضل من هذا، بدلاً من أن تنزلي بها الخطر على هذا النحو، في الشوارع ".

" أسرتى تعانى وتقاسى ".

" هذه ليست أفضل الطرق التى تساعدين بها أسرتك. هل تعرفين عدد البنات اللاتى قتلن فى الشوارع بفعل قتلة مجهولين ؟ هل تعرفين عدد البنات اللاتى توفين بسبب مرض الإيدز ؟ هذا عمل خطير بالنسبة لفتاة صغيرة السن مثلك. ولهذا، سنعيدك إلى الوطن. اللى بعدها، من فضلك ".

أعطى السيد / يوفت إشارة إلى الضابط الواقف إلى جواره، الذى اقتاد أماكا بعيداً وهو، يتشمم رائحتها.

ناول القنصل ورقة الاستجواب إلى الكاتب كى يقوم بإعداد شهادة سفرة الخروج ETC.

أبدى الكاتب ملاحظة، " هى تدعى أن عمرها واحد وعشرون عاماً، ولكن عمرها لا يزيد على ستة عشر عاماً ".

" كل هذا الكلام عن الجوع والمعاناة ".

" الفقر ليس عيباً. هذا الكلام لا ينطلى علىّ بأى حال من الأحوال. هناك فقراء كثيرون فى الوطن. هل كلهن يمارسن البغاء ؟ "

" على كل حال، أنا أعتقد أن شخصاً ما يضلل هؤلاء البنات، وأن الذى يفعل ذلك هو شخص ناضج أو مجموعة من الأشخاص الكبار الناضجين. ربما كانت هناك أيضاً مافيا نيجيرية ".

" هناك، بطبيعة الحال، مَنظم داخل فى هذا الموضوع. هذه التصرفات تبلغ من الحداثة مبلغًا يستحيل معه على شخص القيام بها بمفرده. الجريمة المنظمة معروفة فى الدوائر الدولية ".

نظر القنصل إلى ساعة يده. كانت مقابلة أماكا قد استغرقت عشرين دقيقة ". يجب أن أسرع أكثر من ذلك. لو مشيت بهذا المعدل فذلك يعنى أننا سننام هنا. يجب ألا نعطى أية بنت من هذه البنات سوى خمس دقائق فقط. هذا يعنى أننا يجب أن ننهى المقابلة عندما نتأكد أن البنت نيجيرية وأنها لا تحمل أوراق ثبوتية للإقامة. وأن نوقع أمامها بالرمز TBD الذى يعنى (يجرى ترحيلها) ".

" لقد أمضت عامًا هنا، وهى تتكلم إيطالية جيدة. لقد نسيت لغتها الإنجليزية ".

" فى المقام الأول، كانت معرفتهن باللغة الإنجليزية محدودة قبل مجيئهن إلى إيطاليا. كلهن من المتسربات من التعليم. وهن هنا، يكن مع زبائنهن معظم الوقت. وأنت تعرف الإيطاليين ؛ الإيطاليون لا يعرفون الإنجليزية. وهنا تجد البنات أنفسهن مضطرات إلى تعلم اللغة الإيطالية حتى يمكنهن مسايرة الحياة هنا فى إيطاليا ".

كانت البنت الثانية تصرخ وتصيح وهم يسحبونها لإدخالها المكتب. كانت نحيفة وطويلة. وكان وجهها مازالت عليه بقايا المكياج الثقيل. شعرها كان غير مُسرَّح ويمتد إلى أن يصل إلى منتصف ظهرها.

جلست البنت مكتئبة، وهى تبرز شفتيها الممتلئتين الحمراوين. وعلى الرغم من مظهرها المبتذل، إلا أنها كانت جميلة. كانت عيناها كبيرتان، وفيها نظرة تحدى.

سألها يوفت، " اسمك ". بدأت المسألة تأخذ الشكل الرسمى. كانت أوراق القبض عليها تقول أن اسمها ريتا Rita يوجه Ugoh، وتاريخ ميلادها ١٦ من يناير من العام ١٩٧٢. ومحل الميلاد بلده أجبور Agbor.

أجابت، " لا اسم لى ".

" وفرى وقتنا، وقولى اسمك ".

ردت عليه بعنف " وفر وقتك ولا ترحلنا. أنتم أناس أشرار أغبياء. لماذا جئتم لترحيلنا ؟ اسمح لى أقول لكما : جسمى ملك لى، وأفعل به ما أشاء. إذا كنت أريد استعماله مع أحد الإيطاليين من الصباح إلى المساء فهذا أمر يخصنى. وهذا أمر لا يخصك ".

" ما هو محل ميلادك ؟ "

" أنا نيجيرية. اسمح لى أقول لك. أنا لا يمكن أن أكذب ".

" أين ولدت ؟ "

" أجبور ".

" حسن جداً، من الذى أحضرك إلى إيطاليا، يا ريتا ؟ "

" الله، هو الذى ساقنى إلى هنا ".

" فهمت. أشكرك. يمكنك الانصراف " وعلى الرغم من جمالها كانت لا تقل عنفًا أو خشونة عن البنات الأخريات.

جرى اقتياد ريتا إلى الثكنات المخصصة للبنات. وشرح يوفت لجيمس أنه لا داعى لضياع الوقت هباء مع البنات العنيدات. إذ لم يمكن الحصول منهن على معلومات ". البنات كبيرات السن عادة ما يكن عنيدات. عادة ما يكن بدأن البغاء فى نيجيريا قبل أن يصلن إلى إيطاليا. ومن الصعوبة بمكان أن يتعاون مع المسئولين. هذا يعنى أنهن لن يقلن أى شئ، لأنك حتى وإن رحلتهن، فسوف يعدن من جديد ".

استمرت المقابلات حتى ساعة متأخرة من الليل. إذ جرى إحضار المزيد من البنات، وتصويرهن، وأخذ بصماتهن، قبل أن يجرى استجوابهن. كان هناك ما يزيد على سبعين بنتًا كن يمارسن أشكالاً مختلفة من " الشرمطة ". كن يقفن متكئات على الجدار، أو جالسات على الأرض، يناقشن الموقف. فى منتصف الطريق راح الكاتب القنصلى يساعد فى مسألة إجراء المقابلات.

كانت هناك نوعيات مختلفة من البنات جئن من مضارب الحياة كلها. بعضهن كن يعملن بالتجارة فى الأسواق عندما جرى تجنيدهن. بعض آخر منهن كن يعملن مساعدات فى محلات قص شعر النساء، بعض ثالث كن يعملن فى تصميم أزياء السيدات. الكثيرات منهن كن

طالبات في الجامعة، واثنتان منهما كانتا خريجات من الجامعة النيجيرية، قبل أن يجرى إغراؤهما بالسفر إلى إيطاليا.

تعجب يوفت من هذه التشكيلة الغريبة : الطويلات، والقصيرات، والرشيقات، والشقراوات، لسن شقراوات تمامًا، وسمراوات. بعضهن لهم بشرات مقشرة. وبعضهن وجوههن ملونة. شعورهن مختلفة التسريحات. والكثيرات منهن كن يلبسن طواقي شعر مستعار.

لا عجب في أن الرجال تغريهن النساء ؛ هذا ما دار بخلد الكاتب واستعاد الرجل ذكرى مطالبة ريِّسه له بتحصيل ما يسمى " بضريبة الفراش " قبل ترحيل هذه البنات. لقد فهم الموضوع الآن. صاحب القلب الواهن يسهل إغواؤه بواسطة هؤلاء البنات.

هؤلاء النساء جئن إلى إيطاليا بطرق مختلفة. لقد جرى تجنيدهن من قبل العائلات والأصدقاء. قالت إحداهن إن زوجها أجبرها على فعل هذا الشئ. وقالت أيضًا إنّ ابنتها المراهقة تعمل الشئ نفسه في بلد إيطالي آخر. الكثيرات من هؤلاء البنات باعتهن أمهاتهن للسماسرة الذين يعملون في هذا المجال. ومن بين اللاتي جرى القبض عليهن، كانت هناك أرملة تبلغ من العمر خمسين عامًا. لقد أجرى القنصل مقابلات شخصية معهن جميعهن، واستمع إلى قصصهن وكان يدون الملاحظات.

كانت بنات كثيرات منهن يطلبن اللين والتسامح. بعض آخر منهن كن يوشكن أن يسددن ديونهن لعماتهن، على حد قولهن، وكن يخططن

للعمل لحسابهن عندما جرى إلقاء القبض عليهن. طلبت إحداهن إمهالها بضعة أيام قلائل تعمل خلالها لتجمع " شيئًا من النقود " قبل أن يجرى ترحيلها. بعضهن كن قد دفنّ شيئًا من النقود فى أرض المنطقة التى يتجولن فيها. كن يطلبن التصريح لهن بالعودة وإحضار النقود قبل أن يصعدن إلى متن الطائرة. كانت هناك قصص كثيرة، وتوسلات كثيرة، وكذب كثير. وتجاهل القنصل كل ذلك. قال لهن : " أنتن هنا بلا تصريح قانونى. ويجب أن تكن مستعدات للترحيل فى أى وقت من الأوقات. وأن القنصل سوف يصل مثل اللص فى جنح الليل ".

فى نهاية المطاف كان هناك حوالى إحدى وأربعين بنتًا جاهزات للترحيل. الكثيرات منهن سوف يطلق سراحهن عندما يؤكد الحاسب الآلى أنهن يحملن تصاريح إقامة. عندما كان ضابط الشرطة يجأر بالشكوى، كان يوفت يؤيده ويسانده قائلاً : " سوف أُرحِّل هؤلاء اللاتى لا يحملن وثائق، يا حضرة الضابط. أما أولئك اللاتى يحملن مستندات فسيبقين. أولاً وقبل كل شئ، أن حكومتكم هى التى أصدرت هذه الوثائق وهذه التصاريح. وعليه لا يمكن لى أن أرحِّلهن. ذلك الذى تأتيه هذه البنات بفعل تصاريح الإقامة الإيطالية، أنا لست مسئولاً عنه ". قدمت بنتان مستندات طبية تفيد أنهما من الحوامل. وهما يتعين الإفراج عنهما أيضًا.

ثلاث بنات أصبحن جاهزات للترحيل فى فيرونا. كان رفاق القنصل فى تورينو قد اتصلوا به. وقد وجههم بأن يقتصر عدد البنات المترحلات

على ست عشرة فتاة فقط. هذا العدد سوف يكمل العدد إلى ستين بنتًا. وبذلك تكتمل حمولة الطائرة. هذا شئ مؤسف. كانت تورينو بمثابة مركز رئاسة المومسات النيجيريات في إيطاليا. فقد ألقت الشرطة القبض على ما يزيد على مائة فتاة هناك. هؤلاء البنات سوف يطلق سراحهن نظراً لعدم وجود أماكن على الطائرة. هن حظيظات اليوم، هذا ما دار بخاطر القنصل في هذه اللحظة. في المرة القادمة قد لا يكن من بين الحظيظات. الأيام كلها مفتوحة للسرقة، أما المسروق فليس له سوى يوم واحد فقط.

كان اليوم يومًا متعبًا، حسبما توقع القنصل. وراح الرجل يجمع أوراقه، وهو متعب، وقرر الاتجاه إلى الفندق.

الفصل الخامس عشر

جرت العادة مع الإيطاليين ألا يُنَكِّتوا أو يمرحوا في فترة الغذاء أو Pasta Time على حد قولهم. في ذلك الوقت تكاد الحياة العملية تتوقف كلها. المحلات والبنوك، ومكاتب أخرى متعددة تغلق أبوابها، كما تغلق المشروعات العائلية المتوسطة أبوابها هي الأخرى، بل أن البعض من هذه المشروعات يمتد توقفها إلى ثلاث ساعات. وعادة ما يكون ذلك التوقف في الفترة من الساعة الواحدة إلى الساعة الرابعة مساء. يذهب العمال إلى بيوتهم في هذه الفترة ليتناولوا غداءهم Pasta ويلعبوا مع رفيقاتهم ويأخذوا سنة من النوم قبل استئناف فترة ما بعد الظهيرة. أما هؤلاء الذين ليس لهم رفيقات فيفضلون الراحة أو العمل في هدوء.

كان من عادة آموس Amos التقاء زميله دون Don رومولو Romolo الأعلى منه، ورفيقه في العمل في بستان الرب.

" سيدي، أنا أود الاعتراف من فضلك، إن كان لديك متسع من الوقت ".

رد عليه دون رومولو، " أكيد ".

فتح دون رومـولو باب مسكنه وأشـار إلى زائره بالدخـول، ثم يدخل هو من بعـده. وأشــار بيـده طـالبًا إلى آمـوس الجلوس على مـقـعـد من المقاعد.

" جهّز نفسك إلى أن أجئ بالبطرشيل(*) ".

كـان دون رومـولو متـأكدًا من مـوضـوع ذلك الاعتـراف. فى كل مـرة يعرب زميل فيـها عن حـاجته إلى الاعتراف العـاجل، فـإن ذلك كله يكون بسبب الخطيئة الميتة، تلك الخطيئة المحزنة التى يرتكبها الآدمى فى حق الوصـايا الست. تدبر الخطايا الأخرى، التى يمكن أن يرتكبـهـا النـاس ؟ اللصـوصية ؟ الخروج من الدين للدخـول فى دين آخر ؟ ضـيـاع الإيمان ؟ لا، إنها الوصية السادسة. الروح توّابة، لكن الجسد ضعيف.

من واقـع الخـبـرة، كـان الرجل يعلم أن الكاثوليكى إذا مـا ارتكب خطيئة مشينة، فإنه يعانى مـعاناة شديدة من الإحسـاس بالذنب، إلى حد أن هذه المشاعر تسبب له القلق وعدم الارتيـاح. يكره الإنسان نفسه. لقد فعلتها من جديد، لقد خدعت الرب Master، وهـا أنت تحنث من جديد فى الوعد الذى قطعـته على نفسك بالإيمان. وهذا ضـمـيرك يؤنبك. وهـا أنت قـد ذهبت إلى مكان مـا طلبًا للاعتـراف، لكى تتـخلص من ذلك الحمل الثقيل الذى يجسم على صدرك، تود العودة إلى كليتك من جديد، تود أن

(*) البطرشيل : نسيجه طويلة يجعلها الكاهن فى عنقه وعلى صدره عند الخدمة. (المترجم)

تحس بالرحمة والعفو من جديد، حتى تكون جديراً بالحظوة بالقربان المقدس. فى بعض الأحيان قد يدور بخلدك مكان الاعتراف، وأنت مازلت على مسرح الجريمة، قبل أن تغادر درب هذا العمل المشين، وأنت مازلت بين ذراعى شريكتك فى هذه الجريمة.

الاعتراف رغبة ملحة عند الناس العاديين. هذا الاعتراف يمكنك من تقبل الرحمة والغفران. وبغير ذلك يعرف الأبارشة الآخرون على الفور أنك خرجت على الوصايا الست، وزوجك هى التى تعرف ذلك بصفة خاصة.

وما هى الخطيئة الأخرى التى يمكن أن يقع فيها الإنسان وتجعله لا يضمن الحظوة بالقربان المقدس، غير الزنا والفسوق ؟ وعليه، وفى أقرب فرصة، وفى زمن لا يتعدى يوم السبت فى أغلب الأحوال، يكون الإنسان قد اندفع ذاهبًا إلى الكنيسة. البعض يذهبون من أحضان عشيقاتهن إلى من سيعترفون أمامه، الذى عادة ما يكون هو قس الأبرشية. بعض آخر يروحون ومعهم عشيقاتهم فى السيارات، يبحثون عن الأماكن التى يجرى فيها الاعتراف فى أنحاء البلدة، قادمين إليها من لقاءاتهم الغرامية، بعد ارتكاب الخطيئة. أن تحاول مقاومة حدوث المزيد من الإغواء إلى ما بعد القُدَّاس الذى يجرى فى صبيحة يوم الأحد، وبذلك يكون بوسعك المشاركة فى طابور العشاء الربانى، الذى يمضى سريعًا، متمثلاً فى استعداداتك الأخيرة، التى تنكشف ليراها الجميع.

الاعتراف عند القساوسة، شئ مختلف. يسمح لك بالمشاركة فى العشاء الربانى عندما تشارك فى القدّاس، حتى وإن لم تكن فى حالة من حالات الرحمة والغفران. إذ بغير ذلك، يشعر المؤمن بالخزى والعار. ومع ذلك تظل تشعر أن الإحساس بالذنب ينخر فى دواخلك. وبخاصة أثناء فترات بعينها من عامك الدينى، والاحتفالات المهمة التى من قبيل الكنيسة الأم، والصوم الكبير، وعيد الميلاد.

تعاطف دون رومولو مع ذلك التائب الذى جاء للاعتراف، وبخاصة زملائه من القساوسة. لكن ذلك لم يقلل من قسوة الرجل. كان الرجل غليظًا معهم وكان ينزل بهم عقوبات ذاتية قاسية. لأنهم أخذوا العهد أولاً وآخراً. ولا يجب التعامل معهم بشئ من الاستخفاف.

الأفعال لا تحير، وإنما الذى يحير ويضايق هو ما بعد هذه الأفعال. هذه الأفعال تفضى بين الحين والآخر إلى الحمل. كان يعلم أن أفضل الحلول هو إجهاض الجنين، وهذا مثال أصيل على أن الخطيئة تجر إلى خطيئة أخرى. وهذا أمر يغضب الكنيسة. لقد قرأ الرجل فى مكان ما أن إيطاليا يحدث فيها كل عام ملايين من حالات الإجهاض.

وإذا ما رفضت المرأة الإجهاض، أدى ذلك إلى واحدية الأبوة، إذا لم تكن هذه المرأة متزوجة. أما إذا كانت متزوجة من رجل آخر، وهو ما يحدث فى بعض الأحيان، فهى تربى فى منزل زوجيتها، طفلاً لا ينتمى إلى زوجها. قد تسير الأمور سيراً حسناً، فى كل الأحوال. لكن الويل

لك، إذا ما كان ذلك الطفل مريضًا، وأكدت الفحوص الطبية هذه الحقيقة. هذا يمكن أن يؤدى إلى خراب البيوت، ويتسبب فى الفضيحة والعار للكنيسة الأم.

لم يكن دون رومولو شهيراً بسرعة الاعتراف. لم يعد الرجل بعد فى غانا التى يتكون طابور الاعتراف فيها من خمسة صفوف، فى زمن محدد. هناك فى غانا يتعين على الناس التسابق على الاعتراف. هناك فى غانا يتحدد لكل تائب ثلاث أو أربع دقائق. باركنى أيها الأب، لقد أخطأت. كان اعترافى الأخير فى اليوم الفلانى أو الشهر العلانى، أو العام التركانى. اعتباراً من ذلك التاريخ وجدتنى أخرج على الوصايا الست عدداً من المرات، أو مرات كثيرة، أو مرات لا أذكر عددها إلخ. هذا هو كل ما فى الأمر، أيها الأب. أنا نادم على هذه الخطايا. لكى تتوب، قل مرة واحدة : مرحباً مريم، وأبونا واحد، ثم الندم بعد ذلك.

فى الوقت الذى يقوم التائب فيه بالاعتراف، يقوم القس أيضًا بالدعاء بدعاء الغفران. ثلاث دقائق. ثم ينادى على المعترف التالى ! يجيئ من الصف الرابع.

هذا المكان الذى نحن فيه ليس مدينة أكرا Accra فى غانا. نحن هنا فى بيروجيا Perugia فى إيطاليا. كان دون رومولو، يعرف أن المؤمن لم يعد يقبل بشغف على عملية الاعتراف. بعض الناس لم يعودوا يؤمنون بالاعتراف. بعض ثالث كان يتساءل عن حقيقته وجدواه. – بعض رابع

من الناس كانوا يدينون الاعتراف إدانة قطعية. لماذا أعترف أمام مخلوق بشرى، خطّاء مثلى ؟ الناس هنا يعيشون فى جو من الخطيئة المعلنة، يقبلها المجتمع ويسلم بها . التعايش. التشارك فى غياب القربان المقدس، وبدون احتفال، بل يصل الأمر إلى حد تربية الأطفال فى ظل هذا التوحد. ابتسم الرجل. هذا أيضًا من قبيل الشرور الصغيرة. الآن يحاول أصحاب الجنسية المثلية ربط العقدة. ولا أحد يهتم بالأمر أو يعيره انتباهًا، لا أحد يهتم بهذا الأمر سوى كبار السن، هم والمرضى والذين يوشكون على الرحيل عن دنيانا . لقد فشلوا فى نقل موروثهم الدينى وتقواهم إلى أبنائهم، من باب أن هذا الموروث قابل للانتقال بطبيعته.

هذه واحدة من المرات التى لا تحصى ولا تعد، التى يخطر بباله خلالها أن الكنيسة تحتضر فى إيطاليا، تلك هى حقيقة الأمر. النداءات الباطنية هنا معدومة. الناس هنا إما أن يكونوا قد سمعوا ولم يلبوا، أو أن الرب لم يعد ينادى الإيطاليين مثلما كان الحال من قبل.

كانت أبرشيات كثيرة تغلق أبوابها لعدم وجود من يترددون عليها من طلبة معاهد اللاهوت والتواقين إلى التقوى والورع. وعلى العكس من إفريقيا، نجد أن كليات اللاهوت والأديرة ما تزال قادرة على إبعاد الشبان الصغار عنها. خطر ببال الرجل أن مستقبل الكنيسة يكمن فى العالم الثالث، فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية، وليس هنا فى إيطاليا. مستقبل الكنيسة ليس فى بلد المدينة الخالدة. كان الرجل يعلم علم اليقين

أن كثيراً من الأبرشيات فى أوروبا تعتمد على الأجانب فى بقائها مفتوحة تؤدى خدمات للناس. وفى حال غياب القساوسة الأجانب، وفى حال غياب الراهبات أيضًا سوف يتعطل العمل وتتعطل المهام فى كثير من الكنائس والأديرة.

منذ أيام قلائل، كان دون رومولو قد قاد جنازة الأم Mother أيماكولاتا Immacolata راعية جمعية شقيقات صلب المسيح. كانت هذه الأم قد توفت عن عمر يناهز الثمانين عامًا، وهى آخر شقيقة من شقيقات هذه الطائفة. وأثناء حضور الجنازة سمع القس دون رومولو أن مبنى الدير هو والأراضى الخاصة به قامت بشرائها شركة من شركات سلاسل الفنادق. وهكذا نرى أن مكانًا من أماكن العبادة والصلاة سوف يتحول إلى وكر من أوكار الرذيلة.

نعم، هذا شبيه بالحضارات العظيمة كلها، التى نجد فيها الكنيسة الأوروبية آخذة فى الأفول والاضمحلال.

نعم، هذا لا يعد سببًا للوصول إلى حل وسط بشأن القرابين المقدسة لذلك المبنى، استهدافًا لمنع الحواجز على ما يبدو، والتقليل من المعايير. كان الاعتراف قربانًا من قرابين الكنيسة، وعندما كان دون رومولو يستمع إلى الاعترافات، كان يعامل مسألة الاعتراف هذه بما تستحقه من احترام. كان الرجل يسعى إلى معرفة الظروف التى أدت إلى الوقوع فى الخطيئة حتى يفهم التائب بصورة أدق وأفضل ؛ وبالتالى ينصحه بتجنب الوقوع فى الخطأ مرة ثانية. لم يكن الرجل يلجأ إلى

أنصاف الحلول فى مثل هذه المسألة. وشاع وذاع أن دون رومولو كان صارمًا فى مسألة الاعتراف. كان إخوانه القساوسة لا يقوون على الاعتراف أمامه مرة ثانية. وكان ذلك فى مصلحته تمامًا ؛ إذ كان يوفر له المزيد من الوقت ليقوم بأبحاثه ودراساته.

نحن الآن أمامنا السيد آموس Amos الذى يود أن يعترف أمام دون رومولو.

نظر دون رومولو إلى رجل اللاهوت، وراح يتشكك فى الخطيئة التى ارتكبها ذلك الرجل. كان دون رومولو قد رفض الطلب بالفعل. كان الوقت وقت القيلولة وبحكم ما هو معتاد، فإن هذا الاعتراف سوف يستغرق شيئًا من الوقت. لكن آموس كان يبدو عليه الندم والقلق. لقد رآه فى الحرم الكنسى. وكانا قد تبادلا الإيماءات الصامتة. لم يكن دون رومولو يعرف آموس معرفة جيدة حتى يمكنه الاستماع إلى ذلك الاعتراف. ومسألة رده وصده ليس فيها من الخير شئ فى أضعف الأحوال.

راح آموس ينتظر فى غرفة المعيشة الصغيرة، أملاً فى وصول القس كبير السن. كان آموس يرتعد فى داخله. لم يكن قادرًا على تبين ما إذا كان الخجل أم العار هو الذى يجعله يشعر بالقلق وعدم الارتياح. أم أن الاثنين هما اللذان يولدان لديه هذا الإحساس. كان آموس يود التخلص من الحمل الثقيل الجاسم على روحه. كان يتألم عندما يدرك أن دقائق معدودات من السرور هى القادرة على ما أنت فيه.

كيف لمثل هذا العمل من أعمال المتعة والسرور، بتوليد هذا التغيير الكبير، وتوليد هذا القدر الكبير من الألم، وهذا القدر الكبير من القلق وعدم الارتياح ؟ للمرة الألف، كان الرجل يعد نفسه بأنه سينأى بنفسه عن الدنايا، ويبر بوعوده وإيمانه ؟

ومع ذلك، وأثناء انتظاره طلبًا للاعتراف كان يعرف فى قرارة نفسه أنه قد يسقط فى الخطيئة مرة أخرى. يذكر أنه سبق أن قيل له أن أتقى الرجال يخطئ ما لا يقل عن سبع مرات فى اليوم الواحد. كان يستغرق فى تفكيره وهو يوافق على ذلك كله. كان يلوم نفسه ويوبخها، صحيح أن أتقى الرجال يخطئ سبع مرات فى اليوم، لكنه لا يرتكب خطايا اللحم التى أقع فيها أنا.

كان دون رومولو قد عاد إلى الغرفة. كان جالسًا بالقرب من الجاثى على ركبتيه. وأشار إلى وجوده واستعداده دون أن ينبس بكلمة واحدة. أقترب منه آموس، وجثى أرضًا وأحدث فى ذات الوقت الإشارة الدالة على الصليب. وهنا أحدث القس الإشارة نفسها على رأس آموس.

" فليعمر قلبك بذكر الرب، وليكن على شفتيك ليساعدك على الاعتراف اعترافًا طيبًا ". قال دون رومولو هذا الكلام باللغة الإيطالية.

أغلق آموس عينيه. لم يستطع أن ينظر فى عينى دون رومولو. تمنى لو أن الاعتراف يتم من تحت الغطاء، أى من النوع الذى تخفى فيه وجهك عمن تعترف أمامه : تخفى وجهك، وتخفى عارك، وتخفى خجلك.

" سـامـحنى وباركنى أيهـا الأب، على أخطائى وخطاياى. المرة الأخيرة التى اعترفت فيها كانت فى الأسبوع الماضى. واعتباراً من ذلك التـاريخ كـسـرت الوصية السادسة مرة واحدة. أنا نادم وآسف على ما فعلت ".

هناك. لقد تخلص مما كان جاثماً على صدره. كان ينتظر والخوف يتملكه وكانت أنفاسه تخرج بطيئة. كان يعلم أن الأمر لم ينته بعد. لن ينتهى الأمر إلا بعد أن يخلصك القس من تبعات خطيئتك، إن صح وكان قادراً على هذا الامتصاص.

حدث شئ من السكون. لم يقل دون رومولو شيئًا. كان الرجل يتوقع كل ما حدث.

قال آموس متوسلاً : " هذا هو كل ما فى الأمر، وأنا آسف ونادم على ما حدث ".

وهنا تكلم دون رومولو :

" أيها الأخ، شئ طيب أن تذهب للاعتراف فى أغلب الأحيان. احرص على عدم ضياع هذه العادة. إنها عادة طيبة. لكن اسمح لى أن أسألك، متى ذهبت للاعتراف فى الأسبوع الماضى، وما هى الخطيئة التى اتهمت نفسك بها ؟ "

" إنها الخطيئة نفسها أيها الأب " لكنى تخلصت من تبعاتها، فلماذا تؤلب على المواجع ؟ دع الماضى يمضى.

" مع من حاولت ارتكاب هذه الخطيئة ؟ "

هل هذا أمر مهم ؟

" مع امرأة، أيها الأب ". هناك، أنا لست من أصحاب الجنسية المثلية.

" هل كانت المرأة متزوجة ؟ "

" أنا لا أعرف ذلك، أيها الأب، أنا لا أستطيع أن أقطع بذلك ".

" بمعنى آخر، ألم تكن تعرفها جيداً ".

" لا، أيها الأب، لم أعرفها جيداً ".

" هل كانت هي نفسها امرأة الأسبوع الفائت ؟ "

" لا، أيها الأب، أنا لا أظن ذلك ". متى ينتهي هذا العذاب.

" أنت لست متأكداً، يا دكتور ؟ "

" لم تكن المرأة نفسها، أيها الأب ". بدأ الرجل يتعرق. وبقيت عيناه مغلقتان. يا للحرج !

" هل كانتا عضوين في أبرشيتك ؟ "

" أنا لا أعتقد ذلك، أيها الأب ".

" هل يمكن أن تكون أكثر تحديداً من فضلك ؟ "

" أنا لم يسبق لي رؤيتهما في أبرشيتي من قبل، أيها الأب ".

" لعلك، تحدثنى عن العلاقة التى بينك وبين هاتين المرأتين ".

" كانت امرأتان إفريقيتان، أيها الأب. لقد أخذتهما لتوصيلهما. لكنى لم استمر فى هذا الأمر. ضميرى. ضميرى يؤنبنى.. ".

" أنا آسف أيها الأب. لن أعود إلى الخطيئة من جديد. أرجوك أن تسامحنى ". كان ذلك من قبيل التوسل والرجاء.

" الخطيئة التى ارتكبتها واحدة من الخطايا الجسيمة. وأنا أنصحك بالبحث عمن تعترف أمامه، وتروح تناقش معه هذه الخطيئة ".

" المعترف الذى اعترف أمامه موجود فى روما، أيها الأب. وأنا هنا أمضى أجازتى ".

" حتى وإن كنت فى أجازة، فإنه هو الذى سيكون فى وضع أفضل ليخبرك بما يجب عمله. ما طول مدة إقامتك هنا ؟ "

" خمسة أسابيع، أيها الأب ".

خيم الصمت من جديد فى الوقت الذى كان القس الكبير يتمعن الأمر. بدا ذلك الصمت وكأنه قرن من الزمان. أحنى التائب رأسه إلى الأسفل لكى ينظر فى وجه الكاهن الذى يعترف أمامه، الذى أمسك رأسه براحة يده اليمنى.

بعد برهة، راح يتكلم من جديد.

"هل سمعت عن دون لورينزو ؟ أقصد دون ماريو لورينزو ؟ "

" تقصد دون لورينزو الريمينى ؟ "

" نعم، أنه يقيم فى ريمينى ".

انتظر آموس بعض الشئ. لم يعرف السبب الذى جعل دون رومولو يتطرق إلى دون لورينزو. ترى يمكن أن يكون هو الذى سيقوم بدور الكاهن الذى سيجرى الاعتراف أمامه ؟ إذا حدث ذلك، سيكون شيئًا غير عادي، لكنه ليس أمرًا غريبًا على الكنيسة. فى بعض الأحيان، وبدلاً من الصلوات المعتادة التى تجرى بمناسبة التوبة، قد يصدر قسيسًا، أو بالأحرى قسيسًا من القساوسة المتحمسين للدين حكمًا بمعاقبة التائب، عقابًا غير عادى. كل ما فى الأمر، إنه ينتظر توضيح القسيس الكبير للشكل الذى ستكون عليه التوبة.

" أقترح عليك أن تدبر الوقت الذى يسمح لك بالسفر ومقابلة دون Don لورينزو. واقع الأمر، إنى أنصحك بالسفر إليه والاعتراف أمامه. وهو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يعطيك السماح والعفو ".

" إيها الأب، هل تأذن لى بأن أسألك عن سبب ذلك ؟ ما نوع المؤسسة التى يديرها دون لورينزو ؟ "

" إنها إحدى رسائل الحواريين للمطحونين، والمومسات، ومدمنى المخدرات. هذه المؤسسة تعمل على النساء اللاتى يجرى الاتجار فيهن، النساء اللاتى يدخلن سوق اللحم البشرى. رابطة أو مؤسسة دون لورينزو تحاول إعادة تأهيل هؤلاء النساء ".

" فهمت ما تقول ".

" أتمنى أن تفعل ذلك، يا أخى. انظر إلى هذا الرجل، من بين القساوسة، على أنه يعمل ليل نهار لكسب هذه الأرواح المسكينة إرضاء للمسيح. ومع ذلك، أنت من ناحية أخرى، تساعد، وتحرّض، وتطيل أجل هذه الجريمة الكريهة. كما أنك ستقسم يمين الطهارة عند رسامتك الكهنوتيه، أليس كذلك ؟ "

" نعم، أيها الأب. من ذا الذى لا يفعل ذلك ؟ "

" المرء لا يمكن أن يخدم سيدين فى آن واحد ".

" أنا آسف، أيها الأب ".

" أنا اسف أيضًا لأنك لا تأخذ مهنتك مأخذ الجد. مهنة القس واحدة من المهن المقدسة. كهانتنا Priesthood لها طابع ملكى. نحن جنس مُختار، نحن أناس مُنتقون، نحن أناس مدعوون إلى العفة والقداسة. لا تُضيّع ذلك كله بأعمال مشينة. نحن ملح الأرض. والملح إن قدر له أن يفقد مذاقه، لا تكون له جدوى أو فائدة. ما الذى جرى لهذا الملح ؟ "

" إنه يجرى التخلص منه ".

" هذا صحيح، إنه يجرى التخلص منه، يجرى دوسه بالأقدام. هل تود من الرب التخلص من كهنوت القساوسة، لأن ذلك الكهنوت أصبح نسقًا مشينًا ولا مذاق له أو طعم ؟ "

" أنا أسف، أيها الأب. كل ما فى الأمر أن الحال يكون صعبيًا فى بعض الأحيان ".

" لم يقل مطلقًا إن الأمر سيكون سهلاً. قال : هو نفسه سمّاه صليبًا ! خذ صليبك واتبعني. الكثيرون يُدْعون، لكن القلَّة هَم الذين يجرى اختيارهم. انظر إلى العالم حاليًا، وكيف يتغير حاله. الزمن ينفد. نحن لسنا متأكدين مما سيأتى لنا به الغد. يجب علينا أن نتيقظ وندعو لأننا لا نعرف متى تكون الساعة. فى ضوء سقطتك أنا وفى ظل ظروفها. أنا أنصحك مرة أخرى بالسفر ولقاء دون لورينزو. اعترف أمامه. أعطه الفرصة ليكون هو الذى يحدد التوبة من هذه الخطيئة. ويعطيك العفو والسماح بعدها. سوف أباركك الآن لكنى لن أُحلِّك من تبعات هذه الخطيئة. سافر فى سلام وأمان ".

الفصل السادس عشر

جاءت نسبة حضور اجتماع العمات (المعلمات) لا بأس بها. لم يحضر هذا الاجتماع سوى سبع عشرة (معلمة)، لكنهن كن الأقوى من بين المعلمات كلهن. كن يتقاسمن فيما بينهن ويسيطرن على ما يقرب من تسعمائة بنت فى سائر أنحاء إيطاليا، بدءاً من جيرونا Gerona إلى نابولى، إلى أكونو، وليفرنو، ويوداين Udine وصولاً إلى روما، وبريسكيا، ومانتوفا، وكاتانيا، وروفيمو Roviyo. وعلى الرغم من أنهن كان يطلق عليهن اسم (المعلمات) أو العمات، إلا أنهن كان من بينهن بعض الرجال. كانت تلك (المعلمات) بمثابة بارونات الاتجار فى صناعة الاتجار فى البشر والمخدرات. فى بعض الأحيان كانت تجارة البشر تتداخل مع تجارة المخدرات تداخلاً كبيراً. كانت بنات كثيرات يبعن فى أسواق المومسات فى كل من تورينو وجنوه، وكن قد جرى جلبهن أصلاً ليقمن بدور الشيالات فى المخدرات. كانت تلك البنات يحملن اللفائف إذا ما تطلب الأمر ذلك، وكن يسرن فى الشوارع فيما بين المهمّات. كانت بنات كثيرات يواجهن كابوس سداد المبالغ الكبيرة التى عليهن لعماتهن أو كفيلاتهن، الأمر الذى اضطرهن إلى العمل فى تجارة المخدرات

باعتبارها الطريق الأسرع في سداد الديون، وحصولهن على حرياتهن. يزاد على ذلك أن كثيرًا من تجار المخدرات كانوا أيضًا أصدقاء وزبائن لهؤلاء المومسات.

تعهدت بعض العضوات الحاضرات بتوصيل الرسالة إلى زميلاتهن اللاتى لم يتمكن من حضور الاجتماع بسبب بعد المسافة أو لاستلامهن الدعوات بعد الموعد المحدد للاجتماع. أدركن أن اقتراح ليزى فيه فائدة لهن، وتعهدن بمنع البنات من النزول إلى الشارع مدة سبع ليالٍ وسبعة أيام تبدأ على الفور. ثم يقمن بعد ذلك باستعراض الموقف من جديد.

عندما بدأت العمات (المعلمات) يغادرن صالون هيلين Helen، مقر الاجتماع، شُوهدن جميعهن وهن يستخدمن هواتفهن المحمولة. كن، كلهن يصدرن الأوامر والتعليمات ". أبلغن البنات بعدم النزول إلى الشارع لمدة محددة ". قام واحد من الرجال، يدعى هنرى Henry، بطلب نسيبه على الهاتف في سوق المواد الغذائية الإفريقية الذى يعد واحداً من ممتلكات ذلك الرجل. هذا السوق كان مجرد غطاء قانونى للأعمال الأخرى غير القانونية التى كان يديرها هذا الرجل. الآن وبعد أن تقرر قيام البنات بالإضراب، سينتهز هذا الرجل الفرصة لنقل بعض الشحنات إلى عملائه في كل من لندن وأسبانيا.

همس الرجل قائلاً، بعد أن رد عليه البائع : " إنه أنا، بلّغ البنات بألا يخرجن الليلة. واللاتى يكن منهن فى ورديات صباحية ينبغى أن يعدن عند الساعة الخامسة على أكثر تقدير. ستكون هناك مداهمة.

بلغهن بأن يمتنعن عن الخروج مدة أسبوع على الأقل. وأن ينتظرن منى صدور تعليمات أخرى ".

كانت هناك بارونات أخريات يصدرن تعليمات مماثلة للوسطاء والسماسرة. وسرعان ما اختفت النساء السوداوات ومعظمهن من النيجيريات والغانيات، من شوارع إيطاليا. وبفضل كل من برونو Bruno وميخائيل Mikhail، غابت عن الشوارع أيضًا بعض النساء الأوروبيات الشرقيات، وذلك من باب التضامن مع زميلاتهن الإفريقيات.

هذا هو إضراب المومسات.

* * *

ودّع إدواردو Edoardo دلمونتى زوجته الحسناء، وهو يصطحب معه طفليهما إلى مدرسة ركوب الخيل فى حى فيلا Villa جلورى Glori. كان ذلك طقس من طقوسهما الأسبوعية. كان الولدان يتعلمان ركوب الخيل فى حين كانت الزوجة تخرج لشرب القهوة والجلوس مع صديقاتها من المجتمع الراقى.

أوصل إدواردو كلا من آريانا Arianna وساندرو Sandro إلى مدرسة ركوب الخيل وسلمهما للمدرب، دايجو Diego. وجلس إدواردو على مقعد قريب من المدرسة، وراح يتصفح صحيفتى Republica

(الجمهورية) و Messaggero اللتان أحضرهما معه. كان هناك أيضًا بعض آخر من أولياء الأمور. كان الجميع يتفرجون على أبنائهم وهم يلعبون ويركبون الخيول. نظر إدواردو إلى ساعته. كانت الساعة الرابعة بعد الظهر. تعجب ما إذا كان الوقت ما يزال مبكرًا. المسافة سوف تستغرق نصف الساعة تقريبًا.

ألقى بالصحيفتين أرضًا ونهض واقفًا. كان طفلاه حول دايجو يستمعان إلى كلامه عن الخيول.

نادى إدواردو ولده ساندرو Sandro.

"دير بالك على أختك. سوف أعود إليكما. سوف نذهب للتمتع بشئ من الجيلاتى قبل عودتنا إلى المنزل، إلى اللقاء، هل هذا مفهوم ؟ "

وافق ساندرو قائلاً : " وهو كذلك ". قالها وهو منفعل لمسألة الجيلاتى هذه.

" قد أتأخر قليلاً في العودة. ولذلك مطلوب منكما البقاء هنا مع دايجو إلى أن أعود لكما."

" إلى أين أنت ذاهب ؟ " كان ساندرو يود أن يعرف. كان من عادة الأب دومًا أن يذهب إلى مكان ما بعد أن يترك ولديه في نادى ركوب الخيل.

" أنا ذاهب إلى التسكع مع بعض الأصدقاء، في حين تقومان أنتما بركوب الخيل ". وراح إدواردو يقهقه لتلك النكتة ". سأعود

إليكما. ويمكنكما الحصول على ثلاثة أنواع من الجيلاتي. لكن لا تقل ذلك لأمك ".

لوّح إدواردو بيده لكل من آريانا Arianna وديجو Diego وذهب لحال سبيله.

ركب إدواردو سيارته الجاجوار، واتجه بها إلى حيث المتعة والإثارة. استغرق حوالى ساعة. من فيلا جلورى، استدار بسيارته وسار فى طريق مسجد روما، قاصداً فورو Foro إيتاليكو Italico. ثم اتجه بعد ذلك إلى تقاطع الطريق مع فيا Via سالاريا Salaria ثم خرج من المدينة قاصداً مطار أورب Urbe العسكرى. كانت حركة المرور خفيفة. سيصل إلى المكان المطلوب فى غضون دقيقتين. هنا يقف دومًا فى هذا الطريق. كان الوقت ما يزال مبكراً، لكن لافيت Lovett هى الأخرى من الطيور المبكرة.

كان إدواردو قد جعل من لافيت خليلة له. كانت صاحبة ابتسامة حلوة ولم تكن كثيرة الكلام. وعلى الرغم من عملها، إلا أنها كانت صاحبة وجه ملائكى، وجه يوحى بالطفولة والثقة. كانت دائمًا ما تحييه بحرارة، من باب سرورها للقياه، كما لو كانت تعيش من أجله، وكما لو كان هو أعظم الرجال على وجه الأرض. قالت إن اسمها لافيت. كما أعطته أيضًا رقم هاتفها المحمول، الذى ضاع منه. ولم يسبق له أن طلبها على الهاتف. لم يكن هناك ما يدعو لمثل هذا الطلب. جرت العادة أن يلتقى بها فى هذا المكان.

كانت هناك بنات أخريات قبل أن يلتقى لافيت. كن كلهن سوداوات. فى البداية كان إدواردو يبحث عن بنات متباينات، آمنات من الناحية الصحية وممتعات من حيث اللذة، إلى أن التقى لافيت.

كانت لافيت فيها كل ما ليس فى زوجته، كانت سابرينا Sabrina نحيفة، إذ كانت تعيش على حمية تقوم على السلاطة والقهوة. كانت تمضى نصف حياتها فى صالات الرياضة البدنية. لقد أصبحت جافة وواضحة العظام، وكادت تكون شبيهة بالرجال.

على الجانب الآخر، كانت لافيت ممتلئة القوام، ناعمة الملمس، طرية البشرة. كانت ممتلئة، ولكنها لم تكن متينة بل قوية، مثل أمه. كان لها نهدان كبيران، مثل نهدى أمه. كما كانت مؤخرتها كبيرة ومستديرة مثل عجيزة أمه. كان ذلك هو منتهى أوجه الشبه. لكنها على العكس من أمه كانت سوداء. وعلى العكس من أمه أيضًا، كانت من بنات الليل والشوارع.

طلب إدواردو منها الإقلاع عن الشارع. وعرض مساعدتها فى الحصول على عمل في مكان ما. كان لديه أصدقاء من أصحاب المصانع. لكنها رفضت هذا العرض. كان عليها دين يتحتم سداده. وأنها لن تترك الشارع إلا بعد سداد هذا الدين والزيادة عليه. كانت تقول إن العمل في مصنع من المصانع لا يمكن أن يسدد مبلغًا كهذا حتى لو قدر للإنسان أن يعمل طوال حياته.

فى بعض الأحيان كان إدواردو يأتى إلى فابا Via سلاريا Salaria ولا يجدها هناك. وكانت تشرح له فيما بعد أنها انتقلت إلى مكان آخر طلبًا للعمل : كاسيلينا Casilina، إيور Eur، فراسكاتى Frascatti، أولجياتا Olgiatta، وسان سيزاريو. فى بعض الأحيان كانت لافيت تصل إلى فلورنسا وفيرونا. كانت تقول فى بعض الأحيان : " روما، تجف فى بعض الأحيان. كما أن الشرطة تداهمنا. ولذلك يتحتم علينا التحرك بصفة مستمرة ". وهنا كانت لافيت تطلق مثلاً من الأمثال الإفريقية. الإنسان لا يقف فى مكان واحد كى يشاهد حفلاً تنكريًا.

فى تلك المناسبات كان إدواردو يأخذ فتاة أخرى من البنات الموجودات فى فايا Via سالاريا Salaria. كان هناك عدد كبير من البنات فى ذلك المكان. ومع ذلك، كان ذلك المكان عامرا بالحركة. لم تكن بين إدواردو والبنت الجديدة أية صلة من الصلات. الطريف فى الأمر أنه كان يشعر أنه غير مخلص مع لافيت Lovett. إلا، عندما يجيئ إدواردو إلى هذا المكان ولا يجد فيه لافيت، يفضل انتظارها أو قد يعود إليها فى يوم آخر. كان يطلب منها رقم تليفونها المحمول، ويدخله فى تليفونه المحمول، تحت اسم مزيف. وبهذه الطريقة يتعذر على زوجته سابرينا Sabrina اكتشاف حقيقة الأمر. وبهذه الطريقة يمكنه مداومة اتصاله بلافيت Lovett.

وصل بسيارته إلى فايا سالاريا. لم تكن هناك بنات. ذهب إلى مسافة أبعد فى ضواحى المدينة. ولم يجد بنات أيضًا. لم يجد لافيت. لم

يجد أحداً. ترى هل ضاعت منه البنات ؟ فى بعض الأحيان لا يقفن على الطريق، وإنما يتوارين إلى حد ما بين الإحراج. وبالتالى يضعن منك إذا لم تكن يقظاً. وعند السوق المركزية استدار الرجل إلى الخلف، عائداً إلى روما، لكنه بطأ من سرعة سيارته فى هذه المرة، وراح ينظر يميناً ويساراً أثناء سيره، ويدقق النظر إلى الأدغال. لم يجد أحداً. كانت السيارات تسير خلفه، وتطلق آلات التنبيه حتى يفسح لها الطريق أو يُسْرع بسيارته ؛ لكنه بطأً من سرعته وترك السيارات الأخرى تتجاوزه. توقف إدواردو قبل وصوله إلى مطار يورب Urbe العسكرى بمسافة صغيرة، وأطفأ محرك السيارة وراح ينتظر.

ربما تأخرن فى المجئ إلى مكان العمل. ربما يكون القطار أو الحافلة أو أية وسيلة من وسائل النقل الأخرى، التى استعملنها فى المجيء هى التى أخرتهن. لهذا سينتظر بعض الشئ. لقد بدأت فترة الدورة الشهرية عند سابرينا وبالتالى ليس هناك احتمال لمعاشرتها جنسيًا هذه الليلة. لم يكن يريد سابرينا وإنما كان يريد لافيت. كان الرجل قلقًا وعجولاً. الطفلان هما الآخران سوف ينتهيان بعد فترة وجيزة من درس ركوب الخيل. كان الرجل مضطراً إلى العودة حالاً إلى فيلا جلورى. قرر العودة إلى فايا سالاريا مرة ثانية. ربما يكن قد عدن. مرت عليه مجموعة من الحافلات. ربما كن فى تلك الحافلات. وعاد الرجل من حيث أتى مرة ثانية.

كانت النتيجة واحدة. لم تكن هناك بنات فى الشوارع فى تلك الليلة. بدأ يدرك أن هناك سيارات أخرى متعددة راحت تبطئ من سرعتها مثلما يفعل هو تمامًا. ربما يكون أصحاب هذه السيارات يبحثون هم الآخرون عن البنات.

ترى، ما الذى حدث لهن ؟ تعجب الرجل. لا توجد بنت واحدة فى سالاريا ؟ خطر بباله أن لافيت قالت له ذات مرة إنها تذهب إلى منطقة كاسالينا أو منطقة إيور وأحيانًا إلى سان سيزاريو طلبًا للعمل. ليته لم يفقد رقم هاتفها المحمول.

خطر بباله أن يذهب إلى كاسالينا بحثًا عنها. المسافة تستغرق حوالى ساعة إلى كاسالينا. وخطر بباله أيضًا طفلاه اللذان كانا فى مدرسة ركوب الخيل. وعندما يصل إلى كاسالينا ستكون حصتهما قد انتهت، ويروحان ينتظران عودته. دعهما ينتظران. سيحاول مصالحتهما. ساندرو كان يريد الحصول على جهاز تشغيل اسطوانات. وكانت أريانا تود الحصول على آله تصوير. سوف يلبى لهما طلبيهما.

من يمن طالع إدواردو أن حركة المرور لم تكن كثيفة. وإن هى إلا دقائق حتى أصبح فى كاسالينا. ومن سوء طالعه أنه لم يجد بنات فى الشوارع. لا توجد حتى ولو بنت واحدة واصل سيره إلى الأماكن التى اعتادات البنات الوقوف فيها، لكن الشوارع كانت خالية من البنات. وعاد ثانية إلى فيلا جلورى محبطًا. اتصل بالمنزل. راح جرس التليفون يدق

إلى أن بدأ جهاز الرد الآلى فى العمل. كانت سابرينا لم تعد بعد من عند صديقاتها. أخذ طفليه واشترى الجيلاتى الذى وعدهما به، كما اشترى لهما فطيرة أيضاً، ثم اصطحبهما بعد ذلك إلى المنزل.

عندما بدأت أعينهم تتركز على مسلسل الأخ الكبير الذى كان يعرضه التليفزيون انسل إدواردو خارجاً من المنزل.

كان يود الذهاب إلى إيور Eur، وإلى سان سيزاريو، إذا ما تطلب الأمر ذلك. كان الرجل يود لقاء لافيت. كان بحاجة ماسة إلى امرأة فى تلك الليلة. وإذا لم يجدها، فسوف يأخذ امرأة أخرى.

ويعود الرجل مرة ثانية قادماً من حى باريولى Parioli فى روما قاصداً منطقة إيور Eur. تمنى لو أن البنات كن هناك. إنه بحاجة إلى دقائق قليلة يفعل فيها ذلك الذى يود عمله ثم يعود بعد ذلك إلى منزله.

عندما وصل إلى كرستوفر كولومبوس، انشرح صدره عندما شاهد بعض البنات البيضاوات على الطريق. بدأ يشعر بالاطمئنان. ها هى البنات موجودات هنا فى أضعف الأحوال. كان يعلم أن البنات السوداوات يقفن فى وصلة أخرى عند نهاية الطريق، بالقرب من فندق الشيراتون. سارع فى الوصول إلى المكان، وهو يسابق الضوء الأحمر.

لكن لم تكن هناك بنت سوداء، ولا حتى بنت واحدة فى الشارع. ترى هل هناك احتفال إفريقى أو شئ من هذا القبيل ؟ كان الرجل مندهشاً يتعجب. هل اليوم هو عيدهن الوطنى ؟ أو ماذا حدث ؟ أين

البنات السوداوات ؟ أين ذهبن ؟ لم يستطع الذهاب إلى سان سيزايرو. المسافة طويلة جداً . وبذلك تكون سابرينا قد وصلت إلى المنزل. وهو لا يريد لها أن تشعر بالقلق أو الشك.

قرر أن يأخذ بنتًا بيضاء كانت تقف بالقرب منه. كانت تلك البنت ألبانية الجنسية.

" هل لك أن تفعلى فىّ جميلاً وتدلينى على البنات النيجيريات ؟ "

تشاورت السيدة مع زميلتها الواقفة بجوارها .

قالت : خمسين ألف ليرة. كان يعرف جيداً أن التسعيرة عشرين ألف ليرة. لكن الليلة مختلفة عن سائر الليالى الأخرى.

أخرج إدواردو النقود، وتناولتها منه البنت ؛ وراحت تفتح باب السيارة. لكن إدواردو سألها، " أنا أريد البنات النيجيريات ؟ "

ردت عليه قائلة : " هن مضربات اليوم " قالتها وهى تدس النقود فى صدرها ". لكن نحن هنا " قالتها بدلع ودلال.

تساءل مندهشاً، " مضربات ؟ "

" نعم "

" وما سبب هذا الإضراب ؟ "

" الشرطة تزعجنا فى عملنا . وعليه قررن الإضراب عن العمل ".

ردت عليه، وهى تنصرف مبتعدة عنه. وبدأت الزبائن تتوافد على المكان.

بقى إدواردو فى سيارته، وحده يتفكر فى ذلك الذى سمعه. المومسات السوداوات مضربات ! شئ مضحك. راح يحاور نفسه، المومسات يجب ألا يضربن. مداهمات شرطية.

خطر بباله أن لافيت قالت له شيئًا عن مداهمات الشرطة وعن الترحيلات. يبدو أن البنات كن يعربن عن احتجاجهن. قال بينه وبين نفسه وهو يبتسم : " لما لا ؟ " فى إيطاليا الناس كلها تضرب إذا ما أرادت ظروفًا أفضل. لماذا لا تضرب المومسات ؟ كان يسائل نفسه حول مدة ذلك الإضراب ؛ دعا ألا تزيد مدة ذلك الإضراب عن يوم أو يومين.

لم تكن نفسه تواقة إلى البنات البيضاوات فى تلك الليلة. هن شبيهات بزوجته سابرينا. شق طريقه إلى منزله، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يجيئ إلى هنا مرة ثانية فى غضون أسبوع، كى يبحث عن لافيت. فى هذه المرة سوف أحصل على رقم هاتفها المحمول.

* * *

لم تحدث هذه الراحة للبنات من قبل مطلقًا. أسبوع كامل راحة تامة ! كن يتعجبن. بعضهن كن قد نسين أحاسيسهن فى أيام العطلات ؛ كن قد نسين معنى النوم فى الفراش أثناء الليل، معنى أن يفردن

أرجلهن، ويأخذن الحياة مأخذًا سهلاً. كن متعودات على الشعار الذى يقول : " الوقت نقود "، تلك المحاضرات التى يتلقينها من عماتهن، بعضهن كن يعملن وردية النهار ووردية الليل، ويحصلن على سنة من النوم وهن فى الحافلات وفى القطارات أو فى الوصلات التى يقفن فيها. الآن هن فى إضراب، وعماتهن أمرنهن بالبقاء فى المنازل. بوسعهن الآن الاستماع إلى موسيقاهن الإفريقية المبنية على السحر والشعوذة، ويشاهدن التليفزيون ويلعبن الورق.

فيما يتصل بالبنت رولى Rolli، كانت الراحة غاية المنى. كانت رولى طوال مدة تزيد عن أسبوعين مشغولة بتضميد جرح فى أعضائها التناسلية. وعلى الرغم من وجود هذا الجرح إلا أن عمتها كانت تجبرها على العمل ومعاشرة الرجال. هذا الإضراب سوف يهيئ الفرصة لهذا الجرح بالالتئام.

سرى بين البنات إحساس طيب. البعض منهن انتهزن هذه الفرصة ورحن يغسلن ملابسهن، ويصلحنها. بعض آخر منهن رحن يغسلن شعورهن المتسخة ويغيرن الشعر المستعار الذى يحملنه على رؤسهن منذ أشهر عدة. وبعض ثالث منهن رحن يختلطن بزميلاتهن اللاتى لم يجتمعن إليهن منذ زمن طويل، بحكم عملهن فى ورديات مختلفة، وفى وصلات مختلفة، وفى بلدان مختلفة أيضًا.

لم تكن مسألة البقاء فى المنزل أمرًا سهلاً بالمرة. كانت عماتهن مستاءة من عدد الساعات الضائعة والدخل الضائع أيضًا. ولكى تحافظ

على أشغال البنات طلبت منهن تنظيف الشقة تنظيفًا كاملاً. وقمن أيضًا بتنظيف الأوانى والمواعين، كما قمن بتلميع الأثاث، وغسيل النوافذ وتنظيف دورات المياه. تشاجر عدد كبير من البنات بعضهن مع البعض الآخر. كانت بعضهن مدينات للبعض الآخر بمبالغ نقدية. جرى إرسال البعض منهن فى عمليات خاصة بالمخدرات لحساب عماتهن. لكن الغالبية العظمى من البنات مكثن فى المنزل ورحن يدردشن ويتحدثن تليفونيًا إلى زبائنهن وعشاقهن، الذين رجوا بعضهن بالخروج للقائهم فى مكان بعينه ؛ لكن البنات كن يرفضن تحاشيًا لمداهمات الشرطة. كن يقلن نحن مضربات. نحن نرسل رسالة إلى الحكومة كى تتركنا نعمل فى سلام.

كان الأمر مثيرًا للضحك، لكنه فى ذات الوقت كان أمرًا خطيرًا.

فى ذلك الأسبوع، زاد غضب كثير من الرجال من عائلاتهم. كان أزواج كثيرون يخرجون من منازلهم، وعندما لا يعثرون على بنات الشوارع يعودون مبكرين إلى بيوتهم، الأمر الذى يعد مفاجأة سارة للزوجات. بعض الأزواج الآخرين، أصحاب الخطط الخاصة، لم يكونوا راضين عن هذه العودة المبكرة.

الفصل السابع عشر

استلمت جواز السفر وفيه التأشيرة بعد عودتى إلى بنين بأسبوع. حاول إيداهوسا أن يحجز لى على رحلة الطيران التى تقلع من ليجوس. أبلغنى أن ذلك الأمر صعب. كانت الرحلات التى تقلع من مطار ليجوس كاملة العدد. استطاع إيداهوسا أن يرشى أحد العاملين فى مكتب الخطوط الجوية الفرنسية حتى يحصل على مقعدين لدوريس Doris وأنا أيضًا. كانت أماكا Amaka ومعها بيشنس Patience (صبر) وأخريات قد سافرن بالفعل.

جرى تجهيز كل ما هو مطلوب لسفرى. وهنا أبلغت المستشفى الذى كنت أعمل فيه. تمنوا لى الخير والسلامة، وطلبوا منى ألا أنساهم. طلبت مني واحدة من الممرضات أن أسعى لابنتها فى الترتيبات التى تجعلها تلحق بى فى مرحلة لاحقة.

قبل أن أرسل أطفالى إلى أمى فى أودا Oda، كنت قد حضرت لقاء مهمًا مع إيداهوسا.

التقيت إيداهوسا فى مكتبه فى ساعة متأخرة من المساء يوم الأربعاء. كانت دوريس ومعها بنتان أخريان فى المكتب أيضًا. واتجهنا

سيراً على الأقدام إلى مكان منعزل. وأنا لا أتذكر الطريق المؤدى إلى هذا المكان. كان الجو ليلاً وسرنا مدة تزيد على الساعة قبل الوصول إلى ذلك المكان المنعزل.

كان ذلك منزل الساحر أو بالأحرى المشعوذ. اقتربنا من ذلك المنزل، وهنا توقف إيداهوسا وقال لنا ما يلى :

" هذا هو ضريح إجرجيدنتا Igirigidinta. هذا هو أقوى مداوى (مشعوذ) فى نيجيريا فى الوقت الحاضر. الناس يفدون عليه من السنغال ومن لندن طلبًا لرأيه ومشورته. سحره وشعوذته لا يمكن التغلب عليهما أو حلهما. إجرجيدنتا هذا إن ربط عقدة من العقد يستحيل على أى إنسان فى الدنيا حلها. أنتن ستقسمن هنا بحيواتكن وحيوات أمهاتكن بأنكن ستقمن بسداد المبالغ التى أنتن مدينات بها لهذه السيدة التى تتكفلكن حتى الذهاب إلى إيطاليا. ستقسمن أيضًا على عدم إفشاء تفاصيل هذه الصفقة للشرطة أو للناس الآخرين. ستقسمن على عدم فعل ذلك مطلقًا تحت أى ظرف من الظروف. إذا لم تكن على استعداد لذلك، أبلغونى حتى أشطب أسماءكن وأعطى أماكنكن لبنات أخريات هن على قائمة الانتظار ". لم تتحرك أية واحدة منا.

" وهو كذلك. انتظرن هنا إلى أن أبلغ الرجل العظيم بوجودنا ".

ويدوى فجأة من جوف الليل، صوت أخافنا وأذهلنا :

" من ذا الذى يود أن يقول لى إنهم هناك. لقد رأيتكم. لقد رأيتكم قبل أن تتحركوا من بنين الجديدة. رأيتكم أيضًا وأنتم تعبرون نهر إكبوبا

Ikpoba. أنا أجــرجـيـدنتا الرجل الذى له أعين فى كل جزء من رأسه، أنا الــرجل الـوحيد الذى له آذان وأعين مدفونة فى الأرض. أنا أعرف مـا تــريــدون. تقـدم إيداهوسـا . تقـدم بحـرص وحـذر. أنت واقف على أرض صلبة ".

مشى إيداهوسـا فى اتجـاه الصـوت وراح يتشـاور مـعـه. بعد فترة قصيرة عاد إيداهوسا إلينا نحن النسـاء حيث كنا مكومين فى مكان من الأماكن. لم نستطع التحرك. كـان المكان مـخـيـفًـا. كانت أصـوات الليل مـخـتلطة بطنين قـادم من مـسـافـات بعـيـدة، ومـخـتلطة أيضًـا بأصـوات حشرات الليل، الأمر الذى بث الخوف فى نفوسنا وجعلنا نقشعر فزعًا وخوفًا. هذه بومـة تنعق من شـجـرة قريبة منا. وهذا هو نقيق الضـفـادع لا ينتـهى ويوحى باليـأس. وهذه هى النسور تحلق حول الضـريح، وهذه هى رياح السموم تعوى من حولنا.

" فـيت Faith (إيمان) أنت التى سـتـدخلين أولاً. وسـوف تدخل دوريس من بعدك، ثم بعد ذلك البنات الأخريات. تعاونّ مع الرجل. افعلن كما يقول لكن. هذا هو أهم جزء من رحلتنا. هذا الجزء هو الذى يضمن لنا سداد كن لتلك المبالغ التى ننفقها عليكن فيما يتصل بجوازات السفر والتأشيرات، والتذاكر. إذا لم تتعاون، فذلك يعنى أنكن لن تسافرن ".

تمالكت نفسى، ودخلت فى اتجـاه الضـريح وانحنيت كى أستطيع الدخول. كان هناك فانوس مـعلق فى أحد الإحراج الذى كان يتدلى على

مقدمة الباب المنخفض. كان المبنى شبيها بالكهف. وكان يلقى ظلاله الكئيبة على الجدران التى كان معلقا عليها جماجم بشرية متعددة مختلفة الأشكال. كانت رائحة المكان على نحو يصعب معه وصفها. عملى فى العيادة، أكسبنى خبرة معرفة العديد من روائح البشر. أما الروائح التى كانت فى الضريح فكانت روائح مختلطة، لكنى أذكر أن أقوى تلك الروائح كلها هى رائحة الدم، يليها رائحة الجروح ثم رائحة الموت. فى أحد الأركان، كان المداوى (المشعوذ) يجلس مرتديًا لباسًا يغطى الجزء الأسفل من جسمه. كان وجه الرجل، وصدره، وبطنه البارز مدهون بألوان براقة، ويمسك فى يده سكينًا. وقفت مرعوبة وخائفة، متخوفة من الاقتراب منه.

أمرنى المداوى " ارفعى ملابسك وادخلى فى الدائرة التى هناك ". وعندها لاحظت أن هناك دائرة على الأرض مرسومة بسائل أحمر غليظ القوام. وتأسيساً على الخبرة التى اكتسبتها من العيادة عرفت أن ذلك السائل عبارة عن دم ؛ دم متجلط. خطوت خطوة ودخلت الدائرة. وعندما استجمعت شجاعتى ورحت أنظر إلى الرجل خلسة بطرف عيناى وجدت الرجل جالسًا والجزء الأوسط من جزءه شبه عار. وجدت أن مُنْفَرج هذا الرجل كان مغطى بالدم. ووجدت أيضًا فتحة فى المكان من جسمه الذى كنت أتوقع أن أرى فيه عضوه الذكرى. وأدركت أن ذلك الذى حسبته حزمه من الحطب، موضوعة بجوار الجدار، كان، فى واقع الأمر، عبارة

عن جثة من جثث الموتى. كانت الرجلان تبرزان من البنطال المصنوع من قماش الجينز. لم أستطع أن أتبين إن كان ذلك ذكراً أم أنثى.

أيقنت أن أوان التراجع قد فات. لقد شاهدت الكثير. وتعين على إكمال الطقوس وإلا لن أغادر المكان وأنا على قيد الحياة. وأنا عندما وافقت على البقاء أصبحت شريكة فيما يدور.

ورحت فى صمت أستجير بالمسيح (يسوع). كنت واحدة من المسيحيات المتنصرات. كان راعى الأبرشية قد حذرنى من الأعمال أو الممارسات التى من هذا القبيل. لكنى لم يكن أمامى ما أفعله. كان ذلك يعنى، إما فعل ذلك أو عدم السفر إلى إيطاليا. لكنى الآن فى وضع يحتم على إما فعل ما أنا فيه أو ضياع حياتى. تذكرت الطريقة التى كان القس يستخدمها في طرد الشياطين أثناء قداسات الشفاء والعلاج التى كانت تدور فى الكنيسة. فى داخلى كنت قد ألغيت كل الرقى والشعوذات التى يمكن أن يدخلها ذلك المداوى (المشعوذ) فى روعى، وغطيت نفسى بدم يسوع الثمين. وسرت فى جسمى قشعريرة.

قصٌ أجرجيدنتا شيئًا من شعرى، من شعر رأسى، ومن شعر عانتى، وقص أظافرى، سحب شيئًا من الدم من إصبع الإبهام. وألقى بكل ذلك فى قرعة من القرع الذى يطلقون عليه اسم اليقطين ويتخذونه أوانى أو أوعية. كانت تلك القرعة تحتوى على بعض أوراق الشجر والأشياء الأخرى. وتفلت وتنفست فى تلك القرعة. وراح أجرجيدنتا يدير القرعة وهو يتمتم فيها ببعض الرقى والتعاويذ.

أمضيت وقتًا طويلاً فى ذلك الضريح. أُجبرت على شرب شئ من السائل فى الوقت الذى وعدت فيه بعدم الإفشاء بأسماء كل من ليزى Lizzy، وميرسى Mercy وإيداهوسا إلى الشرطة. أنا لم أعرف من تكون ليزى هذه، لكنه طلب منى ضم اسمها إلى بقية الأسماء ففعلت بما أُمرت. وأقسمت بأنى سأجر اللعنات على رأسى وعلى رأس أمى، إذا لم أدفع مستحقات ليزى إلى أخر مليم. أنا مازلت أذكر ذلك الذى قلته كما لو حدث بالأمس فقط.

" اسمى فيث موسى Moses أوجيام Ugiame، أقسم بحياتى وحياة أمى، أن أسدد لليزى Lizzy جونسون Johnson كل المبالغ التى أنا مدينة لها بها. وأنا أقسم بحيوات أولادى، بألا أفشى اسمها للشرطة فى نيجيريا أو إيطاليا. وإذا ما حنثت فى ذلك، فليمت طفلاى يوى Uyi وأوفاى Ovie داى Die ". لم أورد اسم أوساس ضمن أسماء أبنائى. لم تكن أوساس Osas واحدة من أطفالى. كررت هذا القسم ثلاث مرات، وأنا أحمل الفنجال فى يدى. كنت قد رحت فى داخلى أُلغى وأفرغ هذه اللعنات من مضمونها، وأنا أستحضر اسم يسوع الأقوى :

" مع ذلك، كنت أحتقر سير الأمور على هذا النحو. كانت تلك الأشياء جديدة وغريبة على. لم تكن لدى أية فكرة عما كان أجرجيدنتا يعنيه بكلامه هذا. كنت قد وعدت بسداد المبالغ التى أنفقت على من أجل هذه الرحلة. ومع ذلك كنت أعيش فى ظلال فكرة خاطئة مفادها أنى ذاهبة للعمل فى المزارع الإيطالية وأقوم بسداد الدين من الأجر الذى أحصل عليه ".

حذرني الرجل العجوز قائلاً : " سوف أحتفظ بهذا الفنجال وعليه اسمك. وليزى هى الوحيدة صاحبة الحق فى تدمير هذا الفنجال. حافظي على وعودك. وإذا ما حنثتِ فى وعودك ستصابين بالجنون وسوف يعجز مستشفى يوسيلو Uselu ومستشفى آرو Aro وهما مستشفيان للأمراض النفسية، سوف يعجزان عن علاجك. وما يربطه أجرجيدنتا، بفعل الدم البشرى يصعب على أى أحد من الأحياء فكُّه ".

دخلت البنات الأخريات بعدى، كل حسب دورها. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا، عندما انهينا المطلوب منا فى الضريح، ورحنا من جديد نشق طريقنا عائدات إلى البلدة، كنا نسير كما لو كنا أشباحا أصابها النعاس.

الفصل الثامن عشر

كان مأمور الشرطة قد انتهى من إيجازه الصباحي الذي يوجهه إلى مرؤسيه كل صباح، عندما تلقى مكالمته التليفونية الأولى. كانت تلك المكالمة من المجلس الإيطالي الأدنى الذي يقولون له Camera Dei Deputali بلغة القوم. كانت تلك أول مكالمة يتلقاها من السيد / أنطونيو Antonio فلاشي Falacci منذ زمن طويل. اندهش الرجل. كانوا يتكلمون في مسائل عامة، في الوقت الذي راح الضابط فيه يفكر في السبب الذي وراء هذه المكالمة. الأرجح أن روما كانت راضية عن تلك المداهمات التي جرت مؤخراً، وعن الترحيلات التي أجريت للنازحين غير القانونيين في منطقته. لقد سار كل شئ على ما يرام. لم يحدث أي شكل من التسرب مثلما حدث في البلدان الأخرى. لقد ألقوا القبض على ما يزيد على مائة بنت من البنات. جرى ترحيل البعض منهن. البعض الآخر كن ينتظرن الرحلة القادمة. ومن واقع التقارير التي وصلت الرجل كانت الشوارع خالية ونظيفة. تساءل عما إذا كان العضو المكَرَّم قد سمع عما جرى وأنه كان يطلبه ليعرب له عن سعادته بهذا العمل الذي أنجز على أحسن وجه.

لم تكن أمامه فرصة الانتظار فترة طويلة. كان اليوم صباح الاثنين. لكن الناس كانوا مشغولين.

" إذن، يا دكتور، ما هو حال المدينة ؟ " خطر ببال الدكتور روسباش Rossbach، وهو يبتسم فيما بينه وبين نفسه، هذا هو ما كنت أتوقعه.

رد قائلاً بلغة القوم : " لقد نظفنا الشوارع تمامًا. لن ترى لهؤلاء البنات أثرًا فى المنطقة الداخلة فى نطاق عملى. الأماكن كلها أصبحت خالية من هذه البنات. خالية بحق وحقيقة. يا صاحب السعادة ".

قال السياسى : " هذا هو فى واقع الأمر سبب مكالمتى معك. لقد تلقيت اتصالات متعددة، تلقيت شكاوى من سائر أنحاء الدائرة الانتخابية. شكاوى تخص تلك البنات، كيف أقول لك ؟ " " مبلغ ظنى أننا يجب أن نظن أن الأمر سهل على النازحين، أقصد البنات. العاملون معى يشتكون. يبدو أن لهن دورًا يلعبنه فى الاقتصاد أيضًا ".

بعد المكالمة التليفونية جلس مأمور الشرطة وهو يطيل النظر إلى آلة التليفون، مندهشًا مما سمعه. وفرك عينيه وأخرج سيجارة وأشعلها.

روما.

لا أحد يستطيع إرضاءهم. اليوم، يقولون نظفوا الشوارع من المومسات، وغدًا سيقولون اتركوا الشوارع لحال سبيلها. أنت لا تعرف

ماذا تفعل. عجباً لهؤلاء السياسيين ! كان الرجل يحمد الله لأنه لم يكن سياسيًا.

كان الرجل على وشك أن يطلب نائبه لكن جرس التليفون رن مرة ثانية. كان المتكلم هو الأستاذ دل Del ماركو Marco من المستشفى العام.

تساءل رجل الشرطة " يا أستاذى، ما الذى يمكن أن أفعله لك هذا الصباح ؟ " كانا صديقين، كانت الشرطة والمستشفى يتعاملان فى مسألة الجريمة. كانت الشرطة تقتاد الضحايا إلى غرفة الطوارئ. وفى المقابل كانت المستشفيات هى التى تبلغ عن الجراح المشكوك فيها، وعن الأمراض المعدية. كان الأستاذ دل ماركو كبيراً للمسئولين الطبيين فى المستشفى.

" عزيزى مأمور الشرطة، ما هذا الذى يحدث فى مدينتك ؟ " لم يكن دل Del ماركو ينطق كلامه متصنعًا ". تسع حالات اغتصاب فى نهاية أسبوع واحد. منها أربع حالات من قبل أعضاء أسريين. يزاد على ذلك أن طالبه نازحة جرى اغتصابها بواسطة مجموعة من الصبية على شكل عصابة. ما هذا الذى يحدث ؟ "

قال : " نحن مشغولون بهذه القضية يا أستاذ. لعل يكون هناك مصل مضاد لذلك، وتصفه لنا "

أجاب الطبيب قائلاً : " يا أخى، ليس هناك مصل مضاد لذلك الذى أعرفه ".

رد عليه الضابط مسروراً لما قاله " لعلك تخترع لنا مصلاً ؟ "

" هــذا المصل لــن يبـاع. من الذى يمكن أن يشـتـريه ؟ الدواء الوحيد الـذى يريده الناس هو الفياجرا. لا المصل الذى يمكن أن يقتل الشهوة ".

" ما المطلوب من الشرطة عمله ؟ "

" الحل الجدى، ومن وجهه النظر الطبية يتعين على الشرطة تنظيم هؤلاء البنات. العديد من مرضاى يشتكون من مداهمات رجال الشرطة لهن بصورة مستمرة. من وجهة النظر الطبية، وأنا أكرر هنا من وجهة النظر الطبية، إن هؤلاء البنات يلعبن دوراً مهمًا فى منظومتنا الصحية. وعليه، أرجوك أن تبحث عن طريقه لحل هذه المشكلة ".

أرخى مأمور القسم سماعة التليفون وطلب نائبه.

" ما هى آخر أخبار حالات الاغتصاب ؟ تسع حالات اغتصاب فى مدينتنا فى عطلة أسبوعية واحدة ؟ ما الذى يحدث ؟ "

" واقع الأمر، يا ريس أنى كنت سآتى إلى هنا لمناقشة هذا الأمر معك. أعتقد أن الأمر يتعلق بالبنات ".

" ماذا تعنى بكلمة البنات ؟ "

" إنهن مضربات ".

" ما هذا الذى تتكلم عنه ؟ "

" أتكلم عن المومسات يا سيدى. لقد أضربن بعد المباغتة (الكبسة) الأخيرة التى قمنا بها عليهن. هن مضربات احتجاجًا على الكبسات، والمداهمات والترحيلات التى تقوم بها الشرطة ".

" فهمت. أهذا هو السبب وراء حالات الاغتصاب التسع التى وقعت فى عطله نهاية الأسبوع ؟ "

" أعتقد ذلك، يا سيدى. وإلا لا تفسير عندى غير ذلك، يا سيدى ".

" فهمت. وإلى متى يستمر الإضراب، إلى متى ؟ "

" ليست لدى أية فكرة عن هذا الموضوع، يا سيدى ".

" حاول معرفة ذلك، قبل نهاية عمل اليوم ".

* * *

أتى النائب بتقرير إلى مأمور الشرطة بعد ساعات قلائل. كان النائب يعرف رجلاً سنغاليًا، يبيع بعض الأشياء الخاصة بالجنس وبالتالى كان على صلة بالعمات (المعلمات)، اللاتى كان لهن بعض البنات اللاتى كن يسرحن فى الشوارع.

قال النائب للمأمور، " مدة الإضراب، أسبوع واحد، يا سيدى. وبعد أسبوع سوف يقمن بمراجعة الموقف. وهل سينهين الإضراب أو يواصلنه ".

" فى ذات الوقت، أمامنا أزمة أخرى. اغتصابات هنا، واغتصابات هناك. السياسيون يصيحون وينادون. والمستشفيات تستدعينا بدورها. الكل يود عودة البنات إلى الشوارع. هذا شئ طيب، أسبوع واحد ليس بالوقت الطويل. دعنا ننتظر ونرى ما سيحدث ".

* * *

بعد أسبوع راجعت (المعلمات) الموقف الخاص بالإضراب. ورغماً عنهن، قررن إطالة مدة الإضراب، إلى أسبوع آخر ". زبائننا يحسون بوطأة الإضراب ويدعوا يجأرون بالشكوى ". خطر ببال العمات " لو مددنا الإضراب أسبوعاً ثانياً فسوف تتفهم الحكومة الرسالة ".

جرى خلال ذلك الأسبوع الإبلاغ عن كثير من حالات الاغتصاب فى سائر أنحاء إيطاليا، إضافة إلى اغتصاب امرأة فى الثمانين من عمرها فى ريجيو Reggio إيميليا Emilia. وفى ساينيا Siena جرى اغتصاب طفلة عمرها ثلاث سنوات بواسطة أحد الجيران، كما جرى اغتصاب ثلاث راهبات فى القوارب التجارية العامة فى مدينة البندقية.

الفصل التاسع عشر

لم يكن الدكتور آموس Amos سعيداً طوال اليوليتايد Yuletide. لقد حرم من الحصول على العفو عند الاعتراف. هو ذلك الذى سيعطى ذلك الصفح والعفو بلا مقابل، هو، رجل من رجال الله، هو القسيس، الذى سارع إلى الحصول على العفو والصفح، لم يحصل عليه. وجرى إرساله إلى قسيس آخر، مثل صبى صغير يروح يستجدى الصفح أو السماح من هنا ! وهناك.

كان الرجل مكتئبًا، ومندهشاً من أنه سيقضى عيد الميلاد وهو فى هذا الحال. صحيح أنه يمكن له الحصول على السماح والصفح، لكنه لن يكون جديراً بالحصول عليهما. فكر الرجل فى الذهاب إلى قسيس آخر، لكنه كان يعرف أن ذلك لن يكون صحيحًا. كان يتعين عليه السعى إلى دون Don لورينزو باعتباره قسًا، ويروح يعترف أمامه عملاً بنصيحة دون Don رومولو، ويتمنى الخير.

كانت مشكلة آموس تتمثل فى ضيق وقته حاليًا، ولن يتيسر له شيئًا من الفراغ إلا مع بدايات العام الجديد. كان آموس فى بروجيا Perugia يساعد قس الابرشية فى عيد الميلاد. ولم يكن بوسعه طلب بضعة أيام

يغيب خلالها عن الكنيسة ويسافر إلى رمينى Rimini. ولذلك يتحتم عليه الانتظار. لكنه كان قانطًا وغير سعيد.

سأله صديقه وزميله دون Don آدريان Adrian، " لماذا لم تذهب إلى دون رومولو ؟ " كانا رفيقا دراسة فى جريجوريان Gregorian. كان الأب آدريان هنديا أسمر من جنوب إفريقيا، يدرس قانون الأسرة. وكان يساعد فى واحدة من الأبرشيات القريبة. كان الأب آدريان قد دعا آموس لتناول غداء مكون من الأرز والدجاج على طريقة الفندالو، تلك الوجبة التى كان يحبها آموس. بعد الانتهاء من تناول الوجبة، علما بأن الرجل لم يأكل كثيراً، كان القلق يبدو على الرجل. كانا يحتسيان شيئًا من المهضمات الليمونية فى غرفة معيشة الأب آدريان الصغيرة.

قال الكاهن اللاهوتى الأبيض : " كنت قانطًا ومكتئبًا، وأنت تعرف ذلك حق المعرفة، أنت تعرف مدى الإحساس بالذنب. خرجت من غرفة الطعام فى الدير ووجدته أمامى. ظننت أنى سوف أنتهى من هذا العمل على وجه السرعة. لكنى الآن بين شقى الرحى. ويتعين على السفر إلى رمينى Rimini طلبًا للصفح والسماح ".

" أكد الأب آدريان، لا أحد يذهب إلى دون رومولو طلبًا للاعتراف. لا أحد. إنه رجل صارم تمامًا. وهو يسأل ويطرح كل الأسئلة المحرجة. مع من ؟ ما عدد المرات ؟ أين ؟ وأنا إذا كنت رجلاً أبيض مثلك، سيحمر وجهى خجلاً ".

" هذا هو ما ينبغى أن يكون ". جاء رد آموس على هذا النحو متجاهلاً النكتة العرقية. كان الدون آدريان يتضايق من مسألة الأبيض والأسود ". دون روممولو ينتمى إلى المدرسة القديمة، فهو شديد الورع، ومخلص ونقى. فى بعض الأحيان قد تقسو علينا الظروف. أنا على يقين من أنك استمعت إلى القصة التى تدور عن الدون العجوز والقسيس الشاب ؛ والتى تقول : إن الشاب يذهب إلى السيد الكبير Monsignor، يشتكى له من تلك الرغبات البدنية، متعجبًا من طول المدة التى يتعين عليه خلالها تحمل هذه الرغبات. ويقول له الدون البالغ من العمر خمسين عامًا : إلى أن تبلغ الستين من عمرك، على حد ظنى. بعد ذلك بعشرين عامًا، يعثر الدون العجوز على القس الصغير ويقول له : هل تذكر يوم أن سألتنى عن الرغبات الجسدية، وقلت لك إنها ستستمر معك إلى سن الستين ؟ اجعلها سن الثمانين ".

أبدى الأب آدريان ملاحظة، " يقولون، إنّ النحل أيضًا يفعلها ".

رد عليه آموس، " صحيح أن النحل يفعلها. لكن المسيح لم يمت من أجل النحل ".

" أنا شخصيًا، أعتقد أن العزوبة مسألة عفا عليها الزمن وينبغى مراجعتها ".

" أرجوك. أرحنى. أنا أعرف كل ذلك الذى تتحدث عنه. لقد استمعت إلى ذلك مراراً وتكراراً. الأب المقدس Holy ينبغى أن يعيد

النظر فى هذا الهراء، الهراء، الهراء... لكنك وأنا نعرف أن الأب المقدس لن يغير تلك السياسة. وأن ذلك لن يحدث فى حياته ".

" أعتقد أنه ينبغى أن يشكل، فى أضعف الأحوال، لجنة تنظر فى هــذا الأمــر. هنــاك أزمة فى الكنيسة بشأن مسألة العزوبة هذه... وأنت لا يمكن أن تنكر ذلك ".

" أية أزمة تقصد ؟ "

" ما الذى تعنيه بعبارة ' أية أزمة هذه ' ؟ "

" أنت تتكلم عن أزمة لمجرد أن بعض القساوسة لا يستطيعون التحكم فى أنفسهم والسيطرة عليها ".

" تقول، بعض، يا أخى ؟ تقول إنهم قلة ؟ "

" انتبه، نحن جميعًا نعرف عندما نقسم القسم، ذلك الذى يمكن أن يترتب على العزوبة، أليس كذلك ؟ " وراح آموس يحملق فى الأب آدريان قبل أن يجيب على تساؤلاته.

" فى الماضى كان القساوسة الكاثوليك يتزوجون. وكان الباباوات ينجبون باباوات أيضًا. أكيد أنك تعرف ذلك ".

" هذا أمر أكيد. بعد ذلك، قضت الكنيسة فى حكمتها بغير ذلك. وعليه نحن نطيع ما قضت به الكنيسة. وهذا قسم آخر من الأيمان التى أقسمناها، تدبر هذا ".

" ما أقوله هو أن القس المتزوج، بوسعه القيام بعمله، بوسعه أيضاً أن يهدى، ويعظ، وبوسعه أن يتابع أيضاً أعضاء أبرشيته ".

" أنا أقول : إن الكنيسة الأم تحس بغير ذلك. ونحن بناء على هذا الإحساس أقسمنا عن طيب خاطر، قسم العزوبة، ويتحتم علينا المحافظة على هذا القسم ". ونهض الرجل بغية الانصراف. كان الأب أدريان مستاءً. فهب واقفاً وهو الآخر ووقف أمام ضيفه.

" على أى جانب من الجانبين تقف يا آموس ؟ أنت أقسمت ذلك القسم وحنثت فيه منذ الوهلة الأولى. هذا يعد نفاقًا، إن أنا صادفت شيئًا من هذا القبيل. هذا جزء من مشكلة الكنيسة. نحن الأفارقة نحاول أن نكون واقعيين فى مثل هذه الأمور، أى أننا نحاول معرفة ما إذا كان القس يستطيع القيام بعمله عندما تكون له زوجة. أنتم أيها البيض لديكم موقف أكثر قداسة من موقفنا، يبدو أنكم تتصرفون تصرفًا حسنًا. ومع ذلك، أنتم تواصلون الحنث فى قسم العفة، وتعودون وتتهمون الأفارقة بالتشوش الجنسى. وغداً عندما نستطيع نحن النجاح فى إلغاء العزوبة، سيقول الفاتيكان إنه فعل ذلك من أجل الأفارقة، لأنهم عجزوا عن مسايرة الحال. يا الله ! "

" العزوبة، يا أخى، ليست هى نقيض التشوس الجنسى ".

جلس الرجل مرة ثانية، وهو غير واثق بنفسه ". نقيض أو عكس العزوبة قد يكون الزواج. أنت وأنا نعلم أن المتزوجين متهمون أيضًا،

بعدم الإخلاص، وبالتشوش الجنسى. وعليه فإن السماح للقساوسة بالزواج لا يعد ضمانًا بأننا لن نخطئ فى الجسد ".

" وماذا، بعدئذ ؟ "

" دعنى أقولها لك بطريقة أخرى. يا دون آدريان، إذا ما سمح للقساوسة بالزواج، هل ستتزوج ؟ "

" ولم لا ؟ "

" حسن، لأن الزوجة تعنى أسرة، وتعنى أطفال، وتعنى أنسباء وما إلى ذلك. هذا سوف يبعدنى عن أمور الله (. هذا يعنى وضع الإله فى المرتبة الثانية. لا، لن أتزوج. لقد كرست حياتى بكاملها لله ".

" أشكرك، الغالبية العظمى من رجالنا القساوسة يحسون هذا الإحساس، أرجو أن تصدقنى. وعليه فإن مسألة العزوبة هذه لا وجود لها. كل ما تهدف إليه العزوبة وكل ما يغلى بداخلها، يهدف إلى قهر الجسد والتغلب عليه. الرجل، والمرأة، والمتدين والشخص العادى كل أولئك ينشدون قهر الجسد ".

" البيضان، والسودان، والملونون كل أولئك يقهرون الجسد ".

" هذا كلام دقيق ".

" إذن فأنت تسلم بأن هذا يعد نقيصة على مستوى الكون، وليست مجرد شئ أسود فقط ".

" ما الذى تعنيه بقولك : شئ أسود فقط ؟ من قال إنه كذلك ".

" قد تكون أنت الجيريجورى الوحيد فى إيطاليا الذى لا يلم بالتطورات التى حدثت مؤخراً فى هذا الأمر. هذا هو الفاتيكان يتكلم عن معاقرة القساوسة الأفارقة للراهبات والنساء، كما لو كان الأفارقة وحدهم هم المذنبون ".

قال أموس من باب مداعبته لصديقه الإفريقى : " ميلنجو لم يطق هذه الأمور ". كان الأسقف إيمانويل ميلنجو قساً من زامبيا تزوج من امرأة آسيوية فى كنيسة مون Moon (القمر).

" واقع الأمر، أن ميلنجو حرضنا. لكن من واقع ما أسمعه، أنه دُفِعَ إلى ذلك من قبل المؤسسة. وكان ذلك لجذب الانتباه ".

" يا أخى، لا تدخلنا فى هذا الأمر ".

" أنا مازلت عند رأيى أن الرجل فعل ذلك ليسترعى انتباه الأب المقدس. أعنى بذلك أنهم لن يسمحوا له بمقابلة جون John بول Paul. أبعدوه عن مكتبه وما إلى ذلك من الأمور الأخرى. أسقف ! يا إلهى ! أنا أعتقد فى واقع الأمر، أن قداسته ليس على علم بكل ما يجرى فى الفاتيكان. أنا لن أسمى اسماءاً بعينها لكن يبدو أن هناك آخرين يريدون الكنيسة ".

" إذن تقول إن أسقفاً تزوج لكى يسترعى انتباه العالم ".

" لقد كان ذلك أمراً لا مفر منه. لكنه حصل على لقاء البابا على النحو الذى أراده هو. هذا الزواج المزيف لم يكتمل. وعليه كل طيب ينتهى إلى طيب ".

أنهى آموس كلامه قائلاً : " سيعود ".

" صحيح أن الكنيسة لا يمكنها الاستغناء عنا. أقصد العالم الثالث، وأعنى به : إفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وآسيا. مستقبل كنيستنا يتمثل فى هذا العالم الثالث ".

كان آموس يود أن يعرف " لكنك الآن تبدو وكأن أمورك على ما يرام.

كيف تسيِّر أمورك ؟ أعنى أنك بعيد عن الوطن وعن كل شئ ".

" على حد قولك، نحن قطعنا عهداً على أنفسنا، ولابد من المحافظة على ذلك العهد ".

" تعال، انتظر. قل لى بحق ماذا تفعل الآن "؟

" هل أنت جاسوس أم ماذا ؟ هل أرسلك الفاتيكان للتجسس على حيوات المساكين من الناس، أو بالأحرى فقراء القساوسة الأفارقة فى إيطاليا ؟ "

قال آموس " انتبه، الفاتيكان لا تهمه حياة قس فقير الحال مثلك ".

" أشكرك على تأكيدك ذلك الذى كنت أتشكك فيه منذ فترة طويلة ".

" انتبه، أنا هنا نادم على نقائصى، فى حين يبدو أنك تأخذ الأمور على عواهنها. ما سر هذا ؟ أشركنى فيه ".

" الصلاة، والصيام، يا عزيزى ".

أصر آموس " أهذا ما يجرى حاليًا ".

" وهو كذلك. إن كنت مصرًا. أنا فى ترمل الحواريين ".

" أنت تنصب ".

" لا تخبر دون رومولو بذلك فى الوقت الحالى ".

" هل تعرف ذلك الذى يدور بخلدى ؟ "

" خبرنى ".

" أنت من المرشحين للدون لورينزو ".

* * *

كان الدكتور آموس Amos قد غادر بيروجيا Perugia قاصدًا ريمينى Rimini بعد عيد الغطاس. كانت الثلوج تتساقط. هذا يعنى أن الجو كان يمطر ثلجًا منذ أيام عدة. كانت البلدة كلها بيضاء اللون.

كان هناك حفل غداء توديعى فى أحد المطاعم القريبة فى الليلة السابقة. والآن، وبعد القداس، وبعد شئ من المصافحات، والأمنيات

الطيبة، شرع الرجل متجهًا صوب محطة القطار. لم يكن هناك قطار مباشر إلى ريميني. لذلك سوف يتحتم عليه الذهاب إلى رافينا Ravenna أو إلى أنكونا Ancona، ثم يسافر من أنكونا إلى بلدة ريميني على البحر الإدرياتيكي. قرر آموس قضاء الليل في تلك البلدة على أن يعود إلى العاصمة في الصباح. كان يأمل في أن يجد لنفسه سريراً في أبرشية الدون لورينزو.

كان آموس يقول فيما بينه وبين نفسه : لابد أن تكون هذه توبة عفو وسماح غير عادية تمامًا، كان يناجي نفسه على هذا النحو وهو جالس على مقعد مترهل من مقاعد القطار. كان آموس مصراً على تنفيذ المطلوب. سوف أنفذ ذلك الذي دار بخلد دون روموِلو عندما أرسلني في هذه الرحلة إلى ريميني. اعترف الرجل بتلك الخطة وأقرها، لو كانت خطة، على أنها خطة فعالة. منذ يوم الاعتراف، ومنذ يوم رفض إعطاء العفو والسماح، لم تعد تلك الرغبة الجامحة تراوده، بل إنه لم يعد إلى الأضواء الحمراء. التوبة، أو التفكير في القيام بها، هي التي قتلت فيه الرغبة. إذ كان يتحتم على قطع مسافة طويلة كهذه في كل مرة أخطأ فيها، فهذا يحتم عليّ الحذر واليقظة. وهنا أخرج آموس كتاب صلواته اليومية ومسبحته. سوف أتصفح هذا الكتاب. من تحت معطف الشتاء كان آموس يرتدي حلته السوداء. راح آموس ينظر إلى صورته في زجاج النافذة ويتهكم من أنه أصبح خادماً غير مخلص أو مطيع.

عندما وصل آموس إلى ريميني، كان المساء قد حل. وكانت الأمطار الثلجية قد توقفت. لكن الجو كان ما يزال بارداً. كان الظلام مخيماً على

الأرض. طلب إلى الناس أن يدلوه على الطريق المؤدية إلى الأبرشـيـة المركزية. الأرجح أن ذلك المكان كان معروفًا للجميع. خطر ببال آموس أنه لم يحدد موعداً مع الدون Don. ماذا لو تصادف وكان الدون غير موجود فى البلدة ؟ ماذا لو كان منتدبًا خارجها ؟ ماذا لو كان غائبًا عن المدينة ؟ دعا الله أن يلتقى الدون لورينزو. لم يعرف إن كان الله سيجيب دعاءه أم لا. أنا لست طاهراً. ليس هناك ضمان بأن الله سيسمع دعائى ويجيبه، درج الرجل على مناجاة نفسه.

كان الرجل حظيظًا. إذ كان الدون موجوداً فى الأبرشية. توجه آموس إلى الدون لورينزو فى الكنيسة المجاورة للمركز. كان هناك قداس مقام فى الكنيسة. اختلس الرجل نظرة إلى الجمهور الموجود داخل الكنيسة. قرر الذهاب إلى الجزء الخلفى من الكنيسة ليضع حقيبته فى الأمانات. كان هناك مكتب فى الجزء الخلفى من الكنيسة. اندهش الرجل عندما وجد الباب مفتوحًا.

كانت هناك سيدة تجلس خلف المكتب. وترك آموس الحقيبة فى رعايتها.

عندما عاد إلى الكنيسة كان الناس يتقاطرون خارجين منها. لقد انتهى القدّاس. عاد آموس إلى المكتب. وجد عدداً قليلاً من الناس ينتظرون. كان واضحًا أن هؤلاء الناس من شمالى أفريقيا. جاءوا للقاء الدون Don. عثر الرجل على كرسي وجلس عليه. إلى جانب الرجال، كان

هناك عدد كبير من البنات اللاتى كن يدخلن ويخرجن ويدردشن فيما بينهن. كان البعض منهن يتحدثن لغة هو لا يفهمها. بعض آخر منهن كن يتحدثن باللغة الإيطالية. قلة قليلة منهن كن يحملن أطفالاً بين أذرعهن أو فى عربات الأطفال. كن يخرجن ويدخلن مختلف المكاتب ويدردشن فى شئ من الألفة مع هيئة العاملين. تذكر آموس أن الدون رومولو سبق أن قال له : أن هذه المؤسسة تعد مركزاً من مراكز إعادة التأهيل للمهاجرين والعجزة والمطرودين من المجتمع. وكانت تعنى أيضًا بالمومسات.

صعد إلى موظفة الاستقبال وسألها إن كان الدون يوافق على لقائه بدون موعد سابق.

" هذا شئ طبيعى. ولم لا ؟ هو حاليًا خارج المكتب يتحدث مع بعض الناس. بوسعك لقاؤه هنا إن أردت ذلك ".

خرج آموس من مكتب الاستقبال.

كانت هناك جماعات كثيرة من البشر الذين يتحدثون مع بعضهم البعض فى سائر أنحاء المجمَّع. استطاع آموس أن يتبين سيارة من سيارات الشرطة كانت واقفة بين مركبات متعددة فى المجمَّع. كان هناك رجل من رجال الشرطة واقف خارج المكان، متكئ على سيارة من السيارات، يدخن سيجارة. كان هناك ضابط آخر داخل السيارة، جالس أمام عجلة القيادة. وخارج بابى الكنيسة مباشرة، كان يقف رجل ممتلئ

الجسم ويلبس نظارة لها إطار داكن اللون. كان ذلك الرجل متوسط الطول، وشعره قصير يميل إلى الابيضاض المشوب باللون الرمادى، وكان يرتدى روب القساوسة الأسود المعروف. ومن فوق هذا الروب كان القس يلبس برْكة(*) يطاول طولها الأرداف. كان وجه الرجل يوحى بالود، والابتسام، والبشر، وهو ما ذكّر آموس، مؤسس الأوبرات **Opus** الربّانية. كان ذلك هو الدون ماريو لورينزو.

استلطف آموس الدون ماريو لورينزو منذ الوهلة الأولى. واقع الأمر أن آموس لم يطق الانتظار إلى أن يلتقى الرجل. فى بعض الأحيان كانت عيونهما تلتقى، وكان لورينزو يبتسم ابتسامه خفيفة قبل أن تنصرف عيناه إلى محدِّثه.

وقف آموس بعيداً إلى أن ينتهى الدون من كلامه.

كان آموس حائراً فى كيفية بدء كلامه مع الدون. أغمض آموس عينيه، وراح يفكر فيما يمكن أن يقوله عندما يتحدث إلى الدون لورينزو ". أيها الأب(**) **Padre** ، المهدِّئ والمُسَكِّنَ، أنا آموس. أود الاعتراف أمامك ". تعجب آموس مما لو كان لرجل مشغول على هذا النحو متسع من الوقت للاعتراف. هذا الرجل أمامه الكثير الذى ينبغى عمله، ولديه الكثير من

(*) البرْكة : بتسكين الراء وفتح الكاف، عبارة عن سترة فرائية مُقَلْنَسة تلبس فى مناطق القطب الشمالى. (المترجم)

(**) الكاتبة تستعمل هنا كلمة Padre وهى كلمة أسبانية تدل على معنى القسيس. (المترجم)

الناس الذين يودون لقاءه، وكثير من الناس الذين يودون رؤيته. لا. لن أطلب إليه أن أعترف له مباشرة. سوف أطلب أولاً مقابلة خاصة معه. ثم أذكر له بعد ذلك الدون روموِلو والاعتراف الذى جرى فعلاً، وأخبره أيضًا بالصفح والسماح الذى حجبه عنى الدون رومولو.

بعد أن فتح آموس عينيه، وجد الدون يشير إليه.

" نعم، Prego أيها الأخ Fratello" .

تساءل آموس من باب التأكد، " هل أنت الدون لورينزو ؟ "

" أنا Sono هو To " .

" أنا آموس. آموس كبلر Kepler. هل أطمع فى لقاء معك لبضع دقائق ؟ إنه أمر خاص ". وراح يحملق فى عينى الدون، متمنيًا عليه تلبية طلبه.

تساءل الدون، " أهو أمر عاجل جدًا ؟ " ثم تصافحا بعد ذلك. كلاهما كان يشعر بالبرود تجاه الآخر.

" من أجل الاعتراف، إن كان لديك متسع من الوقت " .

" آه " .

نظر الدون لورينزو حوله بحثًا عن شخص ما .

" أين الدون ماثيو Matteo...؟ " لم يسأل عن أحد بعينه ". لعله يمكن أن يساعد فى ذلك " .

عرض آموس على الدون " بوسعي، الانتظار إذا ما كنت مشغولاً أيها الأب ".

" من أين أنت ؟ Da Dove Sei". تساءل الدون، وراح يطيل النظر إلى الأمريكي، محاولاً تحديد مكان وجهه.

" أنا قادم مباشرة من بروجيا. لكني أعيش وأدرس في روما ".

" العاصمة. هل تعرف الدون رومولو في بيروجيا ؟ "

" نعم. وهو في واقع الأمر الذي أرسلني إليك ".

" مرحبًا بك " وتصافحا ثانية.

" من سوء الحظ أني لن أستطيع البقاء معك على الفور. وأنا لدى ارتباطات أخرى يتعين القيام بها حالياً. القنصل النيجيري في انتظاري، والشرطة أيضًا في انتظاري. هيا تعال معي ".

اقتاده الدون لورينزو إلى المكتب مرة ثانية. خلف المكتب كانت هناك صالة كبيرة. كان عدد كبير من الناس قد تجمعوا في تلك الصالة. كانوا يتكلمون بأصوات خفيضة. أشار الدون لورينزو إلى آموس بالجلوس على أحد المقاعد ". من فضلك اجلس وانتظر هنا. سأحضر للقائك مرة ثانية ".

انتقى الشاب (آموس) كرسياً بعيداً بعض الشئ عن الحاضرين، وجلس يراقب ما يجري.

ويدخل الدون لورينزو على الفور، ويتجه نحوه عدد كبير من الناس ويحيطون به. حيَّاهم، وراح يصافح واحداً هنا وواحداً هناك، ويداعب طفلاً في مكان آخر. وبعد فترة وجيزة، طلب من الجميع الجلوس والانتباه. وصعد الرجل إلى المنصَّة الموجودة فى ركن من أركان الغرفة، وبدأ يتحدث إلى الحاضرين.

ابتسم الدون لورينزو وقال : " مساء الخير عليكم جميعًا Bona Sera a Kutti " كان صوت الرجل رخيماً، ويتكلم بعبارات قصيرة، كما لو كان شخصًا مُتْعَبًا ". بيننا اليوم، فى هذا المساء، قنصل البعثة الدبلوماسية النيجيرية فى ميلانو، السيد / يوفت Ufot، مرحبًا بك فى يمينى. ونشكرك على حضورك ". كانت هذه العبارة الأخيرة موجهة لرجل يجلس أمام طاولة فوق المنصَّة وواضعًا أحد رجليه فوق الرجل الأخرى. رد الرجل على التحية بهز رأسه مرات عدة. وهنا توجه الدون لورينزو إلى المجتمعين مرة أخرى ". القنصل المحترم موجود هنا اليوم ليلتقى بكم ويرى كيف يمكن للقنصلية أن تعطيكم المستندات التى تمكنكم من الاستقرار وبدء حياة جديدة ".

" أيتها السيدات، أرجو أن تتعاون مع سيادة القنصل. أجبن على ما يوجهه إليكن من أسئلة. أنا أعلم أنكن أقسمتن يمين الصمت قبل مجيئكن إلى إيطاليا، أقسمتن على ألا تذكرن أسماء كفيلاتكن. دم المسيح، ألغى ذلك كله، ألا تدرين أن الأمر ليس على هذه الشاكلة ؟ "

" بلى ". قلنها بصوت عال، وأمّن عليها قائلات : " آمين ".

طرح عليهم الدون لورينزو سؤالاً، " هل تردن لأخواتكن الصغيرات اللاتى خلفتهن وراءكن أن تعانين من أفعالكن ؟ "

" لا ".

" هل تردن لبناتكن، وبنات إخوانكم أن يعانين مما عانيتم منه ؟ "

صاح البعض منهم قائلات : " لا ". وتصايح بعض آخر منهن " مطلقًا ". وصاحت مجموعة أخرى " لا قدّر الله ".

" حسن. إذن يجب عليكن أن تتعاون مع القنصل. وبهذه الطريقة يمكن وقف أولئك الداخلين فى هذه الدائرة عند حدودهم. سيجرى القبض عليهم ومعاقبتهم. وبهذه الطريقة يمكننا وضع حد لتجارة البشر. أجيبوا عن الأسئلة. أجيبوا عليها إجابة صحيحة. وهذا هو الطريق الوحيد للحصول على جواز سفر من القنصلية. وإذا ما حصلنا على الجواز سنتجه به إلى المركز الرئيسى للشرطة. ونطلب من الشرطة تصاريح إقامة لكم. وبذلك يمكن تقنين إقامتكن في إيطاليا. سنوزع عليكن الاستمارات الآن. من منكن يستطعن تعبئة هذه الاستمارات، يفعلن ذلك ويقدمنها بعد ذلك للسيدة لوردانا Loredana. ومن لا يستطعن منكن تعبئة هذه الاستمارات، ينتظرن العون والمساعدة في ذلك من كل من ماسيمو Massimo ومارينا Marina. سوف يتحدث القنصل إليكن بعد تعبئة الاستمارات. وبعدها يمكنكن العودة إلى أماكن أعمالكن. وسوف نتصل بكن عندما يحين موعد تسلمكن للجوازات. ".

كان آموس يراقب ما يجرى مبهوراً. كانت أول الأفكار التى خطرت بباله أن الدون لورينزو قديس. كان الرجل يتكلم بعطف وحنان على أولئك الضحايا، قلقًا منه على مساعدتهن لتصحيح الخطأ الذى وقعن فيه : كان الرجل قلقًا لأنه كان يود وضع هؤلاء النسوة على الطريق القويم.

جاءت امرأتان إيطاليتان من الصفوف الجانبية وراحتا توزعان الاستمارات والاستبيانات على البنات اللاتى بدأن يعبئن الاستمارات ويجبن على الاستجوابات. كان البعض من البنات يتشاورن مع بعضهن البعض. البعض منهن كن يكتبن بصعوبة بالغة. جلس القنصل ينظر فى سائر أنحاء الغرفة من بنت إلى أخرى. غادر الدون لورينزو الغرفة فترة قصيرة. وعاد ومعه شئ من القهوة، قدمه لكل من القنصل وآموس.

قال آموس ممتنًا : " عفواً Grazie أيها الأب Padre".

" تمنياتى الطيبة. بدأنا بعد ذلك العمل الميدانى ؛ مع الشرطة والقنصل. وسوف تأتى معنا ؟ " كان ذلك على شكل سؤال. تعجب آموس ظنًا منه أن ذلك يمكن أن يكون جزءًا من توبته وإعادة تأهيله كواحد من الخطائين. عمل ميدانى. ما هو ذلك العمل الميدانى ؟ أهو التنصير أو بالأحرى التبشير بالنصرانية ؟ أم أن ذلك صلاة من نوع معين ؟ هل هو قُدَّاس ؟ وهل يجرى ذلك أثناء الليل ؟ كان آموس متعبًا بعد الرحلة، لكنه أحس أنه يمكن أن يفيد من هذه التجربة. هذا سيكون أفضل من الانتظار فى الداخل.

" نعم، أود المشاركة فى ذلك ".

" هذا شئ طيب " كان الدون لورينزو مسروراً ". لقد رتبت لك غرفة هنا. لا تحمل هماً لأى شئ ".

"شكراً لك، أيها الأب، هذا كرم منك ".

" لدينا غرف كثيرة هنا فى مقر الأبرشية (الجماعة). ليس لدينا موانع أو مشكلات. لا تنس أن هذا منزل والدى، لدينا منازل كثيرة ".

سأل آموس الدون لورينزو، لأنه لم يكن لديه ما يقوله، " كم عدد الناس هنا فى الأبرشية ؟ " كان الدون على مقربة من آموس، يراقب الأنشطة التى تجرى فى الغرفة.

" لدينا عدد كبير. اليوم يشرفنا القنصل النيجيرى، وعليه جرى دعوة السيدات النيجيريات وحدهن، لكن لدينا أيضاً ألبانيات، وكروات، وروسيات إلخ. وقد قمنا بإلحاقهن بأعمال وبرامج تدريبية. عدد النساء كبير جداً. حوالى خمسمائة امرأة فى الوقت الراهن. إنهن يجئن ويرحن ".

" هل لديكم رجال أم... ؟ "

" أكيد. لدينا حوالى أربعون رجلاً حالياً ؛ مهاجرون بلا مستندات أو أعمال، يدمنون المخدرات، ليست لهم أية امتيازات. لا تؤاخذنى فيما أقول ". عند هذه اللحظة كانت إحدى الحاضرات تود الحديث إلى الدون لورينزو ولذلك انصرف الرجل على الفور.

فى الخارج، كانت سيارة الشرطة ما تزال واقفة، ويمكن رؤيتها من خلال أنوار الشارع.

احتسى آموس قهوته. كان يود معرفة العمل الميدانى وما يدور حوله. لم يكن يود معرفة العمل الميدانى لذاته، وإنما كان يود الوقوف على أشكال ذلك العمل، وعليه قرر الانضمام إلى الجماعة. لكن لو أراد، لكان من السهل عليه الوقوف على شكل ذلك العمل وما يهدف إليه. فى ولاية كونيكتكت Connecticut، نجد أن العمل الميدانى يعنى التواصل مع كبار السن، وزيارة المرضى، وزيارة السجون. لكنه بوصفه طالب من طلاب علم اللاهوت، فذلك يعنى عنده زيارة الأبرشيات، والانخراط فى التعليم الشفاهى.

كان الرجل غارقًا فى التفكير، عندما أحس بشخص ما إلى جواره.

" هل تتكلم الإنجليزية Scuza؟ " كانت السائلة واحدة من البنات اللاتى جئن طلبًا للوثائق. وكانت تمسك فى يدها الاستبيان الذى وزّع عليهن منذ فترة وجيزة. فى حين كانت يدها الأخرى تهدهد طفلاً نائمًا.

" نعم ". جاءت إجابة عالم اللاهوت بعد أن أفاق من غفوته التفكيرية ". أتكلم الإنجليزية ". وقال فيما بينه وبين نفسه " وأتكلم حثالة أيضًا ".

" أرجوك، أن تساعدنى فى تعبئة هذه الاستمارة. أنا لا أفهم بنودها جيداً ".

" بكل ممنونية ".

راح الاثنان يعبئان الاستمارة. كان آموس يقرأ السؤال عليها، وتقوم هى بالإجابة عنه، وكان طالب اللاهوت يدون ما تقول فى الخانة المناسبة.

كان اسمها آدسوا Adesuwa جون John. كان عمرها تسعة عشر عامًا، من بلدة أوشى Auchi فى نيجيريا. كان والداها باسل Basil واليزابيث llizabeth جون John. كانت طالبة فى مدرسة أوينا Owina، عندما أُرسلت للعيش مع عمتها فى مدينة بنين Benin. ذات يوم قالت لها عمتها : إنها سوف ترسلها إلى الخارج لتكمل دراستها. وجرى تسليمها لرجل يسمى آنكل Uncle أخذها ومعها أربع بنات أخريات. وسافر معهن عبر كوتونو Cotonou وتوجو Togo إلى أن وصل بهن إلى غانا. ومن غانا اتجه معهن إلى بوركينا Burkina فاسو Faso، ومنها إلى مالى Mali ثم إلى الجزائر، ومنها إلى تونس. ومن تونس أبحر معهن فى بالون إلى باليرمو. استغرقت الرحلة كلها من نيجيريا إلى إيطاليا حوالى ثلاثة أشهر. سافر الرجل هو والبنات سيرًا على الأقدام تارة، وسيارات النقل تارة أخرى، وعن طريق البحر أحيانًا. عبروا غابات، وخاضوا وسبحوا فى بحيرات، وناموا فى العراء. ومن أجل توفير الطعام، والانتقالات المجانية، كان آنكل Uncle يجبر البنات على النوم مع الرجال على الطريق. وكان هو بدوره ينام معهن الواحدة بعد الأخرى. وعندما وصل آنكل بهن إلى إيطاليا كانت آدسوا Adesuwa جون John قد حملت. لم يكن والد هذا الطفل معروفًا. أخذهن أنكل إلى السوق وباعهن. كان رجل

يدعي نوسا Nosa قد اشترى آدسوا نظير أربعين مليون ليرة. أجبرها نوسا هذا على النزول إلى الشوارع للعمل كي تدفع له سبعين مليون ليرة. كانت قد سددت له بالفعل ثلاثين مليون ليرة. لم تكن على يقين مما يجرى. لم تكن تعرف الحساب. لم تكن آدسوا راضية عن العمل الذى تعمله. وقد أجبرها على العمل عندما كانت حاملاً. ذات ليلة وضعت آدسوا طفلها على الرقعة في الوصلة التي تقف البنات عندها أثناء عملهن في الشوارع. قام بابا Papa جيرو بتوصيل الأم والطفل الوليد إلى المستشفى. كانت آدسوا تود الهرب لكنها لم تكن تعرف أحداً من الناس. وقد وجهتها إلى هذا المركز واحدة من ممرضات المستشفى.

نقلاً عن الاستمارة كان يتحتم عليها ذكر أسماء مصادرها وكافليها، وأولئك الذين أحضروها إلى إيطاليا. استطاعت أن تورد اسم عمتها، أى أخت والدها، وقالت أنها تعيش في حي أوسورو Osoro. وقالت أيضًا إن الرجل الذى سافر معها هى والبنات الأخريات إلى إيطاليا عبر إفريقيا، اسمه آنكل Uncle. وعنوانه غير معروف. وقالت أيضًا إن الرجل الذى اشتراها والذى كسبت له ثلاثين مليون ليرة قبل أن تفلت منه، اسمه نوسا Nosa، وليس له عنوان ثابت لكنه في بعض الأحيان يقيم في مودينا Modena وبادوا.

كان أموس يدون هذا التفاصيل المحزنة بنصها كما هى دون تغيير. ثم أعاد الاستمارة إلى آدسوا لتسلمها إلى القنصل.

كان آموس يرتعش " أماه ! " لم يكن الرجل يرتعش بسبب البرد. كان الرجل يشعر بالغثيان. أحس بالغثيان عندما أدرك أنه كان طرفًا فى جريمة خطيرة، جريمة ارتكبها فى حق إنسان آخر، جريمة فى حق الإنسانية. كان الرجل يتألم للمعاناة الشديدة التى طالت هؤلاء البنات، فى طريق وصولهن إلى إيطاليا، ليجرى وضعهن فى الأسر فى نهاية المطاف، ويجرى بيعهن فى الأسواق، مثل البضاعة تمامًا. لقد امتلأ قلبه ندمًا وخزيًا. وراح يدعو " سامحنى، يا الله ".

أفاق الرجل من غفوته التفكيرية على الدون لورينزو وهو يقف إلى جواره، بل أمامه بدأت الصالة تفرغ مما فيها من البشر. فقد بدأ الناس يغادرونها. ولم يكن هناك غير القنصل، الذى كان واقفًا بالقرب من الباب، واضعًا أوراقه تحت إبطه.

وقف الدون لورينزو على جنب لكى يفسح الطريق أمام رجل الله لكى يمشى أمامه وقال : " يا أخى، هيا بنا. لقد حان وقت العمل الميدانى ".

نهض آموس واقفًا، وقفل أزرار معطفه الشتوى، وسار خلف مؤسس الجماعة، إلى السيارات الواقفة خارج المركز.

* * *

كانت القافلة مكونة من ثلاث سيارات. كان الدون لورينزو هو والقنصل يجلسان فى السيارة الأولى التى كانت تحت حراسة الشرطة.

وكان يقود السيارة واحدٌ من رجال الشرطة. وإلى جانب السائق كان هناك ضابط الشرطة الثاني. كانا قد تركا سيارتهما زرقاء اللون المدون عليها كلمة " الشرطة " Polizia، في مجمع المركز. ركب أموس سيارة ثانية، وكان قد وضع حقيبته في صندوق السيارة. عندما يعودون سيكون الوقت متأخراً، والأرجح أن يكون المكتب مغلقًا. كان قائد السيارة يدعى مارسيلو Marcello. كان مارسيلو عاملاً متطوعًا يعمل مع الجماعة (المركز). هذا المارسيلو كان مدرسًا في إحدى الكليات، لكنه كان يخصص للمركز أربع ساعات أسبوعيًا يساعد فيها عن طريق ما يوكله إليه الدون لورينزو من أعمال. كان مارسيلو يعمل سائقًا في هذه الليلة. في السيارة الثالثة، التي كان يقودها متطوع آخر، عمله الأصلي إخصائي اجتماعي. وساءل أموس نفسه لماذا لم يذهبوا في سيارتين. كانت المقاعد الخلفية في السيارة التي يركبها خالية.

أوضح له مارسيلو، " هذه المقاعد محجوزة للبنات الهاربات. في بعض الأحيان، وعندما يصادفنا الحظ، قد نعثر على بعض بنات الشوارع ونحضرهن معنا ". وراح السائق يُسَرِّع السيارة غير عابئ بالطرق الزلقة. كان أموس يخشى على حياته من هذه السياقة. كان مارسيلو يتابع السيارة التي تسبقه حتى لا تضيع منه. كان أموس يعرف أن النساء الإيطاليات متهورات في السياقة. وهو يعرف أيضًا أن النساء المتسرعات في السياقة يشكلن خطراً. وهو الآن يتعين عليه إدخال الرجال أيضًا في زمرة النساء السائقات.

مشوا فى صمت. كانت تلك الفرصة التى كان آموس ينتظرها كى يعرف المزيد عن العمل الميدانى.

سأل آموس مارسيلو، وهو يشير إليه ليهدئ من سرعة السيارة، " ما الذى تفعلونه بالضبط فى العمل الميدانى ".

" المسألة مسألة وقت وبعدها ستعرف كل شئ ".

" ولماذا يصاحبنا رجال الشرطة ؟ "

" للأمن ليس إلا. نحن نمشى فى الليل ولا نعرف ذلك الذى يمكن أن يحدث ".

" لكن لماذا لا يستعملون سيارات الشرطة الخاصة بهم ؟ "

" البنات سوف يهربن، إذا ما رأين سيارات الشرطة. يحسبون أن الأمر مداهمة ".

كان مارسيلو من النوع اللطيف، لكنه كان يتكلم بجدية تامة. كان مارسيلو أشقر وأزرق العينين، ومتيناً. وكان متزوجاً وله طفلان. اتضح أنه كان يود أن يصبح قسيساً منذ أن كان فى شبابه، لكن راعى الأبرشية أخبره أنه ليس لديه مكان شاغر. هذا العمل التطوعى، كان وسيلة من وسائل إشباع رغبة الرجل فى مساعدة المحتاجين.

سأله رفيقه مرة ثانية، " ألا تمانع زوجتك فى ذلك ؟ "

" لا، نحن عضوان فى هذه الجماعة. وهى تعى مدى معاناة هؤلاء الناس. ولولا أطفالنا الصغار لتطوعت هى الأخرى للعمل فى هذا المركز ". أجاب مارسيلو على السؤال وعيناه على الطريق.

تكلموا عن أمور أخرى، مثل ريمينى Rimini، وروما، كان مارسيلو قد زار جراند Grand كانيون Canyon عندما كان كشافًا صغيراً، وهو ما يزال يتذكر جمال هذا المكان. واصلا فى صمت تتبع السيارة التى أمامهما. كانا قد تجاوزا وسط المدينة وأصبحا الآن فى الضواحى، ويسيران فى طريق مهجور.

راح آموس فى غفوة، بسبب الإجهاد الذى أصابه جراء الرحلة الطويلة. وصحا آموس من غفوته عندما سمع الصوت الصادر عن السيارة استعداداً للوقوف. وعلى الفور نزل الدون لورينزو هو والقنصل من سيارتهما ووقفا على الطريق الأبيض. ووصلت السيارة الثانية. لم تكن لدى الأمريكى أية فكرة عن المكان الذى كانوا فيه. كان الظلام حالكًا. لم تكن هناك إضاءة فى الشارع. كانت فوانيس السيارات تكشح الظلام لفترة قليلة. فى تلك الفترات كان آموس يرى البنات وهن مصطفات على الطريق. كانت هناك بنات كثيرات، حوالى عشرين بنتًا. كن على جانبى الطريق. وتبين آموس من حولهن خيالات بعض السيارات والدراجات النارية الواقفة فى مكان خالٍ.

نزل آموس بعد مارسيلو والدون، ولحق بالدون الذى كان يتجه صوب مجموعة من البنات اللاتى كن على بعد مسافة قصيرة.

الواضح أنهن مومسات. أحس آموس بالغثيان. ذلك أنه منذ فترة غير بعيدة جاء إلى مكان من هذا القبيل. راح يراقب فى صمت البنات وهن يرحبن بالدون ترحيبًا حارًا. " مرحبًا ! أيها الأب. مرحبًا ! بالدون ماريو ". سألهن عن أحوالهن. قالت إحداهن إنه نسيهن ولم يعد يتردد عليهن مثلما كان يحدث من قبل. هذه هى الألفة نفسها التى شاهدها فى المركز.

أكد الدون العجوز لهن، " أنا لم أنسكن يا أخواتى. أنا أدعو لكن كل يوم. أفكر فيكن طول الوقت. كل ما فى الأمر أن عندى أماكن كثيرة يتعين علىّ زيارتها ". راح الدون يتغنى بواحدة من أناشيد الأحد المدرسية :

أحب يسوع، أحب يسوع،

يسوع صديقى، يسوع صديقى،

لن يتخلى عنى مطلقًا. لن يتخلى عنى أبدًا،

يسوع صديقى. يسوع صديقى.

وعلى الفور راحت البنات كلهن يغنين. كن سعداء بلقاء الدون. كان بمثابة أب وأخ لهن. وكان عندهن بمثابة المنقذ والمخلِّص، بلا شك.

بعـد الأغنيـة، أم الدون البنات وصلى بهن. ووزع الدون عليـهن كراسات ومسابح صـغيرة. وراحت بعض المومسات يضعن المسابح حول أعناقهن كما لو كانت عقوداً.

" لا تنسين، أنا أنتظركن في المركز. المركز فيه، طعام، وفراش، ودفء لكن. يجب أن تتركن هذا العمل، هذا العمل الخطير. تعالين إلينا. سنجد لكن أعمالاً غير هذا العمل، سنحصل لكن على وثائق. ستبدأن حـياة جـديدة. ها هو عنواني ورقم هاتفي. اطلبنني. أبلغـوا البنات الأخريات، صديقاتكن، أن يجئن إلى المركز. حيث الأعمال الأفضل والحياة الأفضل ".

تناولت البنات الأوراق من الدون وتخلين عنها.

قـالت إحداهن : " أيهـا الأب، مـا يزال أمامي سداد مبلغ ثلاثة ملايين ليرة. وبعدها سأجيء إليك. لقد سئمت هذا العمل. سئمته بحق ".

" ستمسك بي عمتي (معلمتي) إذا ما هربت منها، أيها الأب. ستضربني ". صدر هذا الكلام عن بنت أخرى، سمراء اللون، يحمل وجهها مكياجاً ثقيلاً، وثدييها يظهران من المعطف منخفض الياقة، الذى كان يحميها من النزلات الشعبية. كانت بنات كثيرات يتكلمن كلهن فى آن واحد.

" نعم، عماتنا سيؤذيننا إذا لم نسدد لهن ما علينا ".

" ستقتل أباءنا فى بلادنا ".

" لقد أقسمنا على أن ندفع لها كل ما دفعته لنا ".

" سنأتى إلى المركز فى مرحلة لاحقة ".

" كان الدون يستمع إليهن، ويومئ برأسه. فقد سبق له سماع تلك الأعذار من قبل ".

كرر الدون، " لا تنتظرن طويلاً. لقد جاءت بعض البنات إلينا. ولم يحدث لهن أى شئ. هن يمارسن أعمالاً أخرى فى الوقت الراهن. سيحصلن على وثائق ثبوتية خلال فترة وجيزة. هذا هو قنصلكن. سيساعدكن على الحصول على الوثائق إن تركتن الشارع ".

وهنا أومأ القنصل برأسه مؤكداً كلام الدون ووعوده. وبينما كان الدون يتكلم مع البنات، انصرف بعضهن للرد على الزبائن الذين كانوا يفدون على المكان بين الحين والآخر. بعض آخر من البنات كن ينزلن من سيارات الزبائن ويجرين للانضمام إلى الجماعة.

" سنصل إلى ريمينى خلال وقت قصير. هناك اجتماع كبير لمنظمة الأغذية والزراعة. سنسافر إلى ريمينى. حيث العدد الكبير من الزبائن. وبعد أن نجمع مبالغ كبيرة، سنسوى ديوننا ونجئ إليك بعد ذلك ". كان هذا هو كلام أيرتى Ireti، تلك المرأة الظريفة التى لها ابتسامة توحى بالحظ العاثر. لقد تحولت إلى واحدة من بنات الشوارع.

أسرت بنت أخرى إلى الدون " أيها الأب، لو حكيت مشكلاتى ليسوع. فسوف يبكى من أجلى ".

" ادع لنا يا دون ماريو. ادع لنا بأن نجمع المال الكثير. ثم نقلع عن الشوارع بعد ذلك ".

" أنا أدعو لكن بأن تتشجعن على ترك الشارع، يا أخواتي. الرب ينتظركن ".

من مكان ما، وفي ظلمة الليل، بدأت تغني واحدة من البنات ؛ كانت تغني لحنًا حزينًا.

شاركتها البنات الأخريات الغناء

متى أرى أمي ؟

حُسَانا !

متى ألتقي أطفالي ؟

حُسَانا !

أوه أوه أوه أوه حُسَانا.

أوه أوه أوه أوه حُسَانا.

أوه أوه أوه أوه حُسَانا.

متى أتحرر مما أنا فيه ؟

كان منظرهن وهن يغنين يوحي بالألم. تذكر آموس يسوع، وهو يعظ الناس. كان صوت الدون لورينزو عامرًا بالحب. كان صوته عامرًا بالحب والعاطفة والحنان.

عندما عاد الرجال إلى السيارات، كن يسمعن البنات العبدات يغنين في جوف الليل.

متى سأرى أخى ؟

حُسَانا ؟

متى سأرى بلدى ؟

حُسَانا .

أوه أوه أوه أوه حُسَانا ؟

أنا جزء من الموتى.

انهمرت الدموع على خدى آموس.

لم تكن هناك هاربات من تلك الوصلة التى زارها الدون فى تلك الليلة. زارت جماعة الدون لورينزو فى تلك الليلة خمس وصلات. وصلوا إلى مدينة كاتوليكا Cattolica، وسان مارينو، كما وصلوا إلى سنجاليا Senegalia أيضًا، وزارو سان بيراندينو. ذهبوا إلى كل مكان، تكلموا مع المومسات الواقفات فى البرد. التقوا فى كاتوليكا بنتًا عمرها خمسة عشر عامًا، قالت إن أمها هى التى أدخلتها فى هذه المهنة وهذه التجارة. فى سان برنادينو Bernadino، التقوا صوفيا Sofia ذات الأربعة عشر عامًا، التى كانت تقف على الطريق للمرة الأولى فى حياتها.

عادوا إلى مبنى المركز بعد الساعة الرابعة صباحًا بهنيهات قصار.

أروا آموس غرفته. وعلى الفور نام الرجل في السرير الصغير. وبعد ساعة من القلق، استسلم للنوم.

استيقظ آموس كالعادة عند الساعة السابعة صباحًا. وعجّل الرجل بارتداء ملابسه ثم نزل إلى الدور الأرضي. لم يكن آموس على علم ببرنامج المركز اليومي. كل ما كان يعرفه هو أنه سوف يستقل القطار في ساعة متأخرة من النهار إلى روما. كان آموس يعرف أنه ليس هناك خط مباشر إلى روما. سوف يتعين عليه السفر أولاً إلى بولونيا. وهو يعرف أن هناك قطارات أخرى ستقله إلى روما وعلى مدار الساعة. جمّع الرجل أشياءه ونزل إلى الدور الأرضي.

يجب ألا يُنْسى السبب الذى دفعنى إلى المجئ إلى هنا. إنه العفو والسماح. كل ما عدا ذلك يعد هامشيًا. لابد للدون لورينزو أن يسامحنى. و إلا ستكون رحلتى إلى هنا مجرد هباءٍ منثورٍ.

عندما نزل آموس إلى الطابق الأرضى، كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة. كانت الأسهم الورقية تشير إلى اتجاه غرفة الطعام. دخل الرجل غرفة الإفطار لتناول كوب من القهوة، احتساه على وجه السرعة.

ثم راح آموس يبحث عن الدون لورينزو.

كان الدون لورينزو خارج المركز، على وشك أن يركب فى واحدة من السيارات، عندما شاهد آموس يجرى نحوه.

حياه قائلاً : " أهلاً بك يا أخى. آمل ألا تكون مُتْعَبًا " .

رد آموس التحية " أهلاً بك أيها الأب. أتمنى أن أغادر فى ساعة متأخرة من صباح هذا اليوم. سوف أحضر القداس وسوف أنصرف بعد ذلك. أشكرك على كرمك. هل أنت خارج إلى عمل ما ؟ "

" عندى موعد مع المدبّر الرسولى. الساعة التاسعة ".

" أنا بحاجة إلى الاعتراف. أرجو ألا تنسانى، هل تذكر أنى موفد من قبل الدون رومولو ؟ "

" آه، نعم. قرّب منى ".

اقترب آموس من زميله كبير السن الذى أخذه على جنب، بعيداً عن السائق. كان آموس يتنحنح استعداداً للكلام، عندما وضع القس الكبير يده على كوعه وباركه على النحو التالى :

" بحق الكهانة التى أسبغت على، أنا أسامح كل خطاياك باسم الأب، وباسم الابن، والروح القدس، آمين. اذهب فى سلام ولا تخطئ مرة أخرى. تذكر يا أخى القول المأثور : أنت بطرس وسوف أبنى كنيستى على هذه الصخرة ".

" شكراً، أيها الأب، شكراً ". كرر أموس هذا الشكر لرحمة الله التى حلت عليه أخيراً، وكان ممتناً لذلك لأنه وفر عليه ضعته وكسوفه عندما يعترف بخطيئته. فكر فى كلمات الدون الأخيرة. كانت باللغة اللاتينية لكنه فهمها تماماً. تلك كانت الكلمات التى قالها سيدهم قبل ألفى عام لتابعه " أنت بطرس وسوف أبنى كنيستى على هذه الصخرة ".

هذه المقولة كانت تقال أيضًا لكل قس من القساوسة فى يوم تنصيبه. ' وسوف لا تتغلب عليه بوابات الحادس(*). هكذا كان التائب يهمس بينه وبين نفسه. أحس وكأنه رجل جديد بالفعل. شخص جديد، مولود جديد، قوى.

وعندما شرع آموس فى الانصراف، استوقفه دون ماريو مرة ثانية وهو يمسك بذراعه.

" يا أخى، هناك فتاة فى الصالة. جاءت إلى هنا طلبًا للوثائق. أنا لا أستطيع البقاء لمساعدتها فى الحصول على ما تريد. لعلك تذهب وتستمع إليها وتدون ما تريده هذه البنت مثلما كنت أفعل أنا بالأمس، وسأكون لك من الشاكرين. القنصل سوف يغادر المركز فى ساعة متأخرة هذا اليوم. وسيأخذ معه أوراقها. أرجوك أن تفعل ذلك. أنا مطلوب منى الانصراف الآن. المدبِّر الرسولى ينتظرنى.

سأفعل ذلك بالقطع أيها الأب، سأفعله بكل تأكيد. وأنا أشكرك مرة أخرى.

" إلى اللقاء، يا أخى ".

راح طالب اللاهوت يتابع الدون لورينزو وهو يبتعد عن المكان فى السيارة. ثم دخل إلى الكنيسة بعد ذلك لأداء القدَّاس، قداس النَّدم والشكر. وذكر نفسه بأنه سوف يستمع إلى قدَّاس فى روما فى ساعة متأخرة من مساء اليوم. وقرر آموس أن يكون وفيًا ومخلصًا فى وعوده كلها.

(*) الحادس : هو مثوى الأموات فى الميثولوجيا الإغريقية. (المترجم)

إنه دَيْنٌ يتعين عليه أن يفى به لكل من الدون روmolo والدون لورينزو طوال حياته. وبقى آموس بعد ذلك على وعده ولم يخطئ، وظل عازباً ومخلصاً لربه.

راح أموس يعدو فرحاً عبر الفناء الصغير الذى يفصل الكنيسة عن المكتب، وهو أكثر ثقة بنفسه. وتناول ضميمة من الورق من مكتب موظفة الاستقبال. كان يترنم بأنشودة من أناشيد الرحمة والغفران وهو يدخل الصالة.

الفصل العشرون

بعد حضور طقس المداوى (المشعوذ) أرسلت أطفالى إلى أمى حسبما اتفقنا عليه من قبل. أمضينا اليوم عند أمى، وأعدنا ترتيب الكوخ بأن حفظنا بعض الأشياء وأبعدناها عن المكان ". فى المساء، وبعد تناول وجبة العشاء، جلسنا على الحصير خارج الكوخ، ورحنا نتكلم عن الحياة بشكل عام. كان الأطفال يجرون حول الكوخ. ها هى أوساس تعود من جديد إلى أخيها دانيال Daniel، وكانا منفعلين بهذا الرجوع ".

استحضرت مسألة القسم فى الضريح. كانت أمى على علم بهذه الأشياء. طلبت الوقوف على رأيها.

" الطب الوطنى له قوته، يا فيث " هكذا قالت أمى ". الطب الوطنى له قوته وبخاصة عندما يجرى فيه استخدام الدم البشرى. والطب البشرى أنواع كثيرة. ومع ذلك، هناك شئ مهم بالنسبة للطب الوطنى، أنه يضر أولئك الذين هم على استعداد للتأثر به. وأنت إذا لم تضرى به أحداً فلن يصيبك الضرر. هذا هو كل ما يمكن قوله ".

لكن، يا أمى، لقد أقسمت على شئ لا أعرفه. الأمر يشبه الطفل الذى يأتى إليك ويطلب إليك الموافقة على طلبه قبل أن تعرفين ذلك الذى يطلبه. على كل حال لقد ألغيت تأثيره على ".

تلت ذلك فترة صمت قصيرة بينما كنا نراقب الأطفال وهم يلعبون ويتمتعون بأنفسهم. بعد ذلك، وكسراً للصمت قالت أمي بصورة عابرة :

" بعد سفرك، سوف أنضم إلى النادى ".

سألت أمي وأنا كلى فضول " أى نادٍ تقصدين ؟ "

" النادى الإيطالى الدولى للسيدات ".

تعجبت وتساءلت : " ما الذى يفعلنه فى هذا النادى ؟ وأى نوع من النوادى يكون ذلك النادى ؟ "

" أنا لا أعرف بعد أى شئ عن هذا النادى. زوجة أوجى Ojei هى التى حكت لى صباح اليوم عن ذلك النادى. قالت إن هذا النادى مفتوح للنساء اللاتى لهن بنات وأخوات فى إيطاليا ".

" فهمت ". أنا لم أر شيئًا. أنا لم أفهم العلاقة بين سفرى إلى إيطاليا، وعضوية أمى فى نادٍ من النوادى. انتظرت. كان ما يزال لدى أمى أشياء تقولها. ومن عادة أمى أن تخرج ما عندها شيئًا فشيئًا.

" مركزهم الرئيسى فى مدينة بنين، لكن لهم أفرع فى البلدان وفى القرى. وسوف ألتحق بفرع أودا Oda".

" لكن، يا أمى، ما الذى يفعلونه فى هذا النادى بالضبط ؟ "

أعادت كلامها، " أنا لم أعرف ذلك بعد " ". هم يجتمعون بين الحين والآخر. هم يتكلمون، يأكلون، يشربون، ويمتعون أنفسهم. عندما تسافرين أرسلى لى نقوداً حتى أنضم إلى النادى ".

" فهمت. وماذا عن أولئك الذين لهم أقارب فى كل من أمريكا ولندن والأماكن الأخرى، هل لهم روابط أو اتحادات أخرى ؟ "

" كيف لى بمعرفة ذلك، يا فيث ؟ أنا ليس لى أحد فى تلك الأماكن ".

دافعت قائلة : " احترسى، يا أمى " ". أنا أشتم رائحة شئ ما هناك. أنا لا تستهوينى النوادى المغلقة. هذه النوادى يكون لديها ما تخفيه في معظم الأحيان ".

كانت أمى تؤكد لى، " أنا لدى حماية، يا ابنتى. لا تنشغلى بى ". فى بعض الأحيان كنت أتساءل فيما بينى وبين نفسى كيف لوالدى المسيحى أن يتزوج من امرأة وثنية مثل أمى. عندما كان والدى على قيد الحياة، جرى ارتداد أمى عن الوثنية ودخلت فى المسيحية. لكن بعد وفاة والدى عادت أمى إلى أساليبها الوثنية السابقة، مثل الطب الوطنى، والحماية الوطنية. أما أنا فقد اتبعت دين والدى. وحتى بعد وفاته بقيت على الدين نفسه. وهذا هو السبب وراء عدم ارتياحى للطقس الذى جرى فى ضريح المداوى (المشعوذ) الوطنى.

كان الأطفال يلعبون من حولنا. ومن باب الخوف عليهم من أن يؤذوا أنفسهم كانت أمى تنذرهم وتطلب منهم البقاء قريبًا منا على الحصير.

قالت أمى : " احكى لهم قصة، يا فيث. وسوف ننهى حوارنا بعد أن يناموا ".

عند هذه المرحلة تذكرت أوساس Osas قصة السلحفاة والأميرة. كنت قد بدأت معهم تلك القصة منذ شهور مضت لكن جدول أعمالى حال بينى وبين إنهاء القصة لهم. والآن الوقت مناسب لإنهاء تلك القصة.

" يا أمى أنت لم تكملى لنا قصة السلحفاة والأميرة ".

" اسمحوا لى أن أسألكم، أين توقفنا ؟ "

" توقفنا عندما ارتدى ذكر السلحفاة ملابس مقترضة وذهب يطلب يد الأميرة ".

" أنت على حق يا أوساس، لديك ذاكرة طيبة ".

تجمع الأطفال حول أمى وحولى، وهن يتزاحمن طلبًا للسلامة أثناء الليل، وطلبًا أيضًا للراحة. وبعد أن استقروا فى أماكنهم، واصلت رواية القصة لهم.

" عندما رأت الأميرة، هذا الرفيق المهندم المتأنق، ابتسمت فيما بينها وبين نفسها. لقد سبق أن رأت الرجل التى تود الزواج منه. وقبل أن يستدعيها والدها للترحيب بالخطيب، اندفعت داخلة إلى غرفة الملك وقالت : ' نعم، هذا هو الشخص المطلوب. استدعاها والداها على جنب وراحا يجادلانها. قالا : نحن لا نعرف هذا الشخص، من أين هو؟ ومن أين يعيش؟ وما هو عمله الذى يتعيش منه؟ نحن لا نريد لك أن تتزوجيه، أعطينا الفرصة، نسأل عنه، قبل أى شئ ".

سألت الأميرة والديها " ألا تريان ملابسه الأنيقة، وحذاءه اللامع، وقبعته الجميلة ؟ "   " لابد، أن يكون رئيسًا من الرؤساء. لابد أن عنده منزل كبير وغنى جداً. سأتزوجه ".

بقى الوالدان على ترددهما. ونصحاها " نحن نريد أن تتزوجى شخصًا آخر ".

وهنا ألقت الأميرة الجميلة بنفسها على الأرض، وراحت تبكى وتنتحب. ورفضت أن تأكل أو تشرب.

وصاحت قائلة : " إذا لم أتزوج هذا الرجل، فلن أتزوج أبداً ".

" وافق الوالدان فى النهاية وتزوجت الأميرة أونوم Onome ذكر السلحفاة وانصرفت لتعيش معه "...

سألت أوفاى Ovie، " يا أمى، هل عاشا بعد ذلك فى سعادة ؟ "

قالت الأم : " القصة لم تنته. انتظرى إلى أن تنتهى القصة. وعندها ستعرفين ".

قالت أوساس : " يا أمى، ما عليك من أوفاى Ovie. هى دائمًا تود الإزعاج. هى من النوع العجول جداً. لا تجيبى على أسئلتها ".

" بدأ العروسان يتجهان صوب منزلهما. مشيًا ثم مشيًا. وأحست الأميرة بالتعب. ثم شاهدا بعد ذلك منازل جميلة وكانت الأميرة سعيدة لأنهما سارا فى ذلك الاتجاه. لكن ذكر السلحفاة استوقفها عند البوابة.

وقال للبنت ' انتظرى هنا. سأعود إليك حالاً. ' بعد ذلك سوف يسارع لإعادة الأشياء التى اقترضها وهو فى طريقه إلى منزل الملك لطلب يد الأميرة. وعندما وصلا إلى كهفه، لم يكن يرتدى حذاء، أو ملابس، أو قبعة، أو أى شئ. كان مجرد سلحفاة ذكر. ولم يتبق له سوى عصاه التى يتوكأ عليها. كان بحاجة إلى العصا ليتوكأ عليها ؛ إذ كان عجوزاً وضعيفاً ".

" أحست الأميرة بالصدمة، عندما أدركت أنها، هى الأميرة، تزوجت من مجرد سلحفاة ذكر عادى. وهنا خطر ببالها منزل والدها، وغرفتها الجميلة، وملابسها الجميلة. قالت فيما بينها وبين نفسها وهى حزينة والدموع تنهمر من عينيها : ' لا يمكن أن أبقى هنا. لابد أن أعود إلى القصر ".

" استدارت الأميرة وراحت تقطع الطريق نفسه عائدة إلى القصر، والسلحفاة الذكر يجرى خلفها ".

قاطعت أوفاى أمها مرة ثانية : " يا أمى، الحمد لله أن السلحفاة الذكر لم يكن أسرع من الأميرة ".

" نعم، الحمد لله، لكنه رجا صديقه النمر، أن يحمله على ظهره. ' سوف أعاقبها على الهرب. سأعطيك رجليها لتأكلهما. ' وعليه وافق النمر على ذلك. النمر سريع جداً. راح الاثنان يجريان خلف الأميرة ".

غمغم الأطفال، " أوه، "

كان الليل ساكنًا. لم ينطق الأطفال بكلمة واحدة. اقتربوا من النساء، وهم ينظرون خلف ظهورهم، مخافة أن يمسك بهم النمر هم الآخرين. تظاهر دانيال أنه هو الأسد، وراح يناغش البنات من الخلف. كانت فيث تعرف أن الحيوانات المفترسة سوف تظهر فى أحلام الأطفال فى تلك الليلة. وكادت أن تغير نهاية القصة. لكن أمها كانت موجودة. وسوف تكشف أمرها.

" راحت الأميرة تجرى، وتجرى، وتجرى إلى أن أصبحت غير قادرة على الجرى. وكان النمر ومن فوق ظهره السلحفاة الذكر، يجرى، ويجرى خلف البنت الصغيرة. كان الطريق ملتويًا وطويلاً. يتعين عليك السفر عبر الأنهار والجبال حتى تصل إلى القصر. بعد زمن طويل، طويل، وصلت الأميرة إلى بيتها. كان الوقت ليلاً. وكان الجميع نيامًا. وكان الباب مغلقًا. طرقت الباب وراحت تصيح كى يفتحوا لها الباب. كان النمر على وشك الوصول إليها. راح النمر يجرى بخطوات كبيرة ؛ والسلحفاة الذكر فوق ظهره. كان النمر جوعان. ثم رأى القصر بعد ذلك، ثم رأى الأميرة، ممددة أمام الباب المغلق. حثه السلحفاة الذكر على المضى قدمًا. ' امض قدمًا، امض قدمًا، لقد أوشكت على الوصول. امض. لا تنس رجليها اللذيذتين ".

" كان النمر على بعد عشر خطوات فقط، عندما فتح الملك باب القصر، ليتبين ذلك الذى يحدث أمام باب القصر. لقد أيقظوا الملك من نومه. وكان ما يزال يفرك عينيه. ولولت الأميرة الخائفة وهى تقول : '

افتح، افتح، إنه أنا. " كان النمر عندئذ على بعد حوالى خمس خطوات فقط، كاد أن يصل إلى الأميرة. اندهش الملك، وشاهد ابنته ومن خلفها، السلحفاة الذكر والنمر يكادان أن يطبقا عليها. اندفع النمر إلى الأمام ومد مخالبه ليمسك بالأميرة، عندما انفتح الباب على مصراعيه وارتمت الفتاة داخل القصر. ثم انقفل الباب بعد ذلك. كان مخلب النمر الأيمن قد أمسك بطرف فستان زفاف الأميرة واستطاع شق الفستان من على ظهرها، ومعه شيء من لحمها بين أظافره. وهذا هو السبب فى وجود الخط الذى فى ظهورنا جميعًا، إلى يومنا هذا ". صمتت فيث قليلاً. وقالت " خلصت الحدوتة، توتة توتة خلصت الحدوتة ! ".

" يا لها من حدوته ! " قالها الأطفال المنعوسون، وهم سعداء لإنقاذ الأميرة.

" يا أمى، هذه القصة تعلمنا بأننا ينبغى علينا الإنصات إلى ما يقوله الوالدان لأنهما أكثر حكمة وعقلاً منا ".

أقرت فيث ما قالته أوفاى Ovie" هذا الذى تقولينه جيد جداً ".

" تعلمنا القصة أيضًا، يا أماه، أننا إذا كنا لا نستلطف شيئًا، فالأفضل لنا ألا نتمسك بذلك الشئ. وإنما يتعين علينا محاولة شئ آخر. مثلما فعلت الأميرة ".

نام الأطفال بعد انتهاء الحدوته. وبقيت أنا مع أمى على الحصيرة، فى ضوء القمر، نتكلم سويًا عن الرحلة المنتظرة. بعد فترة نهضت أنا

وأمي لندخل الكوخ. الرحلة ستكون طويلة ويتعين على أن أبدأ فى ساعة مبكرة. بينما كنت أهم واقفة أمسكت أمي بيديها فى يداى.

" فيث، ابنتى، أتمنى لك الخير. أتمنى أن تصاحب أرواح أرضنا ابنتى فى رحلتها. وأن توصلها بسلام إلى أرض الرجل الأبيض. وأن ترعاها فى أرض الرجل الأبيض، في تروحها ومجيئها. وعندما يحين أوان العودة، أدعو أن تعيدها أرواح أرضنا سالمة إلينا. فيث، سيكون ما تفعلينه فى صالحك. لقد كنت بنتًا صالحة لي. اذهبى فى سلام ولا تنسينا. لا تنسى أطفالك. لا تنسى دانيال، لا تنسى أمك ". اغرورقت عينا الأم بالدموع. امرأة مسكينة. امرأة مسكينة. لقد كنت الإنسانة الوحيدة لها فى هذه الدنيا كلها. كنت أسفة على فراقى لها ومعها كل هؤلاء الأطفال. كنا قد ناقشنا ذلك كله من قبل. كنت مسافرة إلى إيطاليا لتحسين حالي وحال الأطفال. وحال أمى أيضًا. قبلتها وضممتها إلى صدرى.

" أشكرك يا أمى، شكرًا لك يا أمي. أنا خائفة لأنى لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة؟ أنا لم يسبق لى السفر إلى إيطاليا وأنت كذلك. لكنى لم أؤذِ أحدًا من الناس. لم أصب أحدًا بسوء. وعليه، وعلى الرغم من خوفي، لا تساورنى المخاوف. لقد أسمانى والدى فيث (إيمان). وبما أنى وُلدت من جديد، فأنا أومن بإله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. وعليه فإن الله سبحانه وتعالى هو وآلهة هذه الأرض سيكونون معى. لن أنساك يا أمي. ولا يمكن أن أنساك مطلقًا. وأقرب الأشياء إلى الله هى الأم ".

هناك آية فى المزامير تقول : " لو نسيتك فلتجف شفتاى. " كنت أود أن أعيد هذه الآية على أمى لكنها لم تكن لتفهمها. وبدلاً من ذلك، رحت أتمنى لها طيب الإقامة مع الأطفال.

فكت أمى لباسها وأعطتنى ورقة ". إيجون Egun لديه هاتف الآن. هذا هو رقم الهاتف. بعد أن تستقرى هناك، اتصلى بنا على ذلك الهاتف. وعندها سيرسل إيجون فى طلبى ".

أخذت الورقة منها.

" أنت تعرفين ولد إيجون. لم يسمعوا عنه أى خبر منذ أكثر من عام. إذا ما تمكنتِ من الوصول إليه، أو تحريتِ عنه، حاولى الاتصال به واجعليه يتصل بأهله على هذا الرقم الذى أعطيتك إياه ".

" حاضر، يا أمى ".

" كما قلت لك إن زوجة أوجى Ojei كانت عندى صباح اليوم. ولدهم الذى سافر إلى الخارج قبل عشرين عاماً. لم تصلهم منه أية أخبار. إن التقيتيه، أبلغيه أن أهله قلقون عليه ".

" لكنه سافر إلى أمريكا يا أمى، أما أنا فسوف أسافر إلى إيطاليا ".

" كله واحد. إذا وصلتك أخباره، فاسأليه، إن كان والده قد أساء إليه على نحو يجعله يسافر إلى الخارج ؟ أبناء الناس الآخرين يكتبون

لأهليـهم، ويرسلون النقـود، ويزورون أسـرهم، فلمـاذا يخـتلف ولد أوجى Ojei عن أبنـاء الآخـرين ؟ " صـمـتت أمى لحظـة، ثم أردفت قـائلة : " لا تنسى يا فيث. إذا كنت بحـاجة إلى أى شئ من قبيل الدواء، أرسلى لى رسـالة. أنا أعلم أنك مسيحية مثل المرحوم والدك. لكن لا تهملى دواءنا. هذه الليزى Lizzy التى ستلقينها، إنهـا تستـخدم دواءنا الوطنى. وأنت ينبغى أن تحصنى نفسك بهذا الدواء أيضاً ".

" يا أمى، لقد قلتِ إننى طالما لم أوذ أحداً، فلن يصـيبنى الضـُّر. وهذا يكفينى ".

الفصل الحادى والعشرون

استقللت بصحبة دوريس Doris حافلة إلى ليجوس Lagos. وفى مطار مرتالا محمد، التقانا شخص يدعى أبو Abu. هذا الأبو Abu رافقنا طوال رحلتنا إلى فرنسا. أخذ منا وثائقنا من باب المحافظة عليها. يبدو أن هذا الرجل كان معروفًا فى المطار. كان الناس يحيونه فى كل مكان نذهب إليه وكان هو بدوره يوزع مبالغ كبيرة.

سارت أمور الرحلة على ما يرام. كنت منفعلة تمامًا. وكنت كلى أعينًا واعية وآذانًا صاغية. كنت مندهشة من مبنى المطار، ومن الأضواء، ومن منظر الطائرات وهى تقلع وتهبط، كما كنت مذهولة أيضًا من منظر المسافرين والناس الآخرين الذين كنا نمر عليهم أو نتجاوزهم. هؤلاء الناس كانوا يذكروننى بليزى Lizzy، أنيقة اللباس، نكية العطر. قال أبو Abu إن هذا الذى نشاهده لا يعد شيئًا إذا ما قارناه بما سترينه فى الخارج.

بقيت أنا ودوريس Doris قريبتين من بعضنا البعض، حتى عندما كنا على متن الطائرة. جلس أبو Abu فى مكان بعيد عنا. ووعد بأن يطل علينا بين الحين والآخر، وطلب منا التصرف على نحو لا يسترعى انتباه

الناس إلينا. لم نستسغ أكل الطعام الغريب الذى وضعته مضيفة الطائرة أمامنا. ومن حسن طالعنا أنه كانت هناك كمية كبيرة من البيرة، مما جعلنا نعب منها الكثير. لقد ندمت على ذلك الإفراط فى الشراب.

بعد طيران استمر ساعتين أحسست بالرغبة فى التبول. نظرت حولى أملاً فى تحديد مكان المراحيض. لم أجد شيئًا منها. نصحتنى دوريس بكتم التبول وتحمل ذلك، وأننا أوشكنا على الوصول. حاولت، وكنت أدعو أن تهبط الطائرة. ومضت ساعة أخرى. ساعتان أخريان. كانت مثانتى على وشك الانفجار. لم أكن أطيق الجلوس هادئة.

هنا، قالت لى دوريس : إن بوسعى أن أنزل إلى الأسفل وأبول فى كيس من الأكياس البلاستيكية الموجودة فى جيب المقعد الموجود أمامى. لم أستطع فعل ذلك. الناس من حولنا كانوا مستيقظين، ويشاهدون التليفزيون. كنت قلقة تمامًا. وعندما وصلت المضيفة إلينا، تشجعت وسألتها أين يمكن أن أتبول؟ ونظرت المضيفة إلى مؤخرة الطائرة، وقالت : إن بوسعى الذهاب إلى المرحاض حيث إنه غير مشغول. وقفت وأنا أتحوط مخافة أن يفلت البول من مثانتى الممتلئة. ذهبت إلى المكان الذى أشارت إليه المضيفة. نظرت حولى. شاهدت أطباقًا، وأكوابًا، وشاهدت أيضًا قوارير الشراب. لم أجد المرحاض. كان هناك بابان مختلفان. كان الباب الصغير منهما مكتوب عليه " بيت الراحة "، وربما كان ذلك للمسافرين المرضى والمتعبين الذين يريدون شيئًا من الراحة. وأنا لم أكن مُتْعَبة، وإنما محصورة بالبول. كان الباب الثانى كبيرًا وعليه حاجز.

طرقت الباب محاولة فتحه. وخطر ببالي فجأة أنه ربما كان ذلك الباب يفتح على الخارج. وبذلك يمكن أن أهوى ساقطه على الأرض إذا ما فتحت الباب خطأ. وقفت فى مؤخرة الطائرة، حائرة لا أدرى ماذا أفعل، وغير قادرة على الحركة، خائفة من أن ينفلت البول من مثانتى. كنت وحدى. ضممت وركى إلى بعضهما ضماً محكمًا، وأنا يائسة. فكرت فى الاسترخاء وترك البول ينزل منى، ولن يعرف أحد بذلك. لكنى لم أقدر على ذلك. أفلحت فى منع البول من النزول.

عدت إلى مقعدى وجلست فيه ثانية. لم أكن أستطع فعل أى شئ سوى أن أهز رأسي لدوريس، وأنا عاجزة عن أشرح لها بالكلمات أنى لم أفلح فى التبول. وهنا نهضت دوريس وراحت تنتقل من صف إلى صف، وهى تنظر فى وجوه المسافرين، بحثًا عن السيد / آبو Abu لتقول له : إننا نكاد نموت بسبب البول. وهنا جاء آبو وأرانى " بيت الراحة ".

قال لى موضحًا : " هذه هى دورة المياه. بيت الراحة، هو مجرد اسم بديل لدورة المياه ". كان الرجل قد نقل من قبل بنات كثيرات. وبالتالى كان يعرف الكثير عن السفر وأشيائه.

بعد ذلك بخمس ساعات، وفى ساعة مبكرة من الصباح، هبطت الطائرة فى مطار شارل ديجول فى باريس.

سرنا خلف السيد / آبو Abu فى الصف. لم أقو على فهم ما يدور، أو المكان الذى كنا ذاهبين إليه. لكنى واصلت السير مع باقى المسافرين، إلى أن وصلنا هذه الصالة الشاسعة، المضاءة إضاءة جيدة.

أخيراً وصلنا إلى طاولات مسئولي الوصول. كنا من بين المسافرين الذين خرجوا في البداية. كنا ما نزال في فترة الصباح الباكر. كانت الصالة هادئة. وصاح رجل يلبس زيًا رسميًا، صاح مناديًا زملاءه. وترجم لنا السيد / أبو Abu ذلك الذي قاله هذا الرجل : " هذه هي الرحلة القادمة من ليجوس ! هذه هي الرحلة القادمة من ليجوس ! " وعلى الفور، انفتحت الأبواب، لتكشف عن كثير ممن يلبسون الزي الرسمي وهم يخرجون من مكاتبهم. أخرجوا الكلاب، التي راحت تتشمم القادمين. كانت دوريات الشرطة تتجول في كل مكان. البعض منهم كان يقف لمراقبتنا. كنا نحسب أننا مجرمون.

الأرجح أن هؤلاء الناس هم الذين أخافوا دوريس. لكني لا أستطيع القطع بذلك. كل ما أعرفه، أن هناك أمرًا ما حدث عند طاولات الوصول، وأن ذلك الشئ هو الذي فصل دوريس عنا.

كان أبو Abu قد قال لنا : أنه سوف يتولى هو الإجابة على أسئلة ضابط الجوازات. وأن المطلوب منا هو أن نقول : إنه شقيقنا ؛ وإننا كنا نسافر معه ونترك له القيام بالمطلوب منا نيابة عنا. ومع ذلك، أصر السيد / أبو على أنه إذا ما أصر ضابط الجوازات على مقابلتنا فإننا يتعين علينا التظاهر بالمرض والوهن، وأنه كان يصحبنا في الخارج طلبًا للعناية الطبية. وبهذه الطريقة، سيسمحون لنا بالدخول، على أن نستأنف بعد ذلك رحلتنا إلى إيطاليا.

تقدمت أنا إلى طاولات الاستقبال. وقلّب ضابط الجوازات صفحات جواز سفري، وأطال النظر إلى وجهي بعض الشئ، ثم أشار لي

بالتحرك بعد ذلك. خطوت خطوات قليلة ورحت أنتظر رفاقى. تقدمت دوريس بعدى. حاول السيد / أبو Abu التكلم نيابة عنها لكن الرجل الأبيض طلب منه التزام الصمت وهو يحاور البنت. دوريس المسكينة. واقع الأمر إنها لم تكن تعرف الإنجليزية، الأمر الذى جعلها لا تتقن التحدث بهذه اللغة. هذا هو رجل فرنسى يتكلم الفرنسية بغُنَّة أنفية. وأنا أظن أن السيد / أبو Abu أشار إليها، فصرخت صرخة عالية، صرخة أدهشت كل من كانوا قريبين منا. وراحت تلوح بيديها فى الهواء، وخلعت الشعر المستعار، وفتحت فمها عن آخره، فى حين راح لسانها يتحرك يمينًا وشمالاً كما لو كان ثعبانًا. لمعت عيناها وجلست على الأرض، ورجليها مفرشختان، وراحت تلهث مثل إنسان قطع المسافة جريًا فيما بين بنين Benin الجديدة وأجبوو Ugbowo. أحسست بالقلق والضيق. ترى، ماذا حدث لرفيقتى، دوريس ؟ كانت تتصرف بطريقة عادية طول الوقت. أنا أعرف أن الجنون ليس وراثة فى أسرتها. وهنا خطر ببالى المشعوذ إجرجيدنتا Igirigidinta، ورحت أتعجب ما إذا كان دواؤه بدأ يُحدث تأثيره علينا..

هنا تدخل أبو وشرح لضابط الجوازات أن دوريس لديها تاريخ مرضى يفيد وجود الاضطراب العقلى فى أسرتها، وأنه لهذا السبب كان يصحبها إلى أخيها فى إيطاليا، لفحصها طبياً.

من سوء الطالع، أن الأمر لم ينته مثلما كان أبو يتوقع، بأن يشير إليهما ضابط الجوازات بالخروج. لكن ضابط الجوازات داس على أحد

الأزرار، الأمر الذى انتهى إلى حضور المسئولين الطبيين الذين كانوا يرتدون زيًا أبيض. وأحضروا معهم نقالة حملوا عليها دوريس. ثم قالوا لأبو أنهم سوف ينقلون دوريس إلى العيادة النفسية، لأن حالها النفسى لم يكن يسمح لها بالسفر...

تلك كانت المرة الأخيرة التى شاهدت فيها دوريس.

* * *

واصل أبو السفر إلى إيطاليا وأنا معه بطريق القطار. ولابد أن نكون قد مررنا على بلاد كثيرة. غيرنا القطارات مرات عدة. كان الطقس شديد البرودة خارج القطار. ارتعشت وانكمشت ورحت أفرك راحتى يداى لتوليد شئ من الطاقة. عندما يزفر الإنسان يخرج الدخان من فمه وفتحتى أنفه. كان ذلك الدخان أبيض فى بعض الأماكن. وشرح لى أبو أن الدخان الأبيض يعنى أنه يتساقط ؛ أى أنه شبيه بالثلج عندما يخرج من الثلاجة.

كنت مندهشة لطبيعة المنشآت والمنازل التى شاهدناها ونحن نمر خلال فرنسا وصولاً إلى إيطاليا. فى باريس، التى استقللت منها القطار من محطة ليون Lyon، كانت هناك ناطحات سحاب ومبانٍ فخمة. هذه البنايات كانت أكثر بكثير عما شاهدته فى ليجوس. كانت باريس كلها حركة وحيوية، محلات كثيرة وعدد كبير من الناس المهندمين. تمنيت لو

أننا لم نغادر فرنسا، وانتهت رحلتنا فيها. ما هو المكان الذى يمكن أن يكون أجمل من هذا المكان ؟ كنت أتعجب طول الوقت.

كنت كلى أعينًا واعية. أعجبنى كل ما رأيته، وبخاصة عندما عبرنا الريفيرا الفرنسية وصولاً إلى موناكو Monaco. الآن أنا أدرك السبب الذى يجعل أهلينا يقولون إنَّ المسافر الشاب يجب احترامه أكثر من المسافر كبير السن، الذى لم يغادر محل مولده.

تجولت فى القطار. لم أذهب إلى مسافة بعيدة حتى لا أضل طريقى. كانت عربات القطار شبيهة ببعضها البعض. كان هناك مطعم فى قسم من أقسام القطار، كما كانت فى القطار أيضًا بعض كبائن النوم. ولم أجد مشقة فى تحديد مكان دورة المياه فى هذه المرة. كانت رحلة القطار أفضل عندى من رحلة الطائرة.

بعد أن عبرنا إلى حدود إيطاليا رحت أنظر إلى الخارج بحثًا عن المزارع والحقول التى سوف أعمل فيها فى نهاية المطاف. كانت الحقول والمزارع كلها مغطاة بالثلوج، ورحت أتعجب كيف يمكن للإنسان أن يرى الثمار ويقطفها فى هذا الطقس البارد. فى داخلى كنت أصلى طلبًا للحصول على عمل غير هذا العمل. لابد أن يكون النوم قد غالبنى عند هذا الحد.

وصلنا إلى محطة ميلانو المركزية بعد الظهر. وخاب أملى فى المبانى التى شاهدتها. كانت تلك المبانى قديمة جداً. شاهدت أيضًا

أناسًا بيضًا يمتهنون الشحاذة وبلا مأوى. كان هؤلاء الناس موجودين عند النواصى وأمام رفوف وطاولات البائعين، فى ذلك الطقس البارد. كنت أتعجب، هل هنا فقراء أيضًا ؟ هل هناك من البيضان من يمتهن الشحاذة ؟ هل يوجد بينهم أناس بلا مأوى ؟ وهل هذا شبيه بما هو عندنا فى بلادنا ؟ كانت ليزى Lizzy قد حدثتنى عن الحد الأدنى للأجور، وعن عدم وجود الفقر فى هذا المكان (إيطاليا). لقد صُدِمت.

استقللت قطار آخر أقلنا إلى فيرونا Verona بورتا Porta نوفا Nuova.

وصلنا بعد الظهر إلى الشقة التى تقيم فيها ليزى فى فيرونا. تكلمت ليزى إلى آبو كلامًا مستفيضًا، وكان الكلام يتعلق بالنقود والنفقات. أعطاها آبو جواز سفرى وجواز سفر دوريس، ثم تركها بعد ذلك. كانت ليزى حزينة تمامًا لأنها خسرت دوريس بعد كل ما أنفقته عليها. كنت أتعجب مما يمكن أن يحدث لدوريس. قيل لى إن الشرطة الفرنسية هى والسفارة النيجيرية سوف يرحلانها. وسوف ترتب ليزى لمجيئها مرة أخرى.

وصلت إلى فيرونا عندما كانت العمات (المعلمات) مضربات. كان فى شقة ليزى الموجودة فى شارع فالفيردى Valverde، بنات عديدات جالسات لا يفعلن شيئًا، أو بالأحرى كن يشربن ويدخن. كان هناك بعض الزائرين، الذين كانوا يداعبون البنات ويلعبون الورق. كان الهواء مشبعًا بالدخان.

أرونى مكانًا أضع فيه معطفى. وكنت أرتعش من البرد. برد هذا الشتاء كان أقسى من رياح السموم فى بلادنا. كان المُعَرِّق Sweater الذى أحضرته معى غير كاف لحمايتى من البرد. كنت أحس كما لو كنت عارية تمامًا. من حسن الحظ أن الماء الحار كان يخرج من المضخة حسبما قالت لى ليزى من قبل عندما كنا فى بنين. وكيما أحس بالدفء رحت أواصل شرب الماء الساخن وأسكبه على يداى. لم يكن فى الشقة مكان خال أجلس فيه. أحصيت تسعة أنفس فى الشقة المكونة من غرفة واحدة، على الرغم من أنهم قالوا لى : إن البعض سوف يغادرون المكان، وسيأتى بعض آخر من الناس. كل مكان فى الشقة كانا خاصًا بشخص بعينه. كل ما استطعت الوصول إليه كان عبارة عن ركن صغير فى المطبخ الصغير. كان المطبخ دافئًا فى أضعف الأحوال. أعطتنى ليزى بعض البطاطين القديمة، فرشتها على بعض علب الكرتون القديمة كى أصنع لنفسى حشية أنام عليها. وعثرت أيضًا على بطانيتين أخريين غير مغسولتين تفوح منهما رائحة ما، وجعلت منهما غطاء لى.

كنت جوعانة تمامًا. لم أتناول أى شئ منذ مغادرتنا ليجوس. يضاف إلى ذلك أنى لم أستسغ تناول الطعام الغريب الذى قدم لنا على الطائرة. وطول رحلة القطار لم أتناول أى شئ. كانت هناك رائحة طعام طيب تنبعث من الإناء الموضوع فوق الموقد. كانت تلك الرائحة شبيهة برائحة طعامنا الوطنى. انتظرت إلى أن ينضج الطعام حتى أنال منه شيئًا.

عندما كان النوم يغلبنى نادت على ليزى. وجدتها وقد تغيرت عن تلك الشخصية الودودة التى قابلتها فى بنين أول مرة. عندما التقيتها فى الوطن كان الجو مظلمًا. أما الآن فقد تبينت أنها من النوع كثيف الشعر ومن المكان الذى كنت أجلس فيه على الأرض، لاحظت وأنا أرفع رأسى ناظرة إليها، أن هناك بعض خُصل من الشعر على فكها الخشن، وفى فتحتى أنفها. هذا يعنى أنها شاخت وأصبحت أكبر منى سنًا. كانت هناك تجاعيد تحت عينيها، كما كانت أسنانها مبقعة. هنا فهمت أن الحياة كانت قاسية عليها هى أيضًا.

قبل أن تقول لى أى شئ، شكوت لها البرد، قائلة لها لو كنت أعلم أن البرد على هذا النحو لما جئت فى هذا الموعد.

" هذا هو الوقت الذى نجمع فيه المزيد من المال. من المفيد أن يأتى الإنسان فى فصل الشتاء ".

سألتها وأنا أخشى إجبارى على الخروج فى الثلج، " من ذا الذى يستطيع جمع الفاكهة فى طقس من هذا القبيل ؟ " ضحكت واحدة من البنات، أظنها لافيت، وكانت تجلس فى أحد الأركان، وقالت شيئًا آخر عن جامعات الفاكهة.

قالت ليزى بعد أن فردت وجهها : " لقد انتهى موسم جمع الفاكهة. ستقومين بعمل آخر ". سعدت عندما سمعت هذا الكلام. إذا كانت المنازل من الداخل باردة على هذا النحو بالصورة التى أحسها أنا حاليًا، فذلك يعنى أن العمل فى المزارع المفتوحة سيكون مهلكًا.

تطوعت وقلت : " قـد يكون عـمـلاً فى مطعم من المطاعم ؟ أو فى مستشفى من المستشفيات، عاملة عنبر على سبيل المثال ؟ " وهذا يعنى أن الطقس سيكون دافئًا فى الداخل.

" أنت تحتاجين إلى وثائق حتى تقومين بهذا العمل. لكن توقفى عن طرح الأسئلة. أنت لست فردًا من أفراد الشرطة. اسمعى ما أقول. أنت حظيظة لأن هناك إضراب عن العمل، وإلا لكنت خارج المنزل الآن سواء أكان الجو باردًا أم لا. أقلمى نفسك على هذا الطقس ".

تساءلت، " إضراب عن ماذا ؟ " متجاهلة عن تحذيرها السابق لى بالتوقف عن طرح الأسئلة.

ردت علىّ ردًا غليظًا " لماذا يُضْرب الناس ؟ " ثم راحت تجيب هى نفسها عن السؤال ". الناس تضرب لتحسين ظروف العمل. الحكومة تداهمنا فى معظم الأحيان ".

" مثل ماذا على سبيل المثال ؟ " تساءلت متعجبة. كانت المعلومات تخرج تباعًا من فم ليزى، مثلما يحدث عندما يود الإنسان إبلاغ خبر سيىء. قررت التزام الصمت والتروى للحصول على الخبر كاملاً.

" يا فيث، ستقومين بالعمل فى الطريق ".

" عمل الطريق ؟ ما الذى تعنيه بذلك ؟ "

أول ما خطر ببالى كان شق الطرق. وهنا عدت بفكرى إلى بنين عندما اضطررت إلى التسرب من الجامعة، وأمام ضغوط المعيشة، رحت

لفترة قصيرة أحمل على رأسى أوانٍ مليئة بالأسمنت والرمل فى مواقع الإنشاء. كان عملاً متعبًا. هنا سيكون العمل أدهى وأمر فى هذا الطقس البارد. انتظرت. إذا كانت البنات الأخريات يقمن بهذا العمل فسوف أقوم به أنا أيضًا.

" أولاً، ستقومين بتغيير اسمك. فيث موسى اسم لا يليق بهذا العمل. ونحن لا نود للشرطة أن تعرف اسمك الحقيقى. سوف نسميك جوى (المرح) Joy، وبذلك يصبح اسمك بالإيطالية Gioia. هذا يعنى أنك ستجلبين المرح على زبائنك ". أطلقت عبارة أخرى " الرجال يحبون الأسماء التى من قبيل جوى (المرح)، كمفورت (الرحمة والراحة) ".

تساءلت " هل تقصدين الشرطة ؟ هل تقصدين الزبائن ؟ "

" نعم، أقصد الزبائن. سوف تقفين فى الطريق وتصطادين الزبائن ".

" أصطاد ؟ مثل ماذا ؟ "

" تصطادين. تبحثين عن الزبائن. هذا هو فستانك ولبسك. أخرجت (معلمتى) من كيس بجوار الكرسى الذى تجلس عليه فستانًا خليعًا من اللونين الأسود والأحمر. وبينما كانت تتناول الفستان، راحت تقيسنى لترى ما إذا كان الفستان سيناسبنى أم لا. كان هناك فستان على شكل بنطال، نحن نسميه فى بلادنا ماسك الجسم. أخذت هذين اللباسين ورحت أقيسهما. كنت سعيدة بحصولى على ملابس جديدة، لكن هذه الملابس لم تكن ملابس عادية. هذه الملابس ذكرتنى بالملابس التى ترتديها البنات فى النوادى الليلية ".

" ليزى. ".. وهنا رحت أبحث عن الكلمات المناسبة.

" عمتى " صححت كلامى.

" عمتى، هل سأمارس الدعارة، بعد ارتداء هذا الزى، هذا الشئ الدنئ جداً جداً ؟ "

" نعم، هو هذا الشئ ".

" وفى هذا الطقس ؟ "

كررت عمتى كلامها، " أنت حظيظة لأن هناك إضراب فى الوقت الحالى : وإلا لما كنت جالسة هنا بجوار النار، يغالبك النوم ".

نظرت حولى فى الغرفة. كانت البنات الأخريات يراقبن رد فعلى بدقة. لم يقلن شيئًا. خطر ببالى أنهن مررن بهذا العمل قبلى. أومأت واحدة منهن لى فى صمت. وأرسلت لى واحدة أخرى رسالة عن طريق عينيها. فهمت أن هذا هو الحال وأنهن يفعلن الشئ نفسه.

قالت كفيلتى : " انظرى إلى البنات الأخريات. إنهن يمارسن العمل نفسه. ليس هناك فارق بينك وبينهن ". لم أوافق على ما قالته، ولكنى تركت الأمر يمر.

" أهذا إلى أن يجئ موسم الفواكه أم... ؟ " لم أستطع إنهاء الجملة. كنت مرتبكة، ولم أكن مستعدة لذلك الذى سمعته.

" ليس هناك ثمار تجنيها. هنا فى أضعف الأحوال. هذا هو العمل الذى نعمله نحن هنا ".

صمتت فترة ورحت أنظر إلى الأرض. وهذا هو ما حدث بالضبط. كنت دائمًا أحس بأنى تراودنى الشكوك، كنت أحس أن هناك أمرًا خفيًا وراء كل هذا العمل. كانت أمى تتعجب من تلك النقود التى سوف تتساقط من الأشجار، تلك المبالغ التى كان الناس يجنونها من وراء جمع الفواكه. لكنى هنا الآن. فات أوان التراجع. وليس من أحد يمكن أن أقصده هنا أو استجيره. والعمة قالت : إن هناك إضرابا فى الوقت الحالى. هذا يعنى أنى ليس مطلوبًا منى أن أبدأ العمل على الفور. كان أمامى متسع من الوقت كى أعيد حساباتى.

عند هذه المرحلة أخرجت ليزى البنات من الغرفة. قالت إنها وأنا لدينا أمر مهم سنناقشه سويًا. بقيت جالسة على الأرض، وأنا أحتضن ركبتاى. كنت قد أصبت بصدمة بعد أن استمعت إلى كلام العمة ليزى. مومس ! أهذا هو الذى سوف يتعين علىّ عمله طلبًا لكسب العيش وعونًا لعائلتى فى أودا Oda؟ رحت أراقب ليزى، وأنا كتيمة الأنفاس، وبلا حول أو طول، عندما أخرجت ليزى سجّلاً غليظًا.

" لقد استثمرت فيك مبلغًا كبيرًا، يا فيث. آمل أن تتعاونى وتسددى لى هذا المبلغ ". بقيت هادئة فى مكانى. لم يكن لدى ما أقوله. واصلت ليزى كلامها، وهى تطيل النظر إلى طول الوقت ". لقد خسرت دوريس بالفعل. لكنى سوف أعوض ذلك ". بدا لى وكأنى يتعين على سداد دين دوريس أيضًا. لكنى واصلت الصمت. انتظرت كى أسمع مبلغ دينى. عرفت أنها دفعت للجواز، والتأشيرة، والتذاكر وبعض النثريات الأخرى.

حسبت ذلك كله ووصل إلى ما يقرب من ثلاثمائة ألف نيرة، أى ما يعادل ثلاثة آلاف دولار على وجه التقريب. لم أعرف ما إذا كانوا يستخدمون النقود نفسها فى إيطاليا أم لا، ولم أعرف أيضًا المدة الزمنية التى يتعين علىّ سداد هذا المبلغ خلالها. وهنا قررت أن أسأل البنات الأخريات.

" أنت مدينة لى بمبلغ ٩٠ مليون ليرة إيطالية ".

" كم يعادل، يا عمتى، هذا المبلغ من النيرات أو الدولارات ؟ "

" خمسة وأربعين ألف دولار، أو ٤,٥ مليون نيرة ".

" هذا مبلغ كبير جدًا. قلتها بلغتنا المحلية. كيف لى بتحمل مبلغ كبير كهذا ؟ "

" لقد حسبت كل شئ. بدءًا بعمل جواز السفر، وأخذ الصور المطلوبة، والتأشيرة، والتذكرة إلى فرنسا ثم إلى إيطاليا. "..

" عمتى، ومع ذلك لا يمكن أن يصل المبلغ إلى ٤,٥ مليون نيرة ".

" وماذا عن الطعام الذى ستأكلينه هنا، وماذا عن الشقة التى ستقيمين فيها، وماذا عن الماء، والتدفئة، والإضاءة ؟ كل ذلك يتكلف نقودًا. وماذا عن موظفى الهجرة والجوازات، أقصد الشرطة ؟ مطلوب منى تسوية أمور كل هؤلاء ".

" عمتى، ومع ذلك يظل مبلغ الأربعة ملايين ونصف المليون نيرة مبلغًا كبيرًا. "..

" لا تشـغلى بالك، بوسـعك سـداد هذا المبلغ خـلال عـامين إذا مـا عملتِ بجد ".

" وماذا بعد ذلك ؟ "

" بعــد ذلك تكونين حـرة، وتعـملـين لحـسـابك. هـذا يعنى أن مـا سـتكسـبـينه عندئذ يكون ملكًا لك. وإذا مـا أردت إحـضـار بنـات من الوطن ليعملن لحسابك فسوف أساعدك فى ذلك. هذا إن أنت أحسنت العمل معى ".

" أنا جوعانة وبردانه أيضًا. اسمحى لى أن آكل أوّلاً ثم أفكر بعد ذلك ". حاولت النهوض من على الأرض.

" لن تحصلى على الطعام إلا بعد أن توقعى على هذا الاتفاق الذى يقضى بأن تسددى لى تسعين مليون ليرة ".

" تقـولين، لا طعـام ؟ ومـا الذى سـآكله ؟ أنا لم أكل شيـئًا منذ أن غادرنا ليجوس ".

" عدم توقيع الاتفاق، يعنى عدم تناول الطعام. الطعام الذى تودين الأكل منه أحـضـره شـخص آخر. هـل أنت على اسـتعـداد للعمل وتوفـير الطعام أيضًا ؟ إذا كانت الإجابة، بلا، فليس لدى طعام لك ".

" فهمت ".

" إياك أن تظـنى أن البـنات سـيخـفــون الطعام كيما يطعمونك. لا تأكلى من طعامى إلا إذا أذنت لك بذلك. إذا كنت تودين ذلك، كلى من

هذا الطعام. وستصابين بالجنون اللهم إلا إذا قرأت بعض التعاويذ عليه وأدرجت اسمك ضمن هذه التعاويذ والأسحار. لقد زرت أجرجيدنتا. وأنت تعرفين مدى قوة هذا المداوى. لقد وعدت بسداد المبلغ المطلوب منك. مطلوب منك الآن التوقيع على الاتفاق ولا تتسببى فى نفاذ صبرى ".

بقيت على الأرض عاجزة عن تحريك أى طرف من أطرافي. تسعين مليون ليرة إيطالية ! أربعة ملايين ونصف المليون من النيرات ! عامان أقف خلالهما فى الشارع، مومس وعاهرة من العاهرات. عندما ألتقيتها فى بنين لم تقل لى أنى سوف أمارس البغاء فى إيطاليا. أنا لم يسبق لى ممارسة هذا العمل مطلقًا، حتى وأنا فى أسوأ حالات عوزى واحتياجي. والآن، أقطع هذه المسافة الطويلة إلى أرض الرجل الأبيض، فى هذا الطقس البارد، لأقف على الطريق فى نهاية المطاف.

أحسست بالغثيان. أحسست بالقرف.

كنت جوعانة تمامًا. وكان الطعام جاهزًا فى ذلك الوقت. كنت أتشمم رائحة الطعام، وكانت تتناهى إلىّ أصوات الأطباق والأكواب. كان الوقت هو موعد تناول الطعام.

تركتنى ليزى جالسة على الأرض. وذهبت إلى المطبخ لتعبئة الطعام فى الأطباق. انتهزت البنات الأخريات تلك الفرصة ورحن يتلصصن على غرفة المعيشة الصغيرة. كانت هناك بنت اسمها لافيت Lovett. همست لافيت لى قائلة : " ما المبلغ الذى حددته دينًا عليك ؟ " قالت هذا الكلام

وهى تتلعثم. هذا التعلثم جعلنى أسمع كلمة " الدين " Debt على أنها تعنى " الوفاة " Death.

همست لها أنا بدورى وأنا مستاءة " تسعين مليون ليرة إيطالية ".

" هــذا أمر عــادى. لكن بوسعك أن ترجينها تخفيض المبلغ. هل لديك أطفال ؟ "

" نعم، عندى ثلاثة أطفال ".

" ترجينها وسوف تخفض لك المبلغ ".

تدخلت جفتى Gifty وهى واحدة من الساكنات الأخريات، " لكنك يتعين عليك سداد ذلك الذى تحدده لك. كلنا ندفع ".

"لابد من توقيع اتفاقها. وإلا لن تحصلى على الطعام، أو النوم. ستنامين فى الشارع ".

تساءلت وأنا لا أصدق ما يقال، " فى هذا البرد ؟ "

" أنت لم ترى بعد أى شئ ".

اختصاراً لكل هذا الجدل، وقعت الورقة التى تقضى بأن أسدد لها ثمانين مليون ليرة إيطالية. كانت ليزى قد تفضلت علىّ بالموافقة على تخفيض المبلغ عندما ذكرتها بأنى لدى أطفال ثلاثة علاوة على أمى. بعد التوقيع سمحت لى بتناول الطعام.

ذكرتنى بعد ذلك باليمين التى أقسمتها عند ضريح المداوى.

" اعلمى أن حياتك، وحياة أمك، وحيوات أطفالك إنما هى كلها فى يديك أنت الآن. اعملى وادفعى لى الدين. وإلا سيموتون وأنت أيضًا ستصابين بالجنون. هذه ليست قصص أو حواديت. لقد خسرت الكثير فعلاً فى اختفاء دوريس. اعتباراً من الغد سوف ندرجك ضمن القواعد المعمول بها فى هذا المنزل، والعمل الذى يمارسه ". كانت ليزى واقفة بالقرب من الباب عندما قالت : " يجب أن تشكرينى. بنات كثيرات مستعدات لاغتنام هذه الفرصة فى المجئ إلى هنا والعمل هنا أيضًا. اعتبرى نفسك حظيظة ".

فى تلك الليلة لم أذق طعم النوم المريح. وعلى الرغم من الرحلة الطويلة وعلى الرغم أيضًا من تعبى وإرهاقى، كنت أنام نومًا متقطعًا. البرد لم يساعدنى على النوم. كان البرد يتسرب إلى ظهرى قادمًا من الأرض. أيقظنى البرد مرات عدة إلى أن قمت ووضعت الدواسة تحت الحشية التى هى عبارة عن بعض أوراق الكرتون، علها تحمينى من البرد الصادر من الأرض الباردة.

تدبرت أمرى وعرفت أنه ليس هناك مفر مما أنا فيه. لقد خدعتنى ليزى وجعلتنى أجيء إلى هنا، خارج بلدى، لكى أكون بغيًا. وإنَّ هذا البغاء لن يكون لحسابى إنما لحساب امرأة أخرى. لم أكن أعرف أى أحد هنا، ولم أكن أعرف إلى أين أذهب؟ كانت أمى بعيدة عنى. ولم يكن لى أحد حتى أناقش معه هذا الأمر.

لكنى أدركت أنى وقع على نوع من الظُّلم. بفرض أن ليزى تكفلت بمجيئى إلى إيطاليا. وبدونها كان يستحيل علىّ السفر إلى الخارج. وبفرض أنها هى التى جاءت بهذه الفكرة، وهى التى وفرت الوكلاء، والوثائق بل وهى أيضًا التى مولت هذه الأمور كلها، هذا يعنى أنى مدينة لها بكل هذه الأمور. الأرجح أنى مدينة لها بالامتنان والشكر لأنها ساعدتنى على السفر إلى الخارج ومحاولة تحسين حياتى.

لكن هل يمكن للبغاء تحسين حياة الإنسان ؟ كنت أطرح هذا السؤال على نفسى مرارًا. وإذا ما ساعدنى أحد على المجىء إلى إيطاليا لفعل الفحشاء، هل يكون مثل هذا الإنسان يساعدنى ؟ كان ذلك بمثابة أحط أشكال الخسّة والدناءة. هل كشفت نفسى أمام أناس لا أعرفهم، وتعريض نفسى للأخطار المجهولة يعد مساعدة وعونًا لى ؟ ثم هناك أيضًا ذلك الثمن الغالى ! هل أتمكن من سداد هذا الثمن الفادح ؟ وما هو عدد السنين اللازم لسداد هذا الثمن الفادح ؟ كل المومسات اللاتى شاهدتهن فى بلادى، يبدو عليهن أنهن لا يملكن حتى ولو مجرد أربعين نيرة، ناهيك عن أربعة ملايين ونصف المليون من النيرات. صحيح أنى مدينة لليزى بتكفلها بمجيئى إلى هنا، لكن المبلغ لا يمكن أن يصل إلى هذا الحد الفظيع. وبناء على حساباتى أنا، فإن المبلغ الذى أنفقته ليزى لا يمكن أن يزيد على ثلاثمائة ألف نيرة. وإذا ما أخذت بعين اعتبارى مسألة الربح والمكسب، أجد أن بوسعى أن أعمل وأسدد خمسمائة ألف نيرة، أو ما يعادل خمسة آلاف دولار. لا أكثر من ذلك ولا أقل. ثم أبحث

بعد ذلك عن عمل آخر، عمل أنظف وأزكى، عمل أكثر أمنا وسلامة. عمل يساعدنى على افتتاح عيادتى وإعالة أسرتى.

لقد وقع علىّ ظلم تحت ستار مساعدتى ومد يد العون لى. وبدا لى أنى فى طريق مسدود ولا مخرج منه. لكنى لم استسغ الوضع الذى أنا فيه. قلت لنفسى : إن ليزى لم تكشف عن كل ما لديها من أوراق عندما كانت تجندنى ونحن فى بنين، كما أنى وافقت على أن تكفلنى هى فى مسألة السفر. خطرت ببالى أوساهون Osahon التى أصابها مس من الجنون، وخطر ببالى أيضًا الكلام الذى قالته أمام مكتب إيداهوسا. كانت أوساهون تتهمنا بأننا نود المجىء إلى هنا لنذوق طعم الرجال البيض. لقد كانت محقة فيما قالت.

خطرت ببالى أيام الجامعة. أنا لم أكن عضواً بارزاً فى نشاط الاتحاد الطلابى. وسبب ذلك أننى كنت خجولة وحريصة. لكن فيما بينى وبين نفسى كنت على علم بمنغصات اتحاد الطلاب وكنت أشارك أيضًا فى الإضرابات والمظاهرات التى كان ينادى بها اتحاد الطلاب. وعاد بى ذهنى إلى تلكم الأيام التى كنا فيها نقطع النباتات ونسير متجهين إلى الطريق الدائرى ونحن ننشد أناشيد الحرب ونعرب عن استيائنا من حكومة أوباسانجو Obasanjo العسكرية بسبب ارتفاع رسوم التعليم فى المدارس. مازلت أذكر الهتافات التى كنا نطلقها فى تلك الأيام " لابد من استقالة على "، على هذا كان هو وزير التربية والتعليم فى ذلك الوقت. بلد غنى ومنتج للبترول مثل بلدنا ينبغى أن يقلل مصروفات التعليم

ولا يزيدها. خطر ببالى أيضًا زعيم اتحاد الطلاب صغير الجسم، الذى يدعى أولورى Olori ماجيج Magege الذى كانت لديه موهبة اللباس المهندم، الأمر الذى كان يذكرنى بمارك أنطونى أثناء جنازة القيصر. تذكرت أيضًا كلا من سيجون Segun أوكيو Okeowo وآخرين، هؤلاء الطلاب الذين كانوا يحاربون من أجل ما يؤمنون به. بعضهم دخل السجن. بعض آخر من أمثال توند Tunde أوجو Ojo دفعوا الثمن الباهظ.

وأنا كأنثى، ضغطوا على كى أبقى فى الصفوف الخلفية. لكنى كنت متعاطفة معهم. بعد ذلك ببضع سنوات، اضطررت إلى التسرب من التعليم، وأدركت أنه لو كانت مصروفات التعليم قد خفضت حسبما نريد، لما تسربت مطلقًا من التعليم. ندمت على مشاركتى السلبية فى تلك القضية. وقطعت على نفسى عهدًا، إذا ما دعا الداعى إلى مقاومة الظلم، أو أية قضية عادلة، فلن أتخاذل وسوف أصمد وأكون ضمن الفاعلين المؤثرين.

هنا، فى إيطاليا قضية أخرى تستحق المقاومة. هنا فى إيطاليا، مثال على الظلم.

هل بوسعى القيام بهذه المقاومة ؟ هل بوسعى أن أكون أنا البادئة فى مقاومة هذا الظلم ؟ هل بوسعى تولى دور الزعامة ؟ أنا وحدى هنا. والجو هنا غير جو الجامعة. ليس هناك عضو تنفيذى من اتحاد الطلاب، أو هيئة مثل اتحاد الطلاب، ولا يوجد راديكاليون يطالبون بالتغيير. كنت وحيدة.

قررت التحدث إلى بنات أخريات من بنات ليزى حتى أكوّن لنفسى صورة أوضح عن الموقف بكامله.

فى اليوم التالى وعندما ذهبت عمتنا (معلمتنا) لحضور اجتماع المعلمات بدأت الحديث مع البنات الأخريات. أخبرتنى البنات بالممنوعات والمسموحات فى عملنا، وطرحت عليهن أسئلة، طلبًا للإيضاحات.

" وعليه، يتعين علىّ كل صباح، بعد عودتى من الوصلة أن أسلم كل ما جمعته ؟ " طرحت هذا السؤال على لافيت Lovett. كانت لافيت بنتًا من بنات بنين مثلى تمامًا، وربما كانت قرينة لى فى العمر أيضًا. كان لها ثديان كبيران وردفان كبيران مستديران. كانت ترتدى قميصًا من قمصان النوم العادية المصنوعة من النايلون. وفيما بين ثدييها استطعت تمييز شامة من نوع معين.

" كل شئ. لكن بعض البنات يخبئن شيئًا من النقود ليرسلنه إلى أهليهن فى الوطن ". كان ذلك هو رد لافيت على سؤالى.

" وعندها تقوم (المعلمة) بإدخال هذا المبلغ فى الحساب فى السجل وتطرحه من أصل الدين ".

" نعم، لكن بعد خصم شئ نظير الإيجار، والطعام، والمرافق ".

" فهمت. ما هى فى رأيك المدة التى أستطيع خلالها سداد ثمانين مليون ليرة إيطالية ؟ "

" حوالى عامين. يجب ألا يغيب عنك أن هذا المبلغ بخلاف الإيجار والنفقات الأخرى. وأنت عندما تضيفين ذلك كله إلى بعضه، تجدين أنك ستدفعين ما يقرب من مائة مليون ليرة إيطالية ".

سألت بطريقة لطيفة، " هل محتم علينا الدفع ؟ " وهنا نظرت إلىّ لافيت نظرة ملؤها الشك.

" ماذا تقصدين ؟ "

" أقصد، أليس المبلغ كبيراً جداً ؟ أوّلاً وقبل كل شئ، كم يتكلف إحضار الواحدة منا إلى هنا ؟ فى ضوء حساباتى أنا لا يزيد المبلغ عن خمسة آلاف دولار بأى حال من الأحوال. فلماذا ندفع أكثر من ذلك ؟ "

" هذا هو ما لقيناه هنا. أخريات قبلنا دفعن مبالغ من هذا القبيل أيضاً ".

أصررت على موقفى وتساءلت، " وعليه يجب أن نفعل الشئ نفسه ؟ "

عارضتنى بيسى Bisi قائلة : " ألم تقسمى على سداد المبلغ ؟ " كنت خائفة أن يشى بى أحد إلى ليزى.

" أنا لا أقول إننا يجب ألا ندفع، لكنى أتساءل لماذا المبلغ كبير ؟ من المؤكد أن تكاليف مجيئنا إلى هنا ليست عالية على هذا النحو. هذا يعنى أننا سنمضى حياتنا فى سداد هذا الدين ". رحت أنظر إليهم

الواحدة بعد الأخرى، أملاً فى أن يعملن عقولهن، ويفهمن مسألة الفارق الكبير بين نفقات أو مصروفات ليزى علينا والدين الحقيقى.

واصلت كلامى، " وماذا عنا ؟ وماذا عن حيواتنا ؟ وعن أسرنا فى وطننا ؟ ما الذى يخبئه هذا العمل لنا ؟ ما الذى سنكسبه من هذا العمل ؟ أهلنا يقولون : دع اليد اليمنى تغسل اليد اليسرى، ودع اليد اليسرى تغسل اليد اليمنى، وعندها تصبح اليدان نظيفتين. يبدو لى أننا سنفنى حياتنا فى غسل يد ليزى، فى حين نبقى نحن قذرات. ترى ما الذى يخفيه هذا العمل لنا ؟ "

تكلمت جفتى Gifty بعد ذلك " لقد سددت كل شئ، حوالى ثمانين مليون ليرة إيطالية. ولم يعد يتبقى علىّ سوى حوالى خمسة ملايين. هذا المبلغ سوف أكسبه فى غضون أشهر قليلة. وعندها سأصبح حرة. أنا لا أود أن أتسبب فى متاعب لأسرتى. هذه (المعلمات) شريرات. لعلك تعرفين ذلك الذى فعلته فى تينا عندما رفضت النزول إلى الشارع ".

" فيث، أو بالأحرى جوى Joy حسب اسمك الجديد، اسمعينى. ليس هناك مخرج مما نحن فيه. أسهل الطرق هى العمل فى نقل المخدرات أو الحصول على رجل أبيض. وإذا كنت حظيظة، فإنك ستحملين المخدرات مرتين أو ثلاث مرات، دون أن يمسك بك أحد. وهذا يكفى لسداد دينك وتصبحين حرة. (المعلمة) لا يهمها المصدر الذى تأتى منه النقود. المهم هو الدفع ليس إلا ".

" لا، أنا لا يمكننى نقل المخدرات. أنا لا أود دخول السجن "

" هناك دواء يمنعك من أن يراكِ أحد. صحيح أنه يكلف الكثير لكنه ناجح وفعال. سوف تمرين على الشرطة، أو الكارابنيرى Carabinieri، أو الأوبالجبى Obalegbe سَمِّهِ ما شئت. دون أن يراك أحد ".

قالت جفتى Gifty": لا تسمعى ما تقول. ادخلى السجن لترى بنفسك النيجيريين السجناء بسبب المخدرات. أبلغ الكثيرون منهم أهليهم فى الوطن أنهم هنا يدرسون فى إيطاليا. السجون هى مدارسهم. منذ أيام قلائل، قامت الشرطة بمداهمة بلدة براتو، وألقت القبض على أكثر من أربعين نيجيرياً. كلهم بسبب المخدرات. أين كان ذلك الدواء الخفى الذى تتحدثين عنه ؟ "

لخصت الموقف وأنا أقول : " وعليه، إما الشارع أو رجل أبيض ؟ "

" نعم ".

تساءلت وأنا أتنقل ببصرى من بنت إلى أخرى، " ولماذا لم تعثرى على رجل أبيض ؟ "

" هل هذا سهل ؟ قبل الآن كان ذلك أمراً ميسوراً. لكن الرجل الأبيض أصبح عاقلاً الآن. الحصول على رجل أبيض حاليًا أمر ليس بالسهل أو اليسير ".

" ما أقصده هو أننى أوافق على السداد لكن ليس مثل هذا المبلغ الكبير. وأنا أفهم مما تقولينه أن الأمر ينطوى على قدر كبير من

المخاطرة. الأرجح أننا قبل أن ننتهى من سداد المبلغ قد تلقى الشرطة القبض علينا وتقوم بترحيلنا إلى بلادنا. وليس فى جيوبنا بنساً واحداً. ونعود إلى بنين ونحن أسوأ حالاً، وليس لدينا ما يوضح معاناتنا. وعليه اعتقد أننا ينبغى علينا أن نقرر استعواض مبلغ معلوم ثم نقوم بالسفر بعد ذلك. عنى أنا، أنا بحاجة إلى مبلغ أنشئ به عيادة فى قريتى، وأكمل به تعليمي. وأنا لدى ثلاثة أطفال وأم مسنة ويتعين على الصرف عليهم.

كان ذلك هو أقصى ما وصلنا إليه قبل عودة ليزى من اجتماع (المعلمات).

الفصل الثانى والعشرون

دخلت علينا ليزى يبدو عليها الحزن والغضب الشديد. فقد تقرر استمرار الإضراب مدة أسبوع آخر. كانت (المعلمات) العمات قد قررن عودة البنات إلى الشارع يوم الاثنين المقبل.

طلبت (المعلمة) من لافيت أن تصحبنى إلى الشارع وتعريفى أساليب التحرك. كنت خائفة من الخروج فى البرد. كان خوفى هذه المرة على العكس من خوفى فى المرات السابقة من أى شئ آخر. اقترضت بعضًا من قطع الملابس التى تبعث الدفء فى الجسد، اقترضت هذه القطع من هنا ومن هناك وخرجت بصحبة لافيت، وشكلى شبيه بأشكال أولئك الذين يحضرون الحفلات التنكرية.

وصلنا إلى محطة الحافلات، وأخبرتنى لافيت بالحافلات التى تذهب إلى المحطة.

" مفروض أن تشترى تذكرة قبل ركوب الحافلة. التذاكر هنا لا تباع على الحافلات. ونحن لا نستعمل التذاكر بشكل عام. إذ لا يوجد محصل على الحافلة. فى بعض الأحيان قد يدخل أحد المحصلين للتفتيش على الحافلة. وهنا يتعين عليك البحث عن وسيلة تنزلين بها قبل أن يصل إليك.

وإذا لم تنزلى فسوف تضعين نفسك فى مشكلة. قد يتعين عليك دفع غرامة. والأمر لا يقف عند هذا الحد ؛ قد يصل الأمر إلى حد التفتيش على أوراقك الثبوتية ؛ وقد يصدر أمر بطردك من البلاد، وقد يسألون عن تصريح الإقامة، وقد يطلبون منك العودة إلى بلدك. وعليه يجب أن تفلتى وتتجنبى الإمساك بك. هذه الحافلة تقلك إلى المحطة. واقع الأمر أن هذه الحافلة المدون عليها المحطة Stazione، سوف تقلك إلى محطة القطارات ".

وصلت إحدى الحافلات وركبنا فيها. لم تكن الحافلة مليئة بالمسافرين. وجدنا مقاعد شاغرة.

" عندما ينتهى الإضراب ونعود إلى العمل يمكن لك أن ترافقينى ؛ إلى أن تعرفى الطريق. فى بعض الأحيان، قد نستقل القطار من فيرونا وننتقل للعمل خارج المدينة. نحن نصل فى تنقلاتنا إلى بادوفا وإلى البندقية وأحيانًا إلى ميلانو. بعضنا يصل إلى بيشيرا Peschiera، التى هى بلدة قريبة، ومنها إلى منتزه التسلية فى جاردالند Gardaland وإلى بحيرة جاردا. يمكن العثور على الكثير من الزبائن فى هذين المكانين فى فصل الصيف. ومن المحطة يمكنك أيضًا أن تستقلى الحافلات الزرقاء التى توصل إلى المدن الأخرى. هناك احتمالات أخرى كثيرة. أنا شخصيًا لا أبقى فى هذا المكان. أنا أذهب إلى روما، ونابولى، وبيروجيا ".

سألتها، " ما مقدار الأجرة المقررة ؟ "

" الأجرة المعتادة هى عشرون ألف ليرة، أو خمسين ألف ليرة. ومع ذلك يمكنك أن تبدئى بخمسين ألفا. وإذا كنت حظيظة، فسوف تصادفين

رجلاً لا يساومك، بل يدفع المبلغ الذى تطلبينه. لكن كثيرا من الناس يعرفون أن الأجرة عشرون ألف ليرة ". .

ألححت عليها، " وماذا أفعل بعد ذلك ؟ "

" إذا كان الزبون معه سيارة، فستذهبين معه إلى ركن من الأركان. أما إذا كان الزبون بلا سيارة، وبفرض أنه كان يركب دراجة نارية، فأنت تأخذينه إلى الرقعة. وكل وصلة من الوصلات التى نقف عندها فيها رقعة. استخدام الرقعة يجعل الزبون يدفع عشرة آلاف ليرة على الأجرة المحددة. فى الرقعة توجد بطانية ".

" أهذا هو كل ما فى الأمر ؟ "

" الأمر يعتمد على أشياء كثيرة يا فيث. (نطقت اسمى على أنه فيس Face). يجب أن تخبرى الزبون بأنه يجب أن يستعمل الواقى الذكرى. (المعلمة) لديها كرتونة مليئة بالواقيات الذكرية. ولديها أيضًا المطهرات، والمضادات الحيوية. ستعطيك الكثير من هذه الأشياء عندما تبدئين العمل ". وهنا فتحت لافيت حافظة نقودها وأرتنى بعضًا من تلك الواقيات الذكرية ". انتبهى، أنا معى بعض الواقيات. نحن نتحرك دومًا ومعنا هذه الواقيات. باستعمال الواقى الذكرى يكون الأجر عشرين ألفا، كحد أدنى. بعض الرجال يريدون الجماع بلا واقٍ ذكرى. وهنا ترجع مسألة التفاوض على السعر لك أنت. وغالبًا ما يكون الأجر مائة ألف ليرة، فى حال عدم استخدام الواقى الذكرى ".

" لكن ذلك أمر خطير ".

" نعم، إنه خطير ".

" وماذا عن مداعبة النهدين ؟ "

" هذه مضيعة للوقت. يجب أن تعلمى أننا لا نمارس الدعارة طلبًا للمتعة. الزبون ليس عشيقك. لا تضيعى وقتك. الوقت مال فى هذا العمل. احصلى على الأجر أولاً، ثم انحنى بعد ذلك. وبعد ذلك اندفعى وابحثى عن زبون جديد. هذا الكلام لا يحدث إلا عندما تكونين فى منزل الزبون أو فى غرفته الفندقية. وهو فى مثل هذا الحال سيكون قد دفع أجرًا إضافيًا نظير ذلك. عادة ما يكون توصيل الطلبات للمنازل نظير مائة ألف ليرة. توصيل المنازل هذا هو ما نسميه TDB وهى الأحرف الأولى من الكلمة Till و Day و Break التى معناها (لحين طلوع النهار) ونحن نحصل نظير ذلك على ثلاثمائة ألف ليرة. وإذا ما تم هذا العمل على الطريق فذلك يعنى أنك لابد أن تكونى عجلة وسريعة. وبعد أن يقذف ويرتاح اتركيه، يسترد أنفاسه، فى حين تعودى أنت ثانية إلى الطريق بحثًا عن زبون جديد. يجب ألا تنسى أنك إذا ذهبت فى طلب منزلى يجب أن تكون بصحبتك رفيقة لك. كثير من البنات اللاتى قمن بطلبات المنازل وحدهن لم يعدن من هذه المهمة. الزبائن يقتلوهن ويدفن أجسامهن فى الغابة. لابد أن تكون بصحبتك رفيقة فى الطلبات المنزلية. بعض زبائن طلبات التوصيل للمنازل مصابون بالمرض هنا ". أنهت كلامها وهى تشير إلى رأسها.

كانت الحافلة قد بدأت تمتلئ عندما اقتربنا من المحطة. كان هناك كثير من الركاب ينتظرون البعض منهم كانوا يطيلون النظر إلينا. وقعت

عيناى على أعين بعض المسافرين. أبديت ملاحظة للافيت مفادها أن الناس كانوا يحملقون فينا ويطيلون النظر إلينا. وشرحت لى لافيت أنهم يعرفون أننا مومسات.

قلت عائدة إلى الحوار الذى كان بيننا : " ودائمًا يكون الدفع مقدمًا ؟ "

" نعم. قبل أن تبدئى، احصلى على نقودك كاملة وضعيها فى المكان المخصص لها. إذا ما طلب منك فكة تظاهرى بأنك ليس معك فكة. قد لا يصر على طلب الباقى. بعض الرجال قد يلجئون إلى العنف وقد يصل بهم الأمر إلى حد سرقة نقودك. كونى مستعدة. هناك قارورة صغيرة نحملها معنا وهى معبأة بحامض على شكل رذاذ. رشيه بذلك الحامض فى عينيه ثم اهربى بعد ذلك. سوف تصادفين أحذية كثيرة على الطريق. السواد الأعظم من هذه الأحذية تركتها زميلاتنا وهن يهربن من الخطر ".

ركبنا القطار مسافة قصيرة ونحن صامتان. وصلنا إلى المحطة ونزلنا من القطار. وبينما كنا نتمشى فى اتجاه الحافلات الزرقاء الواقفة فى جزء من مجمع كبير. سألت لافيت السؤال الذى كان يحيرنى.

" لافيت، خبرينى. كيف حالهم ؟ "

سألتنى بشكل وهى غير فاهمة ما أقول، " عمن تسألين ؟ "

" الرجال البيض. أنا خائفة ".

" خائفة من ماذا ؟ أظن أنك قلتِ أن عندك طفلين ".

" نعم، لكنى لم يسبق لى أن مارست الجنس مع رجل أبيض من قبل. أنا خائفة ".

" ليس هناك فرق بين الأبيض والأسود. أنا عندى مجلة فى البيت أخذتها من ليزى. سوف تتصفحينها وتتعودين على ذلك ".

" هذا من الناحية النظرية. وماذا عن الجانب العملى ؟ "

" قلت لك إنهم مثل رجالنا. فيما عدا أن لهم رائحة معينة. معظمهم لا يستحمون بصورة منتظمة، وبخاصة فى فصل الشتاء، كما أن السواد الأعظم منهم ليسوا مختتنين ".

" أهذا صحيح ؟ "

" بلى، لكنك لن تعرفى ذلك فى الوصلة. ستعرفين ذلك فى الطلبات المنزلية، عندما يكون العضو مرتخ على نحو تتمكنين معه من التأكد من أنهم ليسوا مختتنين : يضاف إلى ذلك أن ذلك العضو تكون له رائحة تشعرين معها بالغثيان. لكنى أقول لك إنك ستتعودين على ذلك ".

أرتنى لافيت الحافلات التى تنقل الركاب إلى ضواحى البلدة كما أرتنى أيضًا أرصفة المحطة. طلبت منى أن أبُعد القلق عنى. قالت إنها سترافقنى فى البداية وسيكون هناك بنات كثيرات يخرجن للعمل، وسوف يساعدنى ذلك على ألا أضل طريقى أو أتوه.

بينما كنا ننتظر الحافلة التى ستقلنا إلى المدينة، أطلعتنى لافيت على العملات الإيطالية المختلفة وكيف أنطق أسماء تلك العملات الورقية:

وبذلك تكون لافيت قد علمتنى الأرقام من واحد إلى عشرة. كنت أكرر كل كلمة وراءها.

أونو Uno، ديو Due، ترى Tre، كوارترو Quartro، سنكيو Cinque، سى Sei، ستى Sette، أوتو Otto، نوفى Nove، ديشى Dieci. بعد ذلك تعلمت العشرات ديشى Dieci (عشرة)، فنتى Venti (عشرين)، ترنتا Trenta (ثلاثين)، كورانتا Quaranta (أربعين)، سنكوانتا Cinquanta (خمسين)، سيسانتا Sesanta (ستين)، سيتانتا Setanla (سبعين)، أوتانتا Otanta (ثمانين)، نوفانتا Nouvanta (تسعين)، سنتو Cento (مائة).

أحسست كما لو كنت أنا ابنتى يوى Uyiلولوهى فى الحضانة.

" وأنت عندما تتعلمين هذه الأعداد يمكنك نطق الأعداد الأخرى عن طريق الربط بين هذه الأعداد كأن تقولى ديو Due سنتو Cento (مائتان). لا تنسى أن نقوداً جديدة سوف تطرح قريباً. أظن أننا سنتقاضى خمسة عشر يورو عندما يحين موعد استعمال اليورو ".

عندما وصلت الحافلة أستقللناها إلى المحلات الأفريقية. شاهدت مكتب الويسترن Western يونيون Union ومكتب الاتصالات المجاور له.

" هذا هو مكتب الويسترن يونيون إذا ما أردتِ تحويل مبالغ لأمك فى أرض الوطن. هناك مكاتب كثيرة لهذا الجهاز يديرها عدد كبير من أبنائنا. بعد إرسال النقود ستكونين بحاجة فقط إلى عمل اتصال تليفونى لإبلاغ أمك بالرقم السرى. هذا هو مكان المكتب. سيكون معك فيما بعد

تليفون محمول. نحن نحتاج إلى التليفون المحمول فى هذا العمل. زبائنك سيكونون بحاجة إلى الاتصال بك ".

كانت لافيت تحيي كثيراً من التجار. قدمتني للبعض على أنها شقيقة لهم، وقدمتني لبعض آخر على أني بنت جديدة من بنات ليزي. كان واحد منهم هو إيدهين Idehen يود مصادقتي على الفور ؛ كان يود مضاجعتي على وجه السرعة. ولكن لافيت قالت له إننا خارج الخدمة.

عدنا من المحلات الإفريقية إلى البلدة مرة ثانية. ونحن في طريق عودتنا كان الرجال البيض يعاكسوننا من داخل سياراتهم مرات عدة. كانوا عندما يقتربون منا يبطئون من سرعات سياراتهم. كانوا يتحدثون إلى لافيت. وأنا لم أفهم ذلك الذى كانوا يقولونه، لكني كنت أخمن أنهم يريدون الشُغل. سألتني لافيت إنْ كنت أود تجربة ذلك الشغل.

قالت لافيت : " أنت بحاجة إلى النقود، يا فيت. لا من أجل ليزى وإنما من أجلك أنت. يمكنك إرسال هذه النقود لأمك فيما بعد. كما أنك تحتاجين إلى شراء بعض الأشياء لك أنت شخصياً ".

فكرت في الأمر لكني رفضته. لم أكن مستعدة لشئ من هذا القبيل، وعندما رحت أتفكر الأمر، رحت أتعجب عن ذلك الاستعداد الذى أنا بحاجة إليه.

" نحن مضربات يا لافيت. وعلى الرغم من حاجتي إلى النقود إلا أني يتعين على التمسك بالقانون والنظام. عندما تضرب جماعة من

الناس فإن أعضاء هذه الجماعة كلهم يتعين عليهم الالتزام بذلك الإضراب، وإلا لن يحس الآخرون بتأثير مثل هذا الإضراب ".

" الرجال يفتقدوننا على الطريق وفى الشوارع. آخر رجل التقانا كان يسألنا عن الأماكن التى نقف فيها أو نتردد عليها. وقال إنه دار فى أنحاء البلدة بحثًا عنا. وكان الرجل على استعداد لأن يدفع خمسمائة ألف ليرة ".

" أنا لا أعرف لهذا الإضراب سببًا لكن وكما سبق أن قلت إننا عندما كنا فى اتحاد طلاب الجامعة كنا نقوم بالإضراب، وكنا نكره أن نرى غيرنا من الطلاب يذهبون إلى قاعات المحاضرات. هذا يعنى أن الإضراب ينبغى أن يشمل الجماعة كلها. وبغير ذلك لن يكون الإضراب فاعلاً ".

تطوعت لافيت وقالت : " أنا كنت أفكر فى غير ذلك، " كنا عند هذا الحد نسير على ضفة أحد الأنهار، أو بالأحرى نهر لونجاديج Lungadige، على حد ما هو مدون على اللافتة التى أمامنا.

" ما الذى كنت تفكرين فيه ؟ "

" كنت أفكر فى الهرب ".

سألتها وأنا مندهشة من كلامها، " إلى أين ستهربين ؟ "

أنا أعرف رجلاً أبيض. هو يعيش فى روما. كان يطلب منى بصورة مستمرة ترك هذا العمل، وأنه سوف يتولى تسكينى، وسوف يبحث لى

عن عمل آخر ". أنا أفكر فى الإقدام على ذلك. كل ما فى الأمر أنى أخاف (المعلمة ".)

" ما المبلغ الذى دفعته لها ؟ "

" دفعت لها سبعين مليونًا من الليرات. ويتبقى على عشرون مليون ليرة ".

" فهمت ".

" كنت أفكر فيما قلتِه لى. المبالغ التى تطلب العمات (المعلمات) منا سدادها تعد مبالغ كبيرة جداً. هن لا ينفقن هذه المبالغ الكبيرة والباهظة على إحضارنا إلى هنا. لماذا يطلبن مبالغ باهظة من هذا القبيل ؟ "

" إنه الاستغلال، الاستغلال الكامل، الاستغلال الواضح البين. انتبهى يا لافيت إذا كنت قد دفعتِ لها سبعين مليون ليرة. فأنا أرى بأمانة أن هذا مبلغ كاف تمامًا. هذا يعنى أنك سددت كل الديون التى أنت مدينة لها بها. ما دفعته يعادل حوالى خمسة وثلاثين ألف دولار. وهى لا يمكن أن تكون قد أنفقت أكثر من خمسة آلاف دولار بأى حال من الأحوال، على مسألة جلبنا إلى هنا، فى إيطاليا ".

" لكنى خائفة ".

" خائفة من ماذا ؟ "

" خائفة من ليزى. خائفة من كل ما يمكن أن تفعله فىّ. إنهن شريرات للغاية مع البنات اللاتى يهربن ".

" هذه مخاطرة. لكنك تقولين أنك ستكونين فى روما. وقد لا نستطيع العثور عليك ".

" المسافة لا تعنى شيئًا عند هؤلاء العمات (المعلمات). لديهن جواسيس فى كل مكان. بوسعها العثور علىّ. أنا أخاف على أهلى فى بلدى، ابنى. ومن بعده.. ".

تساءلت، وأنا أحس بالقلق وأود طمأنة مخاوفها. كنت مؤيدة لهروب لافيت. وكنت أساعدها على ذلك، تساءلت " وماذا بعدئذ ؟ "

" وماذا عن الرجل الأبيض، ماذا عن إدواردو Edoardo ؟ ماذا لو غير الرجل رأيه ؟ الرجال البيض على هذه الشاكلة. اليوم هم يريدونك وغدًا شئ آخر. يطلبون منك أن تأتى إليهم. ويعدونك بالسموات والأرض. وسرعان ما ينفضون عنك، أو يحكون لك قصة أخرى أو يختفون.. ".

صححت لها كلامها، " هذا ليس مقصورًا على الرجال البيض وحدهم. الرجال كلهم على هذه الشاكلة. يقولون لك شيئًا لكى يحصلوا عليك. وبعد أن ينجحوا فى ذلك يصبحون مراوغين مثل السمك تمامًا ".

" بعد انتهاء الإضراب سوف أذهب إلى روما للعمل. وأتمنى أن يجيء إدواردو إلى الوصلة. وسأقول له إنى على استعداد للذهاب إليه وتنفيذ ما يقول به ".

" هل ناقشت هذا الأمر مع ليزى ؟ "

" أناقش ماذا معها ؟ "

" تقولين لها بأنك تعتقدين أن السبعين مليونًا التى دفعتها تكفى، وأنها استردت دينها كله ".

" لن أناقش هذا الأمر معها مطلقًا ! لن توافق على ذلك مطلقًا. المبالغ التى تحددها العمات (المعلمات) لا علاقة لها بما أنفقته علينا بالفعل. هن يتشككن دومًا فى تحركاتنا. لوقلت لها أى شئ من هذا القبيل فسوف تقوم بمراقبتي وتقيد تحركاتي. ولن أستطيع الهرب بعد ذلك. أرجوك ألا تذكرى لها هذا الشئ ".

" ثقى بى. أنا لن أخبرها. لكن ما أقوله هو. بفرض أننا نحن البنات اجتمعنا مثلما تجتمع العمات. وبفرض أننا تجمعنا وقررنا أننا سندفع المبلغ كيت وكيت من الملايين إلى عماتنا ولن ندفع أكثر من ذلك ".

" لن يوافقن على ذلك مطلقًا ".

" إذن، فلنضرب نحن أيضًا. ونفعل مثلما يفعلن احتجاجًا على مداهمات الشرطة لهن، ونحن بدورنا نضرب احتجاجًا على الديون الظالمة ".

" هذا لم يحدث من قبل مطلقًا، لكن على حد قولك هناك دومًا المرة الأولى ".

قلت لها وأنا أمسكها من كوعها، مما أوقفنا فترة وجيزة على الطريق : " لافيت، اسمعيني. أنا سأكون آخر من يساند قضية غير عادلة. سأكون آخر من يقول للبنات لا تدفعن. وأنا شخصياً، سوف أدفع على الرغم من الخديعة التى أوقعت فيها. وأنا لا أعرف كيف ستتصرف البنات الأخريات. لكن لن أدفع الثمانين مليونا كاملة حسبما حددتها ليزى. أنا أراقب ما يجرى. وعندما يؤون الأوان، سيكون لى طريقى الخاص أنا أيضاً. أنا موجودة هناك فى بلدى. سوف تساعدنى وتعيننى. إذا كانت هذه النساء يستخدمن السحر الأسود لعرقلتنا، فإننا يتعين علينا أيضًا استخدام هذا السحر الأسود نفسه فى الهرب منهن وعرقلتهن أيضاً ".

" النساء ليس من السهل تنظيمهن. فى الجامعة، كان الطلاب أكثر وأوفر نشاطًا وحركة من الطالبات أثناء الإضراب. النساء يكن فى النهاية أو المؤخرة بصورة دائمة. ومع ذلك، سأحاول. عندما يحين أوان العمل ".

تساءلت، " إذاً، فأنت التحقت بالجامعة ؟ "

" نعم، أمضيت عامين فى الجامعة. وتعين علىّ ترك الجامعة بعد وفاة والدى، وعدم وجود أحد يدفع لى مصاريف التعليم. تخيلى. هناك من هو على استعداد لتكفل سفرك إلى الخارج لممارسة الدعارة. وليس هناك من يساعدك على إنهاء تعليمك ".

واصلنا مسيرنا. وعند بورتا Porta دى Dei ليونى Leoni، تركنا الطريق الرئيسى. أوصلنا ذلك الشارع إلى شارع كابللو Capello. وفى هذه المنطقة أرتنى لافيت منزل جوليت.

هم يسمون هذا المنزل Casa Di Giuletta. جئت إلى هنا ذات مرة بصحبة بيسى Bisi بحثًا عن زبائن، لأننا شاهدنا كثيرًا من السائحين فى هذا المكان. كان هناك أناس كثيرون يلتقطون صورًا مع ذلك التمثال الموجود هناك فى وسط الميدان. البعض منهم وصلوا إلى الشرفة حتى يجرى تصويرهم فيها. لم تفهم مما يدور شيئًا ولذلك غادرنا المكان.

شرحت الأمر إلى لافيت قائلة : " كان روميو وجوليت فردين من أهل فيرونا، قتلا نفسيهما بسبب الحب. وهذه الشرفة شهيرة جدًا. من هذه الشرفة قالت جوليت عبارة لا تنس : " ما الذى يحمله الاسم ؟ الزهرة عندما تسمى بأى اسم من الأسماء، سيكون لها عبيق طيب ". هى قالت شيئًا شبيهًا بذلك، لقد درست هذا الكلام فى الجامعة ".

" فهمت. إذن، فيث التى اسمتها ليزى جوى، ما تزال هى فيث ".

" شئ من هذا القبيل ".

كنا قد وصلنا بناية دائرية كبيرة شبيهة باستاد بنين. كان الجو يزداد ظلامًا على ظلامه، لكن الشوارع كانت تسطع أنوارها.

شرحت للافيت قائلة : " هذا المكان يسمونه بيازا Piazza برا Bra. أما هذا المبنى الكبير فهو ما يسمونه أرينا Arena. الناس هنا يمثلون المسرحيات، ويصورون الأفلام هنا فى هذا المكان. فى فصل الصيف

يصعب المرور من هذا المكان. حيث يوجد عدد كبير من البشر. بوسعنا دخول هذا المكان لكن الدخول ليس مجانيًا ".

لم يكن معنا نقود تكفي للدخول. واكتفينا بمشاهدة الإعلانات المعلقة على الجدران، أقصد جدران المبنى. كانت تعرض في هذا المكان أوبرا عايدة وأوبرا تروفاتوري Trouatore اللتان ألفهما جيوسبي Giuseppe فيردي Verdi. أنا لم أسمع عن هاتين المسرحيتين من قبل. كانتا غريبتين عليّ.

أشرت إلى لافيت " أنا أعرف كل شئ عن شكسبير ".

سألتني لافيت في براءة " من الذي كتب شكسبير ".

" شكسبير ليس كتابًا. إنما هو مجرد اسم لشخص. لقد كتب قصصًا كثيرة، من قبيل " روميو وجوليت " التي حدثتك عنها. أما هاتان المسرحيتان فهما من تأليف شخص يدعى جيوسبي فيردي ".

كررت لافيت كلامي " جيوسبي فيردي. أهذا هو الاسم الإيطالي للاسم الإنجليزي جوزف جرين ".

كررت أنا الأخرى " تقولين جوزف جرين ؟ أنا لم أسمع مطلقًا عن هذا الاسم. أنا أعرف أن هناك شخصًا انجليزيًا اسمه جوزف كونراد وشخص آخر يدعى جراهام جرين. أما جوزف جرين هذا فلم أسمع عنه مطلقًا ".

مـضت عـليـنا بـرهة من الوقت ونحن واقفتان عند الأرينا Arena (السـاحـة) نبـدى إعـجـابنا بالممثلين والمـمـثـلات المهندمـات من خـلال صورهن المعلقة على الجدار، وهنا داهمنا اثنان من رجال الشرطة، ولم أسمع منهما سوى كلمة " الوثائق الثبوتية "Documenti .

تغير لون وجه لافيت على الفور. رأيت الرعب مرسومًا على وجهها . بدا عليها القلق والتململ، وراحت تفرك يديها . لم تكن معنا تصاريح إقامة. قالت لى لافيت فيما بعد أن لديها شهادة جنسية صادرة من البعثة الدبلوماسية النيجيرية. كانت تتجول فى كل مكان بفضل هذه الشهادة. لم تكن هذه الشهادة تصريحًا بالإقامة. رفضت تقديم هذه الشهادة لضابط الشرطة لأن ذلك سيضعنى فى موقف حرج. لم تكن معى وثائق. كان أبو Abu قد سلم جواز سفرى لليزى عندما وصلت إلى فيرونا . لافيت وأنا معها سيجرى إلقاء القبض علينا وقد نُرَحّل بعد ذلك. تمنيت لو هربت. لكن إلى أين ؟ أنا لا أعرف مكانًا أهرب إليه، بل إنى لم أعرف حتى المكان الذى كنت فيه. ومن ثم لا يمكن أن أترك لافيت لوحدها.

اقتادانا إلى سيارتهما الواقفة عند الناصية. شرحت لهما لافيت أن أوراقنا الثبوتية موجودة فى المنزل. كانا قد طلبا منا مرافقتنا إلى المنزل لإحضار الأوراق الثبوتية. لكن لافيت رفضت هذا العرض. لم تكن تود لهما أن يعرفا المكان الذى كنا نعيش فيه. ويمكن أن يكون ذلك سببًا لجعل ليزى تقتلها نظير ذلك. قالت إن رجال الشرطة سيأخذوننا إلى قسم الشرطة.

أركبونا فى سيارة الشرطة. وبدأ إطلاق صوت آلة التنبيه هى والأضواء التحذيرية. كنت منفعلة لهذه التجربة على الرغم من خوفى. لم أكن أعرف كيف سينتهى الأمر. لو كان ذلك يعنى عودتنا إلى مدينة بنين فذلك خير وبركة.

راحت السيارة تمضى مسرعة فى شوارع فيرونا. كانت السيارات تفسح الطريق أمام سيارتنا كى تمر. كان سائق سيارة الشرطة يتجاهل الإشارات الحمراء ونحن نمضى سراعًا عبر التقاطعات. حال صوت آلة التنبيه الحاد بينى وبين الحديث إلى لافيت. يبدو أن لافيت كانت قد أسلمت قدرها لمصيرها. وطبقًا لما قالته لى بعد ذلك إنّ أقصى ما سيفعلونه هو أن يصدروا لنا أمرًا بالترحيل ثم يخلون سبيلنا بعد ذلك.

كنا حاليًا فى ضواحى فيرونا. وجرى إيقاف صوت آلة التنبيه. وراحت الأضواء المتوهجة تخبو قليلاً قليلاً. وفجأة تحول سائق الشرطة عن الطريق الرئيسى ليدخل إلى مكان عامر بالأقذار. أطفأ السائق الأضواء الكاشفة. ثم سار بعد ذلك إلى مسافة قصيرة، ثم أوقف محرك السيارة. كنا فى ظلام دامس. وفى صمت تام.

واختصارًا لهذه القصة، كان هذان الشرطيان أول زبونين لى فى هذه المهنة التى تعد أقدم المهن التى على سطح الأرض، والتى أصبحت مهنة لى اعتبارًا من هذه اللحظة، ولم يدفعا شيئًا. تناوبا علىّ أنا ولافيت، ثم تركانا هناك، لكى نشق طريقنا عائدين إلى المدينة.

الفصل الثالث والعشرون

نظر آموس إلى ساعته. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. كانت البنت تتكلم منذ أكثر من ثلاث ساعات. كان آموس يكره مقاطعتها، لكنه ينتظر موعد القطار الذى يتعين اللحاق به. سوف يغادر القطار المحطة فى غضون الساعتين التاليتين، على الرغم من وجود قطار آخر يصل ولكن فى ساعة متأخرة.

" آسف لمقاطعتك يا جوى، خبرينى، ما الذى يمكن أن تفعله هذه المؤسسة لعونك ومساعدتك ؟ "بدا وجه هذه الفتاة مألوفًا لآموس. ترى أهى... ؟ هل يمكن أن تكون هى الأخرى... ؟

" كنت سأصل إلى هذه النقطة. أردت أن أحكى لك قصتى كاملة حتى يمكن لك اتخاذ القرار الذى يمكنك من مساعدتنا وتقديم يد العون لنا. البنات على استعداد للهرب. وأنا معى قائمة بأسماء العمات (المعلمات)، وعناوين شققهن ومحلاتهن، ومطاعمهن، وصالوناتهن. أو أنك ترتب مع الشرطة لإلقاء القبض على العمات (المعلمات) وبذلك تتحرر البنات. أو أن البنات يهربن إليك هنا، وأن تتخذ من الترتيبات ما يحميهن من المعلمات. وأرجوك أن تعرف أن اسمى هو فيث Faith. أنا لم أعد جوى Joy بعد. جوى هذا كان اسم الشارع ".

تساءل أموس، " لماذا لا تذهبين إلى الشرطة ؟ " صمت الرجل قليلاً وقال " يا فيث ".

" أنا ليس لدى أوراق ثبوتية. قد لا يصدقونني ويرحلونني قبل القيام بهذا العمل. ثانياً، أنا لا أتحدث الإيطالية على نحو جيد. ثالثًا. ما سبب مجيء الدون لورينزو إلينا في الطريق والشوارع، إذا كان عاجزاً عن مساعدتنا ؟. رابعًا، بعض رجال الشرطة أصدقاء لعماتنا. وبالتالي فلن يقبضوا عليهن ".

اعتذر أموس قائلاً : " واصلى كلامك من فضلك. أنا آسف لمقاطعتك ".

كان السيد / أوكورة Okoroh دبلوماسيًا حانقًا وغاضبًا. كان الرجل ذكيًا ويؤدى عمله أداء طيبًا. لكنه لم يكن لاعبًا فى فريق. ولم يكن من الراضين عن حظهم من هذه الدنيا والحياة. كان دائم التطلع إلى المزيد، ويقارن نفسه دومًا بزملائه. ويحس دومًا بتغيير قصير المدى.

لم يكن أوكوره على وفاق مع رئيسه، القنصل. كان الرجل يستشعر أنه لم يجر إيفاده فيما يرضيه من الرحلات القنصلية. كل الناس يعرفون أن الدبلوماسيين يزيدون دخلهم الشهرى، عن طريق الرحلات التى يتقاضون عنها بدل سفر. جرى مؤخراً إيفاد زملاء آخرين لتنظيم عمليات الترحيل فى مختلف المدن الإيطالية. اسم هذا الرجل لم يدرج ضمن أسماء هؤلاء الدبلوماسيين. فى يوم من الأيام أعرب السيد /

أوكورة عن ذلك الظلم، وقالوا له : إنه مسئول عن الجوازات، التى يتحتم إصدارها من المكتب وليس ميدانيًا. لم يكن الرجل يود التقدم بشكوى مرة ثانية إلى القنصل. كان كبرياؤه يمنعه من ذلك.

قرر مفاتحة السفير فى هذا الموضوع. كان عيد الميلاد على الأبواب. وكل الناس بحاجة إلى المزيد من النقود استعدادًا للاحتفالات.

استقبله السفير جودسون استقبالاً طيبًا ووعد بإدراج اسم أوكورة فى المرة القادمة ضمن كشف الزيارات القنصلية.

بعد ذلك بأسبوعين، تهيأت الفرصة.

هو الآن، فى طريقه إلى مدينة تورينو. أعطوه بدل سفر ليلتين. هذا البدل يكفى لشراء هدايا عيد الميلاد والمشروبات. كان الرجل سعيدًا. ومع ذلك كان ما يزال مستاءًا من السيد / يوفوت. هذه الرحلة جاءت من السفير وليس من القنصل.

عندما وصل إلى محطة تورينو، أخذه رجال الشرطة الذين كانوا ينتظرون وصوله إلى مركز الاحتجاز. جرى إلقاء القبض على عشرين بنتًا. الكثيرات منهن من النيجيريات. جرى القبض عليهن وهن فى الشوارع ولا يحملن تصاريح الإقامة، وسوف يجرى ترحيلهن خلال الأيام القلائل القادمة. القانون الإيطالى يسمح باعتقال الشخص الأجنبى مدة لا تزيد على ثلاثين يومًا. بعد ذلك، يجرى إطلاق سراحه. كانت وزارة الداخلية تتخذ الترتيبات الخاصة بترحيل الأجانب غير النظاميين.

بدأ السيد / أوكورة عمله. لقد أرسلوه للقيام بهذا العمل نظراً لأن عدد البنات لم يكن كبيراً. كان القنصل هو ومسئول إعادة التأهيل والرفاه قد أرسلا إلى بادوفا فى مهمة مماثلة. كانت الآنسة كوسماس Gosmas، إحدى كاتبات القنصلية ترافقهما. كان السيد / أوكورة قد حاول الوصول إلى السيدة / كوسماس مرات عدة ولكنها كانت تصده. وقد بلغه مؤخراً أنها تلتقى السيد / يوفوت بعد ساعات العمل الرسمية. كان السيد / يوفوت يهمس لها كلما صادفته أو مرت عليه. هو يصل أيضاً إلى البنات بحكم أنه هو الريس. هذا الأحمق. أقسم أوكورة، أنه سوف يتغلب على يوفوت.

هما كانا زميلين أيام الجامعة. وقبل ذلك، كان أوكورة يسبق يوفوت بعام واحد فى إحدى المدارس الحكومية. ومع ذلك، وبضربة حظ، التحق يوفوت بالسلك الدبلوماسى عقب تخرجه مباشرة. كانوا يسمون ذلك شخصية فيدرالية. كانت حصة ولاية أوكورة الوظائفية الشاغرة قد شغلت، الأمر الذى حتم عليه الانتظار لحين توفر الشاغر المطلوب وفى ذات الوقت تخرج يوفوت وجرى توظيفه. كان الرجل صاحب صلات كثيرة وعلاقات كثيرة. اضطر أوكورة إلى العمل فى التدريس بضع سنوات. بعد هذه الفترة تقدم يوفوت إلى العمل فى السلك الدبلوماسى وجرى أيضاً قبوله للعمل فى هذا السلك. كان ذلك بعد ثلاث سنوات أمضاها فى الخدمة الوطنية. ثلاث سنوات فى الخدمة المدنية تعد مدة طويلة. فى الوقت الذى جرى فيه توظيف السيد / أوكورة كان يوفوت قد

حصل على ترقيته الأولى فى السلك الدبلوماسى. وذهب كل منهما إلى مكان غير الذى ذهب إليه زميله. والآن، شاءت الأقدار لهما أن يكونا فى بعثة دبلوماسية واحدة، وأن يصبح يوفوت الذى كان أحدث منه أيام الدراسة، رئيسًا عليه فى البعثة الدبلوماسية، بل إنه هو الذى يصدر له الأوامر، وهو الذى يركب سيارة يقودها سائق، وهو المسئول عن رفع العلم، وهو الذى يكسب الكثير ويصل إلى البنات كلهن.

فكر أوكورة فى هذه الأمور كلها عندما شرع فى استجواب بنات الشارع. كان يعرف أنه سينهى هذا العمل فى غضون ساعتين. وبعدها سيذهب إلى المدينة للحصول على شئ من المتعة. لم يكن يتوقع أن يعود إلى المكتب إلا بعد يومين.

عندما وصل أوكورة إلى البنت رقم أربعة حدثت مفاجأة.

كان اسم هذه البنت لندا Linda. لندا يومورين Umoren. كان عمر الفتاة واحدا وعشرين عامًا، وهى من مواطنى كلبار Calabar. قدمت البنت عنوانى والديها. كانت عزباء، وليس لديها أطفال. وصلت إلى إيطاليا منذ أشهر قلائل. كان الموظف القنصلى على وشك توقيع أمر الترحيل، عندما أدرك أن المبادئ الرئيسية فى ترحيل هؤلاء البنات تقضى بأن يسأل الموظف القنصلى البنات عن كفلائهن، أو بالأحرى الأفراد الذين أحضروهن إلى إيطاليا، واللاتى يعملن لحسابهن. تجاوز السيد / أوكوره هذا القسم. كانت البنات قد كشفن هذه الأسماء بالفعل أثناء آدائهن القسم قبل رحيلهن. لكن السؤال مر مرور الكرام.

سأل السيد / أوكورة البنت، " من الذى أحضرك إلى إيطاليا ؟ "

ردت البنت، " عمتى ".

واصل السيد / أوكورة أسئلته، " ما اسمها وما هو عنوانها ؟ " كان الرجل يمضى فى أسئلته إلى أن يصطدم بجدار صخرى.

" اسمها الدكتورة السيدة / مرسى يوفوت. وهى تعيش فى ميلانو. هى التى أحضرتنى إلى هنا. هى التى جاءت إلىّ فى نيجيريا، وهى التى أنهت لى أوراقى واشترت لى تذكرة السفر ".

" أين عنوانها فى ميلانو ؟ "

" أنا لا أعرف ".

" هل تعمل ؟ "

" إنها طبيبة. أنا لا أعرف مكان عملها. لكن زوجها ' سفير ' فى ميلانو ".

قال الموظف ساخراً " سفير فعلاً. أهى التى أحضرتك إلى إيطاليا ؟ " أصيب أوكورة بصدمة جراء هذا الاكتشاف، لكنه فى قرارة نفسه كان مسروراً. كان على وشك الحصول على السلاح الذى يردى به عدوه قتيلاً.

جاء رد لندا حاسماً وعامراً بالثقة. كان كلام لندا يوحى ' أنت لا تستطيع ترحيلى. فأنا أعرف رأساً كبيرة. '

" أهى التى أنزلتك إلى الشارع ؟ "

" نعم، يا سيدى. نحن عدد كبير نعمل لحسابها ".

" إذن، فأنت تعطينها النقود التى تجمعينها ؟ " كان ذلك فى صيغة السؤال.

" نعم. كان من عادتها أن ترسل السيد / أويكا Eweka لتحصيل هذه النقود ".

" من هو ذلك الأويكا ؟ الرجل الذى فى القنصلية ؟ "

" نعم يا سيدى. إنه يعمل لحساب العمة (المعلمة) فى البعثة الدبلوماسية النيجيرية فى ميلانو ".

اندهش أوكورة. لم يخطر بباله أن الحياة ستعطيه سلاحًا فتاكًا من هذا القبيل يضرب به خصمه. اعتدل الرجل فى جلسته. كان يعرف ما سيفعل. لقد تهيأت له الفرصة. أصبح عمل يوفوت ومستقبله العملى يعتمدان على أوكورة. الآن آن أوان رد المظالم والمتاعب التى تسبب فيها القنصل. وهذه زوجته الطبيبة التى كان يفخر بها فى المحافل كلها تعمل فى تجارة البشر، إنها (معلمة) من (المعلمات). وليس هناك ما يدعو إلى العجب جراء سفر هذه المرأة إلى الوطن (نيجيريا). كان يوفوت قد قال : إنها تشرف على بناء منزل لهما فى الوطن. لقد انكشفت الحقيقة الآن. كانت تسافر إلى نيجيريا لعمل ترتيبات الاتجار فى البنات، الأمر الذى يسىء إلى امتيازاتها الدبلوماسية.

مرر أوكورة قصاصة من الورق عبر الطاولة إلى لندا ". اكتبى ذلك الذى قلته الآن فى هذه الورقة ووقعي عليه. وضعى أيضًا عنوانك ورقم هاتفك المحمول ".

راحت لندا تتوسل إلى الرجل " هل ستسمح لى بالبقاء فى إيطاليا ؟ أنا لا أود العودة إلى نيجيريا ".

" اكتبى ما قلت أولاً. اكتبى كل ما تتذكرينه. اكتبى كل ما تعرفينه عندما جندتك الدكتورة / يوفوت، وعندما أخذتك إلى الحصول على التأشيرة فى نيجيريا، اكتبى كل شئ. تمهلى، ولا تتسرعى ".

كان ذلك فى الأسبوع الماضى. بعد ذلك. كان أوكورة قد أعد صورة من الوثيقة وأعطاها لضابط الشرطة.

" أخرج هذه البنت. لقد أعطتنا اسم وعنوان المهرب البشرى المهم، والواضح أنه شخصية كبيرة. هذا المهرب هى سيدة ولها عدد كبير من البنات اللاتى يعملن لحسابها. يجب على رجالك أن يرتبوا للقبض على هذه التاجرة التى تتجر فى البشر. ونحن إذا لم نستطع وقف هؤلاء الكفيلات فذلك يعنى أننا ندور فى حلقة مفرغة. يتعين علينا محاكمة الرؤوس البارزة حتى يكون ذلك إنذارًا للآخرين. أنت الآن لديك عنوان واسم. ابدأ عملك. نحن يجب ألا نضيع هذه الفرصة ".

تناول الضابط الورقة ووضعها فى جيبه ". سوف أتصل بمركز رئاسة الشرطة في ميلانو. سوف يتناولون هذه المسألة. رئيس الشرطة الموجود حاليًا جديد على المنطقة. وهو يود أن يثبت وجوده ".

* * *

جرى استدعاء السفير جدسون بعد ذلك بأسبوعين إلى مقر وزارة الخارجية. استقبله السناتور (الشيخ) راسبا Raspa فى المقر. وأبلغ المبعوث الحكومى أن قنصل بلاده فى ميلانو، الدكتور جريجوريو يوفوت، شخص غير مرغوب فيه، لقيامه بأنشطه غير دبلوماسية. وأنه أمامه اثنتان وسبعون ساعة، يغادر البلاد خلالها وإلا ستسحب عنه الحصانة، وستجرى محاكمة زوجته لاتجارها فى البشر.

الفصل الرابع والعشرون

بدأت عملى فى الشارع بعد انتهاء إضراب (المعلمات). فى البداية، كنت أخرج بصحبة لافيت، وقد صاحبتنى لافيت إلى الوصلات كلها داخل مدينة فيرونا وخارجها. ذهبنا سويًا إلى بادوفا، وإلى بشيرا Peschiera، وإلى بحيرة جاردا، كما وصلنا أيضًا إلى كل من البندقية ومانتوفا. وصلنا أيضًا إلى روما ونابولى. كنا نعود بعد العمل ونسلم ما كسبناه إلى ليزى، التى كانت تدخل هذه المبالغ ضمن حسابنا قرين اسم كل واحدة منا. وأصبحت لافيت أقرب صديقاتى إلى من بين كل من هن فى هذا المنزل.

كانت لافيت تقف إلى جانبى عندما أثرت موضوع الديون المبالغ فيها أمام العمات (المعلمات) وعندما تكلمت عن ضرورة الثورة على هذا الوضع. كانت لافيت تؤيد حججى وأسبابى، واستطاعت إقناع عدد كبير من البنات بأن يثقن فى أحكامى وتقديراتى. قالت إنى سبق لى تنظيم مثل هذه الأمور عندما كنت فى الجامعة، وقالت أيضًا إنى كنت أعرف تمامًا ما أفعله. وأنا مازلت أتذكر الأغانى التى كانت تغنيها ونحن جالسات حول النار المشبوبة، لكى تبعث فينا شيئًا من الدفء.

أوه بنين، أوه وارى، يورهنجبى

متى أرى بيتى ؟

متى سأرى وطنى ؟

أنا لن أنسى وطنًا مطلقًا.

يا أماه، يا أختى، ويا أبى،

متى أراكم مرة ثانية ؟

متى أرى أطفالى الأعزاء ؟

أنا لن أنسى بنين مطلقًا.

كانت البنات يشاركن لافيت فى الغناء. لم نكن نعرف الكلمات لكن اللحن أعجبنا.

كانت هناك بنات كثيرات متشككات. كان مفهومًا، أنى لو كنت قد نجحت لما تحولت إلى مومس مثلهن. كان اعتزازهن بأنفسهن متدنيا للغاية. الكثيرات منهن كن يخشين العمات (المعلمات). بعضهن كن خائفات على آبائهن فى الوطن فى بنين. ومع ذلك ثابرنا وناضلنا. كنّا نتنقل من وصلة إلى أخرى، ونحن ندعو بدعاء الحرية الإنجيلى، كما لو كان ذلك الدعاء هو الخلاص، دعاء الهرب، دعاء الثورة والتمرد. فيما بين

نوبات الجماع، وفيما بين زيارات الزبائن لنا، وعندما تتيسر لنا لحظة من لحظات الراحة، كنا نستعيد ذكريات الظلم الناتج عن الاستعباد حتى الموت لمصلحة عماتنا (معلماتنا).

ألفت كثيراً من الأغاني، الأغاني البسيطة، أغاني عن الحرية كنت أعلمها للبنات :

كانت هناك أغنية أخرى أعجبتهن، وكنا نغنيها في معظم الأحيان. هذه الأغنية كانت بعنوان " نساء إيدو Edo ".

نساء إيدو،

نساء نيجيريا،

قولو لا للعبودية،

قولو لا لعمل الطريق.

نساء العالم،

نساء إفريقيا،

قولوا نعم للحرية

نعم، نعم للحرية

أأنت من ألبانيا ؟

أأنت من كرواتيا ؟

أأنت من هذا العالم ؟

يسقط، يسقط عمل الليل،

نعم، نعم للحرية.

هذه علامة على إخلاص البنات، وعلى الشرف إنهن لم يستنكرن عملي عند ليزى، أو عند مافيا العبيد، عندما قمت ببذر بذور التمرد بينهن ؛ هذا المؤشر، يدل على أن هؤلاء البنات، كن يشتقن إلى الحرية على الرغم من مخاوفهن.

ربما جاء هرب لافيت من باب التدليل على صحة كلامي أو تعزيز ذلك الكلام. كان هناك كلام كثير لكن بدون عمل. تركت لافيت رسالة لليزى على جهاز الاستقبال والرد التليفوني ؛ ومفاد هذه الرسالة أنها بعد أن سددت سبعين مليون ليرة إيطالية، فهى ترى أنها سددت دينها تمامًا إلى ليزى، وأنها تركتها كى تعتنى بنفسها.

وأنا أعتقد أن لافيت ذهبت إلى إدواردو بناء على عرض منه لتكون عشيقة له. كانت ليزى غاضبة أشد الغضب لرحيل لافيت. وأقسمت ليزى أنها ستعثر على لافيت وتجبرها على دفع المبلغ المتبقى عليها، وإلا قتلتها هى وأمها وطفلها اللذان فى نيجيريا.

المحزن أنه بعد ذلك بأسبوعين جرى العثور على جثة لافيت على جانب الطريق. وعرفنا كل ما حدث فيما بعد. هذا الرجل الأبيض المدعو إدواردو لم يبر بوعده فى مسألة الأخذ بيد لافيت. كل ما هنالك أنه

انتهزها واستغلها ولم يوفر لها عملاً جديداً أو مسكنًا. من الواضح أن الرجل كان من عائلة كبيرة أو أرستقراطية من العائلات الإيطالية. ولذلك غير الرجل رأيه في لافيت، التي اضطرت إلى العودة إلى الشارع حتى تتمكن من البقاء على قيد الحياة، لكنها كانت في هذه المرة تعمل لحسابها الخاص. البنات يقلن إن ليزى استطاعت تحديد مكانها وسوت حساباتها معها.

أعتقد أن ما حدث للافيت يمكن أن يكون انتكاسه لمسيرتنا نحو الحرية. لكن ذلك لم يحدث. وراحت البنات يهربن على العكس من ذلك.

قالت ماجي Maggie متذمرة " هذا شر مستطير ". كانت ماجي تحمل معها دومًا آلة حاسبة في جيبها ". تخيلي ! بعد أن دفعت لها ما يزيد على السبعين مليون ليرة. أى ما يعادل خمسة وثلاثين ألف دولار ؛ أو ما يعادل ثلاثة مليون ونصف المليون نيرة ".

تدخلت جفتي Giffy قائلة : " العمات (المعلمات) لا قلب لهن ". وتناولت جفتي من الأرض حجراً، وراحت تعرضه علينا وهى تقول : " هذا هو الذى بداخلها حجر ليس إلا. ليس قلبًا على الإطلاق ".

تدخلت قائلة : " يا أهلى، العمل المنفرد يعرضنا ويكشفنا. يجب أن نتعاون. عمل جماعى ومنسق، حسبما يقال. يجب أن تتضافر جهودنا. إذا ما فعلنا ذلك فإن العمات (المعلمات) سيخفن. لن يستطعن مهاجمتنا كلنا فى آن واحد، سوف يفلت الزمام من أيديهن. هيا بنا

نعجل بما نود عمله. وإلا سوف نُقْتَلُ الواحدة بعد الأخرى مثلما حدث للافيت. نحن نمضى فترة شبابنا نعمل لحسابهن. ونحن عندما نفكر فى كسب شئ لحسابنا، فإنهن يقتلننا. فلنتحد. فلنتحد ونسع من أجل الحرية ".

قالت ريتا : " أنا أويد فيث فيما تقول. لقد سئمت مسألة أن أدفع كل ما أكسبه (للمعلمة). أود أن أخرج من هذا الموضوع. أنا عندى أطفالى وأود أن أفعل شيئًا من أجلهم قبل فوات الأوان ".

قالت بنت أخرى : " وأنا مثلك تمامًا ". لم أكن أعرف هذه البنت معرفة جيدة. كانت البنات يهاجرن، أو يتحركن من وصلة إلى أخرى.

تساءلت واحدة من البنات، وماذا عن القسم الذى أقسمناه ؟ "

" القسم يضرنا إذا لم ندفع أو نسدد. لكننا دفعنا بالفعل. لقد دفعنا بالفعل المبلغ الذى أنفق على مجيئنا إلى هنا، ودفعنا أكثر من هذا المبلغ ؛ ولن يضرنا القسم الذى أقسمناه. أولاً وقبل كل شئ، لقد كذبت (المعلمات) على البعض منا. قالوا لنا إننا جئنا إلى هنا للقيام بالأعمال المعتادة ".

فى داخلى كنت أعلم أن هذا الكلام غير صحيح. والقسم له القدرة على الإضرار بالبعض منا، لكن كان يتعين على طرد هذا الخوف والقضاء عليه عند البنات، وإلا أصبح مصدر تخويف لهن. كان ينبغى علينا ألا ننخرط فى هذا العمل من البداية ؛ وكان ينبغى علينا ألا تبهرنا

فكرة المجئ إلى إيطاليا. لكن الخطأ قد وقع بالفعل. وأصبحنا مسئولين عن إنقاذ حياتنا وحمايتها، أو ذلك الجزء المتبقى من تلك الحيوات. نحن مسئولون عن حماية الأجيال القادمة من هذا الجحيم.

قالت بنت أخرى : " أسلمى أيضًا حياتك ليسوع. الأيمان يمكن أن تضرك إذا ما ضعف إيمانك بالرب، أى إذا لم يغطك دم يسوع ".

خلاصة القول هى أنه قبل انتهاء وردية الليل، كانت كل بنت من بنات هذه الوصلة قد انضمت إلى حركة الإضراب. دونت أسماء الشارع لكل واحدة من هؤلاء البنات كما دونت أيضًا أسماءهن الحقيقية. أعطتنى البنات أيضًا عناوين وأسماء عماتهن (معلماتهن) أيضًا، وأسماء كل أولئك الذين شاركوا فى نقلهن من نيجيريا. وفيما يلى أورد القوائم.

فى الأيام القلائل التى تلت ذلك، قسمنا أنفسنا وقمنا بزيارة وصلات مختلفة، متظاهرات بأننا ذاهبات إلى تلك الوصلات طلبًا للعمل، لكن واقع الأمر، أننا أردنا إبلاغ البنات بذلك الذى قررنا عمله. بنات كثيرات وجدن مزايا وفوائد فى خطتنا ووقعن لصالحنا. بانتهاء الأسبوع الأول. أصبح لدينا أكثر من ثلاثمائة اسم وتوقيع. هناك بعض التكرارات هنا أو هناك. بعض البنات كتبن أسماءهن فى أكثر من قائمة. كن يحرصن على إدراج أسمائهن ضمن هذه القوائم. جمعت أرقام هواتفهن المحمولة. هن الآن ينتظرن إشارتى وبعدها سيبدأن العمل.

كنت حائرة، لا أعرف ماذا أفعل بعد ذلك. لم أكن أعرف إلى أين أذهب؟ وكيف أتحرك؟ كنت أود الذهاب إلى سفارتنا، لكن واحدة من

البنات قالت : إن كلام (المعلمات) مسموع فى السفارة، ولذلك غيرت رأيى. أنا لست على وفاق مع هذا البلد.

كنت فى الوصلة بعد ذلك بأيام، وتصادف أن جاءنا الدون لورينزو. رفع من روحنا المعنوية. وهذا هو الذى جعلنى ألجأ إليه. البنات جاهزات للهرب. خبرنا كيف يمكن أن يحدث ذلك. نحن الآن على استعداد لطلب الحرية.

* * *

عندما انتهت فيث من سرد قصتها لآموس Amos، كان الوقت قد تجاوز الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم. كان الدون لورينزو قد عاد من لقائه مع المَدبِّر الرسولى Prefect. اندهش الرجل عندما وجد أن البنت مازالت موجودة. طلب إلى آموس تدوين قصة الفتاة وأن يلحق بالقطار المتجه إلى روما. لكن الشاب لم يرض عن ذلك.

" هناك أرواح كثيرة يمكن جعلها تتبع يسوع، وأنا مازلت طالبًا أدرس فى الجامعة. هل ستكسب كتبى المزيد من الأرواح وتجعلها تحفظ الرب ؟ أيها الدون الطيب، أنا أفكر فى هذا الأمر منذ زمن بعيد. هل تقبل أن أبقى معك هنا، أنا أود البقاء هنا بصحبتك كى أساعد معك فى العمل بين الأخوة المساكين الفقراء الذين لا حول لهم أو طول ".

" يا أخي، سأكون في منتهى السعادة. لكنى أرى أن تأخذ أشهراً قلائل تنهي خلالها دراستك وتفكر جدياً في الأمر. ويسعدني أن تكون بيننا . وذلك بعد أن يصلنا تعميدك وترسيمك. العمال الذين يعملون في بستان الرب جد قليلين " .

الفصل الخامس والعشرون

ذهب الدون لورينزو إلى مركز الشرطة الرئيسى فى رمينى Rimini. واستقبله رئيس مركز الشرطة استقبالاً طيباً وكان مستعداً للتعاون مع الرجل. سلم الدون لورينزو المحترم، قائمة بأسماء العمات (المعلمات) والكفلاء الآخرين الذين جلبوا البنات لممارسة الدعارة فى شوارع إيطاليا. كانت القائمة طويلة وتحتوى على عناوين فى مختلف المدن والبلدان الإيطالية. وعلى الرغم من أن هذه القائمة كانت تسمى قائمة (المعلمات) إلا أنها كانت تحتوى أيضًا على عدد كبير من أسماء الرجال. وعلى الرغم من طول هذه القائمة إلا أنه جرى حذف أسماء بعض (المعلمات) منها.

وعد رئيس مركز الشرطة الرئيسى بتحرى الأمر والتحقيق فيه مع زملائه فى سائر أنحاء البلاد.

* * *

فى سائر أنحاء إيطاليا وسان مارينو اندفع أفراد الأمن هم وقوات مكافحة الإضرابات، فى عملية أسموها عملية الحرية، وراحوا يلقون

القبض على العمات (المعلمات) ويحررون البنات المستعبدات من قبضتهن.

كانت ليزى مسترخية فى غرفة جلوسها، عندما سمعت طنين صوت جرس الباب الرئيسى. كانت بناتها على وشك الخروج للعمل. جرت مداهمتها. لم تكن ليزى تتوقع وصول أى أحد من الناس.

اتجهت صوب الباب ونظرت من خلال العين السحرية.

دوى صوت رجل من الرجال الذين يرتدون الزى الرسمى وقال : " افتح الباب، نحن الشرطة ".

قبل أن تفتح ليزى كيلون الباب، كان الباب قد انفتح عنوة. صرخت ليزى ظنًا منها أن عصابة جاءت للسطو عليها وسرقتها. وهنا خرجت بناتها كلهن يجرين من الغرف.

قال الضابط : " أنت ليزى جونسون ؟ "

" نعم، لكن ماذا، لماذا تفعلون هذا الذى يحدث الآن ". قالت ذلك وهى غاضبة وتشير إلى الباب المكسور. خانتها الكلمات. لم تكن خائفة على نفسها. كانت أوراقها صحيحة. لكن استثماراتها كانت فى خطر. كانت البنات كلهن فى المنزل. لم تكن أية واحدة منهن تحمل أى شئ من الأوراق الثبوتية. تحدثت ليزى مع فيث بلغتهم الوطنية وطلبت منها أن تستدعى كارلو، " رجلها الأبيض " حتى يجيء على الفور لإنقاذها. لكن فيث تجاهلت (معلمتها.) وبدلاً من أن تفعل ذلك، رفعت فيث يدها وفيها

لافتة مكتوب عليها " أوقفوا العبودية الجنسية فوراً ". تعجبت ليزى، وتحولت إلى بيسى Bisi، ثم إلى جفتى، ثم إلى بناتها كلهن الواحدة بعد الأخرى. كانت نظرة التحدى التى فى عيونهن تقول لليزى ذلك الذى تود أن تعرفه. لقد لفظها الجميع. بينما كانت ليزى تقف خائفة، راحت عبداتها يرفعن اللافتات. وجرى وضع تلك اللافتات إلى جانب بعضها البعض بطريقة عشوائية، لكن الرسائل التى كانت تحملها تلك اللافتات كانت شديدة الوضوح، بعض كلمات هذه اللافتات كانت خطأ من حيث الهجاء : " أنقذوا أرواحنا، يسقط البغاء، نريد الحرية. راحت ليزى تهدد البنات وتلعنهن هن وآباءهن ".

همست همساً حاداً إلى البنات وهى تقول : " سأريكن بعد أن أخرج، سأريكن آذانكن بعيونكن المجردة. أيتها الغبيات. وأنت يا فيث، حتى أنت... ضاعت نقودى، ضاعت حياتى ".

كانت ليزى ما تزال تكيل اللعنات لهن عندما جرى وضع الحديد فى يديها، واقتيادها بعد ذلك إلى سيارة الشرطة، ثم أغلقت الأبواب بعد ذلك.

* * *

كانت هيلين فى صالون السيدات، تحصل على شئ من النوم. كان شعرها يجرى تصفيفه بواسطة واحدة من البنات. كان الشعر مبتلاً وتتساقط منه قطرات من الماء. وعندما افتقدت الإحساس بيدى مصففة

الشعر فتحت عينيها لتسأل عن السبب، ولكنها شاهدت رجال الشرطة الثلاثة واقفين أمامها.

" هل أنت السيدة / إلينا Elena إيديما Edema ؟ "

ردت عليهم، " من الذى يريدها ؟ "

رد عليها الضابط وهو يضع يديها فى الحديد، " نحن الذين نريدها ".

راحت تندب حظها، وهى ترتعد خوفًا وعارًا، وراحت تطلب أمها على الهاتف أثناء اقتيادها إلى سيارة الشرطة الزرقاء. كان شعرها ما يزال يتساقط منه الماء. طلبت من مساعدتها أن تدير بالها على المحل، وألا تلمس سنتًا واحدًا وإلا واجهت مشكلات بلا حدود عندما تعود إليها...

* * *

لوسى، التى كانت البنات ينعتنها لوسيفر Lucifer، كانت هى الأخرى فى دورة المياه عندما وصل المندوبون المسئولون عن تنفيذ القانون. وظنًا منهم أنها لجأت إلى دورة المياه لتحاشى القبض عليها، كسر الضابط باب الحمام. ولم تمنع رائحة الغائط النتن التى أفرزته هذه المرأة، فى منع الضباط من إلقاء القبض عليها.

* * *

كانت تايو Tayo فى منزلها " مسترخية " مع شاب صغير وصل إلى إيطاليا منذ فترة قصيرة، ولم يكن ذلك الشاب يعرف شماله من يمينه. كانت تقدم المأكل والمسكن لذلك الشاب نظير... أنت تعرف ذلك بالطبع. يبدو أن الشاب كان يحظى برضاها. كانت تايو مسترخية فى سريرها الكبير، فى حين كان الشاب يدلك لها جسدها المُتْعب، تمهيد للقيام بالخدمة المنطقية الكاملة. عند هذه المرحلة بالذات رن جرس الباب، مصحوبًا بصوت ينادى " افتح الباب، نحن الشرطة ". وسرعان ما زاغ الشاب الذى لا يحمل أوراقًا ثبوتية، داخلاً تحت السرير، فى حين راحت تايو تمسك بصندوقها السحرى وتقف خلف الباب. تناولت حفنة من مادة على شكل مسحوق، وحكتها على جسمها كله، وفقًا لما قاله المداوى (المشعوذ). هذا المسحوق سوف يجعل العيون العادية لا تراها.

دخل ضابط الشرطة إلى غرفة النوم وراحوا يتكلمون مع الشكل الأنثوى المسطح على الجدار.

" هل أنت السيدة تايو ؟ "

صمت.

كرر الضابط، " هل أنت السيدة تايو ؟ "

عندما لم يصله الرد، أحضر الحديد، وحاول لفه حول رسغى السيدة / تايو.

احتجت تايو وهى لا تصدق " لكنك لا يمكن لك أن ترانى. لن يمكنك أن ترانى ".

كانت تايو ما تزال تحتج عندما جرى وضع يديها " غير المرئيتين " في الحديد واقتيادها إلى سيارة الشرطة.

بعد ذلك بساعات، عندما خلا الجو، خرج الغريب الذي لا يحمل أوراقًا ثبوتية، من تحت السرير، وهو يتعجب من ضربة الحظ التي خدمته، وجعلته نازحًا بلا مأوى، وأصبح المستأجر الوحيد لشقة مريحة مؤثثة.

الفصل السادس والعشرون

وصل السفير جودسون إلى مدينة ميلانو صبيحة اليوم التالى وفى ساعة مبكرة. كان الرجل يود إبلاغ قنصله شخصيًا بوضعية الشخص غير المرغوب فيه، الذى أسبغته عليه وزارة الخارجية الإيطالية، نظراً لاتجار زوجته فى البنات النيجيريات وتهريبهن إلى سوق الجنس فى أوروبا.

قال السفير فيما بينه وبين نفسه : " ها أنا، أشكو من زوجاتى. هن لسن فى صفقات مشبوهة فى أضعف الأحوال ".

كان يوفوت فى منزله عندما جاء السفير ليعلمه بذلك الخبر المفجع. كان يوفوت مدمراً. كان يواجه زوجته بين الحين والآخر فى وجود السفير. انهارت ميرسى، واعترفت بكل شئ.

" لكن لماذا فعلت ذلك، يا ميرسى ؟ لماذا ؟ " سألها رئيس زوجها. ثم تساءل السفير جودسون Godsonn وهو حائر ملتاع، " ما الذى تردنه يا معشر النساء ؟ " "أنت لك زوج طيب صاحب منصب عظيم. وأنت تعيشين فى أحسن المنازل فى أرقى الأماكن فى المدينة، وأبناؤكم يدخلون أفضل المدارس. فما الذى تريدينه أكثر من ذلك ؟ "

لم يكن صاحب المعالى السفير ينتظر ردًا من ميرسى Mercy، لكنه سمع الرد.

" زوجي يكسب آلاف الدولارات كل شهر، لكنه لا يعطيني بنسًا واحدًا. ها هو موجود هنا. اسأله. هو الذى يذهب إلى السوق لشراء الطعام، مخافة أن آخذ أنا الباقى. أنا طبيبة. لقد تخليت عن شهادتى، لمجرد أن أرافقه فى وظيفته. ما الذى يعود على من ذلك ؟ لا شئ. لولا أطفالى لكنت قد تركته منذ سنوات. كيف لى برعاية نفسى ؟ وماذا عن أهلى فى بلادى ؟ أنا آسفة، لكن يوفوت هو الذى دفعنى إلى ذلك ".

سأل القنصل الطّعين زوجته " ماذا تعنين بأنى لا أعطيك بنسًا واحدًا ؟ من الذى ساعدك على بداية عملك فى التجارة ؟ "

لم ينتظر يوفوت رد زوجته. واستدار إلى رئيسه وقال له : " أنا أعطى هذه المرأة بدلاً أو علاوة شهرية.. ".

" علاوة شهرية مقدارها مائة دولار " قاطعته ميرسى ". والمؤسف، أن هذا البدل لا يصل إلى واحد فى المئة من دخلك الشهرى. قال علاوة قال ! " وراحت تتفل ". هل نسيت عندما مكثت فى المركز الرئيسى طيلة أربع سنوات، من الذى كان يصرف على المنزل طوال هذه المدة ؟ أهى العلاوة الشهرية فعلاً ".

قاطعها السفير قائلاً : " سيدتى، سيدتى، ألا تعلمين أن زوجك طوال الأشهر الأربعة الماضية لم يقبض راتبه ؟ ألا تعلمين أيضًا أن

الرصيد فى هذه البعثة لا يفى بمتطلباتها ؟ منذ بداية هذا العام نحن لم نتسلم سوى حصة واحدة، ألا تعرفين ذلك كله ؟ "

واصلت ميرسي كلامها بلا تحفظ أو كسوف، " لكنه لديه ما يكفى من مصادقة النساء. لقد واعد كل هيئة العاملات المحليات فى البعثة. أسأله. ها هو أمامك. هو يظن أنى لا أعرف شيئًا عن هذه الأمور. وماذا عن عشيقته التى فى القنصلية الكينية ؟ "

بدأ يوفوت حديثه، محرجًا من كلامها، " ميرسى Mercy فيما يخصنى، أنا أرى أن هذا الزواج أصبح منتهيًا. وسوف أراجع القسيس حول هذا الموضوع. لقد حطمت، حطمت حياتى، حطمت مستقبلى العملى، حطمت كل ذلك الذى عملت من أجله. أصبحت شخصًا غير مرغوب فيه ! يزاد على ذلك أنا لا يمكننى العيش تحت سقف واحد مع واحدة من تاجرات ومهربات البشر، ومن يدرى ربما كانت أيضًا من موزعات المخدرات. اذهبى. واحزمى أشياءك. أمامنا اثنتان وسبعون ساعة يتعين علينا أن نكون قد غادرنا هذا البلد خلالها. لولا حصانتك الدبلوماسية لكنت خلف القضبان الآن. رفاقك من (المعلمات) جرى إلقاء القبض عليهن ".

ردت عليه زوجته قائلة، " اثنتان وسبعون ساعة زمن طويل جداً ". قالت هذا الكلام وهى تجرى خارجة من الغرفة تتمتم.

تحول يوفوت إلى صاحب المعالى. ثم انصرف لحال سبيله.

قال دون توجيه كلامه لأحد بعينه " تخيل. تخيل ". " أرحل هؤلاء البنات، وأنا لا أعرف أن زوجتى هى التى تستوردهم ". هز الرجل رأسه أسفًا وندمًا، وهو يضرب صدره بيده.

نهض السفير جودسون لينصرف.

قال السفير للرجل الثانى فى السفارة : " اسمح لى حتى يتهيأ لك المزيد من الوقت لحزم اشيائك. سنرى ما يمكن أن نفعله. أليس شكسبير هو القائل : لا نساء، لا صياح ؟ هوّن عليك. ما الذى يمكن أن أقدمه لك، اطلب ما تشاء. لكنى أحذرك. أيا كانت المشكلات بينك وبين زوجته لا تطلع الكنيسة عليها. وإلا سيصبح طفلك الثانى شبيهًا بقسيسك ".

صافح يوفوت عند الباب. وأثناء انصرافه كان يتمتم فيما بينه وبين نفسه وهو يقول : " النساء ".

ذهب يوفوت بعد ذلك لإخلاء مكتبه. وتحت باب مكتبه وجد رسالة فكسيه من وزارة الخارجية النيجيرية. تقول الرسالة : جرى تعيين السيد / أوكورة قنصلاً مؤقتًا بدلاً من يوفوت.

لم ينته الأمر عند هذا الحد.

عندما عاد إلى منزله فى المساء، كان البيت خاليًا. كانت ميرسى قد اختفت ومعها طفليهما، المقصد، الولايات المتحدة الأمريكية.

* * *

بعد إلقاء القبض على (المعلمات) وإبعادهن عن البلاد، توافدت البنات على مركز المجتمع حسب الخطة الموضوعة. الكثيرات منهن كن مصابات بأمراض بدنيه وجرى إرسالهن إلى المستشفيات. بعض آخر منهن كن محطمات نفسيًا. قلة قليلة منهن هن اللاتى أصابهن الجنون وكان لابد من ترحيلهن إلى بلادهن. وجرى بعد ذلك تقنين وجودهن فى إيطاليا. وعثر الدون لورينزو على أعمال عادية لهؤلاء البنات وبخاصة العاقلات منهن. بعض من هؤلاء البنات حصلن على وظائف فى مجال النظافة فى بعض الشركات. بعض منهن كن يعملن أيضًا فى خدمة ومعاونة المسنين والعجزة.

حصلت فيث على عمل فى مجال الرفاه والرعاية فى الكوميون.

خاتمة

اكتشفت إحدى الجارات جثتها ؛ كانت الجارة قد جاءت " لاقتراض شئ من الملح. كانت الجثة ملقاة على الحصير فوق السرير المصنوع من الخيزران. من يراها يظن أنها نائمة ؛ إلى أن يرى كعكة الدم التى على أذنيها وفمها. على كل جانب من جانبيها كان هناك جسم أنثوى صغير. كانت الجثث الثلاثة باردة مثل الثلج.

أثارت الجارة ذعراً، وإناء الملح فارغًا فى يدها، وهى ترفع ذراعيها فوق رأسها :

" يا ناس، يا هو، يا ناس، تعالوا ! لقد فارقت ماما فيث الحياة ".

اندهش كورما Kurma، مسئول الشرطة، وقال فيما بينه وبين نفسه : " العجائب لن تنتهى ".

كان الرجل يمضى عطلة الصلاة فى قريته فى دلتا نهر النيجر عندما أبلغوه بوفاة يوا Uwa". لا مرض، لا حادث، لا شئ على الإطلاق. جاء زائر إليها من المدينة لزيارتها، وربما كان معه طردٌ مرسل من ابنتها فى الخارج. وفى الصباح وُجدت ميته، على هذا النحو. هى

وحفيداها. هذه الأمور كلها مرتبطة ببعضها البعض ". وينهى الرجل عمله، ولكن ذهنه ما يزال مشغولاً.

* * *

عندما يصل الرجل إلى المنازل الرثة والقذرة، يكون الأوان قد فات. إذ جرى دفن الجثث. وسأل الرجل الجارة، وهى من أقرب الأقارب.

شرحت الجارة له الموقف " نحن لا نستطيع الاحتفاظ بالجثث فترات طويلة ". كانت الجثث قد تحللت بالفعل. ليس لدينا فحص للجثة بعد الوفاة هنا ". زد على ذلك، من الذى يمكن أن يدفع التكاليف ؟ " تساءلت وهى تفرد ذراعيها ". المشكلة الآن تتمثل فى رعاية الأطفال الباقين على قيد الحياة، هذا هو ما يشغلنا الآن. أوساس Osas ودانيال. نحن لا يمكن أن نتخلى عنهما ".

احتج الضابط قائلاً " " كان بوسعنا تدبير مسألة فحص الجثة بعد الوفاة، حتى نعرف سبب الوفاة ".

أبدت المرأة ملاحظة مفادها، " عشرة فحوص لن يعيدوهن إلى الحياة ".

هذه هى مشكلة أهلنا وناسنا، هذا ما دار بخلد كورما، وهو يفتش جيوبه ". نحن لا نؤمن بفحص الجثة بعد الوفاة وبالتالى فنحن لا نفحص

الجثث بعد الوفاة. الناس يموتون ولا أحد يعرف السبب. لا أحد يهتم بالتحرى والتحقيق ".

أخرج ضابط الشرطة ضميمة من الملاحظات، قدمها للمرأة.

" هذا مبلغ من النقود، على سبيل الهدية الشخصية ؛ للمساعدة فى رعاية الأطفال ".

" لم ينتظر الرجل كى يسمع تعبير المرأة عن امتنانها. وفى غضب مكتوم سارع الرجل متجهًا صوب سيارة الشرطة، وهو يهز رأسه ".

لم يلاحظ الرجل المواسى الذى دلف متجهًا صوب الجارة.

" اسمى كين " قال الرجل ". أنا أسف لما حدث ". وابتسم ابتسامة باهتة إلى الجارة. " كنت تشتكين من الأفواه الإضافية التى أصبح من المحتم عليك إطعامها الآن ".

ردت عليه المرأة وهى تومئ برأسها، " نعم. هما أوساس Osas ودانيال ".

" أنا لى شقيقات فى أسبانيا وفى إيطاليا. إذا وافقت فسوف أرتب لسفر أوساس إلى هناك طلبًا للعمل.. ".

" لا. يكفينا ما حدث لنا من إيطاليا. التقى الكبار وقرروا. لن يذهب أحد من أبنائنا إلى هناك مرة ثانية. وإذا ما سمعوك تأتى على ذكر ذلك البلد، فسوف تسبب لنفسك المشكلات والمتاعب. والأفضل لك أن تذهب لحال سبيلك الآن ".

لكن فات الميعاد. كان رجلاً واعيًا يقف بالقرب منا وسمع كلمة " إيطاليا ؟ " وتساءل، " هل تأتون على ذكر إيطاليا ؟ " تجهم الجار. كان هناك جمع يقف بالقرب منا. وهنا بدأت الأحجار تنهال على كين Kaine، من كل حدب وصوب. مد كين يداه ليحمى نفسه، ويمنع عن نفسه الأحجار. راح يرجو الحاضرين قائلاً : " أرجوكم، أرجوكم، سوف لا.. ". وسقط حجــــر على حاجب عينه، أدى إلى تورم العين. واصبح لا يرى إلا بصعوبة.

" سفاح ! " إنه واحد منهم " هو الذى قتل ماما فيث ؛ وهو الذى جعل ماما فيث تسافر ".

سُمع بعد ذلك صوت، صوت رجل كان أعلى من الضوضاء وهو يقول : " قف ! " وتوقفت الأحجار. أهو إرجاء مؤقت للإعدام ؟ ظن الرجل المحاصر أنه سيفلت. من خلال الورم الذى أصاب عينيه شاهد رجلاً يقترب منه. كان الرجل يحمل فى يده إطار سيارة تالف. ثم أحس بعد ذلك بشئ فوق رأسه. أهذا إكليل ؟ لو كان إكليلاً، فهو ثقيل جداً. لكن لماذا هذا الاحتفال ؟ ثم أحس بسائل بارد يُسْكب فوق رأسه، وينساب على جسمه. أهذا ماء ؟ كانت رائحته هى رائحة الكيروسين. أو البنزين.

ثم سمع بعد ذلك شخصًا وهو يشعل عودًا من أعواد الكبريت.

المؤلفة فى سطور

إفيوما شنويا :

- من مواليد بلدة ننوى فى شرقى نيجيريا فى عام ١٩٦٠م .

* فى سن السادسة أو السابعة – فى أثناء الحرب الأهلية – توقف التعليم ، وسعت إفيوما إلى اللجوء إلى ليبرفيل ، وجرى نقلها عن طريق البحر إلى أيرلندا .

* فى عام ١٩٧٠ عادت أسرة إفيوما من جديد إلى نيجيريا المتحدة ، حيث تمكنت إفيوما من إكمال تعليمها الابتدائى ، ثم الثانوى بعد ذلك ، مما أدى إلى التحاقها بجامعة «بنين» عام ١٩٧٦ لدراسة اللغة الفرنسية .

* فى عام ١٩٨٠ ، حصلت على منحة دراسية من الحكومة الفرنسية للدراسة فى جامعة جرينبل ، ثم تخرجت عام ١٩٨١ .

* التحقت بجامعة لاجوس ، حيث حصلت على دراسات عليا فى العلوم السياسية .

* التحقت بوزارة الخارجية النيجيرية عام ١٩٨٣ ، وعملت فى السفارات النيجيرية فى كل من غانا ، وفرنسا ، وإيطاليا .

* تشغل حالياً منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية فى المفوضية النيجيرية العليا فى أوتاوا بكندا .

* لها ثلاث روايات : « تجار اللحـــم البشـــرى » عـــام ٢٠٠٣ ، « بلا خوف » عام ٢٠٠٤ ، « فى انتظار ماريا » .

* لها مجموعة ضخمة من القصائد التى كتبتها باللغة الفرنسية والإنجليزية، كما لها مجموعة كبيرة من القصص القصيرة .

المترجم فى سطور :

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

مقالات وأبحاث نشرت بمجلة الفيصل، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية والمجلة العربية : الرياض - المملكة العربية السعودية . ومجلة الهلال : القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية :

١ - التفكيكية : النظرية والممارسة، تأليف : كرسيتوفرنوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل، تأليف : جدسون جيروم - دار المريخ .

٣ - الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه - دار المريخ .

٤ - الأطفال والمخدرات المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية :

١ - المعطف المشاكس .

٢ - عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال، القاهرة، جمهورية مصر العربية :

١ - هارون الرشيد، تأليف : فيلبى .

٢ - الكوكائين والمراهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال :

١ - حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية :

١ - سبعة أنماط من الغموض، تأليف وليم أمبسون .

٢ - وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف : بالجريف (جزآن) .

٣ - حركات التحرر الإفريقى، تأليف ريتشارد جبسون .

٤ - إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزآن) .

٦ - سيرتى الذاتية، تأليف : أحمد بللو .

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية :

١ - سكين واحد لكل رجل .

٢ - نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية، تأليف : آن بلنت .

- صـ٥٢٦ـدرت له مؤخراً ترجمة "الحج إلى نجد" تأليف : آن بلنت، فى جزأين، عن المركز القومى للترجمة .

التصحيح اللغوى : **محمد نصر الدين**

الإشراف الفنى : **حســـن كامـــل**



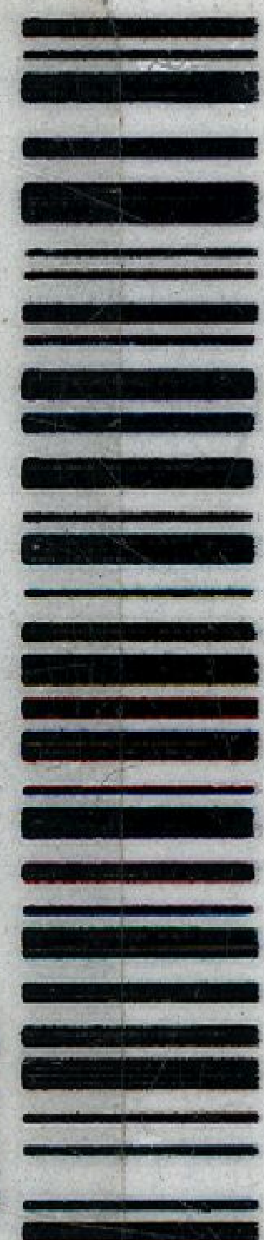
تجَّار اللحم البشرى

إفيوما شنوبا

عمل فنى يتناول موضوع الإتجار فى البشر وبخاصة النساء والأطفال: النيـچيريات والنيـچيريين بصفة خاصة، ويتناول الكتاب التصرفات الشاذة التى يأتيها تجار البشر مثل عصابات التهريب المحلية والدولية التى تشارك فى هذه الجريمة، ويتجلى ذلك من خلال المشاهد التى جرت أحداثها فى نيـچيريا من ناحية واستكمال تلك المشاهد عندما تصل الفرائس إلى صياديها فى إيطاليا.

الأحداث كلها فى الرواية نيـچيرية المذاق والشكل والتكوين، وحتى عندما تصل الفرائس إلى إيطاليا يظل الجو العام نيـچيرياً خالصاً. فالعمات (المعلمات) كن فى بداية الأمر مومسات، والقوادون أيضاً من النيـچيرين الذين يعاشرون هؤلاء المعلمات، وعقاب الشاردات من الفرائس يكون عن طريق "على [redacted]" ذلك الصبى النيـچيرى المصاب بمرض نقص المناعة المكتسبة، والذى يستخدم فى معاشرة الشاردات من الفرائس.

الرواية حدوتة من حواديت الفساد، كما أن الشحنة العاطفية و... التبصر الذى تقوم عليه الرواية جدير بالتقدير.





الإبداع القصصى

تصميم الغلاف: نسرين كشك